الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد السابع عشر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

الميزان

في

تفسير القرآن

١٧

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

الميزان في تفسير القرآن

كتاب علمي ، فني ، فلسفي ، أدبي ،
تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد السابع عشر

الطبعة الثانية
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناشر
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلٰئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنٰى وَثُلاٰثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ ١ .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة بيان الاصول الثلاثة : وحدانيته تعالى في ربوبيته ورسالة الرسول والمعاد إليه وتقرير الحجة لذلك وقد توسل لذلك بعد جمل من نعمه العظيمة السماوية والأرضية والإشارة إلى تدبيره المتقن لأمر العالم عامة والإنسان خاصة .

وقد قدم على هذا التفصيل الإشارة الإجمالية إلى انحصار فتح الرحمة وإمساكها وهو إفاضة النعمة والكف عنها فيه تعالى بقوله : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » الآية .

وقدم على ذلك الإشارة إلى وسائط هذه الرحمة المفتوحة والنعم الموهوبة وهم الملائكة المتوسطون بينه تعالى وبين خلقه في حمل أنواع النعم من عنده تعالى وإيصالها إلى خلقه فافتتح السورة بذكرهم .

والسورة مكية كما يدل عليه سياق آياتها ، وقد استثنى بعضهم آيتين وهما قوله تعالى : « إن الذين يتلون آيات الله » الآية وقوله : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا» الآية وهو غير ظاهر من سياق الآيتين .

قوله تعالى : «الحمد لله فاطر السماوات والأرض» الفطر - على ما ذكره الراغب - هو الشق طولاً فإطلاق الفاطر عليه تعالى بعناية استعارية كأنه شق العدم فأخرج من بطنها السماوات والأرض فمحصل معناه أنه موجد السماوات والأرض إيجاداً ابتدائياً من غير مثال سابق ، فيقرب معناه من معنى البديع والمبدع والفرق بين الإبداع والفطر أن العناية في الإبداع متعلقة بنفي المثال السابق وفي الفطر بطرد العدم وإيجاد الشيء من رأس لا كالصانع الذي يؤلف مواد مختلفة فيظهر به صورة جديدة لم تكن .

والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود فيشملها وما فيها من مخلوق فيكون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء وإرادة الكل مجازاً ، أو المراد نفس السماوات والأرض اعتناء بشأنها لكبر خلقتها وعجيب أمرها كما قال: «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

وكيف كان فقوله : « فاطر السماوات والأرض » من أسمائه تعالى أجري صفة لله والمراد بالوصف الاستمرار دون الماضي فقط لأن الإيجاد مستمر وفيض الوجود غير منقطع ولو انقطع لانعدمت الأشياء .

والإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنه قيل : الحمد لله على ما أوجد السماوات والأرض وعلى ما جعل الملائكة رسلا أولي أجنحة فهو تعالى محمود ما أتى فيما أتى إلا الجميل .

قوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع » الملائكة جمع ملك بفتح اللام وهم موجودات خلقهم الله وجعلهم وسائط بينه وبين العالم المشهود وكلهم بامور العالم التكوينية والتشريعية عباد مكرمون لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فقوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلاً » يشعر بل يدل على كون جميع الملائكة - والملائكة جمع محلى باللام مفيد للعموم - رسلاً وسائط بينه وبين خلقه في إجراء

أوامره التكوينية والتشريعية .

ولا موجب لتخصيص الرسل في الآية بالملائكة النازلين على الأنبياء عليهم السلام وقد أطلق القرآن الرسل على غيرهم من الملائكة كقوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا » الأنعام : ٦١ ، وقوله : « إن رسلنا يكتبون ما تمكرون » يونس: ٢١، وقوله : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهـــل هذه القرية » العنكبوت : ٣١ .

والأجنحة جمع جناح وهو من الطائر بمنزلة اليد من الإنسان يتوسل به إلى الصعود إلى الجو والنزول منه والانتقال من مكان إلى مكان بالطيران .

فوجود الملك مجهز بما يفعل به نظير ما يفعله الطائر بجناحه فينتقل به من السماء إلى الأرض بأمر الله ويعرج به منها إليها ومن أي موضع إلى أي موضع ، وقد سماه القرآن جناحاً ولا يستوجب ذلك إلا ترتب الغاية المطلوبة من الجناح عليه وأما كونه من سنخ جناح غالب الطير ذا ريش وزغب فلا يستوجبه مجرد إطلاق اللفظ كما لم يستوجبه في نظائره كألفاظ العرش والكرسي واللوح والقلم وغيرها .

وقوله : « أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع » صفة للملائكة ، ومثنى وثلاث ورباع ألفاظ دالة على تكرر العدد أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة كأنه قيل: جعل الملائكة بعضهم ذا جناحين وبعضهم ذا ثلاثة أجنحة وبعضهم ذا أربعة أجنحة .

وقوله : « يزيد في الخلق ما يشاء » لا يخلو من إشعار بحسب السياق بأن منهم من يزيد أجنحته على أربعة .

وقوله: « إن الله على كل شيء قدير » تعليل لجميع ما تقدمه أو الجملة الأخيرة والأول أظهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في البحار عن الاختصاص بإسناده عن المعلى بن محمد رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال : إن الله عز وجل خلق الملائكة من نور ، الخبر .

وفي تفسير القمي قال الصادق عليه السلام : خلق الله الملائكة مختلفة وقد أتى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل وله ستمائة جناح على ساقه الدر مثل القطر على البقل قد ملأ ما بين السماء والأرض وقال إذا أمر الله عز وجل ميكائيل بالهبوط إلى الدنيا صارت رجله في السماء السابعة والاخرى في الأرض السابعة ، وإن لله ملائكة أنصافهم من برد وأنصافهم من نار يقولون : يا مؤلفاً بين البرد والنار ثبت قلوبنا على طاعتك .

وقال : إن لله ملكاً بعد ما بين شحمة أذنه إلى عينه مسيرة خمس مائة عام بخفقان الطير .

وقال : إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون وإنما يعيشون بنسيم العرش ، وإن لله عز وجل ملائكة ركعا إلى يوم القيامة وإن لله عز وجل ملائكة سجداً إلى يوم القيامة .

ثم قال أبو عبدالله عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما من شيء مما خلق الله عز وجل أكثر من الملائكة وإنه ليهبط في كل يوم أو في كل ليلة سبعون ألف ملك ، فيأتون البيت الحرام فيطوفون به ثم يأتون رسول الله صلى الله عليه وآله ثم يأتون أمير المؤمنين عليه السلام فيسلمون ثم يأتون الحسين عليه السلام فيقيمون عنده فإذا كان عند السحر وضع لهم معراج إلى السماء ثم لا يعودون أبداً .

وقال أبو جعفر عليه السلام : إن الله عز وجل خلق إسرافيل وجبرائيل وميكائيل من تسبيحة واحدة ، وجعل لهم السمع والبصر وجودة العقل وسرعة الفهم .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خلقة الملائكة : وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك فليس فيهم فترة ، ولا عندهم غفلة ، ولا فيهم معصية ، هم أعلم خلقك بك وأخوف خلقك منك ، وأقرب خلقك منك ، وأعملهم بطاعتك ، لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ، ولا فترة الأبدان لم يسكنوا الأصلاب ، ولم تضمهم الأرحام ، ولم تخلقهم من ماء مهين أنشأتهم إنشاء فأسكنتهم سماواتك وأكرمتهم بجوارك ، وائتمنتهم على وحيك ، وجنبتهم الآفات ، ووقيتهم البليات ، وطهرتهم من الذنوب ، ولو لا قوتك لم تقووا ، ولو لا تثبيتك لم يثبتوا ، ولو لا رحمتك لم يطيعوا ، ولو لا أنت لم يكونوا .

أما إنهم على مكانتهم منك وطاعتهم إياك ومنزلتهم عندك وقلة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا ما خفي عنهم منك لاحتقروا أعمالهم ، ولأزروا على أنفسهم ، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك سبحانك خالقاً ومعبوداً ما أحسن بلاءك عند خلقك .

وفي البحار عن الدر المنثور عن أبي العلاء بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه : أطت السماء وحق لها أن تئط ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد . ثم قرء « وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » .

وعن الخصال بإسناده عن محمد بن طلحة يرفعه إلى النبي ﷺ قال : الملائكة على ثلاثة أجزاء فجزء لهم جناحان وجزء لهم ثلاثة أجنحة وجزء لهم أربعة أجنحة .

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن عبدالله بن طلحة مثله ، ولعل المراد به وصف أغلب الملائكة حتى لا يعارض سياق الآية والروايات الاخر .

وعن التوحيد بإسناده عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : ليس أحد من الناس إلا ومعه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا حان أجله خلوا بينه وبين ما يصيبه ـ الخبر .

وعن البصائر عن السياري عن عبدالله بن أبي عبدالله الفارسي وغيره رفعوه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال : إن الكروبيين قوم من شيعتنا من الخلق الأول جعلهم الله خلف العرش لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم . ثم قال : إن موسى عليه السلام لما أن سأل ربه ما سأل أمراً واحداً من الكروبيين فتجلى للجبل فجعله دكا .

وعن الصحيفة السجادية وكان من دعائه على حملة العرش وكل ملك مقرب : اللهم وحملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك ، ولا يسأمون من تقديسك ، ولا يستحسرون عن عبادتك ، ولا يؤثرون التقصير على الجد في أمرك ، ولا يغفلون عن الوله إليك ، وإسرافيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن وحلول الأمر فينبه بالنفخة صرعى رهائن القبور ، وميكائيل ذو الجاه عندك والمكان الرفيع من طاعتك وجبريل الأمين على وحيك المطاع في سماواتك المكين لديك المقرب عندك ، والروح الذي هو على ملائكة الحجب والروح الذي هو من أمرك .

اللهم فصل عليهم وعلى الملائكة الذين من دونهم من سكان سماواتك وأهل الأمانة على رسالاتك ، والذين لا يدخلهم سأمة من دؤب ولا إعياء من لغوب ولا فتور ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات ، الخشع الأبصار فلا يرومون النظر إليك ، النواكس الأذقان الذين قد طالت رغبتهم فيما لديك المستهترون بذكر آلائك والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبريائك ، والذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل معصيتك : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

فصل عليهم وعلى الروحانيين من ملائكتك وأهل الزلفة عندك وحمال الغيب إلى رسلك والمؤتمنين على وحيك وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لنفسك وأغنيتهم عن الطعام والشراب بتقديسك وأسكنتهم بطون أطباق سماواتك ، والذين هم على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وعدك .

وخزان المطر وزواجر السحاب والذي بصوت زجره يسمع زجل الرعود ، وإذا سبحت به حفيفة السحاب التمعت صواعق البروق ، ومشيعي الثلج والبرد والهابطين مع قطر المطر إذا نزل ، والقوام على خزائن الرياح ، والموكلين بالجبال فلا تزول ، والذين عرفتهم مثاقيل المياه وكيل ما يحويه لواعج الأمطار وعوالجها ورسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء ومحبوب الرخاء .

والسفرة الكرام البررة والحفظة الكرام الكاتبين ، وملك الموت وأعوانه ، ومنكر ونكير ، ومبشر وبشير ، ورؤمان فتان القبور ، والطائفين بالبيت المعمور ، ومالك والخزنة ، ورضوان وسدنة الجنان ، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والذين يقولون : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، والزبانية الذين إذا قيل لهم : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » ابتدروه سراعاً ولم ينظروه ، ومن أهمنا ذكره ولم نعلم مكانه منه وبأي أمر وكلته ، وسكان الهواء والأرض والماء ، ومن منهم على الخلق .

فصل عليهم يوم تأتي كل نفس معها سائق وشهيد وصل عليهم صلاة تزيدهم كرامة على كرامتهم وطهارة على طهارتهم . الدعاء .

وفي البحار عن الدر المنثور عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ سأل جبرئيل

أن يتراآى له في صورته فقال جبرئيل : إنك لن تطيق ذلك . قال : إني أحب ذلك فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المصلى في ليلة مقمرة فأتاه جبرئيل في صورته فغشي على رسول الله صلى الله عليه وآله حين رآه ثم أفاق وجبرئيل مسنده وواضع إحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما كنت أرى أن شيئاً من يخلق هكذا فقال جبرئيل : فكيف لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر جناحاً جناح في المشرق وجناح في المغرب وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضأل الأحيان لعظمة الله حتى يصير مثل الوصع [١] حتى ما ما يحمل عرشه إلا عظمته .

وفي الصافي عن التوحيد بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: وقوله في آخر الآيات : « ما زاغ البصر وما طغى لقد رآى من آيات ربه الكبرى » رآى جبرئيل في صورته مرتين هذه المرة ومرة أخرى وذلك أن خلق جبرئيل عظيم فهومن الروحانيين الذي لا يدرك خلقهم وصفتهم إلا الله .

وعن الخصال بإسناده عن محمد بن مروان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن جبرئيل أتاني فقال : إنا معشر الملائكة لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا تمثال جسد ولا إناء يبال فيه .

أقول : وهناك روايات أخرى في صفة الملائكة فوق حد الإحصاء واردة في باب المعاد ومعراج النبي صلى الله عليه وآله وأبواب متفرقة أخرى ، وفيما أوردناه أنموذج كاف في ذلك .

وفي العيون في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة بإسناده عنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً ، وقرء « يزيد في الخلق ما يشاء » .

وفي التوحيد بإسناده عن زرارة عن عبدالله بن سليمان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول : إن القضاء والقدر خلقان من خلق الله يزيد في الخلق ما يشاء .

وفي المجمع في قوله تعالى : « يزيد في الخلق ما يشاء » روى أبو هريرة عن النبي

---

(١) بفتح الصاد وسكونها طائر أصغر من العصفور.

صلى الله عليه وآله قال : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن .

أقول : والروايات الثلاث الأخيرة من قبيل الجري والانطباق .

﴿ كلام في الملائكة ﴾

تكرر ذكر الملائكة في القرآن الكريم ولم يذكر منهم بالتسمية إلا جبريل وميكال وما عداهما مذكور بالوصف كملك الموت والكرام الكاتبين والسفرة الكرام البررة والرقيب والعتيد وغير ذلك .

والذي ذكره الله سبحانه في كلامه ـ وتشايعه الأحاديث السابقة ـ من صفاتهم وأعمالهم هو أولاً: أنهم موجودات مكرمون هم وسائط بينه تعالى وبين العالم المشهود فما من حادثة أو واقعة صغيرة أو كبيرة إلا وللملائكة فيها شأن وعليها ملك موكل أو ملائكة موكلون بحسب ما فيها من الجهة أو الجهات، وليس لهم في ذلك شأن إلا إجراء الأمر الإلهي في مجراه أو تقريره في مستقره كما قال تعالى : « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

وثانياً: أنهم لا يعصون الله فيما أمرهم به فليست لهم نفسية مستقلة ذات إرادة مستقلة تريد شيئاً غير ما أراد الله سبحانه فلا يستقلون بعمل ولا يغيرون أمراً حملهم الله إياه بتحريف أو زيادة أو نقصان قال تعالى : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » التحريم : ٦ .

وثالثاً: أن الملائكة على كثرتهم على مراتب مختلفة علواً ودنواً فبعضهم فوق بعض وبعضهم دون بعض فمنهم آمر مطاع ومنهم مأمور مطيع لأمره ، والآمر منهم آمر بأمر الله حامل له إلى المأمور والمأمور مأمور بأمر الله مطيع له، فليس لهم من أنفسهم شيء البتة قال تعالى : « وما منا إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ وقال : « مطاع ثم أمين » التكوير : ٢١ ، وقال : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » سبأ : ٢٣ .

ورابعاً: أنهم غير مغلوبين لأنهم إنما يعملون بأمر الله وإرادته «وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض » فاطر : ٤٤ ، وقد قال الله : « والله غالب على

أمره » يوسف : ٢١ ، وقال : « إن الله بالغ أمره » الطلاق : ٣ .

ومن هنا يظهر أن الملائكة موجودات منزهة في وجودهم عن المادة الجسمانية التي هي فيمعرض الزوال والفساد والتغير ومن شأنها الاستكمال التدريجي الذي تتوجه به إلى غايتها ، وربما صادفت الموانع والآفات فحرمت الغاية وبطلت دون البلوغ إليها .

ومن هنا يظهر أن ما ورد في الروايات من صور الملائكة وأشكالهم وهيآتهم الجسمانية كما تقدم نبذة منها في البحث الروائي السابق إنما هو بيان تمثلاتهم وظهوراتهم للواصفين من الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وليس من التصور والتشكل في شيء ففرق بين التمثل والتشكل فتمثل الملك إنساناً هو ظهوره لمن يشاهده في صورة الإنسان فهو في ظرف المشاهدة والإدراك ذو صورة الإنسان وشكله وفي نفسه والخارج من ظرف الإدراك ملك ذو صورة ملكية وهذا بخلاف التشكل والتصور فإنه لو تشكل بشكل الإنسان وتصور بصورته صار إنساناً في نفسه من غير فرق بين ظرف الإدراك والخارج عنه فهو إنسان في العين والذهن معاً ؟ وقد تقدم كلام في معنى التمثل في تفسير سورة مريم .

ولقد صدق الله سبحانه ما تقدم من معنى التمثل فيقوله في قصة المسيح ومريم: « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا » مريم : ١٧ وقد تقدم تفسيره .

وأما ما شاع في الألسن أن الملك جسم لطيف يتشكل بأشكال مختلفة إلا الكلب والخنزير ، والجن جسم لطيف يتشكل بأشكال مختلفة حتى الكلب والخنزير فمما لا دليل عليه من عقل ولا نقل من كتاب أوسنة معتبرة ، وأما ما ادعاه بعضهم من إجماع المسلمين على ذلك فمضافاً إلى منعه لا دليل على حجيته في أمثال هذه المسائل الاعتقادية .

* * *

مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ـ ٢ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا

نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ ـ ٣. وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمورُ ـ ٤. يا أَيُّهَا النّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ ـ ٥. إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّما يَدْعوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعيرِ ـ ٦. اَلَّذينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ وَالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبيرٌ ـ ٧. أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَليمٌ بِما يَصْنَعُونَ ـ ٨.

﴿ بيان ﴾

لما أشار إلى الملائكة وهم وسائط في وصول النعم إلى الخليقة أشار إلى نفس النعم إشارة كلية فذكر أن عامة النعم من الله سبحانه لا غير فهو الرازق لا يشارك فيه أحد ، ثم احتج بالرازقية على الربوبية ثم على المعاد وأن وعده تعالى بالبعث وعذاب الكافرين ومغفرة المؤمنين الصالحين حق ، وفي الآيات تسلية للنبي ﷺ .

قوله تعالى : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده » الخ المعنى أن ما يؤتيه الله الناس من النعمة وهو الرزق فلا مانع عنه

وما يمنع فلا مؤتي له فكان مقتضى الظاهر أن يقال : ما يرسل الله للناس الخ . كما عبر في الجملة الثانية بالإرسال لكنه عدل عن الإرسال إلى الفتح لما وقع مكرراً في كلامه أن لرحمته خزائن كقوله : « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب » ص : ٩ وقوله: « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق » أسرى : ١٠٠ والتعبير بالفتح أنسب من الإرسال في الخزائن ففيه إشارة إلى أن الرحمة التي يؤتاها الناس مخزونة في خزائن محيطة بالناس لا يتوقف نيلهم منها إلا إلى فتحها من غير مؤنة زائدة .

وقد عبر عن الرزق الذي هو النعمة بالرحمة للدلالة على أن إفاضته تعالى لهذه النعم ناشئة من مجرد الرحمة من غير توقع لنفع يعود إليه أو كمال يستكمل به .

وقوله : « وما يمسك فلا مرسل له من بعده » أي وما يمنع من الرحمة فلا مرسل له من دونه ، وفي التعبير بقوله : « من بعده » إشارة إلى أنه تعالى أول في المنع كما أنه أول في الإعطاء .

وقوله : « وهو العزيز الحكيم » تقرير للحكم المذكور في الآية الكريمة بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزاً لا يغلب إذا أعطى فليس لمانع أن يمنع عنه وإذا منع فليس لمعط أن يعطيه ، وهو تعالى حكيم إذا أعطى أعطى عن حكمة ومصلحة وإذا منع منع عن حكمة ومصلحة وبالجملة لا معطي إلا الله ولا مانع إلا هو ، ومنعه وإعطائه عن حكمة .

قوله تعالى : « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » الخ . لما قرر في الآية السابقة أن الإعطاء والمنع لله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد احتج في هذه الآية بذلك على توحده في الربوبية .

وتقرير الحجة أن الإله إنما يكون إلهاً معبوداً لربوبيته وهي ملكه تدبير أمر الناس وغيرهم ، والذي يملك تدبير الأمر بهذه النعم التي يتقلب فيها الناس وغيرهم ويرتزقون بها هو الله سبحانه دون غيره من الآلهة التي اتخذوها لأنه سبحانه هو الذي خلقها دونهم والخلق لا ينفك عن التدبير ولا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلا هو لأنه ربكم الذي يدبر أمركم بهذه النعم التي تتقلبون فيها وإنما كان رباً مدبراً بهذه النعم لأنه

خالقها وخالق النظام الذي يجري عليها .

وبذلك يظهر أن المراد بالناس المخاطبين الوثنيون وغيرهم ممن اتخذ لله شريكاً .

وقوله : « اذكروا نعمة الله عليكم » المراد بالذكر ما يقابل النسيان دون الذي الذكر اللفظي .

وقوله : « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » الرزق هو ما يمد به البقاء ومبدؤه السماء بواسطة الأشعة والأمطار وغيرهما والأرض بواسطة النبات والحيوان وغيرهما .

وبذلك يظهر أيضاً أن في الآية إيجازاً لطيفاً فقد بدلت الرحمة في الآية السابقة نعمة في هذه الآية أولاً ثم النعمة رزقاً ثانياً وكان مقتضى سياق الآيتين أن يقال : هل من رازق أو هل من منعم أو هل من راحم لكن بدّل ذلك من قوله: «هل من خالق » ليكون إشارة إلى برهان ثان ينقطع به الخصام ، فإنهم يرون تدبير العالم لآلهتهم بإذن الله فلو قيل : هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام وأمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله إليهم لكن لما قيل : « هل من خالق » أشير بالوصف إلى أن الرازق والمدبر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام ولم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفي خالق غير الله يرزقهم من السماء والأرض .

وقوله : « لا إله إلا هو » اعتراض بالتوحيد يفيد التعظيم نظير قوله : « وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه » .

أي لا معبود بالحق إلا هو لأن المستحق للعبادة هو الذي ينعم عليكم ويرزقكم وليس إلا الله .

وقوله : « فأنى تؤفكون » توبيخ متفرع على ما سبق من البرهان أي فإذا كان الأمر هكذا وأنتم تقرون بذلك فإلى متى تصرفون عن الحق إلى الباطل ومن التوحيد إلى الإشراك .

وفي إعراب الآية أعني قوله : « هل من خالق غير الله» الخ.بين القوم مشاجرات طويلة والذي يناسب ما تقدم من تقرير البرهان أن « من » زائدة للتعميم ، وقوله :

« غير الله » صفة لخالق تابع لمحله ، و كذا قوله : «يرزقكم» الخ . و « من خالق »مبتدء محذوف الخبر وهو موجود ، وقوله : « لا إله إلا هو » اعتراض ، وقوله : « فأنى تؤفكون » تفريع على ما تقدمه .

قوله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الامور » تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي وإن يكذبوك بعد استماع هذه البراهين الساطعة فلا تحزن فليس ذلك ببدع فقد كذبت رسل من قبلك كذبتهم أممهم وأقوامهم وإلى الله ترجع عامة الامور فيجازيهم بما يستحقونه بتكذيبهم الحق بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم.

ومن هنا يظهر أن قوله ؟ « فقد كذبت رسل من قبلك » من قبيل وضع السبب موضع المسبب وأن قوله : « وإلى الله ترجع الامور » معطوف على قوله : « فقد كذبت » الخ .

قوله تعالى : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » خطاب عام للناس يذكرهم بالمعاد كما كان الخطاب العام السابق يذكرهم بتوحده تعالى في الربوبية والالوهية .

فقوله : « إن وعد الله حق » أي وعده أنه يبعثكم فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً وإن شراً حق أي ثابت واقع ، وقد صرح بهذا الوعد في قوله الآتي : « الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير » .

وقوله : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » النهي وإن كان متوجهاً إلى الحياة الدنيا صورة لكنه في الحقيقة متوجه إليهم ، والمعنى إذا كان وعد الله حقاً فلا تغتروا بالحياة الدنيا بالاشتغال بزينتها والتلهي بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذها وملاهيها والاستغراق في طلبها والإعراض عن الحق .

وقوله : « ولا يغرنكم بالله الغرور » الغرور بفتح الغين صيغة مبالغة من الغرور بالضم وهو الذي يبالغ في الغرور ومن عادته ذلك ، والظاهر ـ كما قيل ـ أن المراد به الشيطان ويؤيده التعليل الواقع في الآية التالية « إن الشيطان لكم عدو » الخ .

ومعنى غروره بالله توجيه أنظارهم إلى مظاهر حلمه وعفوه تعالى تارة ومظاهر

ابتلائه واستدراجه و كيده أخرى فيرون أن الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة والإعراض عن الحق والحقيقة لا يستعقب عقوبة ولا يستتبع مؤاخذة ، وأن أبناء الدنيا كلما أمعنوا في طلبهم وتوغلوا في غفلتهم واستغرقوا في المعاصي والذنوب زادوا في عيشهم طيباً وفي حياتهم راحة وبين الناس جاهاً وعزة فيلقي الشيطان عند ذلك في قلوبهم أن لا كرامة إلا في التقدم في الحياة الدنيا ، ولا خبر عما وراءها وليس ما تتضمنه الدعوة الحقة من الوعد والوعيد وتخبر به النبوة من البعث والحساب والجنة والنار إلا خرافة.

فالمراد بغرور الشيطان الإنسان بالله اغترار الإنسان بما يعامل به الله الإنسان على غفلته وظلمه .

وربما قيل : إن المراد بالغرور الدنيا الغارة للإنسان وإن قوله : « ولا يغرنكم بالله الغرور » تأكيد لقوله : فلا تغرنكم الحياة الدنيا » بتكراره معنى .

قوله تعالى : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » الخ . تعليل للنهي المتقدم في قوله : « ولا يغرنكم بالله الغرور » والمراد بعداوة الشيطان أنه لا شأن له إلا إغواء الإنسان وتحريمه سعادة الحياة وحسن العاقبة ، والمراد باتخاذ الشيطان عدوا التجنب من اتباع دعوته إلى الباطل وعدم طاعته فيما يشير إليه في وساوسه وتسويلاته ولذلك علل عداوته بقوله : « إنما يدعو حزبه » .

فقوله ؟ « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » في مقام تعليل ماتقدمه والحزب هو العدة من الناس يجمعهم غرض واحد ، واللام في « ليكونوا » للتعليل فكونهم من أصحاب السعير علة غائية لدعوته ، والسعير النار المسعرة وهو من أسماء جهنم في القرآن .

قوله تعالى : « الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير » هذا هو الوعد الحق الذي ذكره الله سبحانه ، وتنكير العذاب للدلاله على التفخيم على أن لهم دركات ومراتب مختلفة من العذاب باختلاف كفرهم وفسوقهم فالإبهام أنسب ويجري نظير الوجهين في قوله : « مغفرة وأجر » .

قوله تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » تقرير وبيان للتقسيم الذي تتضمنه الآية السابقة أعني تقسيم الناس إلى كافر

له عذاب شديد ومؤمن عامل بالصالحات له مغفرة وأجر كبير والمراد أنهما لا يستويان فلا تستوي عاقبة أمرهما .

فقوله : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً» مبتدء خبره محذوف أي كمن ليس كذلك ، والفاء لتفريع الجملة على معنى الآية السابقة ، والاستفهام للإنكار ، والمراد بمن زين له سوء عمله فرآه حسنا الكافر ويشير به إلى أنه منكوس فهمه مغلوب على عقله يرى عمله على غير ما هو عليه ، والمعنى أنه لا يستوي من زين له عمله السيىء فرآه حسناً والذي ليس كذلك بل يرى السيىء سيئاً .

وقوله : « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » تعليل للإنكار السابق في قوله : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » أي الكافر الذي شأنه ذلك والمؤمن الذي بخلافه لا يستويان لأن الله يضل أحدهما بمشيته وهو الكافر الذي يرى السيئة حسنة ويهدي الآخر بمشيته وهو المؤمن الذي يعمل الصالحات ويرى السيئة سيئة .

وهذا الإضلال إضلال على سبيل المجازاة وليس إضلالاً ابتدائياً فلا ضير في انتسابه إلى الله سبحانه .

وبالجملة اختلاف الكافر والمؤمن في عاقبتهما بحسب الوعد الإلهي بالعذاب والرحمة لاختلافهما بالإضلال والهداية الإلهيين واختلافهما بالإضلال والهداية باختلافهما في رؤية السيئة حسنة وعدمها .

وقوله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » الحسرات جمع حسرة وهي الغم لما فات والندم عليه ، وهي منصوبة لأنه مفعول لأجله والمراد بذهاب النفس عليهم هلاكها فيهم لأجل الحسرات الناشئة من عدم إيمانهم .

والجملة متفرعة على الفرق السابق أي إذا كانت الطائفتان مختلفتين بالإضلال والهداية من جانب الله فلا تهلك نفسك حسرات عليهم إذ كذبوك وكفروا بك فإن الله هو الذي يضلهم جزاء لكفرهم ورؤيتهم السيئة حسنة وهو عليم بما يصنعون فلا يختلط عليه الأمر ولا يفعل بهم إلا الحق ولا يجازيهم إلا بالحق .

ومن هنا يظهر أن قوله : « إن الله عليم بما يصنعون » في موضع التعليل لقوله :

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » فلا ينبغي للرسول ﷺ أن يهلك نفسه عليهم حسرات حيث ضلوا وحقت عليهم كلمة العذاب فإن الله هو الذي يضلهم لصنعهم وهو عليم بما يصنعون .

* * *

وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ـ ٩ . مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ـ ١٠ . وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ـ ١١ . وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ـ ١٢ . يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ـ ١٣ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا

دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ـ ١٤ .

﴿ بيان ﴾

احتجاجات على وحدانيته تعالى في ألوهيته بعد جملة من النعم السماوية والأرضية التي يتنعم بها الإنسان ولا خالق لها ولا مدبر لأمرها إلا الله سبحانه ، وفيها بعض الإشارة إلى البعث .

قوله تعالى : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت » الخ . العناية في المقام بتحقق وقوع الأمطار وإنبات النبات بها ، ولذلك قال : « الله الذي أرسل الرياح » وهذا بخلاف ما في سورة الروم من قوله: « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا » الروم : ٤٨ .

وقوله : « فتثير سحابا » عطف على « أرسل » والضمير للرياح والإتيان بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية والإثارة إفعال من ثار الغبار يثور ثورانا إذا انتشر ساطعاً.

وقوله : « فسقناه إلى بلد ميت » أي إلى أرض لانبات فيها « فأحيينا به الأرض بعد موتها » وأنبتنا فيها نباتاً بعد ما لم تكن ، ونسبة الإحياء إلى الأرض وإن كانت مجازية لكن نسبته إلى النبات حقيقية وأعمال النبات من التغذية والنمو وتوليد المثل وما يتعلق بذلك أعمال حيوية تنبعث من أصل الحياة .

ولذلك شبه البعث وإحياء الأموات بعد موتهم بإحياء الأرض بعد موتها أي إنبات النبات بعد توقفه عن العمل وركوده في الشتاء فقال : « كذلك النشور » أي البعث فالنشور بسط الأموات يوم القيامة بعد إحيائهم وإخراجهم من القبور .

وفي قوله : « فسقناه إلى بلد ميت » الخ . التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير فهو تعالى في قوله : « والله أرسل » بنعت الغيبة وفي قوله: « فسقناه » الخ. بنعت التكلم مع الغير ولعل النكتة في ذلك هي أنه لما قال : « والله أرسل الرياح » أخذ لنفسه نعت

الغيبة ويتبعه فيه الإرسال فإن فعل الغائب غائب ، ثم لما قال : « فتثير سحاباً » على نحو حكاية الحال الماضية صار المخاطب كأنه يرى الفعل ويشاهد الرياح وهي تثير السحاب وتنشره في الجو فصار كأنه يرى من يرسل الرياح لأن مشاهدة الفعل كادت أن لا تنفك عن مشاهدة الفاعل فلما ظهر تعالى بنعت الحضور غيّر سياق كلامه من الغيبة إلى التكلم واختار لفظ التكلم مع الغير للدلالة على العظمة .

وقوله : « فأحيينا به الأرض » ولم يقل : فأحييناه مع كفايته وكذا قوله : « بعد موتها » مع جواز الاكتفاء بما تقدمه للأخذ بصريح القول الذي لا ارتياب دونه.

قوله تعالى : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » قال الراغب في المفردات : العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم : أرض عزاز أي صلبة قال تعالى : « أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » انتهى .

فالصلابة هو الأصل في معنى العزة ثم توسع فاستعمل العزيز فيمن يقهر ولا يقهر كقوله تعالى : « يا أيها العزيز مسنا » يوسف : ٨٨ . وكذا العزة بمعنى الغلبة قال تعالى: « وعزني في الخطاب » ص : ٢٣ والعزة بمعنى القلة وصعوبة المنال ، قال تعالى : « وإنه لكتاب عزيز » حم السجدة : ٤١ والعزة بمعنى مطلق الصعوبة قال تعالى : « عزيز عليه ما عنتم » التوبة : ١٢٨ والعزة بمعنى الأنفة والحمية قال تعالى : « بل الذين كفروا في عزة وشقاق » ص : ٢ إلى غير ذلك .

ثم إن العزة بمعنى كون الشيء قاهراً غير مقهور أو غالباً غير مغلوب تختص بحقيقة معناها بالله عز وجل إذ غيره تعالى فقير في ذاته ذليل في نفسه لا يملك لنفسه شيئاً إلا أن يرحمه الله ويؤتيه شيئاً من العزة كما فعل ذلك بالمؤمنين به قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » المنافقون : ٨ .

وبذلك يظهر أن قوله : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً» ليس بمسوق لبيان اختصاص العزة بالله بحيث لا ينالها غيره وأن من أرادها فقد طلب محالاً وأراد ما لا يكون بل المعنى من كان يريد العزة فليطلبها منه تعالى لأن العزة له جميعاً لا توجد عند غيره بالذات .

فوضع قوله : « فلله العزة جميعاً » في جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع

المسبب وهو طلبها من عنده أي اكتسابها منه بالعبودية التي لا تحصل إلا بالإيمان والعمل الصالح .

قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » الكلم ـ كما قيل ـ اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث ، وقال في المجمع : والكلم جمع كلمة يقال ؟ هذا كلم وهذه كلم فيذكر ويؤنث ، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء يجوز فيه التذكير والتأنيث انتهى .

والمراد بالكلم على أي حال ما يفيد معنى تاماً كلامياً ويشهد به توصيفه بالطيب فطيب الكلم هو ملاءمته لنفس سامعه ومتكلمه بحيث تنبسط منه وتستلذه وتستكمل به وذلك إنما يكون بإفادته معنى حقاً فيه سعادة النفس وفلاحها .

وبذلك يظهر أن المراد به ليس مجرد اللفظ بل بما أن له معنى طيباً فالمراد به الاعتقادات الحقة التي يسعد الإنسان بالإذعان لها وبناء عمله عليها والمتيقن منها كلمة التوحيد التي يرجع إليها سائر الاعتقادات الحقة وهي المشمولة لقوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » إبراهيم : ٢٥ وتسمية الاعتقاد قولاً و كلمة أمر شائع بينهم .

وصعود الكلم الطيب إليه تعالى هو تقربه منه تعالى اعتلاء وهو العلي الأعلى رفيع الدرجات ، وإذ كان اعتقاداً قائماً بمعتقده فتقربه منه تعالى تقرب المعتقد به منه ، وقد فسروا صعود الكلم الطيب بقبوله تعالى له وهو من لوازم المعنى .

ثم أن الاعتقاد والإيمان إذا كان حق الاعتقاد صادقاً إلى نفسه صدقه العمل ولم يكذبه أي يصدر عنه العمل على طبقه فالعمل من فروع العلم وآثاره التي لا تنفك عنه ، وكلما تكرر العمل زاد الاعتقاد رسوخاً وجلاء وقوي في تأثيره فالعمل الصالح وهو العمل الحري بالقبول الذي طبع عليه بذل العبودية والإخلاص لوجهه الكريم يعين الاعتقاد الحق في ترتب أثره عليه وهو الصعود إليه تعالى وهو المعزي إليه بالرفع فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب .

فقد تبين بما مر معنى قوله : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » وأن ضمير « إليه » لله سبحانه والمراد بالكلم الطيب الاعتقاد الحق كالتوحيد ، وبصعوده

تقربه منه تعالى ، وبالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحق وبلاغه وأن الفاعل في « يرفعه » ضمير مستكن راجع إلى العمل الصالح وضمير المفعول راجع إلى الكلم الطيب.

ولهم في الآية أقوال أخر :

فقد قيل : إن المراد بصعود الكلم الطيب قبوله والإثابة عليه كما تقدمت الإشارة إليه ، وقيل : المراد صعود الملائكة بما كتب من الإيمان والطاعات إلى الله سبحانه ، وقيل : المراد صعودهم به إلى السماء فسمي الصعود إلى السماء صعوداً إلى الله مجازاً .

وقيل : إن فاعل « يرفعه » ضمير عائد إلى الكلم الطيب وضمير المفعول للعمل الصالح والمعنى أن الكلم الطيب يرفع العمل الصالح أي أن العمل الصالح لا ينفع إلا إذا صدر عن التوحيد ، وقيل : فاعل «يرفعه» ضمير مستكن راجع إليه تعالى والمعنى العمل الصالح يرفعه الله .

وجملة هذه الوجوه لا تخلو من بعد والأسبق إلى الذهن ما قدمناه من المعنى .

قوله تعالى : « والذين يمكرون السيآت لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » ذكروا أن « السيآت » وصف قائم مقام موصوف محذوف وهو المكرات ، ووضع اسم الإشارة موضع الضمير في « مكر أولئك » الدلالة على أنهم متعينون لا يختلطون بغيرهم والمعنى والذين يمكرون المكرات السيآت لهم عذاب شديد ومكر أولئك الماكرين هو يبور ويهلك فلا يستعقب أثراً حياً فيه سعادتهم وعزتهم .

وقد بان أن المراد بالسيآت أنواع المكرات والحيل التي يتخذها المشركون وسائل لكسب العزة ، والآية مطلقة ، وقيل : المراد المكرات التي اتخذتها قريش على رسول الله ﷺ في دار الندوة وغيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فرد الله كيدهم إليهم وأخرجهم إلى بدر وقتلهم وأثبتهم في القليب فجمع عليهم الإثبات والإخراج والقتل وهذا وجه حسن لكن الآية مطلقة .

ووجه اتصال ذيل الآية بصدرها أعني اتصال قوله : « إليه يصعد » إلى آخر الآية بقوله : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » أن المشركين كانوا يعتزون بآلهتهم كما قال تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً » مريم : ٨١ فدعاهم الله سبحانه وهم يطلبون العز إلى نفسه بتذكيرهم أن العزة لله جميعاً وبين تعالى ذلك بأن

توحيده يصعد إليه والعمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرب منه عزة من منبع العزة وأما الذين يمكرون كل مكر سيىء لاكتساب العزةفلهم عذاب شديد وما مكروه من المكر بائر هالك لا يصعد إلى محل ولا يكسب لهم عزا .

قوله تعالى : « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً » الخ. يشير تعالى إلى خلق الإنسان فابتدء خلقه من تراب وهو المبدء البعيد الذي تنتهي إليه الخلقة ثم من نطفة وهي مبدء قريب تتعلق به الخلقة .

وقيل المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن الشيء يضاف إلى أصله وقيل : بل المراد خلق آدم نفسه وقيل : بل المراد خلقهم خلقاً إجمالياً من تراب في ضمن خلق آدم من تراب والخلق التفصيلي هو من نطفة كما قال : ثم من نطفة .

والفرق بين الوجوه الثلاثة أن في الأول نسبة الخلق من تراب إليهم على طريق المجاز العقلي ،وفي الثاني المراد بخلقهم خلق آدم ولا مجاز في النسبة ،وفي الثالث المراد خلق كل واحد من الأفراد من التراب حقيقة من غير مجاز إلا أنه خلق إجمالي لا تفصيلي وبهذا يفارق ما قدمناه من الوجه .

ويمكن تأييد القول الأول بقوله تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » الرحمن : ١٤ ، والثاني بنحو قوله :«وبدء خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » السجدة : ٨ ، والثالث بقوله : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » الأعراف:١١ ولكل وجه .

وقوله : « ثم جعلكم أزواجاً» أي ذكوراً وإناثاً ، وقيل: أي قدر بينكم الزوجية وزوج بعضكم من بعض ، وهو كما ترى ، وقيل : أي أصنافاً وشعوباً . وهو كسابقه.

وقوله : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » من زائدة لتأكيد النفي ، والباء في « بعلمه » للمصاحبة وهو حال من الحمل والوضع ، والمعنى ما تحمل ولا تضع أنثى إلا وعلمه يصاحب حمله ووضعه ، وذكر بعضهم أنه حال من الفاعل وأن كونه حالاً من الحمل والوضع وكذا من مفعوليها أي المحمول والموضوع خلاف الظاهر وهو ممنوع .

وقوله : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب » أي وما يمد ويزاد في عمر أحد فيكون معمراً ولا ينقص من عمره أي عمر أحد إلا في كتاب .

فقوله : « وما يعمر من معمر » من قبيل قوله: « إني أراني أعصر خمراً »يوسف: ٣٦ فوضع معمر موضع نائب الفاعل وهو أحد بعناية أنه بعد تعلق التعمير به يصير معمراً وإلا فتعمير المعمر لا معنى له .

وقوله : « ولا ينقص من عمره » الضمير في « عمره » راجع إلى« معمر » باعتبار موصوفه المحذوف وهو أحد والمعنى ولا ينقص من عمر أحد وإلا فنقص عمر المفروض معمراً تناقض خارق للفرض .

وقوله : « إلا في كتاب » وهو اللوح المحفوظ الذي لا سبيل للتغيير إليه فقد كتب فيه أن فلاناً يزاد في عمره كذا لسبب كذا وفلاناً ينقص من عمره كذا لسبب كذا وأما كتاب المحو والإثبات فهو مورد التغير وسياق الآية يفيد وصف العلم الثابت ولهم في قوله : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره » وجوه أُخر ضعيفة لا جدوى في التعرض لها .

وقوله : « إن ذلك على الله يسير » تعليل وتقرير لما في الآية من وصف خلـــق الإنسان وكيفية إحداثه وإبقائه والمعنى أن هذا التدبير الدقيق المتين المهيمن على كليات الحوادث وجزئياتها المقرر كل شيء في مقره على الله يسير لأنه الله العليم القدير المحيط بكل شيء بعلمه وقدرته فهو تعالى رب الإنسان كما أنه رب كل شيء .

قوله تعالى : « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أُجاج » إلى آخر الآية قيل : العذب من الماء طيبه ، والفرات الماء الذي يكسر العطش أو البارد كما في المجمع ، والسائغ هو الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته والاجاج الذي يحرق لملوحته أو المر .

وقوله : « ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها» اللحم الطري الغض الجديد ، والمراد لحم السمك أو السمك والطير البحري ، والحلية المستخرجة من البحر اللؤلؤ والمرجان والأصداف قال تعالى: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»الرحمان:٢٢.

وفي الآية تمثيل للمؤمن والكافر بالبحر العذب والمالح يتبين به عدم تساوي المؤمن

والكافر في الكمال الفطري وإن تشاركا في غالب الخواص الإنسانية وآثارها فالمؤمن باق على فطرته الأصلية ينال بها سعادة الحياة الدائمة والكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيبه الفطرة الإنسانية وسيعذب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عذوبة وملوحة فهما مختلفان من حيث البقاء على فطرة الماء الأصلية وهي العذوبة والخروج عنها بالملوحة وإن اشتركا في بعض الآثار التي ينتفع بها ، فمن كل منهما تأكلون لحماً طرياً وهو لحم السمك والطير المصطاد من البحر وتستخرجون حلية تلبسونها كاللؤلؤ والمرجان والأصداف .

فظاهر الآية أن الحلية المستخرجة مشتركة بين البحر العذب والبحر المالح لكن جمعاً من المفسرين استشكلوا ذلك بأن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من البحر المالح دون العذب ، وقد أجابوا عنه بأجوبة مختلفة .

منها أن الآية مسوقة لبيان اشتراك البحرين في مطلق الفائدة وإن اختص ببعضها كأنه قيل : ومن كل تنتفعون وتستفيدون كما تأكلون منهما لحماً طرياً وتستخرجون من البحر المالح حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر .

ومنها أنه شبه المؤمن والكافر بالعذب والاجاج ثم فضل الاجاج على الكافر بأن في الاجاج بعض النفع والكافر لا نفع في وجوده فالآية على طريقة قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » ثم قال : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله » البقرة : ٧٤ .

ومنها أن قوله : « وتستخرجون حلية تلبسونها » من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين وإن اشتركا في بعض المنافع تفاوتا فيما هو المقصود بالذات لأن أحدهما خالطه ما خرج به عن صفاء فطرته والمؤمن والكافر وإن اتفقا أحياناً في بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على صفاء الفطرة الأصلية دون الآخر .

ومنها أنه لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة وإن لم نره فالإشكال باختصاص الحلية بالماء المالح ممنوع .

ومنها منع أصل الدعوى وهو كون الآية « وما يستوي البحران » الخ . تمثيلا

للمؤمن والكافر بل هي واقعة في سياق تعداد النعم لإثبات الربوبية كقوله قبلاً : «والله الذي أرسل الرياح » وقوله بعدا : « يولج الليل في النهار » الخ. فالآية مسوقة لبيان نعمة البحر واختلافه بالعذوبة والملوحة وما فيهما من المنافع المشتركة والمختصة .

ويؤيد هذا الوجه أن نظير الآية في سورة النحل واقعة في سياق الآيات العادة لنعم الله سبحانه وهو قوله : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» النحل: ١٤.

والحق أن أصل الاستشكال في غير محله وأن البحرين يشتركان في وجود الحلية فيهما كما هو مذكور في الكتب الباحثة عن هذه الشؤون مشروح فيها (١) .

قوله تعالى : « وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ضمير « فيه » للبحر ، ومواخر جمع ماخرة من المخر بمعنى الشق عدت السفينة ماخرة لشقها الماء بجؤجئها .

قيل : إنما أفرد ضمير الخطاب في قوله : « ترى » بخلاف الخطابات المتقدمة والمتأخرة لأن الخطاب لكل أحد يتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط .

وقوله : « لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » أي نخر الفلك البحر بتسخيره لتطلبوا من عطائه وهو الرزق ورجاء أن تشكروا الله سبحانه ، وقد تقدم أن الترجي الذي تفيده « لعل » في كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلم .

وقد قيل في هذه الآية : « وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله »وفي سورة النحل : « وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله » فاختلفت الآيتان في تقديم « فيه » على « مواخر » وتأخيره منه وعطف « لتبتغوا » وعدمه .

ولعل النكتة في ذلك أن آية النحل مصدرة بكلمة التسخير فهي مسوقة لبيان كيفية التسخير والأنسب لذلك تأخير « فيه » ليتعلق بمواخر ويشير إلى نخر البحر

---

(١) وقد ذكر وجود الحلية في الماء العذب في مادة صدف من دائرة المعارف للبستاني وذكر أيضاً في آمريكا Eneyclo Poedia وبريطانيا Encyclo Poedia وجودها فيه وسميت عدة من الأنهار العذبة في أمريكا واوروبا وآسيا يستخرج منها اللؤلؤ .

فيصرح بالتسخير بخلاف ما ههنا ثم التسخير له غايات كثيرة منها ابتغاء الفضل والأنسب لذلك عطف « لتبتغوا » على محذوف ليدل على عدم انحصار الغاية في ابتغاء الفضل بخلاف ما ههنا فإن الغرض بيان أنه الرازق المدبر ليرتدع المكذبون ـ وقد تقدم ذكر تكذيبهم ـ عن تكذيبهم ويكفي في ذلك بيان ابتغائهم الفضل غاية من غير حاجة إلى العطف . والله أعلم .

وقال في روح المعاني في المقام : والذي يظهر لي في ذلك أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها وتعقيب الآيات بقوله سبحانه : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيق استطراداً أو تتمة للتمثيل كما علمت آنفاً فقدم فيه « فيه » إيذاناً بأنه ليس المقصود بالذات ذلك ، وكان الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال في تلك الآية : « ولتبتغوا » بالواو ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت ترك الواو في قوله : « لتبتغوا » انتهى.

قوله تعالى : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » الخ . إيلاج الليل في النهار قصر النهار بطول الليل وإيلاج النهار في الليل قصر الليل بطول النهار ، والمراد بالجملتين الإشارة إلى اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر المستمر في أيام السنة بتغير الأيام ولذا عبر بقوله : « يولج » الدال على استمرار التغيير بخلاف جريان الشمس والقمر فإنه ثابت على حاله ولذا عبر فيه بقوله : « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » والعناية صورية مسامحية.

وقوله : « ذلكم الله ربكم » بمنزلة النتيجة لما تقدم أي إذا كان أمر خلقكم وتدبيركم براً وبحراً وأرضاً وسماء منتسباً إليه مدبراً بتدبيره فذلكم الله ربكم الذي يملككم ويدبر أمركم .

وقوله : « له الملك » مستنتج مما قبله وتوطئة وتمهيد لما بعده من قوله : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » .

وقوله : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » القطمير على ما قاله الراغب الأثر على رأس النواة وذلك مثل للشيء الطفيف ، وفي المجمع : القطمير لفافة النواة وقيل : الحبة في بطن النواة انتهى والكلام على أي حال مبالغة في نفي أصل الملك

والمراد بالذين تدعون من دون الله آلهتهم الذين كانوا يدعونها من الأصنام وأربابها.

قوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم » الخ . بيان وتقرير لما تقدم من قوله : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » أي تصديق كونهم لا يملكون شيئاً أنكم إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لأن الأصنام جمادات لا شعور لها ولا حس وأرباب الأصنام كالملائكة والقديسين من البشر في شغل شاغل من ذلك على أنهم لا يملكون سمعاً من عند أنفسهم فلا يسمعون إلا بإسماعه .

وقوله : « ولو سمعوا ما استجابوا لكم » إذ لا قدرة لهم على الاستجابة قولاً ولا فعلاً أما الأصنام فظاهر وأما أرباب الأصنام فقدرتهم من الله سبحانه ولن يأذن الله لأحد أن يستجيب أحداً يدعوه بالربوبية قال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » النساء : ١٧٢ .

وقوله : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » أي يردون عبادتكم إليكم ويتبرؤن منكم بدلاً من أن يكونوا شفعاء لكم «إذ تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » البقرة: ١٦٦.

فالآية في نفي الاستجابة و كفر الشركاء يوم القيامة في معنى قوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الأحقاف : ٦ .

وقوله : « ولا ينبئك مثل خبير » أي لا يخبرك عن حقيقة الأمر مخبر مثل مخبر خبير وهو خطاب خاص بالنبي ﷺ بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقههم بالبيان الحق أو خطاب عام في صورة الخطاب الخاص خوطب به السامع أي من كان كقوله : « وترى الفلك فيه مواخر » الآية السابقة ، وقوله : « وترى الشمس إذا طلعت » الآية الكهف : ١٧ ، وقوله : « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » الكهف : ١٨ .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « كذلك النشور » حدثني أبي عن ابن أبي عمير

عن جميل بن دراج عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال: إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم .

أقول : وفي هذا المعنى عدة روايات أخر .

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء ؟ قال : بلى . قال : كذلك يحيي الله الموتى وكذلك النشور .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن لكل قول مصداقاً من عمل يصدقه أو يكذبه فإذا قال ابن آدم وصدق قوله بعمله رفع قوله بعمله إلى الله، وإذا قال وخالف عمله قوله رد قوله على عمله الخبيث وهوى به في النار .

وفي التوحيد بإسناده عن زيد بن علي عن أبيه عليه‌السلام في حديث قال : وإن لله تبارك وتعالى بقاعاً في سماواته فمن عرج به إلى بقعة منها فقد عرج به إليه . ألا تسمع الله عز وجل يقول : « تعرج الملائكة والروح إليه » ويقول في قصة عيسى بن مريم عليهما السلام « بل رفعه الله » ويقول عز وجل : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

أقول : وعن الفقيه مثله .

وفي نهج البلاغة : ولولا إقرارهن [1] له بالربوبية وإذعانهن له بالطواعية [2] لما جعلهن موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى: « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » الاجاج المر .

وفيه في قوله : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » قال: الجلدة الرقيقة التي على ظهر النوى .

---

(١) الضمير للسماوات . (٢) الطاعة .

* * *

يـا أيُّهَا النّاسُ أنتُمُ الفُقَراءُ إلى اللهِ وَاللهُ هُوَ الغَنيُّ الحَميدُ ـ ١٥ . إنْ يَشأ يُذهِبكُمْ وَيأتِ بِخَلقٍ جَديــدٍ ـ ١٦ . وَمَا ذلكَ عَلَى اللهِ بِعَزيزٍ ـ ١٧ . وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وَإنْ تَدعُ مُثقَلَةٌ إلى حِملِها لا يُحمَلْ مِنهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إنَّما تُنذِرُ الَّذينَ يَخشَونَ رَبَّهُمْ بِالغَيبِ وَأقامُوا الصَّلوةَ وَمَنْ تَزَكّى فإنَّما يَتَزَكّى لِنَفسِهِ وَإلى اللهِ المَصيرُ ـ ١٨ : وَمَــا يَستَوِي الأعمى وَالبَصيرُ ـ ١٩ . وَلاَ الظُّلُماتُ وَلاَ النُّورُ ـ ٢٠ . وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ ـ ٢١ . وَمَا يَستَوِي الأحياءُ وَلاَ الأمواتُ إن اللهَ يُسمِعُ مَنْ يَشاءُ وَمَا أنتَ بِمُسمِعٍ مَنْ في القُبُورِ ـ ٢٢ . إنْ أنتَ إلاّ نَذيرٌ ـ ٢٣ . إنّا أرسَلْناكَ بِالحَقِّ بَشيراً وَنَذيراً وَإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاّ خلا فِيها نَـذيرٌ ـ ٢٤ . وَإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبلِهِمْ جاءَتهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَبِالكِتابِ المُنيرِ ـ ٢٥ . ثُمَّ أخذتُ الَّذينَ كَفَرُوا فَكَيفَ كانَ نَكيرِ ـ ٢٦ .

﴿ بيان ﴾

لما بين لهم أن الخلق والتدبير إليه تعالى فهو ربهم له الملك دون الذين يدعون من دونه فهم لا يملكون شيئاً حتى يقوموا بتدبيره ، أخذ يبين ذلك ببيان آخر مشوب

بالوعيد والتهديد وهو أنه تعالى غني عنهم وهم فقراء إليه فله أن يذهبهم ويأت بخلق جديد إن شاء جزاء بما كسبوا .

ثم وجه الخطاب إلى النبي ﷺ بما حاصله أن هذه المؤاخذة والإهلاك لا يشمل إلا هؤلاء المكذبين دون المؤمنين الذين يؤثر فيهم إنذار النبي ﷺ فبينهما فرق ظاهر وهو ﷺ نذير كالنذر الماضين وحاله كحال من قبله من المنذرين وإن يكذبوه فقد كذبت الأنبياء الماضين مكذبوا أممهم فأخذهم الله أخذاً شديداً وسيأخذ المكذبين من هذه الامة .

قوله تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » لا ريب أن في الآية نوع تمهيد بالنسبة إلى الآيتين التاليتين يتبين بها مضمونها وهي مع ذلك مستقلة في مفادها .

بيان ذلك: أن السياق يشعر بأن أعمال هؤلاء المكذبين كانت تكشف عن أنهم كانوا يتوهمون أن لهم أن يستغنوا عن الله سبحانه بعبادة آلهتهم وأن لله إليهم حاجة ولذلك يدعوهم إلى نفسه بالدعوة الإلهية التي يقوم بها رسله فهناك غنى وفقر ولهم نصيب من الغنى ولله نصيب من الفقر تعالى عن ذلك .

فرد الله سبحانه زعمهم ذلك بقوله : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني » فقصر الفقر فيهم وقصر الغنى فيه سبحانه فكل الفقر فيهم وكل الغنى فيه سبحانه ، وإذ كان الغنى والفقر وهما الوجدان والفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر وهو قصرهم في الفقر وقصره تعالى في الغنى فليس لهم إلا الفقر وليس له تعالى إلا الغنى .

فالله سبحانه غني بالذات له أن يذهبهم ويستغنى عنهم وهم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره .

والملاك في غناه تعالى عنهم وفقرهم أنه تعالى خالقهم ومدبر أمرهم وإليه الإشارة بأخذ لفظ الجلالة في بيان فقرهم وبيان غناه ، والإشارة إلى الخلق والتدبير في قوله : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » وكذا توصيفه تعالى بالحميد وهو المحمود في فعله

الذي هو خلقه وتدبيره .

فيعود معنى الكلام إلى نحو من قولنا: يا أيها الناس أنتم بما أنكم مخلوقون مدبرون لله الفقراء إلى الله فيكم كل الفقر والحاجة والله بما أنه الخالق المدبر، الغني لا غنى سواه .

وعلى هذا لا ضير في قصر الفقر في الناس سواء أريد به المكذبون خاصة أو عامة الناس مع كون غيرهم من المخلوقات فقراء إلى الله كمثلهم وذلك أن عموم علة الحكم يعمم الحكم فكأنه قيل: أنتم معاشر الخليقة الفقراء إلى خالقكم المدبر لأمركم وهو الغني الحميد.

وقد أجيب عن إشكال قصر الفقر في الناس مع عمومه لغيرهم بوجوه من الجواب:

منها أن في قصر الفقر في الناس مبالغة في فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى : « خلق الإنسان ضعيفاً » ولا يرد الجن لأنهم لا يحتاجون في المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاج الإنسان .

ومنها أن المراد الناس وغيرهم وهو على طريقة تغليب الحاضر على الغائب وأولي العلم على غيرهم .

ومنها أن الوجه حمل اللام في الناس على العهد وفي الفقراء على الجنس لأن المخاطبين في الآية هم الذين خوطبوا في قوله : « ذلكم الله ربكم له الملك » الآية أي ذلكم المعبود هو الذي وصف بصفات الجلال لا الذين تدعون من دونه وأنتم أشد الخلائق احتياجاً إليه .

ومنها أن القصر إضافي بالنسبة إليه تعالى لا حقيقي .

وغير خفي عليك أن مفاد الآية وسياقها لا يلائم شيئاً من هذه الأجوبة نعم يمكن توجيه الجواب الأخير بما يرجع إلى ما قدمناه من الوجه .

وتذييل الآية بصفة الحميد للإشارة إلى أنه غني محمود الأفعال إن أعطى وإن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء والشكر وكل بدل مفروض وإن منع لم يتوجه إليه لائمة إذ لا حق لأحد عليه ولا يملك منه شيء .

قوله تعالى : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » أي

إن يرد إذهابكم يذهبكم أيها الناس لأنه غني عنكم لا يتضرر بذهابكم ويأت بخلق جديد يحمدونه ويثنون عليه لا لحاجة منه إليهم بل لأنه حميد ومقتضاه أن يجود فيحمد وليس ذلك على الله بصعب لقدرته المطلقة لأنه الله عز اسمه .

فقد بان أن مضمون الآية متفرعة على مضمون الآية السابقة فقوله : « إن يشأ يذهبكم » متفرع على كونه تعالى غنياً ، وقوله : « ويأت بخلق جديد» متفرع على كونه تعالى حميداً ، وقد فرع مضمون الجملتين في موضع آخر على غناه ورحمته قال تعالى : « وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء » الأنعام:١٣٣.

قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » الخ. قال الراغب: الوزر ـ بفتحتين ـ الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل ، قال تعالى : « كلا لا وزر » والوزر ـ بالكسر فالسكون ـ الثقل تشبيهاً بوزر الجبل ، ويعبر به عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: « ليحملوا أوزارهم كاملة » الآية كقوله : « ليحملوا أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ». انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حاملة للإثم إثم نفس أخرى ولازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلا بما حملت من إثم نفسها واكتسبته من الوزر .

والآية كأنها دفع دخل يشعر به آخرها كأنه لما قال : إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين ، فهددهم بالإهلاك والإفناء ، قيل : هؤلاء المكذبون أخذوا بوزرهم فما حال المؤمنين ؟ أيؤخذون بوزر غيرهم ؟

فأجيب أن لا تزور وازرة وزر أخرى ولا تحمل نفس حمل غيرها الذي أثقلها وإن كانت ذات قربى .

فهؤلاء المكذبون هم المعنيون بالتهديد ولا تنفع فيهم دعوتك وإنذارك لأنهم مطبوع على قلوبهم ، وإنما ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة والفريقان لا يستويان لأن مثلهم مثل الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات .

فقوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أي لا تحمل نفس حاملة للوزر والإثم إثم نفس أخرى حاملة .

وقوله : « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » أي

وإن تدع نفس مثقلة أثقلها حملها من الإثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها ولا يحمل من حملها شيء ولو كان المدعو ذا قربى للداعي كالأب والام والأخ والاخت .

وقوله : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة » أي هؤلاء المكذبون لا ينتفعون بالإنذار ولا تتحقق معهم حقيقة الإنذار لأنهم مطبوع على قلوبهم إنما تنذر وينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة التي هي أفضل العبادات وأهمها وبالجملة يؤمنون بالله ويعبدونه أي الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة إثر إنذارك لا أنهم يخشون ربهم ويصلون ثم ينذرون بعد ذلك حتى يلزم تحصيل الحاصل فالآية كقوله : « إني أراني أعصر خمراً » يوسف : ٣٦ .

وقوله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه » بدل الخشية وإقامة الصلاة من التزكي للإشارة إلى أن المطلوب بالدعوة والإنذار هو التزكي وتزكية النفس تلبسها بالخشية من الله على الغيب وإقامة الصلاة .

وفيه تقرير وتأكيد لما تقدم من كونه تعالى غنياً حميداً فهو تعالى لا ينتفع بما يدعو إليه من التزكي بل الذي تزكى فإنما يتزكى لنفع نفسه .

وقد ختم الآية بقوله : « وإلى الله المصير » للدلالة على أن تزكية من تزكى لا يذهب سدى ، فإن كلا من الفريقين صائرون إلى ربهم لا محالة وهو يحاسبهم ويجازيهم فيجازي هؤلاء المتزكين أحسن الجزاء .

قوله تعالى : « وما يستوي الأعمى والبصير » الظاهر أنه عطف على قوله : « وإلى الله المصير » تعليل في صورة التمثيل لعدم مساواة هؤلاء المتزكين لاولئك المكذبين ، وقيل : عطف على قوله السابق : « وما يستوي البحران » .

قوله تعالى : « ولا الظلمات ولا النور » تكرار حروف النفي مرة بعد مرة في الآية وما يليها لتأكيد النفي .

قوله تعالى : « ولا الظل ولا الحرور » الحرور شدة حر الشمس على ما قيل وقيل : هو السموم وقيل : السموم يهب نهاراً والحرور يهب ليلاً ونهاراً .

قوله تعالى : « وما يستوي الأحياء ولاالأموات» إلى آخر الآية عطف علىقوله : « وما يستوي الأعمى والبصير » وإنما كرر قوله : « ما يستوي » ولم يعطف«الأحياء ولا الأموات » على قوله : «الأعمى والبصير» كرابعته لطول الفصل فاعيد «مايستوي» لئلا يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله ـ إلى أن قال ـ كيف وإن يظهروا عليكم » الخ . التوبة : ٨ .

والجمل المتوالية المترتبة أعني قوله : « وما يستوي الأعمى والبصير ـ إلى قوله ـ وما يستوي الأحياء ولا الأموات » تمثيلات للمؤمن والكافر وتبعات أعمالها .

وقوله : « إن الله يسمع من يشاء » وهو المؤمن كان ميتاً فأحياه الله فأسمعه لما في نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً» الأنعام : ١٢٢ ، وأما النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنما هو وسيلة والهدى هدى الله .

وقوله : « وما أنت بمسمع من في القبور » أي الأموات والمراد بهم الكفار المطبوع على قلوبهم .

قوله تعالى : « إن أنت إلا نذير»قصر إضافي أي ليس لك إلا إنذارهم وأما هداية من اهتدى منهم وإضلال من ضل ولم يهتد جزاء له بسيىء عمله فإنما ذلك لله سبحانه. ولم يذكر البشير مع النذير مع كونه صلى الله عليه وآله وسلم متلبساً بالوصفين معاً لأن المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرض لوصف الانذار مع أنه مذكور في الآية التالية .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » المفاد على ما يقتضيه السياق إنا أرسلناك بالتبشير والإنذار وليس ببدع مستغرب فما من أمة من الامم إلا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه .

وظاهر السياق أن المراد بالنذير الرسول المبعوث من عندالله وفسر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظة والإنذار من نبي أو عالم غير نبي وهو خلاف ظاهر الآية .

نعم ليس من الواجب أن يكون نذير كل أمة من أفرادها فقد قال تعالى : « خلا فيها » ولم يقل : « خلا منها » .

قوله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات

وبالزبر وبالكتاب المنير»البينات هي الآيات المعجزة التي تشهد على حقية الرسل ،والزبر جمع زبور ولعل المراد بها بقرينة مقابلتها للكتاب الصحائف والكتب التي فيها ذكر الله تعالى من غير أن تتضمن الأحكام والشرائع،والكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمن للشرائع ككتاب نوح وإبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير » الأخذ كناية عن التعذيب ، والنكير الإنكار ، والباقي ظاهر .

﴿ كلام في معنى عموم الإنذار ﴾

قد تقدم في أبحاث النبوة في الجزء الثاني وفي قصص نوح عليه السلام في الجزء العاشر من الكتاب ما يدل من طريق العقل على عموم النبوة ويؤيده الكتاب .

فلا تخلو أمة من الامم الإنسانية عن ظهور ما للدعوة الحقة النبوية فيها وأما كون نبي كل أمة من نفس تلك الامة فلا دليل عليه ، وقد عرفت أن قوله تعالى :«وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » الآية مفاده ذلك .

وأما فعلية الإنذار ـ بحيث يبلغ كل فرد فرد من الامة مضافاً إلى أصل الاقتضاء ـ واطراد الدعوة في كل واحد واحد فمحكومة العلل والأسباب المتزاحمة في هذه النشأة المادية لا توافقه كما لا توافق سائر المقتضيات العامة التي قدرها الصنع كما أن في بنية كل مولود إنساني أن يعمر عمراً طبيعياً والحوادث تحول بين أكثر الأفراد وبين ذلك ،وكل مولود إنساني مجهز بجهاز التناسل للاستيلاد والإيلاد وكثير من الأفراد يموت قبل بلوغه فلا يبلغ ذلك إلى غير ذلك من النظائر .

فالنبوة والإنذار عام لكل أمة ولا يستلزم استلزاماً ضرورياً أن تبلغ الدعوة كل شخص من أشخاصها بل من الجائز أن تبلغ بلا واسطة أو معها بعض الامة وتتخلف عن بعض لحيلولة علل وأسباب مزاحمة بينه وبين البلوغ فمن توجهت منهم إليه الدعوة وبلغته تمت عليه الحجة ومن توجهت إليه ولم تبلغه لم تتم عليه الحجة وكان من المستضعفين

وكان أمره إلى الله قال تعالى : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » النساء : ٩٨ .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور في قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : ألا لا يجني جان إلا على نفسه لا يجني والد على ولده ولا مولود على والده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور » قال : هؤلاء الكفار لا يسمعون منك كما لا يسمع أهل القبور .

وفي الدر المنثور أخرج أبو سهل السري بن سهل الجند يسابوري الخامس من حديثه من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله : « إنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور » قال : كان النبي ﷺ يقف على القتلى يوم بدر ويقول: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً يا فلان بن فلان ألم تكفر بربك ؟ ألم تكذب نبيك ؟ ألم تقطع رحمك ؟ فقالوا : يا رسول الله أيسمعون ما تقول ؟ قال : ما أنتم بأسمع منهم لما أقول فأنزل الله : « إنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور » ومثل ضربه الله للكفار أنهم لا يسمعون لقوله .

أقول : وفي الرواية ما لا يخفى من لوائح الوضع فساحة النبي عليه‌السلام أجل من أن يقول ما ليس له به علم من ربه حتى ينزل الله عليه آية تكذبه فيما يدعيه ويخبر به .

على أن ما نقله من الآية لا يطابق المصحف فصدره مأخوذ من سورة النمل الآية ٨٠ وذيله مأخوذ من سورة فاطر الآية ٢٢ .

على أن سياق الآية مكي في سياق آيات سابقة ولاحقة مكية .

وفي الاحتجاج في احتجاج الصادق عليه‌السلام : قال السائل : فأخبرني عن المجوس أفبعث إليهم نبياً ؟ فإني أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة وأمثالاً شافية ، ويقرون

بالثواب والعقاب، ولهم شرائع يعملون بها. قال: ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وقد بعث إليهم نبي بكتاب من عند الله فأنكروه وجحدوا كتابه.

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ـ ٢٧. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَالِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَوءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ـ ٢٨. إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ـ ٢٩. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ـ ٣٠. وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ـ ٣١. ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ـ ٣٢. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ـ ٣٣. وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ـ ٣٤. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ

ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاٰ يَمَسُّنٰا فِيهٰا نَصَبٌ وَلاٰ يَمَسُّنٰا فِيهٰا لُغُوبٌ ـ ٣٥. وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاٰ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ـ ٣٦. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهٰا رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنّٰا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مٰا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجٰاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ـ ٣٧. إِنَّ اللهَ عٰالِمُ غَيْبِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ ـ ٣٨.

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى ذكر آيات أُخر من آيات التوحيد وفيها انتقال إلى حديث الكتاب وأنه حق نازل من عند الله تعالى وقد انجر الكلام في الفصل السابق من الآيات إلى ذكر النبوة والكتاب حيث قال: «إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً» وقال: «جاؤا بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير» فكان من الحري أن يتعرض لصفة الكتاب وما تستتبعه من الآثار.

قوله تعالى: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» الخ. حجة أُخرى على التوحيد وهو أن الله سبحانه ينزل الماء من السماء بالإمطار وهو أقوى العوامل المعينة لخروج الثمرات، ولو كان خروجها عن مقتضى طباع هذا العامل وهو واحد لكان جميعها ذا لون واحد فاختلاف الألوان يدل على وقوع التدبير الإلهي.

والقول بأن اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثرة فيها ومنها اختلاف العناصر الموجودة فيها نوعاً وقدراً وخصوصية التأليف.

مدفوع بأن الكلام منقول حينئذ إلى اختلاف نفس العناصر وهي منتهية إلى

المادة المشتركة التي لا اختلاف فيها فاختلاف العناصر المكونة منها يدل على عامل آخر وراء المادة يدبر أمرها ويسوقها إلى غايات مختلفة .

والظاهر أن المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها ويلزمه اختلافات أخر من حيث الطعم والرائحة والخواص ، وقيل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فكثيراً ما يطلق اللون في الفواكه والأطعمة على النوع كما يقال : قدم فلان ألواناً من الطعام والفاكهة فهو من الكناية ، وقوله بعد : « ومن الجبال جدد بيض وحمر » لا يخلو من تأييد للوجه الأول .

وفي قوله : « فأخرجنا به » الخ . التفات من الغيبة إلى التكلم . قيل : إن ذلك لكمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة .

ونظير الوجه يجري في قوله السابق : «إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » وأما ما في الآية السابقة من قوله : « ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير» فلعل الوجه فيه أن أمرهم إلى الله لا يتخلل بينه وبينهم أحد حتى يشفع لهم أو ينصرهم فينجوا من العذاب .

وقوله : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » الجدد بالضم فالفتح جمع جدة بضم الجيم وهي الطريقة والجادة ، والبيض والحمر جمع أبيض وأحمر ، والظاهر أن قوله : « مختلف ألوانها » صفة لجدد و « ألوانها» فاعل«مختلف» ولو كانت الجملة مبتدء وخبراً لقيل : مختلفة ألوانها كما قيل ، والغرابيب جمع غربيب وهو الأسود الشديد السواد ومنه الغراب و « سود » بدل أو عطف بيان لغرابيب .

والمعنى: ألم تر أن من الجبال طرائق بيض وحمر وسود مختلف ألوانها، والمراد إما الطرق المسلوكة في الجبال ولها ألوان مختلفة ، وإما نفس الجبال التي هي خطوط مختلفة ممدودة على وجه الأرض بيض وحمر وسود مختلف ألوانها .

قوله تعالى : « ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » أي ومن الناس والدواب التي تدب في الأرض والأنعام كالإبل والغنم والبقر بعض مختلف ألوانه بالبياض والحمرة والسواد كاختلاف الثمرات والجبال في ألوانها .

وقيل : قوله : « كذلك » خبر لمبتدء محذوف، والتقدير الأمر كذلك فهو تقرير إجمالي للتفصيل المتقدم من اختلاف الثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام .

وقيل : « كذلك » متعلق بقوله : « يخشى » في قوله: « إنما يخشى الله من عباده العلماء » والإشارة إلى ما تقدم من الاعتبار بالثمرات والجبال وغيرهما والمعنى إنما يخشى الله كذلك الاعتبار بالآيات من عباده العلماء ، وهو بعيد لفظاً ومعنى .

قوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء» استئناف يوضح أن الاعتبار بهذه الآيات إنما يؤثر أثره ويورث الإيمان بالله حقيقة والخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجهال ، وقد مر أن الإنذار إنما ينجح فيهم حيث قال: « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة» فهذه الآية كالموضحة لمعنى تلك تبين أن الخشية حق الخشية إنما توجد في العلماء .

والمراد بالعلماء العلماء بالله وهم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة تامة تطمئن بها قلوبهم وتزيل وصمة الشك والقلق عن نفوسهم وتظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم ، والمراد بالخشية حينئذ حق الخشية وتتبعها خشوع في باطنهم وخضوع في ظاهرهم . هذا ما يستدعيه السياق في معنى الآية .

وقوله : « إن الله عزيز غفور » يفيد معنى التعليل فلعزته تعالى وكونه قاهراً غير مقهور وغالباً غير مغلوب من كل جهة يخشاه العارفون، ولكونه غفوراً كثير المغفرة للآثام والخطيئات يؤمنون به ويتقربون إليه ويشتاقون إلى لقائه .

قوله تعالى :« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » تلاوة الكتاب قراءة القرآن وقد أثنى عليها الله سبحانه ، وإقامة الصلاة إدامة إتيانها وحفظها من أن تترك ، والإنفاق من الرزق سراً وعلانية بذل المال سراً تحذراً من الرياء وزوال الإخلاص في الإنفاق المسنون ، وبذل المال علانية ليشيع بين الناس كما في الإنفاق الواجب .

وقوله : « يرجون تجارة لن تبور » أي لن تهلك بالخسران ، وذكر بعضهم أن قوله : « يرجون » الخ . خبر إن في صدر الآية وعند بعضهم الخبر مقدر يتعلق بقوله: « ليوفيهم » الخ « أي فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم » الخ .

قوله تعالى : « ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور » متعلق بقوله : « يتلون » وما عطف عليه في الآية السابقة أي أنهم عملوا ما عملوا لأن يوفيهم ويؤتيهم إيتاء تاماً كاملاً أجورهم وثوابات أعمالهم .

وقوله : « ويزيدهم من فضله » يمكن أن يراد بهذه الزيادة تضعيف الثواب أضعافاً كما في قوله : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ وقوله : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٦١ ، ويمكن أن يراد بها زيادة ليست من سنخ ثواب الأعمال كما في قوله : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ .

وقوله : « إنه غفور شكور » تعليل لمضمون الآية وزيادة فهو تعالى لكونه غفوراً يغفر زلاتهم ولكونه شكوراً يثيبهم ويزيد من فضله .

قوله تعالى : « والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق » ضمير الفصل واللام في قوله : « هو الحق » للتأكيد لا للقصر أي هو حق لا يشوبه باطل .

قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » إلى آخر الآية . يقال : أورثه مالاً كذا أي تركه فيهم يقومون بأمره بعده وقد كان هو القائم بأمره المتصرف فيه ، وكذا إيراث العلم والجاه ونحوهما تركه عند الغير يقوم بأمره بعد ما كان عند غيره ينتفع به فايراث القوم الكتاب تركه عندهم يتناولونه خلفاً عن سلف وينتفعون به .

وتصح هذه النسبة وإن كان القائم به بعض القوم دون كلهم ،قال تعالى : « ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولي الألباب » المؤمن : ٥٤ ، وقال « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » المائدة : ٤٤ ، وقال : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » الشورى : ١٤ . فبنو إسرائيل أورثوا الكتاب وإن كان المؤدون حقه القائمون بأمره بعضهم لا جميعهم .

والمراد بالكتاب في الآية على ما يعطيه السياق هو القرآن الكريم كيف ؟ وقوله في الآية السابقة : « والذي أوحينا إليك من الكتاب » نص فيه ، فاللام في الكتاب

للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول : إن اللام للجنس والمراد بالكتاب مطلق الكتاب السماوي المنزل على الأنبياء .

والاصطفاء أخذ صفوة الشيء، ويقرب من معنى الاختيار والفرق أن الاختيار أخذ الشيء من بين الأشياء بما أنه خيرها والاصطفاء أخذه من بينها بما أنه صفوتها وخالصها.

وقوله : « من عبادنا » يحتمل أن يكون « من » للتبيين أو للابتداء أو للتبعيض الأقرب إلى الذهن أن يكون بيانية وقد قال تعالى : « وسلام على عباده الذين اصطفى» النمل : ٥٩ .

واختلفوا في هؤلاء المصطفين من عباده من هم ؟ فقيل : هم الأنبياء، وقيل: هم بنو إسرائيل الداخلون في قوله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » آل عمران : ٣٣ ، وقيل : هم أمة محمد ﷺ فقد أورثوا القرآن من نبيهم إليه يرجعون وبه ينتفعون علماؤهم بلا واسطة وغيرهم بواسطتهم ، وقيل: هم العلماء من الامة المحمدية .

وقيل : ـ وهو المأثور عن الصادقين عليهما السلام في روايات كثيرة مستفيضة ـ أن المراد بهم ذرية النبي ﷺ من أولاد فاطمة عليها السلام وهم الداخلون في آل إبراهيم في قوله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم » آل عمران : ٣٣ ، وقد نص النبي صلى الله عليه وآله على علمهم بالقرآن وإصابة نظرهم فيه وملازمتهم إياه بقوله في الحديث المتواتر المتفق عليه : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » .

وعلى هذا فالمعنى بعد ما أوحينا إليك القرآن ـ ثم للتراخي الرتبي ـ أورثنا ذريتك إياه وهم الذين اصطفينا من عبادنا إذا اصطفينا آل إبراهيم وإضافة العباد إلى نون العظمة للتشريف .

وقوله : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » يحتمل أن يكون ضمير « منهم » راجعاً إلى « الذين اصطفينا » فيكون الطوائف الثلاث الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات شركاء في الوراثة وإن كان الوارث الحقيقي العالم بالكتاب والحافظ له هو السابق بالخيرات .

ويحتمل أن يكون راجعاً إلى عبادنا ـ من غير إفادة الإضافة للتشريف ـ فيكون قوله : « فمنهم » مفيداً للتعليل والمعنى إنما أورثنا الكتاب بعض عبادنا وهم المصطفون لا جميع العباد لأن من عبادنا من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق ولا يصلح الكل للوراثة .

ويمكن تأييد أول الاحتمالين بأن لا مانع من نسبة الوراثة إلى الكل مع قيام البعض بها حقيقة كما نجد نظيره في قوله تعالى: «وأورثنا بني إسرائيل الكتاب» المؤمن: ٥٤

وما في الآية من المقابلة بين الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات يعطي أن المراد بالظالم لنفسه من عليه شيء من السيئات وهو مسلم من أهل القرآن لكونه مصطفى ووارثاً ، والمراد بالمقتصد المتوسط الذي هو في قصد السبيل وسواء الطريق والمراد بالسابق بالخيرات بإذن الله من سبق الظالم والمقتصد إلى درجات القرب فهو أمام غيره بإذن الله بسبب فعل الخيرات قال تعالى : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » الواقعة : ١١ .

وقوله تعالى : « ذلك هو الفضل الكبير » أي ما تقدم من الإيراث هو الفضل الكبير من الله لا دخل للكسب فيه .

هذا ما يعطيه السياق وتفيده الأخبار من معنى الآية وفيها للقوم اختلاف عجيب فقد اختلف في « ثم » فقيل : هي للتراخي بحسب الإخبار ، وقيل : للتراخي الرتبي ، وقيل : للتراخي الزماني . ثم العطف على « أوحينا » أو على « الذي أوحينا » .

واختلف في « أورثنا » فقيل : هو على ظاهره ، وقيل : معناه حكمنا بإيراثه وقدرناه ، واختلف في الكتاب فقيل : المراد به القرآن ، وقيل: جنس الكتب السماوية ، واختلف في « الذين اصطفينا » فقيل : المراد بهم الأنبياء ، وقيل : بنو إسرائيل ، وقيل : أمة محمد ، وقيل : العلماء منهم ، وقيل : ذرية النبي من ولد فاطمة عليها السلام.

واختلف في « من عبادنا » فقيل : من للتبعيض أو للابتداء أو للتبيين ويختلف المراد من العباد بحسب اختلاف معنى « من » وكذا إضافة « عبادنا » للتشريف على بعض الوجوه ولغيره على بعضها .

واختلف في «فمنهم» فقيل : مرجع الضمير «الذين» وقيل : « عبادنا »واختلف في الظالم لنفسه والمقتصد والسابق فقيل: الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه والمقتصد من استوى ظاهره وباطنه والسابق من كان باطنه خيراً من ظاهره ، وقيل : السابق هم السابقون الماضون في عهد النبي ﷺ من أصحابه والمقتصد من تبع أثرهم ولحق بهم من الصحابة والظالم لنفسه غيرهم ، وقيل : الظالم من غلبت عليه السيئة والمقتصد المتوسط حالاً والسابق هو المقرب إلى الله السابق في الدرجات .

وهناك أقوال متفرقة أخر تركنا إيرادها ولو ضربت الاحتمالات بعضها في بعض جاوز الألف .

قوله تعالى : « جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير »التحلية هي التزيين والأساور جمع أسورة وهي جمع سوار بكسر السين قال الراغب : سوار المرأة معرب وأصله دستواره . انتهى .

وقوله : « جنات عدن » الخ. ظاهره أنه بيان للفضل الكبير قال في المجمع: هذا تفسير للفضل كأنه قيل : ما ذلك الفضل ؟ فقال : هي جنات أي جزاء جنات أو دخول جنات ويجوز أن يكون بدلاً من الفضل كأنه قال : ذلك دخول جنات. انتهى. والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وقالوا الحمدلله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » قيل : المراد بالحزن الذي يحمدون الله على إذهابه بإدخالهم الجنة الحزن الذي كان يتوجه إليهم في الحياة الدنيا وما يحف بها من الشدائد والنوائب .

وقيل : المراد به الحزن الذي كان قد أحاط بهم بعد الارتحال من الدنيا،وقبل الدخول في جنة الآخرة إشفاقاً مما اكتسبوه من السيئات .

وعلى هذا فالقول قول الظالم لنفسه منهم أو قوله وقول المقتصد وأما السابق بالخيرات منهم فلا سيئة في صحيفة أعماله حتى يعذب بها .وهذا الوجه أنسب لقولهم في آخر حمدهم : « إن ربنا لغفور شكور » .

قوله تعالى : « الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » المقامة الإقامة ، ودار المقامة المنزل الذي لا خروج منه ولا تحول .

والنصب بفتحتين التعب والمشقة ، واللغوب بضم اللام : العي والتعب في طلب المعاش وغيره .

والمعنى: الذي جعلنا حالين في دار الخلود من فضله من غير استحقاق منا عليه لا يمسنا في هذه الدار وهي الجنة مشقة وتعب ولا يمسنا فيها عي ولا كلال في طلب ما نريد أي إن لنا فيها ما نشاء .

وفي قوله : «من فضله» مناسبة خاصة مع قوله السابق: «ذلك هو الفضل الكبير».

قوله تعالى : «والذين كفروا لهم نار جهنم» إلى آخر الآية اللام في «لهم» للاختصاص ويفيد كون النار جزاء لهم لا ينفك عنهم ، وقوله : « لا يقضى عليهم فيموتوا » أي لا يحكم عليهم بالموت حتى يموتوا فهم أحياء على ما هم فيه من شدة العذاب ولا يخفف عنهم من عذاب النار كذلك نجزي كل كفور شديد الكفران أو كثيره .

قوله تعالى : « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا » إلى آخر الآية في المجمع : الاصطراخ الصياح والنداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ انتهى .

وقوله : « ربنا أخرجنا » الخ . بيان لاصطراخهم ، وقوله : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر » الخ . جواب اصطراخهم وقوله : « فذوقوا » وقوله : « فما للظالمين من نصير » كل منهما متفرع على ما قبله .

والمعنى، وهؤلاء الذين في النار من الكفار يصطرخون ويصيحون بالاستغاثة فيها قائلين : ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحاً غير سيىء غير الذي كنا نعمل فيقال لهم رداً عليهم : ـ كلا ـ أو لم نعمركم عمراً يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا ولم تؤمنوا ؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصرهم ليتخلصوا من العذاب .

قوله تعالى : « إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور » فيعاملكم بما في باطنكم من الاعتقاد وآثار الأعمال ويحاسبكم عليه سواء وافق ظاهركم باطنكم أو خالف قال تعالى : « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤ ، وقال : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ٩ .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » الآية روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : يعني بالعلماء من صدق قوله فعله ، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم . وفي الحديث أعلمكم بالله أخوفكم لله .

أقول : وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام ما في معناه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : العلم علمان : علم في القلب فذاك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذاك حجة الله على خلقه .

وفي المجمع روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في قوله : « ويزيدهم من فضله » : هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليه معروفاً في الدنيا .

وفي الكافي بإسناده عن أحمد بن عمر قال : سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » الآية قال : فقال : ولد فاطمة عليها السلام ، والسابق بالخيرات الإمام والمقتصد العارف بالإمام والظالم لنفسه الذي لا يعرف الإمام .

وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس في حديث لأبي إسحاق السبيعي عن الباقر عليه السلام في الآية قال : هي لنا خاصة يا أبا إسحاق أما السابق بالخيرات فعلي بن أبي طالب والحسن والحسين والشهيد منا ، وأما المقتصد فصائم بالنهار وقائم بالليل ، وأما الظالم لنفسه ففيه ما في الناس وهو مغفور له .

أقول : المراد بالشهيد بقرينة الروايات الاخر الإمام .

وفي معاني الأخبار مسنداً عن الصادق عليه السلام في الآية قال : الظالم يحوم حوم نفسه والمقتصد يحوم حوم قلبه والسابق بالخيرات يحوم حوم ربه .

أقول : الحوم والحومان الدوران ، ودوران الظالم لنفسه حوم نفسه اتباعـه أهواءها وسعيه في تحصيل ما يرضيها ، ودوران المقتصد حوم قلبه اشتغاله بما يزكى قلبه ويطهره بالزهد والتعبد ، ودوران السابق بالخيرات حوم ربه إخلاصه له تعـالى فيذكره وينسى غيره فلا يرجو إلا إياه ولا يقصد إلا إياه .

واعلم ان الروايات من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في كون الآية خاصة بولد فاطمة عليها السلام كثيرة جداً .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » فأما الذين سبقوا فاولئك يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فاولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فاولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يلقاهم الله برحمة فهم الذين يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب .

أقول : ورواه في المجمع عن أبي الدرداء عنه ﷺ وفي معناه أحاديث أخر ، وهناك ما يخالفها ولا يعبأ به كما فيه عن ابن مردويه عن عمر عن النبي ﷺ في قوله : « ومنهم ظالم لنفسه » قال : الكافر .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » قال: النصب العناء واللغوب الكسل والضجر .

وفي نهج البلاغة ، وقال : العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة .

أقول : ورواه عنه عليه السلام في المجمع ورواه في الدر المنثور عـن ابن جرير عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الاصول والبيهقي في سننه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين وهو العمر

الذي قال الله : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر » .

أقول : وروى ذلك بطرق أخرى عن سهل بن سعد وأبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي المجمع : وقيل : هو توبيخ لابن ثماني عشر سنة وروي ذلك عن الباقر عليه السلام .

أقول : ورواه في الفقيه عنه عليه السلام مضمراً .

* * *

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ـ ٣٩ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ـ ٤٠ . إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ـ ٤١ . وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ـ ٤٢ . إِسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ـ ٤٣ . أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ـ ٤٤. وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ـ ٤٥.

﴿ بيان ﴾

احتجاج على توحيد الربوبية كقوله : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض» الآية، وقوله : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » الآية ، وعلى نفي ربوبية شركائهم « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله» الآية وتوبيخ وتهديد لهم على نقضهم ما أبرموه باليمين ومكرهم السيىء .

ثم تسجيل أن الله لا يعجزه شيء وإنما يمهل من أمهله من هؤلاء الظالمين إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم جازاهم ما يستحقونه وبذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » الخ . الخلائف جمع خليفة، وكون الناس خلائف في الأرض هوقيام كل لاحق منهم مقام سابقه وسلطته على التصرف والانتفاع منها كما كان السابق مسلطاً عليه، وهم إنما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقة وهو الخلقة من طريق النسل والولادة فإن هذا النوع من الخلقة يقسم المخلوق إلى سلف وخلف .

فجعل الخلافة الأرضية نوع من التدبير مشوب بالخلق غير منفك عنه ولذلك استدل به على توحده تعالى في ربوبيته لأنه مختص به تعالى لا مجال لدعواه لغيره .

فقوله : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » حجة على توحده تعالى في ربوبيته

وانتفائها عن شركائهم : تقريره أن الذي جعل الخلافة الأرضية في العالم الإنساني هو ربهم المدبر لأمرهم ، وجعل الخلافة لا ينفك عن نوع الخلقة فخالق الإنسان هو رب الإنسان لكن الخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله هو رب الإنسان .

وقوله : « فمن كفر فعليه كفره » أي فالله سبحانه هو رب الإنسان فمن كفر وستر هذه الحقيقة ونسب الربوبية إلى غيره تعالى فعلى ضرره كفره .

وقوله : « ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا » بيان لكون كفرهم عليهم وهو أن كفرهم يورث لهم مقتاً عند ربهم والمقت شدة البغض لأن فيه إعراضاً عن عبوديته واستهانة بساحته ، ويورث لهم خسارا في أنفسهم لأنهم بدلوا السعادة الإنسانية شقاء ووبالاً سيصيبهم في مسيرهم ومنقلبهم إلى دار الجزاء .

وإنما عبر عن أثر الكفر بالزيادة لأن الفطرة الإنسانية بسيطة ساذجة واقعة في معرض الاستكمال والازدياد فإن أسلم الإنسان زاده ذلك كمالاً وقربا من الله وإن كفر زاده ذلك مقتاً عندالله وخسارا .

وإنما قيد المقت بقوله : « عند ربهم » دون الخسار لأن الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفراً والسعادة شقاء وهو أمر عند أنفسهم وأمـــا المقت وشدة البغض فمن عند الله سبحانه .

والحب والبغض المنسوبان إلى الله سبحانه من صفات الأفعال وهي معان خارجة عن الذات غير قائمة بها ، ومعنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه وانجذابها إليه وبغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه وابتعادها عنه .

قوله تعالى : « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعـون من دون الله » إلى آخر الآية إضافة الشركاء إليهم بعناية أنهم يدعون أنهم شركاء لله فهي إضافة لامية مجازية .

وفي الآية تلقين النبي ﷺ الحجة على نفي ربوبية آلهتهم الذين كانوا يعبدونهم وتقرير الحجة أنهم لو كانوا أرباباً آلهة من دون الله لكان لهم شيء من تدبير العالم فكانوا خالقين لما يدبرونه لأن الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر ولو كانوا خالقين لدل

عليه دليل والدليل إما من العالم أو من قبل الله سبحانه أما العالم فلا شيء منه يدل على كونه مخلوقاً لهم ولو بنحو الشركة وهو قوله : « أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات » .

وأما من قبله تعالى فلو كان لكان كتاباً سماوياً نازلاً من عنده سبحانه يعترف بربوبيتهم ويجوز للناس أن يعبدوهم ويتخذوهم آلهة، ولم ينزل كتاب على هذه الصفة وهم معترفون بذلك وهو قوله : « أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه » .

وإنما عبر عن نفي خالقيتهم في الأرض بقوله : « أروني ماذا خلقوا من الأرض » ولم يقل : أنبئوني ألهم شرك في الأرض ؟ وعبر في السماوات بقوله : « أم لهم شرك في السماوات » ولم يقل : أم ماذا خلقوا من السماوات .

لأن المراد بالأرض ـ على ما يدل عليه سياق الاحتجاج ـ العالم الأرضي وهو الأرض بما فيها وما عليها والمراد بالسماوات العالم السماوي المشتمل على السماوات ومافيها وما عليها فقوله : « ماذا خلقوا من الأرض » في معنى ألهم شرك في الأرض ولا يكون إلا بخلق شيء منها ، وقوله : « أم لهم شرك في السماوات » في معنى أم ماذا خلقوا من السماوات ، وقد اكتفي بذكر الخلق في جانب الأرض إشارةإلى أن الشرك في الربوبية لا يكون إلا بخلق .

وقوله : « أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه » أي بل آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه أي على حجة ظاهرة من الكتاب أن لشركائهم شركة معنا، وذلك بدلالته على أنهم شركاء لله .

وقد قال : « أم آتيناهم كتاباً » ولم يقل : أم لهم كتاب ونحو ذلك ليتأكد النفي والإنكار فإن قولنا : أم لهم كتاب ونحو ذلك إنكار لوجود الكتاب لكن قوله : « أم آتيناهم كتاباً » إنكار لوجود الكتاب ممن ينزل الكتاب لو نزل .

وقد تبين بما تقدم أن ضمير الجمع في « آتيناهم » وفي « فهم على بينة » للمشركين فلا يعبأ بما قيل : إن الضميرين للشركاء .

وقوله : « بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً » إضراب عما تقدم من الاحتجاج بأن الذي حملهم على الشرك ليس هو حجة تحملهم عليه ويعتمدون عليها بل

غرور بعضهم بعضاً بوعد الشفاعة والزلفى فأسلافهم يغرون أخلافهم ورؤساؤهم وأئمتهم يغرون مرؤسيهم وتابعيهم ويعدونهم شفاعة الشركاء عندالله سبحانه ولا حقيقة لها .

وحجة الآية عامة على المشركين عبدة الأصنام وهم الذين يعبدون الملائكة والجن وقديسي البشر ويتخذون لهم أصناماً يتوجهون إليها ، وعلى الذين يعبدون روحانيي الكواكب ويتوجهون إلى الكواكب ثم يتخذون للكواكب أصناماً، وعلى الذين يعبدون الملائكة والعناصر من غير أن يتخذوا لها أصناماً كما ينقل عن الفرس القدماء ، وعلى الذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح عليه السلام .

قوله تعالى : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » الخ . قيل : إن الآية استئناف مقرر لغاية قبح الشرك وهوله أي أن الله تعالى يحفظ السماوات والأرض كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا وتضمحلا لأن الممكن كما يحتاج إلى الواجب حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائه . انتهى .

والظاهر أنه تعالى لما استدل على توحده في الربوبية بجعل الخلافة في النوع الإنساني بقوله : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » الآية ثم نفى الشركة مطلقاً بالحجة عمم الحجة بحيث تشمل الخلق كله أعني السماوات والأرض فاحتج على توحده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإن من البين الذي لا يرتاب فيه أن حدوث الشيء وأصل تلبسه بالوجود بعد العدم غير بقائه وتلبسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشيء بعد حدوثه يحتاج إلى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتصال والاستمرار .

وإبقاء الشيء بعد إحداثه كما أنه إيجاد بعد الإيجاد كذلك هو تدبير لأمره فإنك إن دققت النظر وجدت أن النظام الجاري في الكون إنما يجري بالإحداث والإبقاء فقط . والموجد والخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله سبحانه هو الخالق المدبر للسماوات والأرض وحده لا شريك له .

فقوله : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » الإمساك بمعناه المعروف وقوله : « أن تزولا » ـ وتقديره كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا ـ متعلق به ، وقيل : الإمساك بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ وعلى أي حال فالإمساك كناية عن الإبقاء وهو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتصال والاستمرار، والزوال هو الاضمحلال والبطلان.

ونقل عن بعضهم أنه فسر الزوال بالانتقال المكاني، والمعنى أن الله يمنع السماوات والأرض من أن ينتقل شيء منها عن مكانه الذي استقر فيه فيرتفع أو ينخفض انتهى والشأن في تصور مراده تصوراً صحيحاً .

وقوله : « ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » السياق يعطي أن المراد بالزوال ههنا الإشراف على الزوال إذ نفس الزوال لا يجتمع معه الإمساك والمعنى وأقسم لئن أشرفتا على الزوال لم يمسكهما أحد من بعد الله سبحانه إذ لا مفيض للوجود غيره ويمكن أن يكون المراد بالزوال معناه الحقيقي والمراد بالإمساك القدرة على الإمساك وقد تبين أن « من » الاولى زائدة للتأكيد والثانية للابتداء ، وضمير « من بعده » راجع إليه تعالى ، وقيل : راجع إلى الزوال .

وقوله : « إنه كان حليماً غفوراً » فهو لحلمه لا يعجل إلى أمر ولمغفرة يستر جهات العدم في الأشياء ، ومقتضى الاسمين أن يمسك السموات والأرض أن تزولا إلى أجل مسمى .

وقال في إرشاد العقل السليم : إنه كان حليماً غفوراً غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّاً حسبما قال تعالى : « تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض » انتهى .

قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً » قال الراغب : الجهد ـ بفتح الجيم ـ والجهد ـ بضمها ـ الطاقة والمشقة ـ إلى أن قال ـ وقال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم . انتهى . وقال : النفر الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء وعن الشيء يقال : نفر عن الشيء نفوراً قال تعالى : « ما زادهم إلا نفوراً » . انتهى .

قيل [١] : بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الامم انتهى ، وسياق الآية يصدق هذا النقل ويؤيده .

(١) رواه في الدر المنثور عن أبي هلال وعن ابن جريج .

فقوله : « وأقسموا بالله جهداً أيمانهم » الضمير لقريش وقد حلفوا هذا الحلف قبل بعثة النبي ﷺ بدليل قوله بعد : « فلما جاءهم نذير » ، والمقسم به قوله : «لئن جاءهم نذير » الخ .

وقوله : « لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الامم »أي إحدى الامم التي جاءهم نذير كاليهود والنصارى وإنما قال : « ليكونن أهدى من إحدى الامم » ولم يقل : أهدى منهم لأن المعنى أنهم كانوا أمة ما جاءهم نذير ثم لو جاءهم نذير كانوا أمة ذات نذير كإحدى تلك الامم المنذرة ثم بتصديق النذير يصيرون أهدى من التي ماثلوها وهو قوله : « أهدى من إحدى الامم » فافهمه .

وقيل : إن مقتضى المقام العموم ، وقوله :« إحدى الامم » عام وإن كان نكرة في سياق الإثبات واللام في « الامم » للعهد ، والمعنى ليكونن أهدى من كل واحدة من تلك الامم التي كذبوا رسلهم من اليهود والنصارى وغيرهم .

وقيل : المعنى ليكونن أهدى من أمة يقال فيها : إحدى الامم تفضيلاً لها على غيرها من الامم كما يقال : هو واحد القوم وواحد عصره . انتهى .

ولا يخلو الوجه الأخير عن تكلف وبعد .

وقوله : « فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً » المراد بالنذير النبي ﷺ والنفور التباعد والهرب .

قوله تعالى : « استكباراً في الأرض ومكر السيىء ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله » قال الراغب : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قال تعالى : « والله خير الماكرين» ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح قال تعالى:«ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله»انتهى.

وقال أيضاً : قال عز وجل : « ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله » أي لا ينزل ولا يصيب . قيل :وأصله حق فقلب نحو زل وزال وقد قرىء فأزلهما الشيطان وأزالهما وعلى هذا ذمه وذامه . انتهى .

وقوله : « استكباراً في الأرض » مفعول لأجله لقوله: « نفوراً» أي نفروا عنه

وتباعدوا للاستكبار في الأرض وقوله : « ومكر السيىء» معطوف على «استكباراً» ومفعول لأجله مثله ، وقيل : معطوف على «نفوراً » والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل قوله ثانياً : « ولا يحيق المكر السيىء » الخ .

وقوله : « ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله» أي لايصيب ولا ينزل المكر السيىء إلابأهله ولايستقر إلا فيه ، فان المكر السيىء وإن كان ربما أصاب به مكروه للممكور به ، لكنه سيزول ولا يدوم إلا أن أثره السيىء بما أنه المكر سيىء يبقى في نفس الماكر وسيظهر فيه ويجزى به إما في الدنيا وإما في الآخرة البتة ، ولهذا فسر الآية في مجمع البيان بقوله : والمعنى لا ينزل جزاء المكر السيىء إلا بمن فعله .

والكلام مرسل إرسال المثل كقوله تعالى : «إنما بغيكم على أنفسكم» يونس :٢٣ « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » الفتح : ١٠ .

وقوله : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين » النظر والانتظار بمعنى التوقع والفاء للتفريع والجملة استنتاج مماتقدمها والاستفهام للإنكار والمعنى وإذمكروا المكر السيىء والمكر السيىء يحيق بأهله فهم لا ينتظرون إلا السنة الجارية في الامم الماضين وهي العذاب الإلهي النازل بهم إثر مكرهم وتكذيبهم بآيات الله .

وقوله : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » تبديل السنة أن توضع العافية والنعمة موضع العذاب ، وتحويلها أن ينقل العذاب من قوم يستحقونه إلى غيرهم ، وسنة الله لا تقبل تبديلا ولا تحويلا لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعيضا ولا استثناء .

وقد أخذ الله بالعذاب هؤلا المشركين الماكرين يوم بدر فقتل عامتهم. والخطاب للنبي ﷺ أو لكل سامع .

قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة » استشهاد على سنته الجارية في الامم الماضية وقد كانوا أشد قوة من مشركي مكة فأخذهم الله بالعذاب لما مكروا و كذبوا .

قوله تعالى : « وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات والأرض إنه كان عليما

قديرا » تتميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم وتخويفهم ، والمحصل ليتقوا الله وليؤمنوا به ولا يمكروا به ولا يكذبوا فإن سنة الله في ذلك هي العذاب كما يشهد به ما جرى في الامم السابقة من الإهلاك والتعذيب وقد كانوا أشد قوة منهم والله سبحانه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض بقوة أو مكر فإنه عليم على الإطلاق لا يغفل ولا يجهل حتى ينخدع بمكر أو حيلة قدير على الإطلاق لا يقاومه شيء .

قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » الخ. المراد بالمؤاخذة المؤاخذة الدنيوية كما يدل عليه قوله الآتي : « ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » الخ . والمراد بالناس جميعهم فإن الآية مسبوقة بذكر مؤاخذة بعضهم وهم الماكرون المكذبون بآيات الله ، والمراد بما كسبوا المعاصي التي اكتسبوها بقرينة المؤاخذة التي هو العذاب وقد قال في نظيرة الآية من سورة النحل: « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » النحل : ٦١ .

والمراد بظهرها ظهر الأرض لأن الناس يعيشون عليه على أن الأرض تقدم ذكرها في الآية السابقة .

والمراد بالدابة كل ما يدب في الأرض من إنسان ذكر أو أنثى كبير أو صغير واحتمل أن يكون المراد كل ما يدب في الأرض من حيوان وإهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنما هو لكونها مخلوقة للإنسان كما قال تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » البقرة : ٢٩ .

وقول بعضهم: ذلك لشؤم المعاصي وقد قال تعالى: « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » مدفوع بأن شؤم المعصية لا يتعدى العاصي إلى غيره وقد قال تعالى: « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فاطر: ١٨، وأما الآية أعني قوله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » الأنفال: ٢٥ فمدلولها على ما تقدم من تفسيرها اختصاص الفتنة بالذين ظلموا منهم خاصة لا عمومها لهم ولغيرهم فراجع .

وقوله : « ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » وهو الموت أو القيامة وقوله : « فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا » أي فيجازي كلا بما عمل فإنه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنهم عباده وكيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه والرب عمل عبده ؟

وقد بان بما تقدم أن قوله: « فإن الله كان بعباده بصيرا » من وضع السبب موضع المسبب الذي هو الجزاء .

والآية أعني قوله تعالى : «ولو يؤاخذ الله الناس» الخ . واقعة موقع الجواب عن سؤال مقدر ناش عن الآية السابقة فإنه تعالى لما أنذر أهل المكر والتكذيب من المشركين بالمؤاخذة واستشهد بما جرى في الامم السابقة وذكر أنه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض كأنه قيل : فإذا لم يعجزه شيء في السماوات والأرض فكيف يترك سائر الناس على ما هم عليه من المعاصي ؟ وماذا يمنعه أن يؤاخذهم بما كسبوا ؟ فأجاب أنه لو يؤاخذ جميع الناس بما كسبوا من المعاصي كما يؤاخذ هؤلاء الماكرين المكذبين ما ترك على ظهر الأرض أحداً منهم يدب ويتحرك ، وقد قضى سبحانه أن يعيشوا في الأرض ويعمروها إذ قال: « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » البقرة : ٣٦ فلا يؤاخذهم ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى وهو الموت أو البعث فإذا جاء أجلهم عاملهم بما عملوا إنه كان بعباده بصيرا.

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه أن النبي ﷺ قال : إياكم والمكر السيىء فإنه لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ولهم من الله طالب .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن النوفلي عن السكوني عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال : قال رسول الله ﷺ : سبق العلم ، وجف القلم ، ومضى القضاء وتم القدر بتحقيق الكتاب ، وتصديق الرسل ، وبالسعادة من الله لمن آمن واتقى وبالشقاء لمن كذب وكفر ، وبالولاية من الله عز وجل للمؤمنين ، وبالبراءة منه للمشركين .

ثم قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول : يابن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء ، وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد ، وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي ، وبقوتي وعصمتي وعافيتي أديت إلي فرائضي وأنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بذنبك مني ، الخير مني إليك واصل بما أوليتك به ، والشر منك إليك بما جنيت جزاء ،

وبكثير من تسلطي لك انطويت على طاعتي ، وبسوء ظنك بي قنطت من رحمتي .

فلي الحمد والحجة عليك بالبيان، ولي السبيل عليك بالعصيان ، ولك الجزاء الحسن عندي بالإحسان ، لم أدع تحذيرك ، ولم آخذك عند غرتك وهو قوله عز وجل : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » ، لم أكلفك فوق طاقتك ، ولم أحملك من الأمانة إلا ما أقررت بها على نفسك، ورضيت لنفسي منك بما رضيت به لنفسك مني ثم قال عز وجل : « ولكن يوخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا » .

سورة يس مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يسٓ ـ ١ . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ـ ٢ . إِنَّكَ
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ـ ٣ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ـ ٤ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ ـ ٥ . لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ـ ٦ .
لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ـ ٧ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي
أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ـ ٨ . وَجَعَلْنَا مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ـ ٩ .
وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ـ ١٠ . إِنَّمَا
تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ـ ١١ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا
وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ـ ١٢ .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة بيان الاصول الثلاثة للدين فهي تبتدىء بالنبوة وتصف حال الناس في قبول الدعوة وردها وأن غاية الدعوة الحقة إحياء قوم بر كوبهم صراط السعادة وتحقيق القول على آخرين وبعبارة أخرى تكميل الناس في طريقي السعادة والشقاء .

ثم تنتقل السورة إلى التوحيد فتعد جملة من آيات الوحدانية ثم تنتقل إلى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء وامتياز المجرمين يومئذ من المتقين وتصف ما تؤل إليه حال كل من الفريقين .

ثم ترجع إلى ما بدأت فتلخص القول في الاصول الثلاثة وتستدل عليها وعند ذلك تختتم السورة .

ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » فالسورة عظيمة الشأن تجمع أصول الحقائق وأعراقها وقد ورد من طرق العامة والخاصة أن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس [١] .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « يس والقرآن الحكيم ـ إلى قوله ـ فهم غافلون » إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبي ﷺ من المرسلين ، وقد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقراً فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ.

وقوله : « إنك لمن المرسلين » مقسم عليه كما تقدم .

وقوله : « على صراط مستقيم » خبر بعد خبر لقوله: « إنك » ، وتنكير الصراط ـ كما قيل ـ للدلالة على التفخيم وتوصيفه بالمستقيم للتوضيح فإن الصراط هو الطريق

---

(١) رواه الصدوق في ثواب الاعمال عن ابي عبد الله عليه السلام والسيوطي في الدر المنثور عن أنس وأبي هريرة ومعقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وآله .

الواضح المستقيم ، والمراد به الطريق الذي يوصل عابريه إلى الله تعالى أي إلى السعادة الإنسانية التي فيها كمال العبودية لله والقرب ، وقد تقدم في تفسير الفاتحة بعض ما ينفع في هذا المقام من الكلام .

وقوله : « تنزيل العزيز الرحيم » وصف للقرآن مقطوع عن الوصفية منصوب على المدح ، والمصدر بمعنى المفعول ومحصل المعنى أعني بالقرآن ذاك المنزل الذي أنزله الله العزيز الرحيم الذي استقر فيه العزة والرحمة .

والتذييل بالوصفين للإشارة إلى أنه قاهر غير مقهور وغالب غير مغلوب فلا يعجزه إعراض المعرضين عن عبوديته ولا يستذله جحود الجاحدين وتكذيب المكذبين ، وأنه ذو رحمة واسعة لمن يتبع الذكر ويخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم إلى ما فيه سعادتهم وكمالهم فهو بعزته ورحمته أرسل الرسول وأنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحق كلمة العذاب على بعضهم ويشمل الرحمة منهم آخرين .

وقوله : « لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » تعليل للإرسال والتنزيل و « ما » نافية والجملة صفة لقوله : « قوماً » والمعنى إنما أرسلك وأنزل عليك القرآن لتنذر وتخوف قوماً لم ينذر آباءهم فهم غافلون .

والمراد بالقوم إن كان هو قريش ومن يلحق بهم فالمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون فإن الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبي إسماعيل ذبيح الله ، وقد أرسل إلى العرب رسل آخرون كهود وصالح وشعيب عليهم السلام ، وإن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظراً إلى عموم الرسالة فكذلك أيضاً فآخر رسول معروف بالرسالة قبله ﷺ هو عيسى عليه السلام وبينهما زمان الفترة .

واعلم أن ما ذكرناه في تركيب الآيات هو الذي يسبق منها إلى الفهم وقد أوردوا في ذلك وجوهاً أخر بعيدة عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطولات .

قوله تعالى : « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » اللام للقسم أي أقسم لقد ثبت ووجب القول على أكثرهم ، والمراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول .

والمراد بالقول الذي حق عليهم كلمة العذاب التي تكلم بها الله سبحانه في بدء

الخلقة مخاطباً بها إبليس: « الحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين» ص : ٨٥ والمراد بتبعية إبليس طاعته فيما يأمر به بالوسوسة والتسويل بحيث تثبت الغواية وترسخ في النفس كما يشير إليه قوله تعالى خطاباً لإبليس : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين » الحجر : ٤٣ .

ولازمه الطغيان والاستكبار على الحق كما يشير إليه ما يحكيه الله من تساؤل المتبوعين والتابعين في النار : « بل كنتم قوماً طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين » الصافات : ٣٢ ، وقوله : « ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » الزمر : ٧٢ .

ولازمه الانكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرة بالمرة ورسوخ ذلك في نفوسهم قال تعالى: «ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » النحل: ١٠٨ فيطبع الله على قلوبهم ومن آثاره أن لا سبيل لهم إلى الإيمان قال تعالى : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون » يونس : ٩٦ .

وبما تقدم ظهر أن الفاء في قوله : « فهم لا يؤمنون » للتفريع لا للتعليل كما احتمله بعضهم .

قوله تعالى : « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون » الأعناق جمع عنق بضمتين وهو الجيد، والاغلال جمع غل بالكسر وهي على ما قيل ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، ومقمحون اسم مفعول من الإقماح وهو رفع الرأس كأنهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم الى أذقانهم فبقيت رؤوسهم مرفوعة الى السماء لا يتأتى لهم أن ينكسوها فينظروا الى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها ويميزوها من غيرها .

وتنكير قوله : « أغلالا » للتفخيم والتهويل .

والآية في مقام التعليل لقوله السابق : « فهم لا يؤمنون » .

قوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » السد الحاجز بين الشيئين ، وقوله : « من بين أيديهم ومن خلفهم » كناية عن جميع الجهات ، والغشي والغشيان التغطية يقال : غشيه كذا أي غطاه وأغشى الأمر فلاناً أي جعل الأمر يغطيه ، والآية متممة للتعليل السابق وقوله : « جعلنا » معطوف على « جعلنا » المتقدم .

وعن الرازي في تفسيره في معنى التشبيه في الآيتين أن المانع عن النظر في الآيات قسمان : قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحاً لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه ، وقسم يمنع عن النظر في الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلى بهما حرم عن النظر بالكلية .

ومعنى الآيتين أنهم لا يؤمنون لأنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً نشد بها أيديهم على أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مرفوعة رؤسهم باقون على تلك الحال وجعلنا من جميع جهاتهم سداً فجعلناه يغطيهم فهم لا يبصرون فلا يهتدون .

ففي الآيتين تمثيل لحالهم في حرمانهم من الاهتداء إلى الإيمان وتحريمه تعالى عليهم ذلك جزاء لكفرهم وغوايتهم وطغيانهم في ذلك .

وقد تقدم في قوله تعالى : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا » البقرة : ٢٦ في الجزء الأول من الكتاب أن ما وقع في القرآن الكريم من هذه الأوصاف ونظائرها التي وصف بها المؤمنون والكفار يكشف عن حياة أخرى للإنسان في باطن هذه الحياة الدنيوية مستورة عن الحس المادي ستظهر له إذا انكشفت الحقائق بالموت أو البعث ، وعليه فالكلام في أمثال هذه الآيات جار في مجرى الحقيقة دون المجاز كما عليه القوم .

قوله تعالى : « وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » عطف تفسير وتقرير لما تتضمنه الآيات الثلاث المتقدمة وتلخيص للمراد وتمهيد لما يتلوه من قوله : « إنما تنذر من اتبع الذكر » الآية .

واحتمل أن يكون عطفاً على قوله : « لا يبصرون » والمعنى فهم لا يبصرون

ويستوي عليهم إنذارك وعدم إنذارك لا يؤمنون والوجه الأول أقرب إلى الفهم .

قوله تعالى : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » القصر للإفراد ، والمراد بالإنذار الإنذار النافع الذي له أثر ، وبالذكر القرآن الكريم ، وباتباعه تصديقه والميل إليه إذا تليت آياته ، والتعبير بالماضي للإشارة إلى تحقق الوقوع ، والمراد بخشية الرحمن بالغيب خشيته تعالى من وراء الحجاب وقبل انكشاف الحقيقة بالموت أو البعث ، وقيل : أي حال غيبته من الناس بخلاف المنافق وهو بعيد .

وقد علقت الخشية على اسم الرحمن الدال على صفة الرحمة الجالبة للرجاء للإشعار بأن خشيتهم خوف مشوب برجاء وهو الذي يقر العبد في مقام العبودية فلا يأمن ولا يقنط .

وتنكير « مغفرة » و « أجر كريم » للتفخيم أي فبشره بمغفرة عظيمة من الله وأجر كريم لا يقادر قدره وهو الجنة ، والدليل على جميع ما تقدم هو السياق .

والمعنى : إنما تنذر الإنذار النافع الذي له أثر ، من اتبع القرآن إذا تليت عليه آياته وما إليه وخشي الرحمن خشية مشوبة بالرجاء فبشره بمغفرة عظيمة وأجر كريم لا يقادر قدره .

قوله تعالى : « إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » المراد بإحياء الموتى إحياؤهم للجزاء .

والمراد بما قدموا الأعمال التي عملوها قبل الوفاة فقدموها على موتهم ، والمراد بآثارهم ما تركوها لما بعد موتهم من خير يعمل به كتعليم علم ينتفع به أو بناء مسجد يصلى فيه أو ميضاة يتوضأ فيها ، أو شر يعمل به كوضع سنة مبتدعة يستن بها أو بناء مفسقة يعصى الله فيها .

وربما قيل : إن المراد بما قدموا النيات وبآثارهم الأعمال المترتبة المتفرعة عليها وهو بعيد من السياق .

والمراد بكتابة ما قدموا وآثارهم ثبتها في صحائف أعمالهم وضبطها فيها بواسطة كتبة الأعمال من الملائكة وهذه الكتابة غير كتابة الأعمال وإحصائها في الامام المبين

الذي هو اللوح المحفوظ وإن توهم بعضهم أن المراد بكتابة ما قدموا وآثارهم هو إحصاؤها في الكتاب المبين وذلك أنه تعالى يثبت في كلامه كتاباً يحصى كل شيء ثم لكل أمة كتاباً يحصي أعمالهم ثم لكل إنسان كتاباً يحصي أعماله كما قال: « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » الأنعام: ٥٩ ، وقال: « كل أمة تدعى إلى كتابها » الجاثية: ٢٨ ، وقال: « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا » أسرى: ١٣ ،وظاهر الآية أيضاً يقضي بنوع من البينونة بين كتاب الأعمال والإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص والعموم واختلاف التعبير بالكتابة والإحصاء.

وقوله: « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » هو اللوح المحفوظ من التغيير الذي يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه في خلقه فيحصي كل شيء وقد ذكر في كلامه تعالى بأسماء مختلفة كاللوح المحفوظ وام الكتاب والكتاب المبين والإمام المبين كل منها بعناية خاصة.

ولعل العناية في تسميته إماماً مبيناً أنه لإشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم و كتب الأعمال كما سيأتي في تفسير سورة الجاثية مستنسخة منه قال تعالى: « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية: ٢٩.

وقيل: المراد بالإمام المبين صحف الأعمال وليس بشيء ، وقيل: علمه تعالى وهو كسابقه نعم لو أريد به العلم الفعلي كان له وجه.

ومن عجيب القول في هذا المقام ما ذكره بعضهم أن الذي كتب في اللوح المحفوظ هو ما كان وما يكون إلى يوم القيامة لا حوادث العالم إلى أبد الآبدين وذلك أن اللوح عند المسلمين جسم وكل جسم متناهي الأبعاد كما يشهد به الأدلة وبيان كل شيء فيه على الوجه المعروف عندنا دفعة مقتض لكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي وهو محال بالبديهة فالوجه تخصيص عموم كل شيء والقول بأن المراد به الحوادث إلى يوم القيامة هذا. وهو تحكم وسنتعرض له تفصيلا.

والآية في معنى التعليل بالنسبة إلى ما تقدمها كأنه تعالى يقول: ما أخبرنا به ووصفناه من حال أولئك الذين حق عليهم القول وهؤلاء الذين يتبعون الذكر ويخشون

ربهم بالغيب هو كذلك لأن أمر حياة الكل إلينا وأعمالهم وآثارهم محفوظة عندنا فنحن على علم وخبرة بما تؤول إليه حال كل من الفريقين .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « فهم مقمحون » قال : قد رفعوا رؤسهم .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » الهدى ، أخذ الله سمعهم وأبصارهم وقلوبهم وأعمالهم عن الهدى .

نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من أهل بيته وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام يصلي وقد حلف أبو جهل لعنه الله لئن رآه يصلي ليدمغه [1] فجاءه ومعه حجر والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قائم يصلي فجعل كلما رفع الحجر ليرميه أثبت الله عز وجل يده إلى عنقه ولا يدور الحجر بيده فلما رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده

ثم قام رجل آخر وهو رهطه أيضاً فقال أنا أقتله فلما دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرعب فرجع إلى أصحابه فقال:حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه فخفت أن أتقدم .

وقوله تعالى : « وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » فلم يؤمن من اولئك الرهط من بني مخزوم أحد .

أقول : وروى نحواً منه في الدر المنثور عن البيهقي في الدلائل عن ابن عباس وفيه أن ناساً من بني مخزوم تواطؤا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة فبينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائم يصلي يسمعون قراءته فأرسلوا إليه الوليد ليقتله فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلي فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانطلق إليهم فأعلمهم ذلك فأتوه فلما انتهوا إلى المكان الذي يصلي فيه سمعوا قراءته فيذهبون إليه فيسمعون أيضاً من

---

(١) دمغه أي شجة حتى بلغت الشجة دماغه .

خلفهم فانصرفوا فلم يجدوا إليه سبيلاً. فذلك قوله: « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً » الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يقرء في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون فجاؤا إلى النبي ﷺ فقالوا : ننشدك الله والرحم يامحمد ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فدعا النبي ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت : « يس والقرآن الحكيم ـ إلى قوله ـ أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد .

أقول : وقد رووا القصة بأشكال مختلفة في بعضها أن رسول الله ﷺ قرء الآيات فاحتجب منهم فلم يروه ودفع الله عنه شرهم وكيدهم ، وفي بعضها أن الآيات ـ من أول السورة إلى قوله : « فهم لا يؤمنون » ـ نزلت في القصة فقوله : «إنا جعلنا» إلى آخر الآيتين يقص صنع الله بهم في ستر النبي ﷺ عن أبصارهم وقوله : « وسواء عليهم » الخ يخبر عن عدم إيمان ذاك النفر .

وأنت خبير بأن سياق الآيات يأبى الانطباق علىهذه الرواياتبما فيها من القصة فهو سياق متناسق منسجم يصف حال طائفتين من الناس وهم الذينحقعليهمالقول فهم لا يؤمنون والذين يتبعون الذكر ويخشون ربهم بالغيب .

وأين ذلك من حمل قوله : « لقد حق القول على أكثرهم » على الناس المنذرين وحمل قوله : « إنا جعلنا في أعناقهم » و « جعلنا من بين أيديهم سداً » الآيتين على قصة أبي جهل ورهطه ، وحمل قوله : « وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم»على رهطه وأضف إلى ذلك حمل قوله : « ونكتب ما قدموا وآثارهم» على قصة قوم من الأنصار بالمدينة وسيوافيك خبره فيختل بذلك السياق وتنثلم وحدة النظم .

فالحق أن الآيات نازلة دفعة ذات سياق واحد تصف حال الناس وتفرقهم عند بلوغ الدعوة ووقوع الإنذار على فرقتين،ولا مانع من وقوع القصةواحتجابالنبيﷺ من أعدائه بالآيات .

وفيه أخرج عبد الرزاق والترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله : « إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم » فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنه يكتب آثاركم ثم قرء عليهم الآية فتركوا .

وفيه أخرج الفاريابي وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت « ونكتب ما قدموا وآثارهم » فقالوا : بل نمكث مكاننا .

أقول : والكلام في الروايتين كالكلام فيما تقدمها .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبدالله البجلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء . ثم تلا هذه الآية « ونكتب ما قدموا وآثارهم » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: «وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » أي في كتاب مبين وهو محكم ، وذكر ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام : أنا والله الإمام المبين أبين الحق من الباطل ورثته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي معاني الأخبار بإسناده إلى أبي الجارود عن أبي جعفر عن أبيه عن جده عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أنه قال في علي عليه السلام أنه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء .

أقول : الحديثان لو صحا لم يكونا من التفسير في شيء بل مضمونها من بطن القرآن وإشاراته ، ولا مانع من أن يرزق الله عبداً وحده وأخلص العبودية له العلم بما في الكتاب المبين وهو عليه السلام سيد الموحدين بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

* * *

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ - ١٣ .

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ - ١٤ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ - ١٥ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ - ١٦ . وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ - ١٧ . قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ - ١٨ . قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ - ١٩ . وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ - ٢٠ . اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ - ٢١ . وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - ٢٢ . ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنْقِذُونِ - ٢٣ . إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ - ٢٤ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ - ٢٥ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ - ٢٦ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ - ٢٧ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ - ٢٨ . إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ - ٢٩ . يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ - ٣٠ . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ

أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ - ٣١ . وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ - ٣٢ .

﴿ بيان ﴾

مثل مشتمل على الإنذار والتبشير ضربه الله سبحانه لعامة القوم يشير فيه إلى الرسالة الإلهية وما تستتبعه الدعوة الحقة من المغفرة والأجر الكريم لمن آمن بها واتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب ، ومن العذاب الأليم لمن كفر وكذب بها فحق عليه القول ، وفيه إشارة إلى وحدانيته تعالى ومعاد الناس إليه جميعاً .

ولا منافاة بين إخباره بأنهم لا يؤمنون سواء أنذروا أم لم ينذروا وبين إنذارهم لأن في البلاغ إتماماً للحجة وتكميلاً للسعادة أو الشقاوة قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » الأنفال : ٤٢ ، وقال: ونُنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » أسرى : ٨٢ .

قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » المثل كلام أو قصة يمثل به مقصد من المقاصد فيتضح للمخاطب ، ولما كانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد والوعيد أمر نبيه ﷺ أن يضربها مثلاً لهم .

والظاهر أن « مثلاً » مفعول ثان لقوله : « اضرب » ومفعوله الأول قوله : « أصحاب القرية » والمعنى واضرب لهم أصحاب القرية وحالهم هذه الحال مثلاً وقد قدم المفعول الثاني تحرزاً عن الفصل المخل .

قوله تعالى : « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون » التعزيز من العزة بمعنى القوة والمنعة ، وقوله : « إذ أرسلنا إليهم » بيان تفصيلي لقوله : « إذ جاءها المرسلون » .

والمعنى : واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية وهم في زمان أرسلنا إليهم رسولين اثنين من رسلنا فكذبوهما أي الرسولين فقويناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنا إليكم

مرسلون من جانب الله .

قوله تعالى : « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمان من شيء إن أنتم إلا تكذبون » كانوا يرون أن البشر لا ينال النبوة والوحي ، ويستدلون على ذلك بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيئاً من ذاك القبيل فيسرون الحكم إلى نفوس الأنبياء مستندين إلى أن حكم الأمثال واحد .

وعلى هذا التقرير يكون معنى قوله : « وما أنزل الرحمن من شيء » لم ينزل الله وحياً ولو نزل شيئاً على بشر لنلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك ، وتعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمن إنما هو لكونهم كسائر الوثنيين معترفين بالله سبحانه واتصافه بكرائم الصفات (١) كالخلق والرحمة والملك غير أنهم يرون أنه فوض أمر التدبير إلى مقربي خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبرون والآلهة المعبودون ، وأما الله عز اسمه فهو رب الأرباب وإله الآلهة .

ومن الممكن أن يكون ذكر اسم الرحمان في الحكاية دون المحكي فيكون التعبير به لحلمه ورحمته تعالى قبال إنكارهم وتكذيبهم للحق الصريح .

وقوله : « إن أنتم إلا تكذبون » بمنزلة النتيجة لصدر الآية ، و محصل قولهم أنكم بشر مثلنا ولا نجد نحن على بشريتنا في نفوسنا شيئاً من الوحي النازل الذي تدعونه وأنتم مثلنا فما أنزل الرحمان شيئاً من الوحي فدعواكم كاذبة وإذ ليس لكم إلا هذه الدعوى فإن أنتم إلا تكذبون .

ويظهر بما تقدم نكتة الحصر في قوله : « إن أنتم إلا تكذبون » وكذا الوجه في نفي الفعل ولم يقل : إن أنتم إلا كاذبون لأن المراد نفي الفعل في الحال دون الاستمرار والاستقبال .

قوله تعالى : « قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين » لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جواباً عن حجة قومهم « ما أنتم إلا بشر مثلنا » الخ .

---

(١) لكنهم مختلفون في تفسيرها والصابئون يفسرونها بالنفى فمعنى العالم والقادر عندهم من ليس بجاهل وعاجز .

كما نقل عن الرسل المبعوثين إلى الامم الدارجة لما احتجت أممهم بمثل هذه الحجة « إن أنتم إلا بشر مثلنا » فردتها رسلهم بقولهم : « إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » إبراهيم : ١١ وقد مر تقريره .

بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون إليهم مأمورون بتبليغ الرسالة ليس عليهم إلا ذلك وأنهم في غنى عن تصديقهم لهم وإيمانهم بهم ويكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لا حاجة لهم إلى أزيد من ذلك .

فقوله : « قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » إخبار عن رسالتهم وقد أكد الكلام بإن المشددة المكسورة واللام ، والاستشهاد بعلم ربهم بذلك ، وقوله : « ربنا يعلم » معترض بمنزلة القسم ، والمعنى إنا مرسلون إليكم صادقون في دعوى الرسالة ويكفينا في ذلكم علم ربنا الذي أرسلنا بها ولا حاجة لنا فيه إلى تصديقكم لنا ولا نفع لنا فيه من أجر ونحوه ولا يهمنا تحصيله منكم بل الذي يهمنا هو تبليغ الرسالة وإتمام الحجة .

وقوله : « وما علينا إلا البلاغ المبين » البلاغ هو التبليغ والمراد به تبليغ الرسالة أي لم يؤمر ولم نكلف إلا بتبليغ الرسالة وإتمام الحجة .

قوله تعالى : « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم » القائلون أصحاب القرية والمخاطبون هم الرسل ، والتطير هو التشاؤم وقولهم : «لئن لم تنتهوا » الخ . تهديد منهم للرسل .

. والمعنى : قالت أصحاب القرية لرسلهم ، إنا تشأمنا بكم ونقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ ولم تكفوا عن الدعوة لنرجمنكم بالحجارة وليصلن إليكم وليقعن بكم منا عذاب أليم .

قوله تعالى : « قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القرية .

وقوله : « طائركم معكم » الطائر في الأصل هو الطير وكان يتشاءم به ثم توسع واستعمل في كل ما يتشاءم به ، وربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث ، وربما يستعمل في البخت الشقي الذي هو أمر موهوم يرونه مبدء لشقاء الإنسان وحرمانه من كل خير .

وكيف كان فقوله : « طائركم معكم » ظاهر معناه أن الذي ينبغي أن تتشأموا به هو معكم وهو حالة إعراضكم عن الحق الذي هو التوحيد واقبالكم الى الباطل الذي هو الشرك .

وقيل : المعنى طائركم أي حظكم ونصيبكم من الخير والشر معكم من أفعالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، هذا وهو أخذ الطائر بالمعنى الثاني لكن قوله بعد : « أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » أنسب بالنسبة إلى المعنى الأولى .

وقوله : « أئن ذكرتم » استفهام توبيخي والمراد بالتذكير تذكيرهم بالحق من وحدانيته تعالى ورجوع الكل إليه ونحوهما وجزاء الشرط محذوف في الكلام تلويحاً إلى أنه مما لا ينبغي أن يذكر أو يتفوه به والتقدير «إن ذكرتم بالحق قابلتموه بمثل هذا الجحود الشنيع والصنيع الفظيع من التطير والتوعد .

وقوله : « بل أنتم قوم مسرفون » أي مجاوزون للحد في المعصية وهو إضراب عما تقدم والمعنى بل السبب الأصلي في جحودكم وتكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف ومجاوزة الحد .

قوله تعالى : « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين » أقصى المدينة أبعد مواضعها بالنسبة إلى مبدء مفروض، وقد بدلت القرية في أول الكلام مدينة هنا للدلالة على عظمها والسعي هو الإسراع في المشي .

ووقع نظير هذا التعبير في قصة موسى والقبطي وفيها « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » فقدم « رجل » هناك وأخر ههنا ولعل النكتة في ذلك أن الاهتمام هناك بمجيىء الرجل وإخباره موسى بائتمار الملاء لقتله فقدم الرجل ثم أشير إلى اهتمام الرجل نفسه بإيصال الخبر وإبلاغه فجيىء بقوله : « يسعى » حالاً مؤخراً بخلاف ما ههنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينة ليعلم أن لا تواطؤ بينه وبين الرسل في أمر الدعوة فقدم « من أقصى المدينة » وأخر الرجل وسعيه .

وقد اشتد الخلاف بينهم في اسم الرجل واسم أبيه وحرفته وشغله ولا يهمنا الاشتغال بذلك في فهم المراد ولو توقف عليه الفهم بعض التوقف لأشار سبحانه في كلامه إليه ولم يهمله .

وإنما المهم هو التدبر في حظه من الإيمان في هذا الموقف الذي انتهض فيه لتأييد الرسل عليهم السلام ونصرتهم فقد كان على ما يعطيه التدبر في المنقول من كلامه رجلاً نور الله سبحانه قلبه بنور الإيمان يؤمن بالله إيمان إخلاص يعبده لا طمعاً في جنة أو خوفاً من نار بل لأنه أهل للعبادة ولذلك كان من المكرمين ولم يصف الله سبحانه في كلامه بهذا الوصف إلا ملائكته المقربين وعباده المخلصين ، وقد خاصم القوم فخصمهم وأبطل ما تعلق به القوم من الحجة على عدم جواز عبادة الله سبحانه ووُجوب عبادة آلهتهم وأثبت وجوب عبادته وحده وصدق الرسل في دعواهم الرسالة ثم آمن بهم .

قوله تعالى : « اتبعوا من لا يسألكم أجراًوهم مهتدون » بيان لقوله : « اتبعوا المرسلين » وفي وضع قوله : « من لا يسألكم أجراًوهم مهتدون » في هذه الآية موضع قوله : « المرسلين » في الآية السابقة إشعار بالعلية وبيانها أن عدم جواز اتباع قائل في قوله إنما يكون لأحد أمرين : إما لكون قوله ضلالاً والقائل به ضالاً ولا يجوز اتباع الضال في ضلاله ، وإما لأن القول وإن كان حقاً والحق واجب الاتباع لكن لقائله غرض فاسد يريد أن يتوسل إليه بكلمة الحق كاقتناء المال واكتساب الجاه والمقام ونحو ذلك ، وأما إذا كان القول حقاً وكان القائل بريئاً من الغرض الفاسد منزهاً من الكيد والمكر والخيانة كان من الواجب اتباعه في قوله ، وهؤلاء الرسل مهتدون في قولهم : لا تعبدوا إلا الله ، وهم لا يريدون منكم أجراً من مال أوجاه فمن الواجب عليكم أن تتبعوهم في قولهم .

أما أنهم مهتدون فلقيام الحجة على صدق ما يدعون إليه من التوحيد وكونه حقاً ، والحجة هي قوله : « ومالي لا أعبد » إلى تمام الآيتين .

وأما انهم لا يريدون منكم أجراً فلما دل عليه قولهم : « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » وقد تقدم تقريره .

وبهذا البيان يتأيد ما قدمناه من كون قولهم : « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » مسوقاً لنفي إرادتهم من القوم أجراً أو غير ذلك .

قوله تعالى : « وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ءأتخذ من دونه آلهة ـ إلى قوله ـ ولا ينقذون » شرع في استفراغ الحجة على التوحيد ونفي الآلهة في آيتين

واختار لذلك سياق التكلم وحده إلا في جملة اعترض بها في خلال الكلام وهي قوله : « وإليه ترجعون » وذلك بإجراء الحكم في نفسه بما أنه إنسان أوجده الله وفطره حق يجري في كل إنسان هو مثله والأفراد أمثال فقوله : « وما لي لا أعبد » الخ . في معنى وما للإنسان لا يعبد الخ . أيتخذ الإنسان من دونه آلهة الخ .

وقد عبر عنه تعالى بقوله : « الذي فطرني » للإشعار بالعلية فإن فطره تعالى للإنسان وإيجاده له بعد العدم لازمه رجوع كل ما للإنسان من ذات وصفات وأفعال إليه تعالى وقيامه به وملكه له فليس للإنسان إلا العبودية محضة فعلى الإنسان أن ينصب نفسه في مقام العبودية ويظهرها بالنسبة إليه تعالى وهذا هو العبادة فعليه أن يعبده تعالى لأنه أهل لها .

وهذا هو الذي أشرنا إليه آنفاً أن الرجل كان يعبد الله بالإخلاص له لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار بل لأنه أهل للعبادة .

وإذ كان الإيمان به تعالى وعبادته هكذا أمراً لا يناله عامة الناس فإن الأكثرين منهم إنما يعبدون خوفاً أو طمعاً أو لكليهما التفت الرجل بعد بيان حال نفسه إلى القوم فقال : « وإليه ترجعون » يريد به إنذارهم بيوم الرجوع وأنه تعالى سيحاسبهم على ما عملوا فيجازيهم بمساوي أعمالهم فقوله : « وإليه ترجعون » كالمعترضة الخارجة عن السياق أو هي هي .

ثم إن الآيتين حجتان قائمتان على إبطال ما احتج به الوثنية وبنوا على ذلك عبادة الأصنام وأربابها .

توضيح ذلك أنهم قالوا : إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو خيال أو عقل لا يناله شيء من القوى الإدراكية فلا يمكن التوجه إليه بالعبادة فسبيل العبادة أن نتوجه إلى مقربي حضرته والأقوياء من خلقه كالملائكة الكرام والجن والقديسين من البشر حتى يكونوا شفعاء لنا عند الله في إيصال الخيرات ودفع الشرور والمكاره .

والجواب عن أولى الحجتين بما حاصله أن الإنسان وإن كان لا يحيط علماً بالذات المتعالية لكنه يعرفه تعالى بصفاته الخاصة به مثل كونه فاطراً له موجداً إياه فله أن يتوجه إليه من طريق هذه الصفات وإنكار إمكانه مكابرة ، وهذا الجواب هو الذي

أشار إليه بقوله : « وما لي لا أعبد الذي فطرني » .

وعن الثانية أن هؤلاء الآلهة إن كانت لهم شفاعة كانت مما أفاضه الله عليهم والله سبحانه لا يعطيهم ذلك إلا فيما لا تتعلق به منه إرادة حاتمة ولازمه أن شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال : « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » يونس : ٣ أما إذا أراد الله شيئاً إرادة حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئاً في المنع عن نفوذها فاتخاذهم آلهة وعدمه سواء في عدم التأثير لجلب خير أو دفع شر ، وإلى ذلك أشار بقوله : « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون » .

وتعبيره عنه تعالى بالرحمان إشارة إلى سعة رحمته وكثرتها وأن النعم كلها من عنده وتدبير الخير والشر إليه ويتحصل من هنا برهان آخر على وحدانيته تعالى في الربوبية ، إذ لما كان جميع النعم وكذا النظام الجاري فيها ، من رحمته وقائمة به من غير استقلال في شيء منها كان المستقل بالتدبير هو تعالى حتى أن تدبير الملائكة لو فرض تدبيرهم لشيء من رحمته تدبيره تعالى وكانت الربوبية له تعالى وحده وكذا الالوهية .

قوله تعالى : « إني إذاً لفي ضلال مبين » تسجيل للضلال على اتخاذ الآلهة .

قوله تعالى : « إني آمنت بربكم فاسمعون » من كلام الرجل خطاباً للرسل وقوله : « فاسمعون » كناية عن الشهادة بالتحمل ، وقوله : « إني آمنت بربكم » الخ. تجديد الشهادة بالحق وتأكيد للإيمان فإن ظاهر السياق أنه إنما قال : « إني آمنت بربكم » بعد محاجته خطاباً للرسل ليستشهدهم على إيمانه وليؤيدهم بإيمانهم بمرئى من القوم ومسمع.

وقيل : إنه خطاب للقوم تأييداً للرسل ، والمعنى إني آمنت بالله فاسمعوا مني فإني لا أبالي بما يكون منكم على ذلك أو المعنى إني آمنت بالله فاسمعوا مني وآمنوا به أو أنه أراد به أن يغضبهم ويشغلهم عن الرسل بنفسه حيث إنه رآى أنهم بصدد الإيقاع بهم . هذا .

وفيه أنه لا يلائمه التعبير عن الله سبحانه بقوله : « ربكم » فإن القوم ما كانوا يتخذونه تعالى رباً لهم وإنما كانوا يعبدون الأرباب من دون الله سبحانه .

ورد بأن المعنى إني آمنت بربكم الذي قامت الحجة على ربوبيته لكم وهو الله سبحانه . وفيه أنه تقييد من غير مقيد .

قوله تعالى : « قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لى ربي وجعلني من المكرمين » الخطاب للرجل وهو ـ كما يفيده السياق ـ يلوح إلى أن القوم قتلوه فنودي من ساحة العزة أن ادخل الجنة كما يؤيده قوله بعد : « وما أنزلنا على قومه من بعده » الخ فوضع قوله : « قيل ادخل الجنة » موضع الإخبار عن قتلهم إياه إشارة إلى أنه لم يكن بين قتله بأيديهم وبين أمره بدخول الجنة أي فصل وبذاك كأن قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة .

والمراد بالجنة على هذا جنة البرزخ دون جنة الآخرة ، وقول بعضهم : إن المراد بها جنة الآخرة والمعنى سيقال له : ادخل الجنة . يوم القيامة والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع تحكم من غير دليل كما قيل : إن الله رفعه إلى السماء فقيل له ادخل الجنة فهو حي يتنعم فيها إلى قيام الساعة ، وهو تحكم كسابقه .

وقيل : إن القائل : « ادخل الجنة » هو القوم قالوا له ذاك حين قتله استهزاء وفيه أنه لا يلائم ما أخبر الله سبحانه عنه بقوله بعد : « قال ياليت قومي يعلمون » الخ فإن ظاهره أنه تمنى علم قومه بما هو فيه بعد استماع نداء « ادخل الجنة » ولم يسبق من الكلام ما يصح أن يبتني عليه قوله ذاك .

وقوله : « قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لى ربي وجعلني من المكرمين » استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان بعد تأييده للرسل؟ فقيل : « قيل ادخل الجنة » ثم قيل : فماذا كان بعد ؟ فقيل : « قال ياليت قومي يعلمون » الخ وهو نصح منه لقومه ميتاً كما كان ينصهم حياً .

و « ما » في قوله : « بما غفر لى » الخ مصدرية ، وقوله : « وجعلني » عطف على « غفر » والمعنى بمغفرة ربي لى وجعله إياي من المكرمين .

وموهبة الإكرام وإن كانت وسيعة ينالها كثيرون كالإكرام بالنعمة كما في قوله : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن » الفجر : ١٥ ، وقوله : « إن أكرمكم عند الله اتقاكم » الحجرات:١٣ فإن كرامة العبد عند الله إكرام منه له لكنه لم يعد من المكرمين بوصف الاطلاق إلا طائفتين من خلقه : الملائكة الكرام كما في قوله : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون »

الأنبياء : ٢٧ ، والكاملين في إيمانهم من المؤمنين سواء كانوا من المخلصين بكسر اللام كما في قوله : « اولئك في جنات مكرمون » المعارج : ٣٥ ، أو من المخلصين بفتح اللام كما في قوله: « إلا عباد الله المخلصين ـ إلى أن قال ـ وهم مكرمون» الصافات: ٤٢.

والآية من أدلة وجود البرزخ .

قوله تعالى : «وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين » الضميران للرجل ، و « من بعده » أي من بعد قتله ، و « من » الاولى والثالثة لابتداء الغاية ، والثانية مزيدة لتأكيد النفي .

والآية توطئة للآية التالية ، وهي مسوقة لبيان هوان أمر القوم والانتقام منهم بإهلاكهم على الله سبحانه وأنه لا يحتاج في إهلاكهم إلى عدة وعدة حتى ينزل من السماء جنداً من الملائكة يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم ولا فعل ذلك في إهلاك من أهلك من الامم الماضين وإنما أهلكهم بصيحة واحدة تقضي عليهم.

قوله تعالى : « إن كانت إلا صيحة واحدة ، فإذاهم خامدون » أي ما كان الأمر الذي كان سبب إهلاكهم بمشيتنا إلا صيحة واحدة ، وتأنيث الفعل لتأنيث الخبر وتنكير « صيحة » وتوصيفها بالوحدة للاستحقار ، والخمود السكون، واستئناف الجملة لكونها كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل : فماذا كان سبب إهلاكهم ؟ فقيل: إن كانت إلا صيحة واحدة.

والمعنى : كان سبب هلاكهم أيسر أمر وهي صيحة واحدة ففاجأهم السكون فصاروا ساكنين لا يسمع لهم حس وهم عن آخرهم موتى لا يتحركون .

قوله تعالى : « ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن » أي ياندامة العباد ونداء الحسرة عليهم أبلغ من إثباتها لهم ، وسبب الحسرة ما يتضمنه قوله : « ما يأتيهم من رسول » الخ .

ومن هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامة الناس وتتأكد الحسرة بكونهم عباداً فان رد العبد دعوة مولاه وتمرده عنه أشنع من رد غيره نصيحة الناصح .

وبذلك يظهر سخافة قول من قال : إن المراد بالعباد الرسل أو الملائكة أو هما

جميعاً . وكذا قول من قال : إن المراد بالعباد الناس لكن المتحسر هو الرجل .

وظهر أيضاً أن قوله : « ياحسرة على العباد » الخ من قول الله تعالى لا من تمام قول الرجل .

قوله تعالى : « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون » توبيخ لاولئك الذين نودي عليهم بالحسرة ، و « من القرون » بيان لكم ، والقرون جمع قرن وهو أهل عصر واحد .

وقوله : « أنهم إليهم لا يرجعون » بيان لقوله :« كم أهلكنا قبلهم من القرون» ضمير الجمع الأول للقرون والثاني والثالث للعباد .

والمعنى: ألم يعتبروا بكثرة المهلكين بأمر الله من القرون الماضية وأنهم مأخوذون بأخذ إلهي لا يتمكنون من الرجوع إلى ما كانوا يترفون فيه ؟

وللقوم في مراجع الضمائر وفي معنى الآية أقوال أخر بعيدة عن الفهم تركنا إيرادها.

قوله تعالى : « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » لفظة « إن » حرف نفي و « كل » مبتدء تنوينه عوض عن المضاف إليه ، و « لما » بمعنى إلا ، وجميع بمعنى مجموع ، ولدينا ظرف متعلق به ، ومحضرون خبر بعد خبر وهو جميع ، واحتمل بعضهم أن يكون صفة لجميع .

والمعنى : وما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء يوم القيامة فالآية في معنى قوله :« ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » هود ١٠٣.

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع قالوا : بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب صاحب يس فسلما عليه فقال الشيخ لهما : من أنتما ؟ قالا: رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال: أمعكما آية ؟ قالا نعم نحن نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى فقال

الشيخ : إن لي إبناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين قالا : فانطلق بنا إلى منزلك نتطلع حاله فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً ففشى الخبر في المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى .

وكان لهم ملك يعبد الأصنام فأنهى الخبر إليه فدعاهما فقال لهما : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى جئنا ندعوك من عبادة مالا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر . قال الملك : ولنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك . قال : قوما حتى أنظر في أمركما فأخذهما الناس في السوق وضربوهما .

قال وهب بن منبه : بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها ولم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكرا الله فغضب الملك وأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما مائة جلدة .

فلما كذب الرسولان وضربا ، بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريين على أمرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضى عشرته وأنس به وأكرمه . ثم قال له ذات يوم : أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما ؟ قال الملك : حال الغضب بيني وبين ذلك . قال : فإن رأى الملك دعاهما حتى نتطلع ما عندهما .

فدعاهما الملك فقال لهما شمعون : من أرسلكما إلى ههنا ؟ قالا : الله الذي خلق كل شيء لا شريك له . قال : وما آتاكما ؟ قالا : ما تتمناه ، فأمر الملك حتى جاؤا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعا في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك ثم قال شمعون للملك : أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعا مثل هذا ؟ فيكون لك ولإلهك شرفا . فقال الملك : ليس لي عنك سر إن إلهنا الذي نعبده لا يضر ولا ينفع .

ثم قال الملك للرسولين : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به وبكما . قالا : إلهنا قادر على كل شيء ، فقال الملك : إن ههنا ميتاً مات منذ سبعة أيام لم ندفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاؤا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل

شمعون يدعو ربه سراً فقام الميت وقال لهم إني قدمت منذ سبعة أيام وأدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله فتعجب الملك ، فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك دعاه إلى الله فآمن وآمن من أهل مملكته قوم و كفر آخرون .

قال : وقد روى مثل ذلك العياشي بإسناده عن الثمالي وغيره عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام إلا أن في بعض الروايات : بعث الله الرسولين إلى أهل أنطاكية ثم بعث الثالث ،وفي بعضها أن عيسى أوحى الله إليه أن يبعثهما ثم بعث وصيه شمعون ليخلصهما ، وأن الميت الذي أحياه الله بدعائهما كان ابن الملك وأنه قد خرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له : يابني ماحالك ؟ قال: كنت ميتاً فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني . قال : يابني فتعرفهما إذا رأيتهما ؟ قال : نعم فأخرج الناس إلى الصحراء فكان يمر عليه رجل بعد رجل فمر أحدهما بعد جمع كثير فقال : هذا أحدهما . ثم مر الآخر فعرفهما وأشار بيده إليهما فآمن الملك وأهل مملكته.

وقال ابن إسحاق : بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة الرسل.

اقول : سياق آيات القصة لا يلائم بعض هذه الروايات .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود وأبو نعيم وابن عساكر والديلمي عن أبي ليلى قال : قال رسول الله ﷺ : الصديقين ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال : ياقوم اتبعوا المرسلين ، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم .

اقول : ورواه أيضاً عن البخاري في تاريخه عن ابن عباس عنه ﷺ ولفظه : الصديقون ثلاثة : حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار صاحب آل ياسين وعلي ابن أبي طالب .

وفي المجمع عن تفسير الثعلبي بالإسناد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن النبي ﷺ قال : سباق الامم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين علي بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون فهم الصديقون وعلي أفضلهم .

اقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن الطبراني وابن مردويه وضعفه عن

ابن عباس عنه ﷺ ولفظه : السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب يس والسابق إلى محمد ﷺ علي بن أبي طالب .

* * *

وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ـ ٣٣. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ـ ٣٤. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ـ ٣٥. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ـ ٣٦ . وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ـ ٣٧ ۰ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ـ٣٨ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ـ ٣٩ . لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ـ ٤٠ . وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ـ٤١. وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ـ٤٢. وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ ـ ٤٣ إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ـ ٤٤ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا

خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ـ ٤٥ . وَمَا تَأْتِيهِم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ـ ٤٦ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ـ ٤٧ .

﴿ بيان ﴾

بعد ما قص عليهم قصة أصحاب القرية وما آل إليه أمرهم في الشرك وتكذيب الرسل وبخهم على الاستهانة بأمر الرسالة ، وأنذرهم بنزول العذاب عليهم كما نزل على المكذبين من القرون الاولى ، وبأنهم جميعاً محضرون للحساب والجزاء .

أورد آيات من الخلق والتدبير تدل على ربوبيته وألوهيته تعالى وحده لا شريك له ثم وبخهم على ترك النظر في آيات الوحدانية والمعاد والإعراض عنها والاستهزاء بالحق والإمساك عن الإنفاق للفقراء والمساكين .

قوله تعالى : «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون» يذكر سبحانه في الآية واللتين بعدها آية من آيات الربوبية وهي تدبير أمر أرزاق الناس وتغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب والتمر والعنب وغيرها .

فقوله : «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها» وإن كان ظاهره أن الآية هي الأرض إلا أن الجملتين توطئتان لقوله : «وأخرجنا منها حباً» الخ ومسوقتان للإشارة إلى أن هذه الأغذية النباتية من آثار نفخ الحياة في الأرض الميتة وتبديلها حباً وثمراً يأكلون من ذلك فالآية بنظر هي الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواص فيها وتمام تدبير أرزاق الناس بها .

وقوله : «وأخرجنا منها حباً» أي وأخرجنا من الأرض بإنبات النبات حباً كالحنطة والشعير والأرز وسائر البقولات .

وقوله : « فمنه يأكلون » تفريع على إخراج الحب وبالأكل يتم التدبير ، وضمير « فمنه » للحب .

قوله تعالى : « وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون » قال الراغب: الجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض انتهى. والنخيل جمع نخل وهو معروف ،والأعناب جمع عنب يطلق على الشجرة وهي الكرم وعلى الثمرة .

وقال الراغب : العين الجارحة ـ إلى أن قال ـ ويستعار العين لمعان هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة ـ إلى أن قال ـ ويقال لمنبع الماء عين تشبيهاً بها لما فيها من الماء انتهى ، والتفجير في الأرض شقها لإخراج المياه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » اللام لتعليل ما ذكر في الآية السابقة أي جعلنا فيها جنات وفجرنا فيها العيون بشقها ليأكل الناس من ثمره.

وقوله : « من ثمره » قيل : الضمير للمجعول من الجنات ولذا أفرد وذكر ولم يقل : من ثمرها أي من ثمر الجنات ، أو من ثمرهما أي من ثمر النخيل والأعناب .

وقيل : الضمير للمذكور وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة كما في قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

فقد روي أن أبا عبيدة سأله عن قوله « كأنه » فقال كأن ذاك .

وفي مرجع ضمير «من ثمره» أقوال أخر رديئة كقول بعضهم : إن الضمير للنخيل فقط ، وقول آخر : إنه للماء لدلالة العيون عليه أو بحذف مضاف والتقدير ماء العيون وقول آخر : إن الضمير للتفجير المفهوم من « فجرنا » والمراد بالثمر على هذين الوجهين الفائدة ، وقول آخر : إن الضمير له تعالى وإضافته إليه لأنه خلقه وملكه .

وقوله : « وما عملته أيديهم » العمل هو الفعل والفرق بينهما ـ على ما ذكره الراغب ـ أن اكثر ما يستعمل العمل في الفعل المقارن للقصد والإرادة ، ولذلك يشذ استعماله في الحيوان والجماد ، ولذلك أيضاً يتصف العمل بالصلاح وخلافه فيقال . عمل صالح وعمل طالح ولا يتصف بها مطلق الفعل .

و«ما» في «وما عملته» نافية والمعنى ولم يعمل الثمر أيديهم حتى يشاركونا في تدبير

الأرزاق بل هو مما اختصصنا بخلقه وتتميم التدبير به من دون أن تستعين بهم فما بالهم لا يشكرون.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في أواخر السورة وهو يمتن عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم وحياتهم : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً - إلى أن قال - ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » .

واحتمل بعضهم كون « ما » في « وما عملته » موصولة معطوفة على « ثمره » والمعنى ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته أيديهم من ثمره كالخل والدبس المأخوذين من التمر والعنب وغير ذلك .

وهذا الوجه وإن عده بعضهم أوجه من سابقه ليس بذاك فإن المقام مقام بيان آيات دالة على ربوبيته تعالى بذكر أمور من التدبير يخصه تعالى ولا يناسبه ذكر شيء من تدبير الغير معه وتتميم الحجة بذلك ، ولو كان المراد ذكر عملهم بما أنه منته إلى خلقه تعالى وجزء من التدبير العام كان الأنسب أن يقال : وما هديناهم إلى عمله أو ما يؤدي معناه لينتفي به توهم الشركة في التدبير .

واحتمل بعضهم كون «ما» نكرة موصوفة معطوفة على «ثمره» والمعنى ليأكلوا من ثمره ومن شيء عملته أيديهم . هذا ويرد عليه ما يرد على سابقه .

وقوله : « أفلا يشكرون » توبيخ واستقباح لعدم شكره ، وشكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولاً وفعلاً أي إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبيره وهو العبادة فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته واتخاذه إلهاً معبوداً .

قوله تعالى : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » إنشاء لتنزيهه تعالى ، لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات ورزقهم من الحبوب والأثمار ، وإنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضا كما قال: « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ق :٧ أشار إلى ما هو أعظم وأوسع من خلق أزواج النبات وهو خلق الأزواج كلها وتنظيم العالم المشهود باستيلاد كل شيء من فاعل ومنفعل قبله هما أبواه كالذكر والانثى من الإنسان والحيوان والنبات ، وكل فاعل ومنفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمراً ثالثاً ، أشار تعالى إلى ذلك فنزه نفسه بقوله : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها » الخ . فقوله : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها » إنشاء

تسبيح على ما يعطيه السياق لا إخبار .

وقوله : « مما تنبت الأرض » هو وما بعده بيان للأزواج والذي تنبت الأرض هو النبات ولا يبعد شموله الحيوان وقد قال تعالى في الإنسان وهو من أنواع الحيوان «والله أنبتكم من الأرض نباتاً » نوح : ١٧ ويؤيد ذلك أن ظاهر سياق البيان استيعابه للمبين مع عدم ذكر الحيوان في عداد الأزواج .

وقوله : « ومن أنفسهم » أي الناس ، وقوله : « ومما لا يعلمون » وهو الذي يجهله الإنسان من الخليقة أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثرة فيه .

وربما قيل في الآية : إن المراد بالأزواج الأنواع والأصناف ، ولا يساعد عليه الآيات التي تذكر خلق الأزواج كقوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » الذاريات:٤٩ والمقارنة ونوع من التألف والتركب من لوازم مفهوم الزوجية .

قال الراغب : يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والانثى في الحيوانات المتزاوجة : زوج ، ولكل قرينين فيها وفي غيرها : زوج كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً : زوج ، قال : وقوله : «خلقنا زوجين » فبين أن كل ما في العالم زوج من حيث إن له ضداً ما أو مثلاً ما أو تركيباً ما بل لا ينفك بوجه من تركيب . انتهى .

فزوجية الزوج هي كونه مفتقراً في تحققه إلى تألف وتركب ولذلك يقال لكل واحد من القرينين من حيث هما قرينان: زوج لافتقاره إلى قرينه ، وكذا يقال لمجموع القرينين : زوج لافتقاره في تحققه زوجاً إلى التألف والتركب فكون الأشياء أزواجاً مقارنة بعضها بعضاً لإنتاج ثالث أو كونه مولداً من تألف اثنين .

قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » آية أخرى من آيات الربوبية الدالة على وقوع التدبير العام السماوي للعالم الإنساني مذكورة في أربع آيات.

ولا شك أن الآية تشير إلى مفاجأة الليل عقيب ذهاب النهار ، والسلخ في الآية بمعنى الإخراج ولذلك عدي بمن ولو كان بمعنى النزع كما في قولنا : سلخت الإهاب عن الشاة تعين تعديه بعن دون من .

ويؤيد ذلك أنه تعالى عبر في مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل والنهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال في مواضع من كلامه : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » الحج : ٦١ فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجاً للنهار في الليل اعتباراً كان مفاجأة الليل بعد النهار إخراجاً للنهار من الليل اعتباراً .

كأن الليل أطبق عليهم وأحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره وضياؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانياً بانطباق الظلام وإحاطته بما أضاءه النهار ففي الكلام نوع من الاستعارة بالكناية .

ولعل فيما ذكرناه من الوجه كفاية عما أطنبوا فيه من البحث في معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأة الليل .

قوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » جريها حركتها وقوله : « لمستقر لها » اللام بمعنى إلى أو للغاية ، والمستقر مصدر ميمي أو اسم زمان أو مكان ، والمعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهي إلى مستقرها اي استقرارها وسكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله .

وأما جريها وهو حركتها فظاهر النظر الحسي يثبت لها حركة دورية حول الأرض لكن الأبحاث العلمية تقضي بالعكس وتكشف أن لها مع سياراتها حركة انتقالية نحو النسر الواقع .

وكيف كان فمحصل المعنى أن الشمس لا تزال تجري ما دام النظام الدنيوي على حاله حتى تستقر وتسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا ويبطل هذا النظام ، وهذا المعنى يرجع بالمآل إلى معنى القراءة المنسوبة إلى أهل البيت وغيرهم : « والشمس تجري لا مستقر لها » كما قيل .

وأما حمل جريها على حركتها الوضعية حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجري الدال على الانتقال من مكان إلى مكان .

وقوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » أي الجري المذكور تقدير وتدبير ممن لا يغلبه غالب في إرادته ولا يجهل جهات الصلاح في أفعاله .

قوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول والظاهر أن المراد به المنازل الثمانية والعشرون التي تقطعها القمر في كل ثمانية وعشرين يوماً وليلة تقريباً .

والعرجون عود عذق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته وهو عود أصفر مقوس يشبه الهلال ، والقديم العتيق .

وقد اختلفت الأنظار في معنى الآية للاختلاف في تركيبها ، وأقرب التقديرات من الفهم قول من قال : إن التقدير والقمر قدرناه ذا منازل أو قدرنا له منازل حتى عاد هلالاً يشبه العرجون العتيق المصفر لونه .

تشير الآية إلى اختلاف مناظر القمر بالنسبة إلى أهل الأرض فإن نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرته تقريباً وما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثم يتغير موضع الاستنارة ولا يزال كذلك حتى يعود إلى الوضع الأول ويعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثم لا يزال ينبسط عليه النور حتى يتبدر ثم لا يزال ينقص حتى يعود إلى ما كان عليه أوله .

ولاختلاف صورة آثار بارزة في البر والبحر وحياة الناس على ما بين في الأبحاث المربوطة.
فالآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الطارئة له بالنسبة إلى الأرض وأهلها دون حاله في نفسه ودون حاله بالنسبة إلى الشمس فقط .

ومن هنا لا يبعد أن يقال في قوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها » أن المراد بقوله : « تجري » الإشارة إلى ما يعطيه ظاهر الحس من حركتها اليومية والفصلية والسنوية وهي حالها بالنسبة إلينا ، وبقوله : « لمستقر لها » حالها في نفسها وهي سكونها بالنسبة إلى سياراتها المتحركة حولها كأنه قيل : وآية لهم أن الشمس على استقرارها تجري عليهم وقد دبر العزيز العليم بذلك كينونة العالم الأرضي وحياة أهله والله أعلم .

قوله تعالى : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » لفظة ينبغي تدل على الترجح ونفي ترجح الإدراك من الشمس نفي وقوعه منها ، والمراد به أن التدبير ليس مما يجري يوماً ويقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختل ولا منقوض حتى ينقضي الأجل المضروب منه تعالى لذلك .

فالمعنى أن الشمس والقمر ملازمان لما خط لهما من المسير فلا تدرك الشمس القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول بهما ولا الليل سابق النهار وهما متعاقبان في التدبير فيتقدم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان .

ولم يتعرض لنفي إدراك القمر للشمس ولا لنفي سبق النهار الليل لأن المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهي عن الاختلال والفساد فنفى إدراك ماهو أعظم وأقوى وهو الشمس لما هو أصغر وأضعف وهو القمر ، ويعلم منه حال العكس ونفى سبق الليل الذي هو افتقاده للنهار الذي هو ليله والليل مضاف إليه متأخر طبعاً منه ويعلم به حال العكس .

وقوله : « وكل في فلك يسبحون » أي كل من الشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب يجرون في مجرى خاص به كما يسبح السمكة في الماء فالفلك هو المدار الفضائي الذي يتحرك فيه الجرم العلوي ، ولا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكل كل من الشمس والقمر والليل والنهار وإن كان لا يوجد في كلامه تعالى ما يشهد على ذلك .

والإتيان بضمير الجمع الخاص بالعقلاء في قوله « يسبحون » لعله للإشارة إلى كونها مطاوعة لمشيته مطيعة لأمره تعالى كالعقلاء كما في قوله : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» حم السجدة : ١١ .

وللمفسرين في جمل الآية آراء أخر مضطربة أضربنا عنها من أراد الوقوف عليها فليراجع المفصلات .

قوله تعالى : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » قال الراغب : الذرية أصلها الصغار من الأولاد ، وتقع في التعارف على الصغار والكبار معاً ، ويستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع . انتهى ، والفلك السفينة ، والمشحون المملوء .

آية أخرى من آيات ربوبيته تعالى وهو جريان تدبيره في البحر حيث يحمل ذريتهم في الفلك المشحون بهم وبأمتعتهم يجوزون به من جانب إلى جانب للتجارة وغيرها ، ولا حامل لهم فيه ولا حافظ لهم عن الغرق إلا هو تعالى والخواص التي يستفيدون منها في ركوب البحر أمور مسخرة له تعالى منتهية إلى خلقه على أن هذه الأسباب لو لم تنته إليه تعالى لم تغن طائلاً .

وإنما نسب الحمل إلى الذرية دونهم أنفسهم فلم يقل: إنا حملناهم لإثارة الشفقة والرحمة.

قوله تعالى: «وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» المراد به ـ على ما فسروه ـ الأنعام قال تعالى: «وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون» الزخرف: ١٢ وقال: «وعليها وعلى الفلك تحملون» المؤمن ٨٠.

وفسر بعضهم الفلك المذكور في الآية السابقة بسفينة نوح عليه السلام وما في هذه الآية بالسفن والزوارق المعمولة بعدها وهو تفسير رديء ومثله تفسير ما في هذه الآية بالإبل خاصة.

وربما فسر ما في هذه الآية بالطيارات والسفن الجوية المعمولة في هذه الأعصار والتعميم أولى.

قوله تعالى: «وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون» الصريخ هو الذي يجيب الصراخ ويغيث الاستغاثة، والإنقاذ هو الإنجاء من الغرق.

والآية متصلة بقوله السابق: «إنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون» أي إن الأمر إلى مشيتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث ولا ينقذهم منقذ.

قوله تعالى: «إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين» استثناء مفرغ والتقدير لا ينجون بسبب من الأسباب وأمر من الامور إلا لرحمة منا تنالهم ولتمتع إلى حين الأجل المسمى قدرناه لهم.

قوله تعالى: «وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون» لما ذكر الآيات الدالة على الربوبية ذمهم على عدم رعايتهم حقها وعدم إقبالهم عليها وعدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقة أن ربكم الله فاتقوا معصيته في حالكم الحاضرة وما قدمتم من المعاصي، أو عذاب الشرك والمعاصي التي أنتم مبتلون بها وما خلفتم وراءكم، اواتقوا ما بين أيديكم من الشرك والمعاصي في الحياة الدنيا وما خلفكم من العذاب في الآخرة، أعرضوا عنه ولم يستجيبوا له على ما هو دأبهم في جميع الآيات التي ذكروا بها.

ومن هنا يظهر أولاً أن المراد بما بين أيديهم وما خلفهم الشرك والمعاصي التي هم مبتلون بها في حالهم الحاضرة وما كانوا مبتلين به قبل، أو العذاب الذي استوجبوه

بذلك ، والمآل واحد ، أو الشرك والمعاصي في الدنيا والعذاب في الآخرة وهو أوجه الوجوه .

وثانياً : أن حذف جواب إذا للدلالة على أن حالهم بلغت من الجرأة على الله والاستهانة بالحق مبلغاً لا يستطاع معها ذكر مايجيبون به داعي الحق إذا دعاهم إلى التقوى فيجب أن يترك أسفاً ولا يذكر ، وقد دل عليه بقوله : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

قوله تعالى : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهدة أو بالتلاوة والذكر ،وأيضاً هي أعم من أن تكون آية آفاقية أو أنفسية ، أو تكون آية معجزة كالقرآن ، فهم معرضون عنها جميعاً .

قوله تعالى ، : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله » إلى آخر الآية كان قوله : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم» متعرضاً لجوابهم إذا دعوا إلى عبادة الله وهي أحد ركني الدين الحق ، وهذه الآية تعرضت لجوابهم إذا دعوا إلى الشفقة على خلق الله وهو الركن الآخر ومعلوم أن جوابهم الرد دون القبول .

فقوله : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله » يتضمن دعوتهم إلى الانفاق على الفقراء والمساكين من أموالهم وفي التعبير عن الأموال بما رزقهم الله إشعار بأن المالك لها حقيقة هو الله الذي رزقهم بها وسلطهم عليها ، وهو الذي خلق الفقراء والمساكين وأقام حاجتهم إلى ما عند هؤلاء من فضل المؤن الذي لا يفتقرون إليه فلينفقوا عليهم وليحسنوا وليجملوا والله يحب الإحسان وجميل الفعل .

وقوله : « قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » جوابهم للدعوة إلى الإنفاق،وإنما أظهر القائل ـ الذين كفروا ـ ومقتضى المقام الإضمار للإشارة إلى أن كفرهم بالحق وإعراضهم عنه باتباع الشهوات هو الذي دعاهم إلى الاعتذار بمثل هذا العذر المبني على الإعراض عما تدعو إليه الفطرة من الشفقة على خلق الله وإصلاح ما فسد في المجتمع كما أن الإظهار في قوله : « للذين آمنوا » للإشارة إلى أن قائل « أنفقوا مما رزقكم الله » هم الذين آمنوا .

وفي قولهم : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » إشعار بأن المؤمنين إنما قالوا لهم:

« أنفقوا مما رزقكم الله » بعنوان أنه مما يشاؤه الله ويريده حكما دينياً فردوه بأن إرادة الله لاتتخلف عن مراده فلو شاء أن يطعمهم أطعمهم أي وسع في رزقهم وجعلهم أغنياء.

وهذه مغالطة منهم خلطوا فيه بين الإرادة التشريعية المبنية على الابتلاء والامتحان وهداية العباد إلى مافيه صلاح حالهم في دنياهم وآخرتهم ومن الجائز أن تتخلف عن المراد بالعصيان ، وبين الإرادة التكوينية التي لا تتخلف عن المراد ومن المعلوم أن مشيئة الله وإرادته المتعلقة بإطعام الفقراء والإنفاق عليهم من المشيئة التشريعية دون التكوينية فتخلفها في مورد الفقراء إنما يدل على عصيان الذين كفروا وتمردهم عما أمروا به لا على عدم تعلق الإرادة به وكذب مدعيه .

وهذه مغالطة بنوا عليها جل ما افتعلوه من سنن الوثنية وقد حكى الله سبحانه ذلك عنهم في قوله : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » النحل: ٣٥ ، وقوله : «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » الأنعام : ١٤٨ ، وقوله : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم » الزخرف : ٢٠ .

وقوله : « إن أنتم إلا في ضلال مبين » من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أي إنكم في ضلال مبين في دعواكم أن الله أمرنا بالإنفاق وشاء منا ذلك .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع روي عن علي بن الحسين زين العابدين وأبي جعفر الباقر وجعفر الصادق عليهم السلام « لا مستقر لها » بنصب الراء .

وفي الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وأحمد البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها » قال : مستقرها تحت العرش .

أقول : وقد روي هذا المعنى عن أبي ذر عنه صلى الله عليه وآله وسلم من طرق الخاصة والعامة

مختصرة ومطولة ، وفي بعضها أنها بعد الغروب تصعد سماء سماء حتى تصل إلى ما دون العرش فتسجد وتستأذن في الطلوع وتبقى على ذلك حتى تكسى نورا ويؤذن لها في الطلوع.

والرواية إن صحت فهي مؤولة .

وفي روضة الكافي بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : إن الله عز وجل خلق الشمس قبل القمر وخلق النور قبل الظلمة .

وفي المجمع روى العياشي في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال : كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا والفضل بن سهل والمأمون في الأيوان بمرو فوضعت المائدة فقال الرضا عليه‌السلام : إن رجلاً من بني إسرائيل سألني بالمدينة فقال : النهار خلق قبل أم الليل ؟ فما عندكم ؟ قال :وأداروا الكلام فلم يكن عندهم في ذلك شيء .

فقال الفضل للرضا: أخبرنا بها أصلحك الله .قال: نعم من القرآن أم من الحساب قال له الفضل من جهة الحساب فقال:قد علمت يا فضل أن طالع الدنيا السرطان والكواكب في مواضع شرفها فزحل في الميزان والمشترى في السرطان والمريخ في الجدي والشمس في الحمل والزهرة في الحوت وعطارد في السنبلة والقمر في الثور فتكون الشمس في العاشر وسط السماء فالنهار قبل الليل ، ومن القرآن قوله تعالى : « ولا الليل سابق النهار »أي الليل قد سبقه النهار .

أقول : نقل الآلوسي في روح المعاني هذا الحديث ثم قال : وفي الاستدلال بالآية بحث ظاهر ، وأما بالحساب فله وجه في الجملة ورآى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكروا الذي يغلب على الظن عدم صحة الخبر من مبتدئه فالرضا أجل من أن يستدل بالآية على ما سمعت من دعواه انتهى .

وقد اختلط عليه الأمر في تحصيل حقيقة معنى الليل والنهار .

توضيحه : أن الليل والنهار متقابلان تقابل العدم والملكة كالعمى والبصر فكما أن العمى ليس مطلق عدم البصر حتى يكون الجدار مثلاً أعمى لعدم البصر فيه بل هو عدم البصر مما من شأنه أن يتصف بالبصر كالإنسان كذلك الليل ليس هو مطلق عدم النور بل هو زمان عدم استضاءة ناحية من نواحي الأرض بنور الشمس ومن المعلوم أن

عدم الملكة يتوقف في تحققه على تحقق الملكة المقابلة له قبله حتى يتعين بالإضافة إليه فلولا البصر لم يتحقق عمى ولولا النهار لم يتحقق الليل .

فمطلق الليل بمعناه الذي هو به ليل مسبوق الوجود بالنهار وقوله : « ولا الليل سابق النهار » وإن كان ناظراً إلى الترتيب المفروض بين النهر والليالي وأن هناك نهاراً وليلاً ونهاراً وليلا وأن واحداً من هذه الليالي لا يسبق النهار الذي يجنبه .

لكنه تعالى أخذ في قوله : « ولا الليل سابق النهار » مطلق الليل ونفى تقدمه على مطلق النهار ولم يقل : إن واحداً من الليالي الواقعة في هذا الترتيب لا يسبق النهار الواقع في الترتيب قبله .

فالحكم في الآية مبني على ما يقتضيه طبيعة الليل والنهار بحسب التقابل الذي أودعه الله بينهما وقد استفيد منه الحكم بانحفاظ الترتيب في تعاقب الليل والنهار فإن كل ليل هو افتقاد النهار الذي هو يتلوه فلا يتقدم عليه وإلى هذا يشير عليه‌السلام بعد ذكر الآية بقوله : « أي الليل قد سبقه النهار » يعني أن سبق النهار الليل هو خلقه قبله وليس كما يتوهم أن هناك نهر أو ليالي موجودة ثم يتعين لكل منها محله .

وقول المعترض : « وأما بالحساب فله وجه في الجملة » لا يدري وجه قوله : في الجملة وهو وجه تام مبني على تسليم أصول التنجيم صحيح بالجملة على ذلك التقدير لا في الجملة .

وكذا قوله : « ورآى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر » لا محصل له لأن دائرة نصف النهار وهي الدائرة المارة على القطبين ونقطة ثالثة بينهما غير متناهية في العدد لا تتعين لها نقطة معينة في السماء دون نقطة أخرى فيكون كون الشمس في إحداها نهاراً للأرض دون الاخرى .

وفي المجمع في قوله تعالى: « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم » روى الحلبي عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : معناه اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب وما خلفكم من العقوبة .

* * *

وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ـ ٤٨ . مَا يَنْظُرُونَ

إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تأْخُذُهُمْ وهُمْ يَخِصِّمُونَ ـ ٤٩ . فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إلى أهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ـ ٥٠ . وَنُفِخَ في الصُّورِ فَإذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ـ ٥١ . قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ ـ ٥٢ . إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ ـ ٥٣ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ـ ٥٤ إنَّ أصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ في شُغُلٍ فاكِهُونَ ـ ٥٥ هُمْ وأزْواجُهُمْ في ظِلالٍ عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِئُونَ ـ ٥٦ . لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ ـ ٥٧ . سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ـ ٥٨ . وَامْتازُوا الْيَوْمَ أيُّها الْمُجْرِمُونَ ـ ٥٩ . أَلَمْ أعْهَدْ إلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ـ ٦٠ . وَأنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ـ ٦١ . وَلَقَدْ أضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ـ ٦٢ . هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ـ ٦٣ . إصْلَوْها الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ـ ٦٤ . الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ـ ٦٥ .

﴿ بيان ﴾

لما فرغ من تفصيل آيات التوحيد المشار إليه إجمالاً في أول الكلام شرع في تفصيل خبر المعاد وذكر كيفية قيام الساعة وإحضارهم للحساب والجزاء وما يجزى به أصحاب الجنة وما يجازى به المجرمون كل ذلك تبييناً لما تقدم من إجمال خبر المعاد.

قوله تعالى : «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبني على الإنكار ، ولعله لذلك جيىء باسم الإشارة الموضوعة للقريبة ولأن النبي ﷺ والمؤمنين كثيراً ما كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة وينذرونهم به ، والوعد يستعمل في الخير والشر إذا ذكر وحده وإذا قابل الوعيد تعين الوعد للخير والوعيد للشر.

قوله تعالى : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون» النظر بمعنى الانتظار ، والمراد بالصيحة نفخة الصور الاولى بإعانة السياق ، وتوصيف الصيحة بالوحدة للاشارة إلى هوان أمرهم على الله جلت عظمته فلا حاجة إلى مؤنة زائدة ، و«يخصمون» أصله يختصمون من الاختصام بمعنى المجادلة والمخاصمة .

والآية جواب لقولهم :«متى هذا الوعد» مسوقة سوق الاستهزاء بهم والاستهانة بأمرهم كما كان قولهم كذلك ، والمعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون : متى هذا الوعد في سؤالهم عن وقت الوعد المنبىء عن الانتظار إلا صيحة واحدة ـ يسيرة علينا بلا مؤنة ولا تكلف ـ تأخذهم فلا يسعهم أن يفروا وينجوا منها والحال أنهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم .

قوله تعالى : « فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » أي يتفرع على هذه الصيحة بما أنها تفاجئهم ولا تمهلهم ان يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصية ـ على أن الموت يعمهم جميعاً دفعة فلا يترك منهم أحداً يوصي إليه ـ ولا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلاً .

قوله تعالى : « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » هذه هي نفخة الصور الثانية التي بها الإحياء والبعث ، والأجداث جمع جدث وهو القبر والنسل الإسراع في المشي وفي التعبير عنه بقوله : « إلى ربهم » تقريع لهم لأنهم كانوا ينكرون

ربوبيته والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون » البعث الإقامة ، والمرقد محل الرقاد والمراد به القبر ، وتعبيرهم عنه تعالى بالرحمان نوع استرحام وقد كانوا يقولون في الدنيا : « وما الرحمان » الفرقان : ٦٠ ، وقوله : « وصدق المرسلون » عطف على قوله : « هذا ما وعد الرحمان » والجملة الفعلية قد تعطف على الاسمية .

وقولهم : ياويلنا من بعثنامن مرقدنا مبني على إنكارهم البعث وهم في الدنيا ورسوخ أثر الإنكار والغفلة عن يوم الجزاء في نفوسهم وهم لا يزالون مستغرقين في الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين إلى المحشر فاجأهم الورود في عالم لا يستقبلهم فيه إلا توقع الشر فأخذهم الفزع الأكبر والدهشة التي لا تقوم لها الجبال ولذا يتبادرون أولاً إلى دعوة الويل والهلاك كما كان ذلك دأبهم في الدنيا عند الوقوع في المخاطر ثم سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذي أحاط بهم من الدهشة أذهلهم من كل شيء .

ثم ذكروا ما كانت الرسل عليهم السلام يذكرونهم به من الوعد الحق بالبعث والجزاء فشهدوا بحقية الوعد واستعصموا بالرحمة فقالوا: «هذا ما وعد الرحمان » على ما هو دأبهم في الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق وإظهار الذلة والاعتراف بالظلم والتقصير ثم صدقوا الرسل بقولهم : « وصدق المرسلون » .

وبما تقدم ظهر أولاً وجه دعوتهم بالويل إذا بعثوا .

وثانياً وجه سؤالهم عمن بعثهم من مرقدهم الظاهر في أنهم جاهلون به أولاً ثم إقرارهم بأنه الذي وعده الرحمان وتصديقهم المرسلين فيما بلغوا عنه تعالى .

ويظهر أيضاً أن قوله: « من بعثنا من مرقدنا » الخ وقوله : «هذا ما وعد الرحمان» الخ . من قولهم .

وقيل : قوله : « وصدق المرسلون » عطف على مدخول « ما » و« ما » موصولة أو مصدرية و«هذا ما وعد الرحمن » الخ جواب من الله أو من الملائكة أو من المؤمنين لقولهم : « من بعثنا من مرقدنا » ؟

وغير خفي أنه خلاف الظاهر وخاصة على تقدير كون « ما » مصدرية ولو كان قوله : « هذا ما وعد الرحمان » الخ . جواباً من الله أو الملائكة لقولهم : « من بعثنا من مرقدنا » لاجيب بالفاعل دون الفعل لأنهم سألوا عن فاعل البعث ! وما قيل : إن العدول إليه لتذكير كفرهم وتقريعهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل هذا . لا يغني طائلا .

وظهر أيضاً أن قوله : « هذا ما وعد الرحمان » مبتدء وخبر ، وقيل « هذا » صفة لمرقدنا بتأويل اسم الإشارة إلى المشتق و«ما» مبتدء خبره محذوف تقديره ماوعد الرحمان حق وهو بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » اسم كان محذوف والتقدير إن كانت الفعلة أو النفخة إلا نفخة واحدة تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير ومهلة .

والتعبير بقوله : « لدينا » لأن اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند الله سبحانه.

قوله تعالى : « فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» أي في هذا اليوم يقضي بينهم قضاء عدلا ويحكم حكماً حقا فلا تظلم نفس شيئاً.

وقوله : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » عطف تفسير لقوله : فاليوم لا تظلم نفس شيئاً، وهو في الحقيقة بيان برهاني لانتفاء الظلم يومئذ لدلالته على أن جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم ، ولا يتصور مع ذلك ظلم لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وتحميل العامل عمله وضع الشيء في موضعه ضرورة .

وخطاب الآية من باب تمثيل يوم القيامة وإحضاره وإحضار من فيه بحسب العناية الكلامية ، وليس ـ كما توهم ـ حكاية عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكة أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهة السياق .

والمخاطب بقوله : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » السعداء والأشقياء جميعاً.

وما قيل عليه أن الحصر يأبى التعميم فإنه تعالى يوفي المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافاً مضاعفة مدفوع بأن الحصر في الآية ناظر إلى جزاء العمل وأجره وما

يدل من الآيات على المزيد كقوله : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ أمر وراء الجزاء والأجر خارج عن طور العمل .

وربما أجيب عنه بأن معنى الآية أن الصالح لا ينقص ثوابه والطالح لايزاد عقابه فإن الحكمة تنافيه أما زيادة الثواب ونقص العقاب فلا مانع منه أو أن المراد بقوله : «لا تجزون إلا ما كنتم تعملون » أنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وفيه أن مدلول الآية لو كان ما ذكر اندفع الاشكال لكن الشأن في دلالتها على ذلك.

قوله تعالى : «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون» الشغل الشأن الذي يشغل الإنسان ويصرفه عما عداه ، والفاكه من الفكاهة وهي التحدث بما يسر أو التمتع والتلذذ ولا فعل له من الثلاثي المجرد على ما قيل .

وقيل : « فاكهون» معناه ذوو فاكهة نحو لابن وتامر ويبعده أن الفاكهة مذكورة في السياق ولا موجب لتكرارها .

والمعنى أن أصحاب الجنة في هذا اليوم في شأن يشغلهم عن كل شيء دونه وهو التنعم في الجنة متمتعون فيها .

قوله تعالى : « هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكؤن» الظلال جمع ظل وقيل جمع ظلة بالضم وهي السترة من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلك ، والأريكة كل ما يتكى عليه من وسادة أو غيرها .

والمعنى: هم أي أصحاب الجنة وأزواجهم من حلائلهم المؤمنات في الدنيا أو من الحور العين في ظلال أو أستار من الشمس وغيرها متكئون على الأرائك اتكاء الأعزة.

قوله تعالى : « لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون » الفاكهة ما يتفكه به من الثمرات كالتفاح والاترج ونحوهما ، وقوله :«يدعون » من الادعاء بمعنى التمني أي لهم في الجنة فاكهة ولهم فيها ما يتمنونه ويطلبونه .

قوله تعالى : « سلام قولا من رب رحيم » سلام مبتدء محذوف الخبر والتنكير للتفخيم والتقدير سلام عليهم أو لهم سلام ، و«قولا» مفعول مطلق ـل محذوف والتقدير

أقوله قولا من رب رحيم .

والظاهر أن السلام منه تعالى وهو غير سلام الملائكة المذكور في قوله: «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » الرعد : ٢٤ .

قوله تعالى: « وامتازوا اليوم أيها المجرمين » أي ونقول اليوم للمجرمين امتازوا من أصحاب الجنة وهو تميزهم منهم يوم القيامة وإنجاز لما في قوله في موضع آخر : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار» ص : ٢٨ ، وقوله : « أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم » الجاثية : ٢١ .

قوله تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » العهد الوصية ، والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس ويأمر به إذ لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته ، وقد علل النهي عن طاعته بكونه عدواً مبيناً لأن العدو لا يريد بعدوه خيراً .

وقيل : المراد بعبادته عبادة الآلهة من دون الله وإنما نسبت إلى الشيطان لكونها بتسويله وتزيينه ، وهو تكلف من غير موجب .

وإنما وجه الخطاب إلى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوة الشيطان إنما نشبت أول ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى واستكبر فرجم ثم عاد ذريته بعداوته وأوعدهم كما حكاه الله تعالى إذ قال : « أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » أسرى : ٦٢ .

وأما عهده تعالى ووصيته إلى بني آدم أن لا يطيعوه فهو الذي وصاهم به بلسان رسله وأنبيائه وحذرهم عن اتباعه كقوله تعالى : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » الأعراف : ٢٧ : وقوله : « ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » الزخرف : ٦٢ .

وقيل : المراد بالعهد عهده تعالى إليهم في عالم الذر حيث قال : « ألست بربكم قالوا بلى» . وقد عرفت مما قدمناه في تفسير آية الذر أن العهد الذي هناك هو بوجه عين العهد الذي وجه إليهم في الدنيا .

قوله تعالى : « وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » عطف تفسير لما سبقه ، وقد تقدم كلام في معنى الصراط المستقيم في تفسير قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » من سورة الفاتحة .

قوله تعالى : « ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون » الجبل الجماعة وقيل : الجماعة الكثيرة والكلام مبنى على التوبيخ والعتاب .

قوله تعالى : « هذه جهنم التى كنتم توعدون » أي كان يستمر عليكم الايعاد بها مرة بعد مرة بلسان الأنبياء والرسل عليهم السلام وأول ما أوعد الله سبحانه بها حين قال لإبليس : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين » الحجر : ٤٣ وفي لفظ الآية إشارة إلى إحضار جهنم يومئذ .

قوله تعالى : « اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » الصلا : اللزوم والاتباع ، وقيل : مقاساة الحرارة ويظهر بقوله : « بمـا كنتم تكفرون » أن الخطاب للكفار وهم المراد بالمجرمين .

قوله تعالى : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »أي يشهد كل منها بما كانوا يكسبونه بواسطته فالأيدي بالمعاصي التي كسبوها بها والأرجل بالمعاصي الخاصة بها على ما يعطيه السياق .

ومن هنا يظهر أن كل عضو ينطق بما يخصه من العمل وأن ذكر الأيدي والأرجل من باب الأنموذج ولذا ذكر في موضع آخر السمع والبصر والفؤاد كما في سورة أسرى الآية ٣٦ . وفي موضع آخر الجلود كما في سورة حم السجدة الآية ٢٠ ، وسيأتي بعض ما يتعلق به من الكلام في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة » الآية قال : ذلك في آخر الزمان يصاح فيهم صيحة وهم في أسواقهم يتخاصمون فيموتون كلهم في مكانهم لا يرجع أحد منهم إلى منزله ولا يوصي بوصية ، وذلك قوله عز وجل : « فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » .

وفي المجمع في الحديث تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فما يطويانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه حتى تقوم الساعة ، والرجل يليط[1] حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وكذا عن قتادة عنه ﷺ مرسلا .

وفي تفسير القمي وقوله عز وجل : « ونفخ في الصور فإذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » قال : من القبور . وفي رواية أبي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام في قوله تعالى « يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » فإن القوم كانوا في القبور فلما قاموا حسبوا أنهم كانوا نياما وقالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . قالت الملائكة : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون .

وفي الكافي بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أبو ذر رحمه الله يقول في خطبته : وما بين الموت والبعث إلا كنومة نمتها ثم استيقظت منها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » قال يفاكهون النساء ويلاعبونهن .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل : « في ظلال على الأرائك متكئون » الأرائك السرر عليها الحجال .

وفيه في قوله عز وجل : « سلام قولا من رب رحيم » قال : السلام منه هو الأمان . وقوله : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » قال:إذا جمع الله الخلق يوم القيامة بقوا قياما على أقدامهم حتى يلجمهم العرق فينادون: يارب حاسبنا ولو إلى النار قال: فيبعث الله رياحا فتضرب بينهم وينادي مناد : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون» فيميز بينهم فصار المجرمون في النار ، ومن كان في قلبه الإيمان صار إلى الجنة .

أقول : وقد ورد في بعض الروايات أن الله سبحانه يتجلى لهم فيشتغلون به عن كل من سواه مادام التجلي والمراد به ارتفاع كل حجاب بينهم وبين ربهم دون الرؤية

---

(١) لاطه أي ملاه .

البصرية التي لا تتحقق إلا بمقارنة الجهات والأبعاد فإنها مستحيلة في حقه تعالى .

وفي اعتقادات الصدوق قال عليه السلام : من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه قال الله عز وجل : « فمن أوتي كتابه بيمينه فاؤلئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا » أسرى : ٧١ .

وفي تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن جده قال : قال أمير المؤمنين عليهم السلام في خطبة يصف هول يوم القيامة : ختم الله على الأفواه فلا تكلم وتكلمت الأيدي وشهدت الأرجل ونطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثا .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر يأتي بعضها في ذيل تفسير قوله تعالى : « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم » الآية حم السجدة : ٢٠ ، وتقدم بعضها في الكلام على قوله تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » أسرى : ٣٦ .

* * *

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ - ٦٦ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ - ٦٧ . وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ - ٦٨ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ - ٦٩ . لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى

الْكَافِرِينَ ـ ٧٠ . أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا
أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ـ ٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ
وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ـ ٧٢ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ـ ٧٣ . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ
يُنْصَرُونَ ـ ٧٤ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ
مُحْضَرُونَ ـ ٧٥ . فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ ـ ٧٦ . أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
خَصِيمٌ مُبِينٌ ـ ٧٧ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي
الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ـ ٧٨ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ـ ٧٩ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ
نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ـ ٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ـ ٨١ .
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ـ ٨٢ .
فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ـ ٨٣ .

﴿ بيان ﴾

بيان تلخيصي للمعاني السابقة في سياق آخر ففيه تهديد لهم بالعذاب ، والإشارة إلى أنه ﷺ رسول وأن كتابه ذكر وقرآن وليس بشاعر ولا كتابه بشعر ، والإشارة إلى خلق الأنعام آية للتوحيد ، والاحتجاج على المعاد .

قوله تعالى : « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون » قال في مجمع البيان : الطمس محو الشيء حتى يذهب أثره فالطمس على العين كالطمس على الكتاب ومثله الطمس على المال وهو إذهابه حتى لا يقع عليه إدراك ، وأعمى مطموس وطميس وهو أن يذهب الشق الذي بين الجفنين ، انتهى .

فقوله : « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم » أي لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوحة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم وبطل إبصارهم .

وقوله : « فاستبقوا الصراط » أي أرادوا السبق إلى الطريق الواضح الذي لا يخطىء قاصده ولا يظل سالكه فلم يبصروه ولن يبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله : « فأنى يبصرون » كناية عن الامتناع .

وقول بعضهم : إن المراد باستباق الصراط مبادرتهم إلى سلوك طريق الحق وعدم اهتدائهم إليها ، لا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون » قال في المجمع : والمسخ قلب الصورة إلى خلقة مشوهة كما مسخ قوم قردة وخنازير وقال : والمكانة والمكان واحد . انتهى . والمراد بمسخهم على مكانتهم تشويه خلقهم وهم قعود في مكانهم الذي هم فيه من غير أن يغيرهم عن حالهم بعلاج وتكلف بل بمجرد المشية فهو كناية عن كونه هيناً سهلاً عليه تعالى من غير أي صعوبة .

وقوله : « فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون » أي مضياً في العذاب ولا يرجعون إلى حالهم قبل العذاب والمسخ فالمضي والرجوع كنايتان عن الرجوع إلى حال السلامة والبقاء على حال العذاب والمسخ .

وقيل : المراد مضيهم نحو مقاصدهم ورجوعهم إلى منازلهم وأهليهم ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون » التعمير التطويل في العمر ، والتنكيس تقليب الشيء بحيث يعود أعلاه أسفله ويتبدل قوته ضعفاً وزيادته نقصاً والإنسان في عهد الهرم منكس الخلق يتبدل قوته ضعفاً وعلمه جهلا وذكره نسياناً.

والآية في مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين والمراد أن الذي ينكس خلق الإنسان إذا عمره قادر على أن يطمس على أعينهم وعلى أن يمسخهم على مكانتهم .

وفي قوله : « أفلا يعقلون » توبيخهم على عدم التعقل وحثهم على التدبر في هذه الامور والاعتبار بها .

قوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين عطف ورجوع إلى ما تقدم في صدر السورة من تصديق رسالة النبي ﷺ وكون كتابه تنزيلا من عنده تعالى .

فقوله : « وما علمناه الشعر » نفى أن يكون علمه الشعر ولازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه ويمتنع من قوله لنهي من الله متوجه إليه ، ولا أن النازل من القرآن ليس بشعر وإن أمكنه ﷺ أن يقوله .

وبه يظهر أن قوله : « وما ينبغي له » في مقام الامتنان عليه بأنه نزهه عن أن يقول شعراً فالجملة في مقام دفع الدخل والمحصل أن عدم تعليمنا إياه الشعر ليس يوجب نقصاً فيه ولا أنه تعجيز له بل لرفع درجته وتنزيه ساحته عما يتعاوره العارف بصناعة الشعر فيقع في معرض تزيين المعاني بالتخيلات الشعرية الكاذبة التي كلما أمعن فيها كان الكلام أوقع في النفس ، وتنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع في السمع ، فلا ينبغي له ﷺ أن يقول الشعر وهو رسول من الله وآية رسالته ومتن دعوته القرآن المعجز في بيانه الذي هو ذكر وقرآن مبين .

وقوله : « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » تفسير وتوضيح لقوله : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » بما أن لاز[م] [مع]ناه أن القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من

قوله : « إن هو إلا ذكر » الخ من قصر القلب والمعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر وقرآن مبين .

ومعنى كونه ذكراً وقرآنا أنه ذكر مقرو من الله ظاهر ذلك .

قوله تعالى : « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » تعليل متعلق بقوله : « وما علمناه الشعر» والمعنى ولم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن يكون شعرا من كان حياً «الخ» أو متعلق بقوله: « إن هو إلا ذكر » الخ والمعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكرا وقرآنا مبينا نزلناه إليه لينذر من كان حيا «الخ» ومآل الوجهين واحد.

والآية ـ كما ترى ـ تعد غاية إرسال الرسول وإنزال القرآن إنذار من كان حياً ـ وهو كناية عن كونه يعقل الحق ويسمعه ـ وحقية القول ووجوبه على الكافرين فمحاذاة الآية لما في صدر السورة من الآيات في هذا المعنى ظاهر .

قوله تعالى : «أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون» ذكر آية من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى وتدبيره للعالم الإنساني وهي نظيرة ما تقدم في ضمن آيات التوحيد السابقة من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحب والثمرات وتفجير العيون .

والمراد بكون الأنعام مما عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم في خلقها واختصاصه به تعالى فعمل الأيدي كناية عن الاختصاص .

وقوله : « فهم لها مالكون » تفريع على قوله : « خلقنا لهم » فإن المعنى خلقنا لأجلهم فهي مخلوقة لأجل الإنسان ولازمه اختصاصها به وينتهي الاختصاص إلى الملك فإن الملك الاعتباري الذي في المجتمع من شعب الاختصاص .

وبذلك يظهر ما في قول بعضهم : إن في تفرع قوله : « فهم لها مالكون » على قوله : « خلقنا لهم » خفاء ، والظاهر تفرعها على مقدر والتقدير خلقناها لهم فهم لها مالكون ، وأنت خبير بعدم خفاء تفرعها على « خلقنا لهم » وعدم الحاجة إلى تقدير .

وقيل : الملك بمعنى القدرة والقهر ، وفيه أنه مفهوم من قوله بعد : « وذللناها لهم » والتأسيس خير من التأكيد .

قوله تعالى : « وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون »تذليل الأنعام جعلها منقادة لهم غير عاصية وهو تسخيرها لهم ، والركوب بفتح الراء الحمولة كالإبل والبقر ، وقوله : « ومنها يأكلون » أي من لحمها يأكلون .

قوله تعا : « ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك ، والمشارب جمع مشرب ـ مصدر ميمي بمعنى المفعول ـ والمراد بها الألبان ، والكلام في معنى الشكر كالكلام فيما تقدم في قوله : « وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

ومعنى الآيات الثلاث: أو لم يعلموا أنا خلقنا لأجلهم ولتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاما من الإبل والبقر والغنم فتفرع على ذلك أنهم مالكون لها ملكا يصحح لهم أنواع تصرفاتهمفيها من غير معارض ، وذللناها لهم بجعلها مسخرة لهممنقادة غير عاصية فمنها ركوبهم الذي يركبونه ، ومنها أي من لحومها يأكلون ، ولهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها وأوبارها وجلودها ومشروبات من ألبانها يشربونها أفلا يشكرون الله على هذا التدبير الكامل الذي يكشف عن ربوبيته لهم ؟ أولا يعبدونه شكراً لأنعمه ؟ .

قوله تعالى : «واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون»ضمائر الجمع للمشركين ، والمراد بالآلهة الأصنام أو الشياطين وفراعنة البشر دون الملائكة المقربين والأولياء من الإنسان لعدم ملاءمة ذيل الكلام : « وهم لهم جند محضرون » لذلك .

وإنما اتخذوهم آلهة رجاء نصروا من ناحيتهم لأن عامتهم تتخذ إلها زعما منهم أن تدبير أمره مفوض إلىمن اتخذه إلها من خير أو شر فيعبدهالعابد منهم ليرضيه بعبادته فلا يسخط فيقطع النعمة أو يرسل النقمة .

قوله تعالى: « لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » أي لا يستطيع هؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم آلهة نصر هؤلاء المشركين لأنهم لا يملكون شيئاً من خير أو شر .

وقوله : «وهم لهم جند محضرون» الظاهر أن أول الضميرين للمشركين و ثانيهما للآلهة من دون الله والمراد أن المشركين جند للآلهة وذلك أن من لوازم معنى الجندية التبعية والملازمة والمشركون هم المعدودون أتباعاً لآلهتهم مطيعين لهم دون العكس .

والمراد بالإحضار في قوله: « محضرون » الإحضار للجزاء يوم القيامة قال تعالى: «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون»الصافات: ١٥٨ وقال: « ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين » الصافات:٥٧ . ومحصل المعنى لايستطيع الآلهة المتخذون نصر المشركين وهم أي المشركون لهم أي لآلهتهم أتباع مطيعون محضرون معهم يوم القيامة .

وأما قول القائل : إن المعنى أن المشركين جند لآلهتهم معدون للذب عنهم في الدنيا ، أو أن المعنى وهم أي الآلهة لهم أي للمشركين جند محضرون لعذاب المشركين يوم القيامة لأنهم وقود النار التي يعذب بها المشركون ، أو محضرون لعذابهم إظهاراً لعجزهم عن النصر أو لإقناط المشركين عن شفاعتهم فهي معان رديئة .

قوله تعالى : « فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » الفاء لتفريع النهي عن الحزن على حقيقة اتخاذهم الآلهة من دون الله رجاء للنصر أي إذا كان هذا حقيقة حالهم أن الذين استنصروهم لايستطيعون نصرهم أبداً وأنهم سيحضرون معهم للعذاب فلا يحزنك قولهم ما قالوا به من الشرك فإنا لسنا بغافلين عنهم حتى يعجزونا أو يفسدوا علينا بعض الأمر بل نعلم ما يسرون من أقوالهم وما يعلنون ، وفي تركيب الآية بعض أقوال رديئة أضربنا عنه .

قوله تعالى : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين»رجوع إلى ما تقدم من حديث البعث والاحتجاج عليه إثر إنكارهم، ولا يبعد أن يكون بياناً تفصيلياً لقولهم المشار إليه في قوله تعالى: « فلا يحزنك قولهم » الخ والمراد بالرؤية العلم القطعي أي أو لم يعلم الإنسان علماً قاطعاً أنا خلقناه من نطفة ، وتنكير نطفة للتحقير والخصيم المصر على خصومته وجداله .

والاستفهام للتعجب والمعنى من العجيب أن الإنسان يعلم أنا خلقناه من نطفة مهينة فيفاجؤه أنه خصيم مجادل مبين .

قوله تعالى : « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم » الرميم البالي من العظام ، و « نسي خلقه » حال من فاعل ضرب ، وقوله : « قال من يحيي العظام وهي رميم » بيان للمثل الذي ضربه الإنسان ، ولذلك جيء به مفصولا

من غير عطف لأن الكلام في معنى أن يقال : فماذا ضرب مثلا ؟ فقيل : قال من يحيي العظام وهي رميم .

والمعنى وضرب الإنسان لنا مثلا وقد نسي خلقه من نطفة لأول مرة ، ولو كان ذاكره لم يضرب المثل الذي ضربه وهو قوله : « من يحيي العظام وهي بالية ؟ » لأنه كان يرد على نفسه ويجيب عن المثل الذي ضربه بخلقه الأول كما لقنه الله تعالى لنبيه ﷺ جوابا عنه .

قوله تعالى : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » تلقين الجواب للنبي ﷺ .

الإنشاء هو الإيجاد الابتدائي وتقييده بقوله « أول مرة » للتأكيد ، وقوله : « وهو بكل خلق عليم » إشارة إلى أنه تعالى لا ينسى ولا يجهل شيئاً من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأول مرة وهو لا يجهل شيئاً مما كانت عليه قبل الموت وبعده فإحياؤه ثانيا بمكان من الإمكان لثبوت القدرة وانتفاء الجهل والنسيان .

قوله تعالى : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » بيان لقوله : « الذي أنشأها أول مرة » والإيقاد إشعال النار .

والآية مسوقة لرفع استبعاد جعل الشيء الموات شيئاً ذا حياة والحياة والموت متنافيان والجواب أنه لا استبعاد فيه فإنه هو الذي جعل لكم من الشجر الأخضر الذي يقطر ماء ناراً فإذا أنتم منه توقدون وتشعلون النار ، والمراد به على المشهور بين المفسرين شجر[1] المرخ والعفار كانوا يأخذون منها على خضرتها فيجعل العفار زنداً أسفل ويجعل المرخ زنداً أعلى فيسحق الأعلى على الاسفل فتنقدح النار بإذن الله فحصول الحي من الميت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجرة الخضراء وهما متضادان .

قوله تعالى : « أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم » الاستفهام للإنكار والآية بيان للحجة السابقة المذكورة في قوله

---

(١) المرخ بالفتح فالسكون والخاء المعجمة ، والعفار بعين مفتوحة ثم الفاء ثم الراء المهملة شجرتان تشتعلان بسحق أحدهما على الاخر .

في قوله : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » الخ . ببيان أقرب إلى الذهن وذلك بتبديل إنشائهم أول مرة من خلق السماوات والأرض الذي هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

فالآية في معنى قولنا: وكيف يمكن أن يقال : إن الله الذي خلق عوالم السماوات والأرض بما فيها من سعة الخلقة البديعة وعجيب النظام العام المتضمن لمـــا لا يحصى من الأنظمة الجزئية المدهشة للعقول المحيرة للالباب والعالم الإنساني جزء يسير منها ، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس ، بلى وإنه خلاق عليم .

والمراد بمثلهم قيل: هم وأمثالهم وفيه أنه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغة والعرف.

وقيل : المراد بمثلهم هم أنفسهم بنحو الكناية على حد قولهم : مثلك غني عن كذا أي أنت غني عنه ، وفيه أنه لو كان كناية لصح التصريح به لكن لا وجه لقولنا : أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلقهم فإن الكلام في بعثهم لا في خلقهم والمشركون معترفون بأن خالقهم هو الله سبحانه .

وقيل : ضمير « مثلهم » للسماوات والأرض فإنها تشملان ما فيها من العقلاء فأعيد إليها ضمير العقلاء تغليباً فالمراد أن الله الخالق للعالم قادر على خلق مثله .

وفيه أن المقام مقام إثبــات بعث الإنسان لا بعث السماوات والأرض . على أن الكلام في الإعادة وخلق مثل الشيء ليس إعادة لعينه بل بالضرورة .

فالحق أن يقال : إن المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان .

بيانه أن الإنسان مركب من نفس وبدن ، والبدن في هذه النشأة في معرض التحلل والتبدل دائماً فهو لا يزال يتغير أجزاؤه والمركب ينتفي بانتفاء أحد أجزائه فهو في كل آن غيره في الآن السابق بشخصه وشخصية الإنسان محفوظة بنفسه ـ روحه ـ المجردة المنزهة عن المادة والتغيرات الطارئة من قبلها المأمونة من الموت والفساد .

والمتحصل من كلامه تعالى أن النفس لا تموت بموت البدن وأنها محفوظة حتى ترجع

إلى الله سبحانه كما تقدم استفادته من قوله تعالى: « وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » الم السجدة : ١١ .

فالبدن اللاحق من الإنسان إذا أعتبر بالقياس إلى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكن الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس إلى الإنسان ذي البدن السابق كان عينه لا مثله لأن الشخصية بالنفس وهي واحدة بعينها .

ولما كان استبعاد المشركين في قولهم : « من يحيي العظام وهي رميم » راجعاً إلى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم وأما عودهم بأعيانهم فهو إنما يتم بتعلق النفوس والأرواح المحفوظة عند الله بالأبدان المخلوقة جديداً ، فتكون الأشخاص الموجودين في الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال تعالى : « أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى » الأحقاف ٣٣ فعلق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال : على أن يحيي الموتى ولم يقل : على أن يحيي أمثال الموتى .

قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » الآية من غرر الآيات القرآنية تصف كلمة الإيجاد وتبين أنه تعالى لا يحتاج في إيجاد شيء مما أراده إلى ما وراء ذاته المتعاليه من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه في إيجاده أو يدفع عنه مانعا يمنعه .

وقد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقة في كلامه فقال : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » النحل : ٤٠ ، وقال: « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » البقرة : ١١٧ .

فقوله: « إنما أمره » الظاهر أن المراد بالأمر الشأن ، وقوله في آية النحل المنقولة آنفا : « إنما قولنا لشيء إذا أردنا » إن كان يؤيد كون الأمر بمعنى القول وهو الأمر اللفظي بلفظة كن إلا أن التدبر في الآيات يعطي أن الغرض فيها وصف الشأن الإلهي عند إرادة خلق شيء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شيء من الأشياء هذا القول دون غيره، فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنه جيء به لكونه

مصداقاً للشأن لا حمل الأمر على القول بمعنى ما يقابل النهي .

وقوله : « إذا أراد شيئاً» أي إذا أراد إيجاد شيء كما يعطيه سياق الآية وقد ورد في عدة من الآيات القضاء مكان الإرادة كقوله : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون [١]» ولا ضير فالقضاء هو الحكم والقضاء والحكم والإرادة من الله شيء واحد وهو كون [٢] الشيء الموجود بحيث ليس له من الله سبحانه إلا أن يوجد فمعنى إذا أردناه إذا أوقفناه موقف تعلق الإرادة .

وقوله : « أن يقول له كن » خبر إنما أمره أي يخاطبه بكلمة كن ومن المعلوم أن ليس هناك لفظ يتلفظ به وإلا احتاج في وجوده إلى لفظ آخر وهلم جرا فيتسلسل ولا أن هناك مخاطبا ذا سمع يسمع الخطاب فيوجد به لأدائه إلى الخلف فالكلام تمثيل لإفاضته تعالى وجود الشيء من غير حاجة إلى شيء آخر وراء ذاته المتعالية ومن غير تخلف ولا مهل .

وبه يظهر فساد ما ذكره بعضهم حيث قال : الظاهر أن هناك قولا لفظيا هو لفظ كن وإليه ذهب معظم السلف وشؤن الله تعالى وراء ما تصل إليه الأفهام فدع عنك الكلام والخصام . انتهى .

وذلك أن ما ذكره من كون شؤنه تعالى وراء طور الأفهام لو أبطل الحجة العقلية القطعية بطلت بذلك المعارف الدينية من أصلها فصحة الكتاب مثلا بما يفيده من المعارف الحقيقية إنما تثبت بالحجة العقلية فلو بطلت الحجة العقلية بكتاب أو سنة أو شيء آخر مما يثبت هو بها لكان ذلك الدليل المبطل مبطلا لنفسه أو لا فلا تزل قدم بعد ثبوتها.

ومن المعلوم أن ليس هناك إلا الله عز اسمه والشيء الذي يوجد لا ثالث بينهما وإسناد العلية والسببية إلى إرادته دونه تعالى ـ والإرادة صفة فعلية منتزعة من مقام الفعل كما تقدم ـ يستلزم انقطاع حاجة الأشياء إليه تعالى من رأس لا ستيجابه استغناء الأشياء بصفة منتزعة منها عنه تعالى و تقدس .

---

(١) البقرة : ١١٧ ، آل عمران : ٤٧ ، مريم : ٣٥ ، المؤمن : ٦٨ .

(٢) فإن هذه الارادة صفة فعلية خارجة عن الذات منتزعة عن مقام الفعل .

ومن المعلوم أن ليس هناك أمر ينفصل عنه تعالى يسمى إيجاد أو وجودا ثم يتصل بالشيء فيصير به موجودا وهو ظاهر فليس بعده تعالى إلا وجود الشيء فحسب.

ومن هنا يظهر أن كلمة الإيجاد وهي كلمة كن هي وجود الشيء الذي أوجده لكن بما أنه منتسب إليه قائم به وأما من حيث انتسابه إلى نفسه فهو موجود لا إيجاد ومخلوق لا خلق .

ويظهر أيضاً أن الذي يفيض منه تعالى لا يقبل مهلة ولا نظرة ولا يتحمل تبدلا ولا تغيرا ، ولا يتلبس بتدريج وما يتراءى في الخلق من هذه الامور إنما يتأتى في الأشياء في ناحية نفسها لا من الجهة التي تلي ربها سبحانه وهذا باب ينفتح منه ألف باب.

وفي الآيات للتلويح إلى هذه الحقائق إشارات لطيفة كقوله تعالى : « كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ ، وقوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » القمر : ٥٠ ، وقوله تعالى : « وكان أمر الله قدرا مقدورا » الأحزاب : ٣٨ إلى غير ذلك .

وقوله في آخر الآية : « فيكون » بيان لطاعة الشيء المراد له تعالى وامتثاله لأمر « كن » ولبسه الوجود .

قوله تعالى : «فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون» الملكوت مبالغة في معنى الملك كالرحموت والرهبوت في معنى الرحمة والرهبة .

وانضمام الآية إلى ما قبلها يعطي أن المراد بالملكوت الجهة التالية له تعالى من وجهي وجود الأشياء ، وبالملك الجهة التالية للخلق أو الأعم الشامل للوجهين . وعليه يحمل قوله تعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ . وقوله : « أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض » الأعراف : ١٨٥ : وقوله : « قل من بيده ملكوت كل شيء » المؤمنون : ٨٨ .

وجعل الملكوت بيده تعالى للدلالة على أنه متسلط عليها لا نصيب فيها لغيره .

ومآل المعنى في قوله : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء » تنزيه تعالى عما استبعدوا منكرين للمعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شيء بيده وفي قبضته .

وقوله : « وإليه ترجعون » خطاب لعامة الناس من مؤمن ومشرك ، وبيان لنتيجة البيان السابق بعد التنزيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » الآية قال : كانت قريش تقول : إن هذا الذي يقوله محمد شعر فرد الله عليهم فقال : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعرا قط.

وفي المجمع روي عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتمثل بهذا البيت: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا فقال له أبو بكر : يا رسول الله إنما قال : كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا وأشهد أنك رسول الله وما علمك الله الشعر وما ينبغي لك .

وفيه عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتمثل ببيت أخي بني قيس:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل يقول : ويأتيك من لم تزود بالأخبار فيقول أبو بكر : ليس هكذا يا رسول الله فيقول : إني لست بشاعر ولا ينبغي لي .

اقول : و روى في الدر المنثور الخبرين عن الحسن وعائشة كما رواه وروى في الدر المنثور غير ذلك مما تمثل به صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال في المجمع : فأما قوله :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فقد قال قوم : إن هذا ليس بشعر ، وقال آخرون : إنما هو اتفاق منه وليس يقصد إلى شعر انتهى . والبيت منقول عنه صلى الله عليه وآله وسلم وقد أكثروا من البحث فيه وطرح الرواية أهون من نفي كونه شعراً أو شعرا مقصوداً إليه .

وفيه في قوله تعالى : « لينذر من كان حيا » الآية ويجوز أن يكون المراد بمن كان حيا عاقلا و روى ذلك عن علي عليه السلام .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى

« واتخذوا من دون الله ـ إلى قوله ـ محضرون » يقول : لا تستطيع الآلهة لهم نصرا وهم للآلهة جند محضرون .

وعن تفسير العياشي عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : جاء أبي بن خلف فأخذ عظما باليا من حائط ففته ثم قال : إذا كنا عظاما ورفاتا ءإنا لمبعوثون خلقا ؟ فأنزل الله : قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .

أقول: و روى مثله في الدر المنثور بطرق كثيرة عن ابن عباس وعروة بن الزبير وعن قتادة و السدي و عكرمة و روى أيضاً عن ابن عباس أن القائل هو العاص بن وائل و بطريق آخر عنه أن القائل هو عبد الله بن أبي .

وفي الاحتجاج : في احتجاج أبي عبد الله الصادق عليه‌السلام قال السائل : أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق ؟ قال عليه‌السلام : بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى فلا حس ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها وذلك أربعمائة سنة يسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين .

قال : وأنى له بالبعث والبدن قد بلي و الأعضاء قد تفرقت فعضو ببلدة تأكله سباعها وعضو باخرى تمزقه هوامها وعضو قد صار ترابا يبنى به مع الطين في حائط . قال عليه‌السلام : إن الذي أنشأه من غير شيء وصوره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه .

قال : أوضح لي ذلك . قال عليه‌السلام : إن الروح مقيمة في مكانها روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق و ظلمة والبدن يصير ترابا كما منه خلق وما تقذف به السباع و الهوام من أجوافها فما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشياء ووزنها وإن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب .

فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور فتربو الأرض ثم تمخض مخض السقاء فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء والزبد من اللبن إذا مخض

فيجتمع تراب كل قالب إلى قالبه فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها ويلج الروح فيها فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً .

وفي نهج البلاغة : يقول لما أراد كونه : كن فيكون ، لا بصوت يقرع ولا نداء يسمع وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنا ولو كان قديما لكان إلها ثانيا .

وفيه : يقول ولا يلفظ ويريد ولا يضمر .

وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيي قال . قلت لأبي الحسن عليه‌السلام : أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق قال: فقال : الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل ، وأما من الله فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر ، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق .

فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له : كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له .

أقول : والروايات عنهم عليهم‌السلام في كون إرادته من صفات الفعل مستفيضة .

* * *

سورة الصافات مكية وهي مائة واثنان وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفّاً ـ ١ . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ـ ٢ . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ـ ٣ . إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ـ ٤. رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ـ ٥ . إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ـ ٦ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ـ ٧ . لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ

جَانِبٍ ـ ٨ . دُحوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ ـ ٩ . إلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ ـ ١٠ . فاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إنّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ ـ ١١ .

﴿ بيان ﴾

في السورة احتجاج على التوحيد ، وإنذار للمشركين وتبشير للمخلصين من المؤمنين ، وبيان ما يؤل إليه حال كل من الفريقين ثم ذكر عدة من عباده المؤمنين ممن من الله عليهم وقضى أن ينصرهم على عدوهم ، وفي خاتمة السورة ما هو بمنزلة محصل الغرض منها وهو تنزيه والسلام على عباده المرسلين وتحميده تعالى فيما فعل والسورة مكية بشهادة سياقها .

قوله تعالى : « والصافات صفا فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً » الصافات ـ على ما قيل ـ جمع صافة وهي جمع صاف ، والمراد بها على أي حال الجماعة التي تصطف أفرادها والزاجرات من الزجر وهو الصرف عن الشيء بالتخويف بذم أو عقاب والتاليات من التلاوة بمعنى القراءة .

وقد أقسم الله تعالى بهذه الطوائف الثلاث: الصافات والزاجرات والتاليات وقد اختلفت كلماتهم في المراد بها :

فأما الصافات فقيل : إن المراد بها الملائكة تصف أنفسها في السماء صفوفا كصفوف المؤمنين في الصلاة ، وقيل: إنها الملائكة تصف أجنحتها في الهواء إذا أرادت النزول إلى الأرض واقفة في انتظار أمر الله تعالى ، وقيل : إنها الجماعة من المؤمنين يقومون في الصلاة أو في الجهاد مصطفين .

واما الزاجرات فقيل : إنها الملائكة تزجر العباد عن المعاصي فيوصله الله إلى قلوب الناس في صورة الخطرات كما يوصل وساوس الشياطين ، وقيل : إنها الملائكة الموكلة بالسحاب تزجرها وتسوقها إلى حيث أراد الله سبحانه ، وقيل : هي زواجر

القرآن وهي آياته الناهية عن القبائح ، وقيل : هم المؤمنون يرفعون أصواتهم بالقرآن عند قراءته فيزجرون الناس عن المنهيات .

وأما التاليات فقيل : هم الملائكة يتلون الوحي على النبي الموحى إليه ، وقيل : هي الملائكة تتلو الكتاب الذي كتبه الله وفيها ذكر الحوادث ، وقيل : جماعة قراء القرآن يتلونه في الصلاة .

ويحتمل ـ والله العالم ـ أن يكون المراد بالطوائف الثلاث المذكورة في الآيات طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق ودفع الشياطين عن المداخلة فيه وإيصاله إلى النبي مطلقا أو خصوص محمد ﷺ كما يستفاد من قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم » الجن : ٢٨ .

وعليه فالمعنى أقسم بالملائكة الذين يصفون في طريق الوحي صفا فبالذين يزجرون الشياطين ويمنعونهم عن المداخلة في الوحي فبالذين يتلون على النبي الذكر وهو مطلق الوحي أو خصوص القرآن كما يؤيده التعبير عنه بتلاوة الذكر .

ويؤيد ما ذكرنا وقوع حديث رمي الشياطين بالشهب بعد هذه الآيات ، وكذا قوله بعد : « فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا » الآية كما سنشير إليه .

ولا ينافي ذلك إسناد النزول بالقرآن إلى جبريل وحده في قوله : « من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك » البقرة : ٩٧ وقوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء: ١٩٤ لأن الملائكة المذكورين أعوان جبريل فنزولهم به نزوله به وقد قال تعالى : « في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة » عبس : ١٦ ، وقال حكاية عنهم : « وما نتنزل إلا بأمر ربك » مريم : ٦٤ ، وقال : « وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » الصافات : ١٦٦ وهذا كنسبة التوفي إلى الرسل من الملائكة في قوله : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا » الأنعام : ٦١ وإلى ملك الموت وهو رئيسهم في قوله : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » السجدة : ١١ .

ولا ضير في التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث : الصافات والزاجرات والتاليات

لأن موصوفها الجماعة ، والتأنيث لفظي .

وهذه أول سورة في القرآن صدرت بالقسم وقد اقسم الله سبحانه في كلامه بكثير من خلقه كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجم والليل والنهار والملائكة والناس والبلاد والأثمار ، وليس ذلك إلا لما فيها من الشرف باستناد خلقها إليه تعالى وهو قيومها المنبع لكل شرف وبهاء .

قوله تعالى : « إن إلهكم لواحد » الخطاب لعامة الناس وهو مقسم به ، وهو كلام مسوق بدليل كما سيأتي .

قوله تعالى : « رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » خبر بعد خبر لأن ، أو خبر لمبتدء محذوف والتقدير هو رب السماوات « الخ » أو بدل من واحد .

وفي سوق الأوصاف إشعار بعلة كون الإله واحدا كما أن خصوصية القسم مشعر بعلة كونه رب السماوات والأرض وما بينهما .

كأنه قيل إن إلهكم لواحد لأن الملاك في الوهية الإله وهي كونه معبوداً بالحق أن يكون ربا يدبر الأمر على ما تعترفون وهو سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما الذي يدبر أمرها ويتصرف في جميعها .

وكيف لا؟ وهو تعالى يوحي إلى نبيه فيتصرف في السماء وسكانها بإرسال ملائكة يصطفون بينها وبين الأرض وهناك مجال الشياطين فيزجرونهم وهو تصرف منه فيما بين السماء والأرض وفي الشياطين ثم يتلون الذكر على نبيه وفيه تكميل للناس وتربية لهم سواء صدقوا أم كذبوا ففي الوحي تصرف منه في السماوات والأرض وما بينهما فهو على وحدانيته رب الجميع المدبر لأمرها والإله الواحد .

وقوله : « ورب المشارق » أي مشارق الشمس باختلاف الفصول أو المراد مشارق مطلق النجوم أو مطلق المشارق، وفي تخصيص المشارق بالذكر مناسبة لطلوع الوحي بملائكته من السماء وقد قال تعالى : « ولقد رآه بالافق المبين » التكوير ٢٣ ، وقال : « وهو بالافق الأعلى » النجم : ٧ .

قوله تعالى: « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » المراد بالزينة ما يزين به ،

والكواكب بيان أو بدل من الزينة وقد تكرر حديث تزيين السماء الدنيا بزينة الكواكب في كلامه كقوله : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح» حم السجدة: ١٢ وقوله: « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » الملك : ٥ ، وقوله : « أو لم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها » ق : ٦ .

ولا يخلو من ظهور في كون السماء الدنيا من السماوات السبع التي يذكرها القرآن هو عالم الكواكب فوق الأرض وإن وجهه بعضهم بما يوافق مقتضى الهيئة القديمة أو الجديدة .

قوله تعالى : « وحفظاً من كل شيطان مارد » حفظا مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير وحفظناها حفظاً من كل شيطان مارد، والمراد بالشيطان الشرير من الجن والمارد الخبيث العاري من الخير .

قوله تعالى : « لا يسّمّعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب » أصل « لا يسمعون » لا يتسمعون والتسمع الإصغاء ، وهو كناية عن كونهم ممنوعين مدحورين وبهذه العناية صار وصفاً لكل شيطان ولو كان بمعنى الإصغاء صريحاً أفاد لغواً من الفعل إذ لو كانوا لا يصغون لم يكن وجه لقذفهم .

والملأ من الناس الأشراف منهم الذين يملؤن العيون ، والملأ الأعلى هم الذين يريد الشياطين التسمّع إليهم وهم الملائكة الكرام الذين هم سكنة السماوات العلى ـ على ما يدل عليه كلامه تعالى كقوله: « لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا » أسرى : ٩٥ .

وقصدهم من التسمع إلى الملأ الأعلى الإطلاع على أخبار الغيب المستوردة عن هذا العالم الأرضي كالحوادث المستقبلة والأسرار المكنونة كما يشير إليه قوله تعالى : « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون» الشعراء : ٢١٢ ، وقوله حكاية عن الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنا كنا نقعد مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » الجن : ٩ .

وقوله : « ويقذفون من كل جانب » القذف الرمي والجانب الجهة .

قوله تعالى : « دحوراً ولهم عذاب واصب» الدحور الطرد والدفع، وهو مصدر بمعنى المفعول منصوب حالا أي مدحورين أو مفعول له أو مفعول مطلق ، والواصب الواجب اللازم .

قوله تعالى : « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » الخطفة الاختلاس والاستلاب ، والشهاب ما يرى في الجو كالكوكب المنقض ، والثقوب الركوز وسمي الشهاب ثاقباً لأنه لا يخطىء هدفه وغرضه .

والمراد بالخطفة اختلاس السمع وقد عبر عنه في موضع آخر باستراق السمع قال تعالى : « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » الحجر : ١٨ ، والاستثناء من ضمير الفاعل في قوله : « لا يسّمّعون » وجوّز بعضهم كون الاستثناء منقطعاً .

ومعنى الآيات الخمس : إنا زينا السماء التي هي أقرب السماوات منكم ـ أو السماء السفلي بزينة وهي الكواكب ، وحفظناها حفظاً من كل شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء إلى الملأ الأعلى ـ للإطلاع إلى ما يلقون بين أنفسهم من أخبار الغيب ـ ويرمون من كل جهة حال كونهم مطرودين ولهم عذاب لازم لا يفارقهم إلا من اختلس من أخبارهم الاختلاسة فأتبعه شهاب ثاقب لا يخطىء غرضه .

(كلام في معنى الشهب)

أورد المفسرون أنواعاً من التوجيه لتصوير استراق السمع من الشياطين ورميهم بالشهب وهي مبنية على ما يسبق إلى الذهن من ظاهر الآيات والأخبار انهناك أفلاكاً محيطة بالأرض تسكنها جماعات الملائكة ولها أبواب لا يلج فيها شيء إلا منها وأن في السماء الاولى جمعاً من الملائكة بأيديهم الشهب يرصدون المسترقين للسمع من الشياطين فيقذفونهم بالشهب .

وقد اتضح اليوم اتضاح عيان بطلان هذه الآراء ويتفرع على ذلك بطلان الوجوه التي أوردوها في تفسير الشهب وهي وجوه كثيرة أودعوها في المطولات كالتفسير الكبير للرازي وروح المعاني للآلوسي وغيرهما .

ويحتمل ـ والله العالم أن هذه البيانات في كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبة تصور بها الحقائق الخارجة عن الحس في صورة المحسوس لتقريبها من الحس وهو القائل عز وجل : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » العنكبوت : ٤٣ .

وهو كثير في كلامه تعالى ومنه العرش والكرسي واللوح والكتاب وقد تقدمت الإشارة إليها وسيجيء بعض منها .

وعلى هذا يكون المراد من السماء التي تسكنها الملائكة عالماً ملكوتياً ذا افق أعلى نسبته إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة بأجرامها إلى الأرض ، والمراد باقتراب الشياطين من السماء واستراقهم السمع وقذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخلقة والحوادث المستقبلة ورميهم بما لا يطيقونه من نور الملكوت ، أو كرتهم على الحق لتلبيسه ورمي الملائكة إياهم بالحق الذى يبطل أباطيلهم .

وإيراده تعالى قصة استراق الشياطين للسمع ورميهم بالشهب عقيب الإقسام بملائكة الوحي وحفظهم إياه عن مداخلة الشياطين لا يخلو من تأييد لما ذكرناه والله أعلم.

قوله تعالى : « فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب» اللازب الملتزق بعضه ببعض بحيث يلزمه ما جاوره ، وقال في مجمع البيان : اللازب واللازم بمعنى. انتهى .

والمراد بقوله : « من خلقنا » إما الملائكة المشار إليهم في الآيات السابقة وهم حفظة الوحي ورماة الشهب ، وإما غير الناس من الخلق العظيم كالسماوات والأرض والملائكة ، والتعبير بلفظ أولى العقل للتغليب .

والمعنى: فإذا كان الله هو رب السماوات والأرض وما بينهما والملائكة فاسألهم أن يفتوا أهم أشد خلقاً أم غيرهم ممن خلقنا فهم أضعف خلقاً لأنا خلقناهم من طين ملتزق فليسوا بمعجزين لنا .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « والصافات صفاً » قال : الملائكة والأنبياء.

وفيه عن أبيه ويعقوب بن يزيد عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام : إن هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض . الحديث .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : « عذاب واصب »

أي دائم موجع قد وصل الى قلوبهم .

وفيه عن النبي ﷺ في حديث المعراج : قال : فصعد جبرئيل وصعدت معه الى سماء الدنيا وعليها ملك يقال له : اسماعيل وهو صاحب الخطفة التي قال الله عز وجل : « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » وتحته سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك . الحديث .

أقول : والروايات في هذا الباب كثيرة أوردنا بعضاً منها في تفسير قوله تعالى : « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين» الحجر : ١٨ وسيأتي بعضها في تفسير سورتي الملك والجن إن شاء الله تعالى .

وفي نهج البلاغة : ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت ، ولاطها بالبلة حتى لزبت .

* * *

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ـ ١٢ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ ـ ١٣ . وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ـ ١٤ . وَقَالُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ـ ١٥ . ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ـ ١٦ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ـ ١٧ . قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ـ ١٨ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ـ ١٩ . وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ـ ٢٠ . هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ـ ٢١ . أُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ـ ٢٢ . مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ـ ٢٣ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ

مَسْؤُلُونَ ـ ٢٤ . مَـــالَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ـ ٢٥ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ـ ٢٦ . وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ـ ٢٧ .
قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ ـ ٢٨ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ـ ٢٩ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُم قَوْماً
طَاغِينَ ـ ٣٠ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّـــا لَذَائِقُونَ ـ ٣١ .
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـــاوِينَ ـ ٣٢ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ
مُشْتَرِكُونَ ـ ٣٣ . إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ـ ٣٤ . إِنَّهُمْ كَانُوا
إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ـ ٣٥ . وَيَقُـــولُونَ أَئِنَّا
لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ـ ٣٦ . بَلْ جَـــاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ
الْمُرْسَلِينَ ـ ٣٧ . إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا العَذَابِ الأَلِيمِ ـ ٣٨ . وَمَا تُجْزَوْنَ
إِلاَّ مَـــا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ـ ٣٩ . إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ـ ٤٠ .
أُولٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ـ ٤١ . فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ـ ٤٢ .
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ـ ٤٣ . عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ـ ٤٤ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ـ ٤٥ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ـ ٤٦ . لاَ فِيهَا
غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ـ ٤٧ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ

عِينٌ - ٤٨ . كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ - ٤٩ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ - ٥٠ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ - ٥١ .
يَقُولُ ءَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ - ٥٢ . ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً
ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ - ٥٣ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ - ٥٤ . فَاطَّلَعَ
فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ - ٥٥ . قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ - ٥٦ .
وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ - ٥٧ . أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ
٥٨ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ - ٥٩ . إِنَّ هٰذَا لَهُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ - ٦٠ . لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ - ٦١ . أَذٰلِكَ خَيْرٌ
نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ - ٦٢ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ - ٦٣ .
إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ - ٦٤ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ
الشَّيَاطِينِ - ٦٥ . فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ - ٦٦ .
ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ - ٦٧ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى
الْجَحِيمِ - ٦٨ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ - ٦٩ . فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ
يُهْرَعُونَ - ٧٠ .

﴿ بيان ﴾

حكاية استهزائهم بآيات الله وبعض أقاويلهم المبنية على الكفر وإنكار المعاد والرد عليهم بتقرير أمر البعث وما يجري عليهم فيه من الشدة وألوان العذاب وما يكرم الله به عباده المخلصين من النعمة والكرامة .

وفيها ذكر تخاصم أهل النار يوم القيامة ، وذكر محادثة بين أهل الجنة وأخرى بين بعضهم وبعض أهل النار .

قوله تعالى: « بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون » أي بل عجبت يا محمد من تكذيبهم إياك مع دعوتك إياهم إلى كلمة الحق ، وهم يسخرون ويهزؤن من تعجبك منهم أو من دعائك إياهم إلى الحق ، وإذا ذكروا بآيات الله الدالة على التوحيد ودين الحق لا يذكرون ولا يتنبهون .

قوله تعالى : « وإذا رأوا آية يستسخرون » في مجمع البيان : سخر واستسخر بمعنى واحد . انتهى .

والمعنى : وإذا رأوا هؤلاء المشركون اية معجزة من آيات الله المعجزة كالقرآن وشق القمر يستهزؤن بها .

قوله تعالى : « وقالوا إن هذا إلا سحر مبين » في إشارتهم إلى الآية بلفظة هذا إشعار منهم أنهم لا يفقهون منها إلا أنها شيء ما من غير زيادة وهو من أقوى الإهانة والاستسخار .

قوله تعالى : « ءإذا متنا وكنا ترابا وعظاما ءإنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون » إنكار منهم للبعث مبني على الاستبعاد فمن المستبعد عند الوهم أن يموت الإنسان فيتلاشى بدنه ويعود ترابا وعظاما ثم يعود إلى صورته الاولى .

ومن الدليل على أن الكلام مسوق لإفادة الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكاري

بالنسبة إلى آبائهم الأولين فإن استبعاد الوهم لبعثهم وقد انمحت رسومهم ولم يبق منهم إلا أحاديث أشد وأقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم .

ولو كان إنكارهم البعث مبنياً على أنهم ينعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان الحكم فيهم وفي آبائهم على نهج واحد ولم يحتج إلى تجديد استفهام بالنسبة إلى آبائهم .

قوله تعالى: « قل نعم وأنتم داخرون فإنما هي زجرة واحدة فإذاهم ينظرون» أمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بأنهم مبعوثون .

وقوله: «وأنتم داخرون»أي صاغرون مهانون أذلاء ، وهذا في الحقيقة احتجاج بعموم القدرة ونفوذ الإرادة من غير مهلة ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ولذا عقبه بقوله : « فإنما هي زجرة واحدة فإذاهم ينظرون » ، وقد قال تعالى: « ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير » النحل : ٧٧ .

وقوله : « فإنما هي زجرة واحدة » الخ الفاء لإفادة التعليل والجملة تعليل لقوله: « وأنتم داخرون » وفي التعبير بزجرة إشعار باستذلالهم .

قوله تعالى : « وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون» معطوف على قوله : « ينظرون » المشعر بأنهم مبهوتون مدهوشون متفكرون ثم يتنبهون بكونه يوم البعث فيه الدين والجزاء وهم يحذرون منه بما كفروا و كذبوا ولذا قالوا : يوم الدين ، ولم يقولوا يوم البعث ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع .

وقوله : « هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون » قيل هو كلام بعضهم لبعض وقيل : كلام الملائكة أو كلامه تعالى لهم ، ويؤيده الآية التالية ، والفصل هو التمييز بين الشيئين وسمي يوم الفصل لكونه يوم التمييز بين الحق والباطل بقضائه وحكمه تعالى أو التمييز بين المجرمين والمتقين قال تعالى : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » يس: ٥٩.

قوله تعالى : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم »من كلامه تعالى للملائكة والمعنى وقلنا للملائكة: احشروهم وقيل : هو من كلام الملائكة بعضهم لبعض .

والحشر ـ على ما ذكره الراغب ـ إخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها .

والمراد بالذين ظلموا على ما يؤيده آخر الآية المشركون ولا كل المشركين بل المعاندون للحق الصادّون عنه منهم قال تعالى : « فأذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ ، والتعبير بالماضي في المقام يفيد فائدة الوصف فليس المراد بالذين ظلموا من تحقق منه ظلم مّا ولو مرة واحدة بل تعريف لهم بحاصل ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا كما لو قيل : ماذا فعل فلان في حياته فيقال ظلم ، فالفعل يفيد فائدة الوصف ، وفي كلامه تعالى من ذلك شيء كثير كقوله تعالى : «وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمرا» الزمر : ٧٣ وقوله: « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا » الزمر : ٧١ وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » يونس ٢٦ .

وقوله : « وأزواجهم » الظاهر أن المراد به قرناؤهم من الشياطين قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين – إلى أن قال – حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » الزخرف : ٣٨ .

وقيل : المراد بالأزواج الأشباه والنظائر فأصحاب الزنا يحشرون مع أصحاب الزنا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر وهكذا .

وفيه أن لازمه أن يراد بالذين ظلموا طائفة خاصة من أصحاب كل معصية واللفظ لا يساعد عليه على أن ذيل الآية لا يناسبه .

وقيل : المراد بالأزواج نساؤهم الكافرات وهو ضعيف كسابقه .

وقوله : « وما كانوا يعبدون من دون الله » الظاهر أن المراد به الأصنام التي يعبدونها نظراً إلى ظاهر لفظة « ما » فالآية نظيرة قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الأنبياء : ٩٨ .

ويمكن أن يكون المراد بلفظة « ما » ما يعم اولي العقل من المعبودين كالفراعنة والنماردة ، وأما الملائكة المعبودون والمسيح عليه السلام فيخرجهم من العموم قوله

تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون » الأنبياء : ١٠١ .

وقوله : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » الجحيم من أسماء جهنم في القرآن وهو من الجحمة بمعنى شدة تأجج النار على ما ذكره الراغب .

والمراد بهدايتهم إلى صراطها إيصالهم إليه وإيقاعهم فيه بالسوق ، وقيل : تسمية ذلك بالهداية من الاستهزاء ، وقال في مجمع البيان : إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلا من الهداية إلى الجنة كقوله : « فبشرهم بعذاب أليم » من حيث إن هذه البشارة وقعت لهم بدلا من البشارة بالنعيم . انتهى .

قوله تعالى : « وقفوهم إنهم مسؤلون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون » قال في المجمع يقال : وقفت أنا ووقفت غيري – أي يعدّي ولا يعدى – وبعض بني تميم يقول : أوقفت الدابة والدار . انتهى .

فقوله : « وقفوهم إنهم مسؤلون » أي احبسوهم لأنهم مسؤلون أي حق يسأل عنهم . والسياق يعطي أن هذا الأمر بالوقوف والسؤال إنما يقع في صراط الجحيم .

واختلفت كلماتهم فيما هو السؤال عنه فقيل : يسألون عن قول لا إله إلا الله ، وقيل : عن شرب الماء البارد استهزاء بهم ، وقيل : عن ولاية علي عليه‌السلام .

وهذه الوجوه لو صحت فإنما تشير إلى بعض مصاديق ما يسأل عنه والسياق يشهد أن السؤال هو ما يشتمل عليه قوله : « ما لكم لا تناصرون » أي لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تفعلونه في الدنيا فتستعينون به على حوائجكم ومقاصدكم ، وما يتلوه من قوله : « بل هم اليوم مستسلمون » أي مسلمون لا يستكبرون يدل على أن المراد بقوله : « ما لكم لا تناصرون » السؤال عن استكبارهم عن طاعة الحق كما كانوا يستكبرون في الدنيا .

فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الذي كانوا عليه في الدنيا فقد تبين به أن المسؤل عنه هو كل حق أعرضوا عنه في الدنيا من اعتقاد حق او عمل صالح استكباراً على الحق تظاهراً بالتناصر .

قوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون – إلى قوله – إنا كنا غاوين » تخاصم واقع بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة ، والتعبير عنه بالتساؤل لأنه في معنى

سؤال بعضهم بعضاً تلاومـاً وتعاتباً يقول التابعون لمتبوعيهم : لم أضللتمونا ؟ فيقول المتبوعون : لم قبلتم منا ولا سلطان لنا عليكم ؟

فقوله : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » البعض الأول هم المعترضون والبعض الثاني المعترض عليهم كما يعطيه سياق التساؤل وتساؤلهم تخاصمهم .

وقوله : « قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » أي من جهة الخـير والسعادة فاستعمال اليمين فيها شائع كثير كقوله: «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين» الواقعة: ٢٧ والمعنى أنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير والسعادة فتقطعون الطريق وتحولون بيننا وبين الخير والسعادة وتضلوننا .

وقيل : المراد باليمين الدين وهو قريب من الوجه السابق ، وقيل : المراد باليمين القهر والقوة كما في قوله تعالى : « فراغ عليهم ضربا باليمين » الصافات : ٩٣ ولا يخلو من وجه نظراً إلى جواب المتبوعين .

وقوله : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان – إلى قوله – غاوين » جواب المتبوعين بتبرئة أنفسهم من إشقاء التابعين وأن جرمهم مستند إلى سوء اختيار أنفسهم .

فقالوا: بل لم تكونوا مؤمنين أي لم نكن نحن السبب الموجب لإجرامكم وهلاككم بخلوكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لا أنا جردناكم من الإيمان .

ثم قالوا : « وما كان لنا عليكم من سلطان » وهو في معنى الجواب على فرض التسليم كأنه قيل : ولو فرض أنه كان لكم إيمان فما كان لنا عليكم من سلطان حتى نسلبه منكم ونجردكم منه . على أن سلطان المتبوعين إنما هو بالتابعين فهم الذين يعطونهم السلطة والقوة فيتسلطون عليهم أنفسهم .

ثم قالوا : « بل كنتم قوما طاغين» والطغيان هو التجاوز عن الحد وهو إضراب عن قوله : « لم تكونوا مؤمنين » كأنه قيل : ولم يكن سبب هلاككم مجرد الخلو من الإيمان بل كنتم قوما طاغين كما كنا مستكبرين طاغين فتعاضدنا جميعا على ترك سبيل الرشد واتخاذ سبيل الغي فحق علينا كلمة العذاب التي قضى بها الله سبحانه قال تعالى :

« إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا » النبأ : ٢٢ وقال : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى » النازعات : ٣٩ .

ولهذا المعنى عقّب قوله : « بل كنتم قوما طاغين » بقوله : « فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون » أي لذائقون العذاب .

ثم قالوا : « فأغويناكم إنا كنا غاوين » وهو متفرع على ثبوت كلمة العذاب وآخر الأسباب لهلاكهم فإن الطغيان يستتبع الغواية ثم نار جهنم ، قال تعالى لإبليس « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين » الحجر : ٤٣ .

فكأنه قيل : فلما تلبستم بالطغيان حل بكم الغواية بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلا اتباعكم لنا واتصالكم بنا فسرى إليكم ما فينا من الصفة وهي الغواية فالغاوي لا يتأتى منــــه إلا الغواية والإناء لا يترشح منه إلا ما فيه ، وبالجملة إنكم لم تجبروا ولم تسلبوا الاختيار منذ بدأتم في سلوك سبيل الهلاك إلى أن وقعتم في ورطته وهي الغواية فحق عليكم القول .

قوله تعالى : « فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون – إلى قوله – يستكبرون » ضمير « فإنهم » للتابعين والمتبوعين فهم مشتركون في العذاب لاشتراكهم في الظلم وتعاونهم على الجرم من غير مزية لبعضهم على بعض .

واستظهر بعضهم أن المغوين أشد عذابا وذلك في مقابلة أوزارهم وأوزار أمثال أوزارهم فالشركة لا تقتضي المساواة والحق أن الآيات مسوقة لبيان اشتراكهم في الظلم والجرم والعذاب اللاحق بهم من قبله ، ويمكن مع ذلك أن يلحق بكل من المتبوعين والتابعين ألوان من العذاب ناشئة عن خصوص شأنهم قال تعالى : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم» العنكبوت : ١٣ ، وقال : «ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » الاعراف : ٣٨ .

وقوله: « إنا كذلك نفعل بالمجرمين » تأكيد لتحقيق العذاب ، والمراد بالمجرمين المشركون بدليل قوله بعد : « إنهم إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون » أي إذا

عرض عليهم التوحيد أن يؤمنوا به أو كلمة الإخلاص أن يقولوها استمروا على استكبارهم ولم يقبلوا .

قوله تعالى : « ويقولون ءإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين » قولهم هذا إنكار منهم للرسالة بعد استكبارهم عن التوحيد وإنكارهم له .

وقوله : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » رد لقولهم: « لشاعر مجنون » حيث رموه صلى الله عليه وآله وسلم بالشعر والجنون وفيه رمي لكتاب الله بكونه شعراً ومن هفوات الجنون فرد عليهم بأن ما جاء به حق وفيه تصديق الرسل السابقين فليس بباطل من القول كالشعر وهفوة الجنون وليس ببدع غير مسبوق في معناه .

قوله تعالى : « إنكم لذائقوا العذاب الأليم » تهديد لهم بالعذاب لاستكبارهم ورميهم الحق بالباطل .

قوله تعالى : « وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » أي لا ظلم فيه لأنه نفس عملكم يرد إليكم .

قوله تعالى : «إلا عباد الله المخلصين ـ إلى قوله ـ بيض مكنون» استثناء منقطع من ضمير « لذائقوا » أو من ضمير « ما تجزون » ولكل وجه والمعنى على الأول لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وليسوا بذائقي العذاب الأليم والمعنى على الثاني لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وراء جزاء عملهم وسيجيء الإشارة إلى معناه .

واحتمال كون الاستثناء متصلاً ضعيف لا يخلو من تكلف .

وقد سماهم الله سبحانه عباد الله المخلصين فأثبت لهم عبودية نفسه والعبد هو الذي لا يملك لنفسه شيئاً من إرادة ولا عمل فهؤلاء لا يريدون إلا ما أراده الله ولا يعملون إلا له .

ثم أثبت لهم أنهم مخلصون بفتح اللام أي إن الله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فلا تعلق لهم بشيء غيره تعالى من زينة الحياة الدنيا ولا من نعم العقبى وليس في قلوبهم إلا الله سبحانه .

ومن المعلوم أن من كانت هذه صفته كان التذاذه وتنعمه غير ما يلتذ ويتنعم غيره وارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه وإن شاركهم في ضروريات المأكل والمشرب ومن هنا يتأيد أن المراد بقوله : « أولئك لهم رزق معلوم » الإشارة إلى أن رزقهم في الجنة ـ وهم عباد مخلصون ـ رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم ولا يختلط بما يتمتع به من دونهم وإن اشتركا في الاسم .

فقوله : « أولئك لهم رزق معلوم » أي رزق خاص متعين ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوماً كناية عن امتيازه كما في قوله : «وما منا إلا له مقام معلوم » الصافات: ١٦٤ والإشارة بلفظ البعيد للدلالة على علو مقامهم .

وأما ما فسره بعضهم أن المراد بكون رزقهم معلوماً كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع ولا ممنوع حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الرائحة ، وكذا ما ذكره آخرون أن المراد أنه معلوم الوقت لقوله : « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » مريم : ٦٢ وكذا قول القائل : إن المراد به الجنة فهي وجوه غير سديدة .

ومن هنا يظهر أن أخذ قوله : « إلا عباد الله المخلصين » استثناء من ضمير « وما تجزون » لا يخلو من وجه كما تقدمت الإشارة إليه .

وقوله : « فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم » الفواكه جمع فاكهة وهي ما يتفكه به من الأثمار بيان لرزقهم المعلوم غير أنه تعالى شفّعه بقوله : « وهم مكرمون » للدلالة على امتياز هذا الرزق أعني الفاكهة مما عند غيرهم بأنها مقارنة لإكرام خاص يخصهم قبال اختصاصهم بالله سبحانه وكونه لهم لا يشاركهم فيه شيء .

وفي إضافة الجنات إلى النعيم إشارة إلى ذلك فقد تقدم في قوله : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم » الآية النساء: ٦٩ ، وقوله : « وأتممت عليكم نعمتي » المائدة:٣ وغيرهما أن حقيقة النعمة هي الولاية وهي كونه تعالى هو القائم بأمر عبده .

وقوله : « على سرر متقابلين » السرر جمع سرير وهو معروف وكونهم متقابلين معناه استئناس بعضهم ببعض واستمتاعهم بنظر بعضهم في وجه بعض من غير أن يرى بعضهم قفا بعض

وقوله : « يطاف عليهم بكأس من معين » الكأس إناء الشراب ونقل عن كثير من اللغويين أن إناء الشراب لا يسمى كأساً إلا وفيه الشراب فإن خلا منه فهو قدح والمعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر وجرى على وجه الأرض ، والمراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها ولذا عقبه بقوله : « بيضاء » .

وقوله : « بيضاء لذة للشاربين » أي صافية في بياضها لذيذة للشاربين فاللذة مصدر أريد به الوصف مبالغة أو هي مؤنث لذّ بمعنى لذيذ كما قيل .

وقوله : « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » الغول الإضرار والإفساد ، قال الراغب : الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحس به انتهى. فنفي الغول عن الخمر نفي مضارها والإنزاف فسر بالسكر المذهب للعقل وأصله إذهاب الشيء تدريجاً .

ومحصل المعنى : أنه ليس فيها مضار الخمر التي في الدنيا ولا اسكارها بإذهاب العقل .

وقوله : « وعندهم قاصرات الطرف عين » وصف للحور التي يرزقونها وقصور طرفهن كناية عن نظرهن نظرة الغنج والدلال ويؤيده ذكر العين بعده وهو جمع عيناء مؤنث أعين وهي الواسعة العين في جمال .

وقيل : المراد بقاصرات الطرف أنهن قصرن طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم لحبهن لهم ، وبالعين أن أعينهن شديدة في سوادها شديدة في بياضها .

وقوله : « كأنهن بيض مكنون» البيض معروف وهو اسم جنس واحدته بيضة والمكنون هو المستور بالادخار قيل : المراد تشبيههن بالبيض الذي كنه الريش في العش أو غيره في غيره فلم تمسه الأيدي ولم يصبه الغبار ، وقيل : المراد تشبيههن ببطن البيض قبل أن يقشّر وقبل أن تمسه الأيدي .

قوله تعالى: «فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون – إلى قوله – فليعمل العاملون» حكاية محادثة تقع بين أهل الجنة فيسأل بعضهم عن أحوال بعض ويحدث بعضهم بما جرى عليه في الدنيا وتنتهي المحادثة إلى تكليمهم بعض أهل النار وهو في سواء الجحيم.

فقوله : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » ضمير الجمع لأهل الجنة من عباد الله

المخلصين وتساؤلهم - كما تقدم - سؤال بعضهم عن بعض وما جرى عليه .

وقوله: «قال قائل منهم إني كان لي قرين» أي قال قائل من أهل الجنة المتسائلين إني كان لي في الدنيا مصاحب يختص بي من الناس . كذا يعطي السياق .

وقيل : المراد بالقرين القرين من الشياطين وفيه أن القرآن إنما يثبت قرناء الشياطين في المعرضين عن ذكر الله والمخلصون في عصمة إلهية من قرين الشياطين وكذا من تأثير الشيطان فيهمّ كما حكى عن إبليس استثناءهم من الإغواء: «فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » ص : ٨٣ نعم ربما أمكن أن يتعرض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنه غير أثر القرين .

وقوله : « يقول ءإنك لمن المصدقين إذا متنا وكنا ترابا وعظاما ءإنا لمدينون » ضمير « يقول » للقرين ، ومفعول « المصدقين » البعث للجزاء وقد قام مقامه قوله : « ءإذا متنا » الخ والمدينون المجزيون .

والمعنى : كان يقول لي قريني مستبعداً منكراً ءإنك لمن المصدقين للبعث للجزاء ءإذا متنا وكنا ترابا وعظاما فتلاشت أبداننا وتغيرت صورها ءإنا لمجزيون بالإحياء والإعادة ؟ فهذا مما لا ينبغي أن يصدق .

وقوله : «قال هل أنتم مطلعون » ضمير « قال » للقائل المذكور قبلا ، والإطلاع الإشراف والمعنى ثم قال القائل المذكور مخاطباً لمحادثيه من أهل الجنة : هل أنتم مشرفون على النار حتى تروا قريني والحال التي هو فيها ؟

وقوله : « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » السواء الوسط ومنه سواء الطريق أي وسطه والمعنى فأشرف القائل المذكور على النار فرآه أي قرينه في وسط الجحيم .

وقوله : « قال تالله إن كدت لتردين » «إن» مخففة من الثقيلة، والإرداء السقوط من مكان عال كالشاهق ويكنى به عن الهلاك والمعنى أقسم بالله إنك قربت أن تهلكني وتسقطني فيما سقطت فيه من الجحيم .

وقوله : « ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين » المراد بالنعمة التوفيق والهداية

الإلهية ، والإحضار الإشخاص للعذاب قال في مجمع البيان : ولا يستعمل « أحضر » مطلقا إلا في الشر .

والمعنى ولولا توفيق ربي وهدايته لكنت من المحضرين للعذاب مثلك .

وقوله : « أفما نحن بميتين إلا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين » الاستفهام للتقرير والتعجيب ، والمراد بالموتة الاولى هي الموتة عن الحياة الدنيا وأما الموتة عن البرزخ المدلول عليها بقوله : « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ فلم يعبأ بها لأن الموت الذي يزعم الزاعم فيه الفناء والبطلان هو الموت الدنيوي .

والمعنى ـ على ما في الكلام من الحذف والإيجاز ـ ثم يرجع القائل المذكور إلى نفسه وأصحابه فيقول متعجباً أنحن خالدون منعمون فما نحن بميتين إلا الموتة الأولى وما نحن بمعذبين ؟

قال في مجمع البيان : ويريدون به التحقيق لا الشك وإنما قالوا هذا القول لأن لهم في ذلك سروراً مجدداً وفرحاً مضاعفاً وإن كان قد عرفوا أنهم سيخلدون في الجنة وهذا كما أن الرجل يعطى المال الكثير فيقول مستعجباً : كل هذا المال لي ؟ وهو يعلم أن ذلك له وهذا كقوله :

أبطحاء مكة هذا الذي أراه عيانا وهـذا أنا ؟

قال : ولهذا عقبه بقوله : « إن هذا لهو الفوز العظيم » انتهى .

وقوله : « إن هذا لهو الفوز العظيم » هو من تمام قول القائل المذكور وفيه إعظام لموهبة الخلود وارتفاع العذاب وشكر للنعمة .

وقوله : « لمثل هذا فليعمل العاملون » ظاهر السياق أنه من قول القائل المذكور والإشارة بهذا إلى الفوز أو الثواب أي لمثل هذا الفوز أو الثواب فليعمل العاملون في دار التكليف ، وقيل : هو من قول الله سبحانه وقيل : من قول أهل الجنة .

واعلم أن لهم أقوالاً مختلفة في نسبة أكثر الجمل السابقة إلى قول الله تعالى أو قول الملائكة أو قول أهل الجنة غير القائل المذكور والذى أوردناه هو الذي يساعد عليه السياق .

قوله تعالى : « أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ـ إلى قوله ـ يهرعون » مقايسة بين ما هيأه الله نزلا لأهل الجنة مما وصفه من الرزق الكريم وبين ما أعده نزلا لأهل النار من شجرة الزقوم التي طلعها كأنه رؤس الشياطين وشراب من حميم .

فقوله : « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم » الإشارة بذلك إلى الرزق الكريم المذكورة سابقاً المعد لورود أهل الجنة والنزل بضمتين ما يهيؤ لورود الضيف فيقدم إليه إذا ورد من الفواكه ونحوها .

والزقوم ـ على ما قيل ـ اسم شجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون في تهامة والبلاد المجدبة المجاورة للصحراء سميت به الشجرة الموصوفة بما في الآية من الأوصاف ، وقيل : إن قريشاً مـــا كانت تعرفه وسيأتي ذلك في البحث الروائي .

ولفظة خير في الآية بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيرية في الزقوم أصلاً فهو كقوله : « ما عند الله خير من اللهو » الجمعة : ١١ والآية على مـــا يعطيه السياق من كلامه تعالى .

وقوله: «إنا جعلناها فتنة للظالمين» الضمير لشجرة الزقوم، والفتنة المحنة والعذاب.

وقوله : « إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم » وصف لشجرة الزقوم ، وأصل الجحيم قعرها، ولا عجب في نبات شجرة في النار وبقائها فيها فحياة الإنسان وبقاؤها خالداً فيها أعجب والله يفعل ما يشاء .

وقوله : « طلعها كأنه رؤس الشياطين » الطلع حمل النخلة أو مطلق الشجرة أول ما يبدو ، وتشبيه ثمرة الزقوم برؤس الشياطين بعناية أن الأوهام العامية تصور الشيطان في أقبح صورة كما تصور الملك في أحسن صورة وأجملها قال تعالى : « ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » يوسف : ٣١ ، وبذلك يندفع ما قيل : إن الشيء إنما يشبه بما يعرف ولا معرفة لأحد برؤس الشياطين .

وقوله : « فإنهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون » الفاء للتعليل يبين به كونها نزلاً للظالمين يأكلون منها ، وفي قوله : « فمالؤن منها البطون » إشارة إلى تسلط جوع

شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان .

وقوله : « ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم » الشوب المزيج والخليط ، والحميم الماء الحار البالغ في حرارته ، والمعنى ثم إن لاولئك الظالمين ـ زيادة عليها ـ لخليطاً مزيجاً من ماء حار بالغ الحرارة يشربونه فيختلط به ما ملؤا منه البطون من الزقوم .

وقوله : « ثم إن مرجعهم لالى الجحيم » أي إنهم بعد شرب الحميم يرجعون إلى الجحيم فيستقرون فيها ويعذبون ، وفي الآية تلويح إلى أن الحميم خارج الجحيم .

وقوله : « إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون » ألفيت كـــذا أي وجدته وصادفته ، والإهراع الإسراع والمعنى أن سبب أكلهم وشربهم ثم رجوعهم إلى الجحيم أنهم صادفوا آباءهم ضالين ـ وهم مقلدون وأتباع لهم وهم أصلهم ومرجعهم ـ فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك والرجوع إلى الجحيم جزاء وفاقا .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله تعالى : « بل عجبت » قال النبي ﷺ : عجبت بالقرآن حين أنزل ويسخر منه ضلال بني آدم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « أحشروا الذين ظلموا » قال : الذين ظلموا آل محمد عليهم السلام حقهم « وأزواجهم » قال : أشباههم .

اقول : صدر الرواية من الجري .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وقفوهم إنهم مسؤلون » قيل : عن ولاية علي عليه السلام عن أبي سعيد الخدري .

اقول : ورواه الشيخ في الأمالي بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي ﷺ ، وفي العيون عن علي وعن الرضا عليه السلام عنه ﷺ ، وفي تفسير القمي عن الإمام عليه السلام.

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ: لا تزول قدم

عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وشبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه ، وعن حبنا أهل البيت .

اقول : وروى في العلل عنه ﷺ مثله .

وفي نهج البلاغة : اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم.

وفي الدر المنثور أخرج البخاري في تاريخه والترمذي والدارمي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه وإن دعا رجل رجلاً ثم قرء « وقفوهم إنهم مسؤلون » .

وفي روضة الكافي بإسناده عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر عليه‌السلام عن النبي ﷺ في حديث : وأما قوله : « أولئك لهم رزق معلوم » قال : يعلمه[1] الخدام فيأتون به إلى أولياء الله قبل أن يسألوهم إياه . أما قوله : « فواكه وهم مكرمون » قال : فإنهم لا يشتهون شيئاً في الجنة إلا أكرموا به .

وفي تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » يقول : في وسط الجحيم .

وفيه في قوله تعالى : « أفما نحن بميتين » الخ بإسناده عن أبيه عن علي بن مهزيار والحسن بن محبوب عن النضر بن سويد عن درست عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جيىء بالموت ويذبح كالكبش بين الجنة والنار ثم يقال : خلود فلا موت أبدا فيقول أهل الجنة : « أفما نحن بميتين إلا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون » .

اقول : وحديث ذبح الموت في صورة كبش يوم القيامة من المشهورات رواه الشيعة وأهل السنة ، وهو تمثل الخلود يومئذ .

وفي المجمع في قوله تعالى : « شجرة الزقوم » روي أن قريشاً لما سمعت هذه

---

(١) يعني : خ .

الآية قالت : ما نعرف هذه الشجرة قـــال ابن الزبعرى : الزقوم بكلام البربر التمر والزبد وفي رواية بلغة اليمن فقال أبو جهل لجاريته : يا جارية زقمينا فأتته الجـارية بتمر وزبد فقال لأصحابه : تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد فيزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر فأنزل الله سبحانه « إنا جعلناها فتنة للظالمين » .

اقول : وهذا المعنى مروي بطرق عديدة .

* * *

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِـــينَ ـ ٧١ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ـ ٧٢ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ـ ٧٣ . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ـ ٧٤ . وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ـ ٧٥ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ـ ٧٦ . وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ـ ٧٧ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ـ ٧٨ . سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ـ ٧٩ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ـ ٨٠ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ـ ٨١ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ـ ٨٢ . وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ـ ٨٣ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ـ ٨٤ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ـ ٨٥ . أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ـ ٨٦ ـ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ـ ٨٧ . فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ـ ٨٨ . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ـ ٨٩ . فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ـ ٩٠ . فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ـ ٩١ .

مَالَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ ـ ٩٢ . فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبــاً بِالْيَمِينِ ـ ٩٣ .
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ـ ٩٤ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ـ ٩٥ . وَاللهُ
خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ـ ٩٦ . قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانــاً فَأَلْقُوهُ فِي
الْجَحِيمِ ـ ٩٧ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ـ ٩٨ . وَقَالَ
إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينَ ـ ٩٩ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ـ ١٠٠ .
فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ـ ١٠١ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ
إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ
افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ـ ١٠٢ . فَلَمَّا
أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ـ ١٠٣ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ـ ١٠٤ . قَــدْ
صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ـ ١٠٥ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ـ ١٠٦ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ـ ١٠٧ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ
فِي الآخِرِينَ ـ ١٠٨ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ـ ١٠٩ . كَذَلِــكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ـ ١١٠ . إِنَّــهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ـ ١١١ . وَبَشَّرْنَاهُ
بِإِسْحَقَ نَبِيّــاً مِنَ الصَّالِحِينَ ـ ١١٢ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ـ ١١٣ .

﴿ بيان ﴾

تعقيب لغرض السياق السابق المتعرض لشركهم وتكذيبهم بآيات الله وتهديدهم بأليم العذاب يقول: إن أكثر الأولين ضلوا كضلالهم وكذبوا الرسل المنذرين كتكذيبهم ويستشهد بقصص نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس عليهم السلام وما في الآيات المنقولة إشارة إلى قصة نوح وخلاصة قصص إبراهيم عليه‌السلام .

قوله تعالى : «ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين ـ إلى قوله ـ المخلصين» كلام مسوق لإنذار مشركي هذه الامة بتنظيرهم للامم الهالكين من قبلهم فقد ضل أكثرهم كما ضل هؤلاء وأرسل إليهم رسل منذرون كما أرسل منذر إلى هؤلاء فكذبوا فكان عاقبة أمرهم الهلاك إلا المخلصين منهم .

واللام في « لقد ضل » للقسم وكذا في « لقد أرسلنا » والمنذرين الأول بكسر الذال المعجمة وهم الرسل والثاني بفتح الذال المعجمة وهم الامم الأولون ، و « إلا عباد الله » إن كان المراد بهم من في الامم من المخلصين كان استثناء متصلا وإن عم الأنبياء كان منقطعا إلا بتغليبه غير الأنبياء عليهم والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون» اللامان للقسم وهو يدل على كمال العناية بنداء نوح وإجابته تعالى ، وقد مدح تعالى نفسه في إجابته فإن التقدير فلنعم المجيبون نحن، وجمع المجيب لإفادة التعظيم وقد كان نداء نوح ـ على ما يفيده السياق ـ دعاءه على قومه واستغاثته بربه المنقولين في قوله تعالى : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » نوح : ٢٦ ، وفي قوله تعالى : « فدعا ربه أني مغلوب فانتصر » القمر : ١٠

قوله تعالى : « ونجيناه وأهله من الكرب العظيم » الكرب ـ على ما ذكره الراغب ـ الغم الشديد والمراد به الطوفان أو أذى قومه ، والمراد بأهله أهل بيته و المؤمنون به من قومه وقد قال تعالى في سورة هود : « قلنا احمل فيها من كل زوجين

اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن » هود : ٤٠ والأهل كما يطلق على زوج الرجل وبنيه يطلق على كل من هو من خاصته .

قوله تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » أي الباقين من الناس بعد قرنهم وقد بحثنا في هذا المعنى في قصة نوح من سورة هود .

قوله تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين » المراد بالترك الإبقاء وبالآخرين الامم الغابرة غير الأولين ، وقد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم عليه السلام أيضاً في هذه السورة وقد بدلت في القصة بعينها من سورة الشعراء من قوله : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » الشعراء: ٨٤ واستفدنا منه هناك أن المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم بدعوته ويدعو إلى ملته وهي دين التوحيد .

فيتأيد بذلك أن المراد بالإبقاء في الآخرين هو إحياؤه تعالى دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد ومجاهدته في سبيل الله عصراً بعد عصر وجيلا بعد جيل إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : « سلام على نوح في العالمين » المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلى باللام مفيدا للعموم ، والظاهر أن المراد به عالموا البشر وامهم وجماعاتهم إلى يوم القيامة فإنه تحية من عند الله مباركة طيبة تهدى إليه من قبل الامم الإنسانية ما جرى فيها شيء من الخيرات اعتقاداً أو عملا فانه عليه السلام أول من انتهض لدعوة التوحيد ودحض الشرك وما يتبعه من العمل وقاسى في ذلك أشد المحنة فيما يقرب من ألف سنة لا يشاركه في ذلك أحد فله نصيب من كل خير واقع بينهم إلى يوم القيامة ، ولا يوجد في كلامه تعالى سلام على هذه السعة على أحد ممن دونه .

وقيل : المراد بالعالمين عوالم الملائكة والثقلين من الجن والإنس .

قوله تعالى : « إنا كذلك نجزي المحسنين » تعليل لما امتن عليه من الكرامة كإجابة ندائه وتنجيته وأهله من الكرب العظيم وإبقاء ذريته وتركه عليه في الآخرين والسلام عليه في العالمين ، وتشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا في خصوصياته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختص به عليه السلام وهو ظاهر .

قوله تعالى : « إنه من عبادنا المؤمنين» تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجملة السابقة وذلك لأنه عليه السلام لكونه عبداً لله بحقيقة معنى الكلمة كان لا يريد ولا يفعل إلا ما يريده الله ، ولكونه من المؤمنين حقاً كان لا يرى من الاعتقاد إلا الحق وسرى ذلك إلى جميع أركان وجوده ومن كان كذلك لا يصدر منه إلا الحسن الجميل فكان من المحسنين.

قوله تعالى : « ثم أغرقنا الآخرين » ثم للتراخي الكلامي دون الزماني والمراد بالآخرين قومه المشركون .

قوله تعالى: «وإن من شيعته لإبراهيم» الشيعة هم القوم المشايعون لغيرهم الذاهبون على أثرهم وبالجملة كل من وافق غيره في طريقته فهو من شيعته تقدم أو تأخر قال تعالى: « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل » سبأ : ٥٤ .

وظاهر السياق أن ضمير « شيعته » لنوح أي إن إبراهيم كان ممن يوافقه في دينه وهو دين التوحيد ، وقيل : الضمير لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا دليل عليه من جهة اللفظ .

قيل: ومن حسن الإرداف في نظم الآيات تعقيب قصة نوح عليه السلام وهو آدم الثاني أبو البشر بقصة إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء إليه تنتهي أنساب جل الأنبياء بعده وعلى دينه تعتمد أديان التوحيد الحية اليوم كدين موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأيضاً نوح عليه السلام نجاه الله من الغرق وإبراهيم عليه السلام نجاه الله من الحرق .

قوله تعالى : « إذ جاء ربه بقلب سليم » مجيئه ربه كناية عن تصديقه له وإيمانه به ، ويؤيد ذلك أن المراد بسلامة القلب عروه عن كل ما يضر التصديق والإيمان بالله سبحانه من الشرك الجلي والخفي ومساوي الأخلاق وآثار المعاصي وأي تعلق بغيره ينجذب إليه الإنسان ويختل به صفاء توجهه إليه سبحانه .

وبذلك يظهر أن المراد بالقلب السليم ما لا تعلق له بغيره تعالى كما في الحديث وسيجيء إن شاء الله في البحث الروائي الآتي .

وقيل : المراد به السالم من الشرك ، ويمكن أن يوجه بما يرجع إلى الأول وقيل: المراد به القلب الحزين ، وهو كما ترى .

والظرف في الآية متعلق بقوله سابقاً « من شيعته » والظروف يغتفر فيها ما لا

يغتفر في غيرها ، وقيل متعلق باذكر المقدر .

قوله تعالى : « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » أي أيّ شيء تعبدون؟ وانما سألهم عن معبودهم وهو يرى أنهم يعبدون الأصنام تعجبا واستغرابا .

قوله تعالى : « ءافكا آلهة دون الله تريدون » أي تقصدون آلهة دون الله افكا وافتراء ، انما قدم الإفك والآلهة لتعلق عنايته بذلك .

قوله تعالى : « فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم » لا شك أن ظاهر الآيتين أن اخباره عليه السلام بأنه سقيم مرتبط بنظرته في النجوم ومبني عليه ونظرته في النجوم اما لتشخيص الساعة وخصوص الوقت كمن به حمى ذات نوبة يعين وقتها بطلوع كوكب أو غروبها أو وضع خاص من النجوم واما للوقوف على الحوادث المستقبلة التي كان المنجمون يرون أن الأوضاع الفلكية تدل عليها ، وقد كان الصابئون مبالغين فيها وكان في عهده عليه السلام منهم جم غفير .

فعلى الوجه الأول لما أراد أهل المدينة أن يخرجوا كافة إلى عيدهم نظر إلى النجوم وأخبرهم أنه سقيم ستعتريه العلة فلا يقدر على الخروج معهم .

وعلى الوجه الثاني نظر عليه السلام حينذاك إلى النجوم نظرة المنجمين فأخبرهم أنها تدل على أنه سيسقم فليس في وسعه الخروج معهم .

وأول الوجهين أنسب لحاله عليه السلام وهو في إخلاص التوحيد بحيث لا يرى لغيره تعالى تأثيراً ، ولا دليل لنا قويا يدل على أنه عليه السلام لم يكن به في تلك الأيام سقم أصلا، وقد أخبر القرآن بإخباره بأنه سقيم وذكر سبحانه قبيل ذلك أنه جاء ربه بقلب سليم فلا يجوز عليه كذب ولا لغو من القول .

ولهم في الآيتين وجوه آخر أوجهها أن نظرته في النجوم وإخباره بالسقم من المعاريض في الكلام والمعاريض أن يقول الرجل شيئاً يقصد به غيره ويفهم منه غير ما يقصده فلعله نظر عليه السلام في النجوم نظر الموحد في صنعه تعالى يستدل به عليه تعالى وعلى وحدانيته وهم يحسبون أنه ينظر إليها نظر المنجم فيها ليستدل بها على الحوادث ثم قال: إني سقيم يريد أنه سيعتريه سقم فإن الإنسان لا يخلو في حياته من سقم مّا ومرض مّا

كما قال : « وإذا مرضت فهو يشفين » الشعراء : ٨٠ وهم يحسبون أنه يخبر عن سقمه يوم يخرجون فيه لعيد لهم ، والمرجع عنده لجميع ذلك ما كان يهتم به من الرواغ إلى أصنامهم وكسرها .

لكن هذا الوجه مبني على أنه كان صحيحاً غير سقيم يومئذ ، وقد سمعت أن لا دليل يدل عليه .

على أن المعاريض غير جائزة على الأنبياء لارتفاع الوثوق بذلك عن قولهم .

قوله تعالى : « فتولوا عنه مدبرين » ضمير الجمع للقوم وضمير الإفراد لإبراهيم عليه‌السلام أي خرجوا من المدينة وخلفوه .

قوله تعالى : « فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون » الروغ والرواغ والروغان الحياد والميل ، وقيل أصله الميل في جانب ليخدع من يريده .

وفي قوله : « ألا تأكلون » ؟ تأييد لما ذكروا أن المشركين كانوا يضعون أيام أعيادهم طعاماً عند آلهتهم .

وقوله : « ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون » ؟ تكليم منه لآلهتهم وهي جماد وهو يعلم أنها جماد لا تأكل ولا تنطق لكن الوجد وشدة الغيظ حمله على أن يمثل موقفها موقف العقلاء ثم يؤاخذها مؤاخذة العقلاء كما يفعل بالمجرمين .

فنظر إليها وهي ذوات أبدان كهيئة من يتغذى ويأكل وعندها شيء من الطعام فامتلأ غيظاً وجاش وجداً فقال : ألا تأكلون ؟ فلم يسمع منها جواباً فقال : « ما لكم لا تنطقون» ؟ وأنتم آلهة بزعم عبادكم أنكم عقلاء قادرون مدبرون لامورهم فلما لم يسمع لها حساً راغ عليها ضرباً باليمين .

قوله تعالى : « فراغ عليهم ضربا باليمين » أي تفرع على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضربا باليد اليمنى أو بقوة بناء على كون المراد باليمين القوة .

وقول بعضهم : إن المراد باليمين القسم والمعنى مال عليهم ضربا بسبب القسم الذي سبق منه وهو قوله : « تالله لأكيدن أصنامكم » الأنبياء : ٥٧ بعيد .

قوله تعالى : « فأقبلوا إليه يزفون» الزف والزفيف الإسراع في المشي أي فجاؤوا

إلى إبراهيم والحال أنهم يسرعون اهتماما بالحادثة التي يظنون أنه الذي أحدثها .

وفي الكلام إيجاز وحذف من خبر رجوعهم إلى المدينة ووقوفهم على ما فعل بالأصنام وتحقيقهم الأمر وظنهم به عليه‌السلام مذكور في سورة الأنبياء .

قوله تعالى : « قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعبدون » فيه إيجاز وحذف من حديث القبض عليه والإتيان به على أعين الناس ومسألته وغيرها .

والاستفهام للتوبيخ وفيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول : لا يصلح ما نحته الإنسان بيده أن يكون ربا للإنسان معبوداً له والله سبحانه خلق الإنسان وما يعمله والخلق لا ينفك عن التدبير فهو رب الإنسان ومن السفه أن يترك هذا ويعبد ذاك .

وقد بان بذلك أن الأظهر كون ما في قوله : « ما تنحتون » موصولة والتقدير ما تنحتونه ، كذا في قوله : « وما تعملون » وجوز بعضهم كون « ما » فيها مصدرية وهو في أولها بعيد جداً .

ولا ضير في نسبة الخلق إلى ما عمله الإنسان أو إلى عمله لأن ما يريده الإنسان ويعمله من طريق اختياره مراد الله سبحانه من طريق إرادة الإنسان واختياره ولا يوجب هذا النوع من تعلق الإرادة بالفعل بطلان تأثير إرادة الإنسان وخروج الفعل عن الاختيار وصيرورته مجبراً عليه ، وهو ظاهر .

ولو كان المراد نسبة خلق أعمالهم إلى الله سبحانه بلا واسطة لا من طريق إرادتهم بل بتعلق إرادته بنفس عملهم وأفاد الجبر لكان القول أقرب إلى أن يكون عذراً لهم من أن يكون توبيخا وتقبيحا ، وكانت الحجة لهم لا عليهم .

قوله تعالى : « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم » البنيان مصدر بنى يبني والمراد به المبنى ، والجحيم النار في شدة تأججها.

قوله تعالى : « فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » الكيد الحيلة والمراد احتيالهم إلى إهلاكه وإحراقه بالنار .

وقوله : « فجعلناهم الأسفلين » كناية عن جعل إبراهيم فوقهم لا يؤثر فيه كيدهم

شيئاً إذ قال سبحانه : « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » الأنبياء : ٦٩ .

وقد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهيم عليه‌السلام وهو انتهاضه أولا على عبادة الأوثان واختصامه لعبادها وانتهاء أمره إلى إلقائه النار وإبطاله تعالى كيدهم .

قوله تعالى : « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين » فصل آخر من قصصه عليه‌السلام يذكر عزمه على المهاجرة من بين قومه واستيهابه من الله ولداً صالحاً وإجابته إلى ذلك وقصة ذبحه ونزول الفداء .

فقوله : « وقال إني ذاهب إلى ربي » الخ كالإنجاز لما وعدهم به مخاطبا لآزر : « واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا » مريم : ٤٨ ومنه يعلم أن مراده بالذهاب إلى ربه الذهاب إلى مكان يتجرد فيه لعبادته تعالى ودعائه وهو الأرض المقدسة .

وقول بعضهم : إن المراد أذهب إلى حيث أمرني ربي لا شاهد عليه.

وكذا قول بعضهم : إن المراد إني ذاهب إلى لقاء ربي حيث يلقونني في النار فأموت وألقي ربي سيهديني إلى الجنة .

وفيه ـ كما قيل ـ أن ذيل الآية لا يناسبه وهو قوله: «رب هب لي من الصالحين» وكذا قوله بعده : « فبشرناه بغلام حليم » .

قوله تعالى : « رب هب لي من الصالحين » حكاية دعاء إبراهيم عليه‌السلام ومسألته الولد أي قال : رب هب لي « الخ » وقد قيده بكونه من الصالحين .

قوله تعالى : « فبشرناه بغلام حليم » أي فبشرناه أنا سنرزقه غلاما حليما وفيه إشارة إلى أنه يكون ذكراً ويبلغ حد الغلمان ، وأخذ الغلومة في وصفه مع أنه بلغ مبلغ الرجال للإشارة إلى حاله التي يظهر فيها صفة كماله وصفاء ذاته وهو حلمه الذي مكنه من الصبر في ذات الله إذ قال : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

ولم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلا هذا النبي الكريم في هذه الآية وأبوه في قوله تعالى : « إن إبراهيم لحليم اواه منيب » هود : ٧٥ .

قوله تعالى : « فلما بلغ معــه السعي قال يا بني إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى » الخ الفاء في أول الآية فصيحة تدل على محذوف والتقدير فلما ولد له ونشأ وبلغ معه السعي ، والمراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغا يسعى فيه لحوائج الحياة عادة وهو سن الرهاق ، والمعنى فلما راهق الغلام قال له يا بني «الخ» .

وقوله : « قال يا بني إني أرى في المنام إني أذبحك » هي رؤيا إبراهيم ذبح ابنه ، وقوله : « إني أرى » يدل على تكرر هذه الرؤيا له كما في قوله : « وقال الملك إني أرى » الخ يوسف : ٤٣ .

وقوله : « فانظر ماذا ترى » هو من الرأي بمعنى الاعتقاد أي فتفكر فيما قلت وعين ما هو رأيك فيه ، وهذه الجملة دليل على أن إبراهيم عليه السلام فهم من منامه أنه أمر له بالذبح مثّل له في مثال نتيجة الأمر ولذا طلب من ابنه الرأي فيــه وهو يختبره بما ذا يجيبه ؟

وقوله : « قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » جواب ابنه ، وقوله : « يا أبت افعل ما تؤمر » إظهار رضى بالذبح في صورة الأمر وقد قال: افعل ما تؤمر ولم يقل: اذبحني إشارة إلى أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره وطاعته.

وقوله: «ستجدني إن شاء الله من الصابرين » تطييب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه ولا يأتي بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمل بدمائه ، وقد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله : « إن شاء الله » فأشار إلى أن اتصافه بهذه الصفة الكريمة أعني الصبر ليس له من نفسه ولا أن زمامه بيده بل هو من مواهب الله ومننه إن يشأ تلبس به وله أن لا يشاء فينزعه منه .

قوله تعالى : « فلما أسلما وتله للجبين » الإسلام الرضا والاستسلام :والتل الصرع والجبين أحد جانبي الجبهة واللام في « للجبين » لبيان ما وقع عليه الصراع كقوله : « يخرون للأذقان سجداً » أسرى: ١٠٧ ، والمعنى فلما استسلما إبراهيم وابنه لأمر الله ورضيا به وصرعه إبراهيم على جبينه .

وجواب لما محذوف إيماء إلى شدة المصيبة ومرارة الواقعة .

قوله تعالى : « وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » معطوف على جواب

لما المحذوف ، وقوله : « قد صدقت الرؤيا » أي أوردتها مورد الصدق وجعلتها صادقة وامتثلت الأمر الذي أمرناك فيها أي إن الأمر فيها كان امتحانياً يكفي في امتثاله تهيؤ المأمور للفعل وإشرافه عليه فحسب .

قوله تعالى : « إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين » الإشارة بكذلك إلى قصة الذبح بما أنها محنة شاقة وابتلاء شديد والإشارة بهذا إليها أيضاً وهو تعليل لشدة الأمر .

والمعنى: إنا على هذه الوتيرة نجزي المحسنين فنمتحنهم امتحانات شاقة صورة هينة معنى فاذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وذلك لأن الذي ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين .

قوله تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » أي وفدينا ابنه بذبح عظيم وكان كبشاً أتا به جبريل من عند الله سبحانه فداء على ما في الأخبار ، والمراد بعظمة الذبح عظمة شأنه بكونه من عند الله سبحانه وهو الذي فدى به الذبيح .

قوله تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين » تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : « سلام على إبراهيم » تحية منه تعالى عليه ، وفي تنكير سلام تفخيم له .

قوله تعالى : « إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين » تقدم تفسير الآيتين .

قوله تعالى : « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » الضمير لإبراهيم عليه‌السلام .

واعلم أن هذه الآية المتضمنة للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله : « فبشرناه بغلام حليم » المتعقبة بقوله : « فلما بلغ معه السعي » إلى آخر القصة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أن الذبيح غير إسحاق وهو إسماعيل عليهما السلام وقد فصلنا القول في ذلك في قصص إبراهيم عليه‌السلام من سورة الأنعام .

قوله تعالى : « وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه

مبين » المباركة على شيء جعل الخير والنماء والثبات فيه أي وجعلنا فيما أعطينا إبراهيم وإسحاق الخير الثابت والنماء .

ويمكن أن يكون قوله : « ومن ذريتهما » الخ قرينة على أن المراد بقوله : « باركنا » إعطاء البركة والكثرة في أولاده وأولاد إسحاق ، والباقي ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « بقلب سليم » قال : القلب السليم الذي يلقى الله عز وجل وليس فيه أحد سواه .

وفيه قال : القلب السليم من الشك .

وفي روضة الكافي بإسناده عن حجر عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال: قال أبو جعفر عليه‌السلام :عاب آلهتهم فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم . قال ابو جعفر عليه‌السلام :والله ما كان سقيما وما كذب .

أقول : وفي معناه روايات أخر وفي بعضها : ما كان إبراهيم سقيما وما كذب إنما عنى سقيما في دينه مرتادا .

وقد تقدم الروايات في قصة حجاج إبراهيم عليه‌السلام قومه وكسره الأصنام وإلقائه في النار في تفسير سور الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين عليه‌السلام في حديث وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات قال : وقد أعلمتك أن رب شيء من كتاب الله عز وجل تأويله غير تنزيله ولا يشبه كلام البشر وسأنبئك بطرف منه فتكتفي إن شاء الله .

من ذلك قول إبراهيم عليه‌السلام : « إني ذاهب إلى ربي سيهدين » فذهابه إلى ربه توجهه إليه عبادة واجتهاداً وقربة إلى الله عز وجل ألا ترى أن تأويله غير تنزيله ؟ .

وفيه بإسناده عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه‌السلام قال : يافتح إن لله إرادتين ومشيئتين : إرادة حتم ، وإرادة عزم ينهى وهو يشاء ذلك ويأمر وهو

لا يشاء أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وهو يشاء ذلك ؟ ولو لم يشأ لم يأكلا ، ولو أكلا لغلبت شهوتهما مشيئة الله تعالى ، وأمر إبراهيم بذبح ابنه اسماعيل عليهما السلام وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشأ أن لا يذبحه لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله عز وجل. قلت : فرجت عني فرج الله عنك .

وعن أمالي الشيخ بإسناده إلى سليمان بن يزيد قال : حدثنا علي بن موسى قال : حدثني أبي عن أبيه عن أبي جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: الذبيح إسماعيل عليه السلام .

أقول : وروى مثله في المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، وبهذا المضمون روايات كثيرة أخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد وقع في بعض رواياتهم أنه إسحاق وهو مطروح لمخالفة الكتاب .

وعن الفقيه سئل الصادق عليه‌السلام عن الذبيح من كان؟فقال اسماعيل لأن الله تعالى ذكر قصته في كتابه ثم قال : « وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين » .

أقول : هذا ما تقدم في بيان الآية أن الآية بسياقها ظاهرة بل صريحة في ذلك .

وفي المجمع عن ابن إسحاق أن ابراهيم كان إذا زار اسماعيل وهاجر حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح منمكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ معه السعي رآى في المنام أن [١] يذبحه فقال له : يا بني خذ الحبل والمدية [٢] ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب .

فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما قد ذكره الله عنه فقال : يا أبت أشدد رباطي حتى لا اضطرب واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح من دمي شيئاً فـيراه امي واشحذ شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد فقال له إبراهيم : نعم العون أنت يا بني على أمر الله .

ثم ساق القصة وفيها ثم انحنى إليه بالمدية وقلب جبرائيل المدية على قفاها واجتر

---

(١) أنه ظ

(٢) المدية : السكين

الكبش من قبل ثبير وإجتر الغلام من تحتــه ووضع الكبش مكان الغلام ، ونودي من ميسرة مسجد الخيف : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

أقول : والروايات في القصة كثيرة ولا تخلو من اختلاف .

وفيه : روى العياشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل وبين بشارته بإسحاق عليه السلام ؟ قال : كان بين البشارتين خمس سنين قال الله سبحانه فبشرناه بغلام حليم يعني إسماعيل وهي أول بشارة بشر الله به إبراهيم عليه السلام في الولد .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ـ ١١٤ . وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ـ ١١٥. وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ـ ١١٦. وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ـ ١١٧ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١١٨ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ـ ١١٩ . سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ـ ١٢٠ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ـ ١٢١ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ـ ١٢٢ . وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ـ ١٢٣ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ـ ١٢٤ . أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ـ ١٢٥ . اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ـ ١٢٦ . فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٢٧ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ـ ١٢٨ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ـ ١٢٩ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ـ ١٣٠ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ـ ١٣١ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ـ ١٣٢ .

﴿ بيان ﴾

ملخص قصة موسى وهارون وإشارة إلى قصة إلياس عليه السلام. وبيان ما أنعم الله عليهم وعذب مكذبيهم وجانب الرحمة يربو فيهـــا على جانب العذاب والتبشير يزيد على الإنذار .

قوله تعالى : « ولقـد مننا على موسى وهارون » المن الإنعام ومن المحتمل أن يكون المراد به ما سيعده مما أنعم عليهما وعلى قومهما من التنجية والنصر وإيتاء الكتاب والهداية وغيرها فيكون قوله : « ونجيناهما » الخ من عطف التفسير .

قوله تعالى : « ونجيناهما وقومهما من الكرب العظـــيم » وهو الغم الشديد من استضعاف فرعون لهم يسومهم سوء العذاب ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

قوله تعالى : « ونصرناهم فكانوا هم الغالبين » وهو الذي أدى إلى خروجهم من مصر وجوازهم البحر وهلاك فرعون وجنوده .

وبذلك يندفع ما توهم أن مقتضى الظاهر أن يذكر النصر قبل التنجية لتوقفها عليه ، وذلك أن النصر إنما يكون فيما إذا كان المنصور قوة مـا لكنها لا تكفي لدفـع الشر فتتم بالنصر وكان لبني إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوة فناسب إطلاق النصر على إعانتهم على ذلك بخـــلاف أصل تخليصهم من يد فرعون فإنهم كانوا أسراء مستعبدين لا قوة لهم فلا يناسب هذا الاعتبار إلا ذكر التنجية دون النصر .

قوله تعالى : : وآتيناهما الكتاب المستبين » أي يستبين المجهولات الخفية فيبينها وهي التي يحتاج إليها الناس في دنياهم وآخرتهم .

قوله تعالى : « وهديناهما الصراط المستقيم » المراد بها الهداية بتمام معنى الكلمة ، ولذا خصها بهما ولم يشرك فيها معهما قومهما ، ولقد تقدم كلام في معنى الهداية إلى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة .

قوله تعالى : « وتركنا عليهما في الآخرين ـ إلى قوله ـ المؤمنين » تقدم تفسيرها.

قوله تعالى : « وإن إلياس لمن المرسلين » قيل : إنه عليه السلام من آل هارون كان

مبعوثا إلى بعلبك (١) ولم يذكر في كلامه ما يستشهد به عليه .

قوله تعالى : « إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ـ إلى قوله ـ الأولين » شطر من دعوته عليه السلام يدعو قومه فيها إلى التوحيد ويوبخهم على عبادة بعل ـ صنم كان لهم ـ وترك عبادة الله سبحانه .

وكلامه عليه السلام على ما فيه من التوبيخ واللوم يتضمن حجة تامة على توحيده تعالى فإن قوله : « وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين » يوبخهم أولاً على ترك عبادة أحسن الخالقين ، والخلق والإيجاد كما يتعلق بذوات الأشياء يتعلق بالنظام الجاري فيها الذي يسمى تدبيرا فكما أن الخلق إليه تعالى فالتدبير أيضاً إليه فهو المدبر كما أنه الخالق ؛ وأشار إلى ذلك بقوله : «الله ربكم » بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين.

ثم أشار إلى أن ربوبيته تعالى لا تختص بقوم دون قوم كالأصنام التي يتخذ كل قوم بعضا منها دون بعض فيكون صنم ربا لقوم دون آخرين بل هو تعالى رب لهم ولآبائهم الأولين لا يختص ببعض دون بعض لعموم خلقه وتدبيره ، وإليه أشار بقوله : « الله ربكم ورب آبائكم الأولين » .

قوله تعالى : « فكذبوه فإنهم لمحضرون » أي مبعوثون ليحضروا العذاب ، وقد تقدم أن الإحضار إذا أطلق أفاد معنى الشر .

قوله تعالى : « إلا عباد الله المخلصين » دليل على أنه كان في قومه جمع منهم .

قوله تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين ـ إلى قوله ـ المؤمنين » تقدم الكلام في نظائرها .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: « أتدعون بعلا » قال: كان لهم صنم يسمونه بعلا.

وفي المعاني بإسناده إلى قادح عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عن علي

---

(١) ولعلهم أخذوه من بعل فقد قيل : أن بعلبك سمي به لأن بعلا كان منصوبا في معبد فيه .

عليه‌السلام في قول الله عز وجل : « سـلام على آل يس » قال : يس محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ونحن آل يس .

أقول : وعن العيون عن الرضا عليه‌السلام مثله ، وهو مبني على قراءة آل يس كما قرأه نافع وابن عامر ويعقوب وزيد .

﴿ كلام في قصـة الياس عليه‌السلام ﴾

١ ـ **قصته في القرآن**: لم يذكر اسمه عليه‌السلام في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع وفي سورة الأنعام عند ذكر هداية الأنبياء حيث قال: «وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين » الأنعام : ٨٥ .

ولم يذكر تعالى من قصته في هذه السورة إلا أنه كان يدعو إلى عبادة الله سبحانه قوما كانوا يعبدون بعلا فآمن به وأخلص الإيمان قوم منهم وكذبه آخرون وهم جل القوم وإنهم لمحضرون .

وقد أثنى الله سبحانه عليه في سورة الأنعام بما أثنى به على الأنبياء عامة وأثنى عليه في هذه السورة بأنه من عباده المؤمنين المحسنين وحياه بالسلام بناء على القراءة المشهورة « سلام على إل ياسين » .

٢ ـ **الاحاديث فيه** : ورد فيه عليه‌السلام أخبار مختلفة متهافتة كغالب الأخبار الواردة في قصص الأنبياء الحاكية للعجائب كالذي روي عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس وما عن ابن عباس عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : أن الخضر هو إليـاس ، وما عن وهب وكعب الاحبار وغيرهما أن إلياس حي لا يموت إلى النفخة الاولى ، وما عن وهب أن إلياس سأل الله أن يريحه من قومه فأرسل الله إليه دابة كهيئة الفرس في لون النار فوثب إليه فانطلق به فكساه الله الريش والنور وقطـع عنه لذة المطعم والمشرب فصار في الملائكة ، وما عن كعب الأحبار أن إلياس صاحب الجبال والبر وأنه الذي سماه الله بذي النون ، وما عن الحسن أن إلياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالجبال ، وما عن أنس أن

إلياس لاقى النبي ﷺ في بعض أسفاره فقعدا يتحدثان ثم نزل عليهما مائدة من السماء فأكلا وأطعماني ثم ودعه وودعني ثم رأيته مر على السحاب نحو السماء إلى غير ذلك[١].

وفي بعض أخبـــار الشيعة أنه عليه السلام حي مخلد[٢] لكنها ضعاف وظاهر آيات القصة لا يساعد عليه .

وفي البحار في قصة إلياس عليه السلام عن قصص الأنبياء بالإسنـــاد عن الصدوق بإسناده إلى وهب بن منبه ، ورواه الثعلبي في العرائس عن ابن إسحاق وعلماء الأخبار أبسط منه ـ والحديث طويل جداً ، وملخصه ـ أنه بعد انشعاب ملك بني إسرائيل وتقسمه بينهم سار سبط منهم إلى بعلبك وكان لهم ملك منهم يعبد صنما اسمـــه بعل ويحمل الناس على عبادته .

وكانت له مرأة فاجرة قد تزوجت قبله بسبعة من الملوك وولدت تسعين ولداً سوى أبناء الأبناء ، وكان الملك يستخلفها إذا غاب فتقضي بين الناس ، وكان له كاتب مؤمن حكيم قد خلص من يدها ثلاث مائة مؤمن تريد قتله ، وكان في جوار قصر الملك رجل مؤمن له بستان وكان الملك يحترم جواره ويكرمه .

ففي بعض ما غاب الملك قتلت المرأة الجار المؤمن وغصبت بستانه فلما رجع وعلم به عاتبها فاعتذرت إليه وأرضته فآلى الله تعالى على نفسه أن ينتقم منهما إن لم يتوبا فأرسل إليهم إلياس عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وأخبرهما بما آلى الله فاشتد غضبهم عليه وهموا بتعذيبه وقتله فهرب منهم إلى أصعب جبل هناك فلبث فيه سبع سنين يعيش بنبات الأرض وثمار الشجر .

فأمرض الله ابناً للملك يحبه حباً شـديداً فاستشفع ببعل فلم ينفعه فقيل له : إنه غضبان عليك إن لم تقتل إلياس فأرسل إليه فئـــة من قومه ليخدعوه ويقبضوا عليه فأرسل الله إليهم ناراً فأحرقتهم ثم أرسل إليـــه فئة اخرى من ذوي البأس مع كاتبه

(١) رواه في الدر المنثور في تفسير آيات القصة .

(٢) رواه في البحار عن قصص الأنبياء .

المؤمن فذهب معه إليـاس صونا له من غضب الملك لكن الله سبحانه أمات ابنه فشغله حزنه عن إلياس فرجع سالما .

ثم لما طال الأمر نزل إلياس من الجبـل وا ختفى عند ام يونس بن متى في بيتها ويونس طفل رضيـع ثم خرج بعد ستة أشهر إلى الجبل ثانيا واتفق أن مات بعده يونس ثم أحياه الله بدعاء إلياس بعد ما خرجت امه في طلبه فوجدته فتضرعت إليه .

ثم إنه سأل الله أن ينتقم له من بني إسرائيل ويمسك عنهم الأمطار فاجيب وسلط الله عليهم القحط فأجهدوا سنين فنـدموا فجاؤه فتابوا وأسلموا فدعا الله فأرسل عليهم المطر فسقاهم وأحيا بلادهم .

فشكوا إليه هـدم الجدران وعدم البذر من الحبوب فأوحى إليه أن يأمرهم أن يبذروا الملح فأنبت لهم الحمص وأن يبذروا الرمل فأنبت لهم منه الدخن .

ثم لما كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد وعادوا إلى أخبث ما كانوا عليه فأملّ ذلك إلياس فدعا الله أن يريحه منهم فأرسل الله إليه فرسا من نار فوثب عليه إليـاس فرفعه الله إلى السماء وكساه الريش والنور فكان مع الملائكة .

ثم سلط الله على الملك وامرأته عدوا فقصدهما وظهر عليهما فقتلهما وألقى جيفتهما في بستان ذلك الرجل المؤمن الذي قتلاه وغصبوا بستانه .

وأنت بالتأمل فيما تقصه الرواية لا ترتاب في ضعفها .

* * *

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ـ ١٣٣ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ـ ١٣٤ . إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَـابِرِينَ ـ ١٣٥ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ـ ١٣٦ . وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ـ ١٣٧ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ـ ١٣٨ .

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ - ١٣٩ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ - ١٤٠ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ - ١٤١ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ - ١٤٢ . فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ - ١٤٣ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ - ١٤٤ . فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ - ١٤٥ . وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ - ١٤٦ . وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ - ١٤٧ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ - ١٤٨ .

﴿ بيان ﴾

خلاصة قصة لوط عليه السلام ثم قصة يونس عليه السلام وابتلاء الله تعالى له بالحوت مأخوذاً بما أعرض عن قومه عند ارتفاع العذاب عنهم بعد نزوله وإشرافه عليهم .

قوله تعالى : « وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين » وإنما نجاه وأهله من العذاب النازل على قومه وهو الخسف وإمطار حجارة من سجيل على ما ذكره الله تعالى في سائر كلامه .

قوله تعالى : « إلا عجوزاً في الغابرين » أي في الباقين في العذاب المهلكين بـه وهي امرأة لوط .

قوله تعالى : « ثم دمرنا الآخرين » التـدمير الاهلاك ، والآخرين قومه الذين أرسل إليهم .

قوله تعالى : « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » فإنهم على طريق الحجاز إلى الشام ، والمراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربة وهي اليوم مستورة بالماء على ما قيل .

قوله تعالى : « وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون » أي السفينة

المملوءة من الناس والإباق هرب العبد من مولاه .

والمراد بإباقه إلى الفلك خروجه من قومه معرضاً عنهم وهو عليه السلام وإن لم يعص في خروجه ذلك ربه ولا كان هناك نهي من ربه عن الخروج لكن خروجه إذ ذاك كان مثلاً لإباق العبد من خدمة مولاه فأخذه الله بذلك ، وقد تقدم بعض الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه » الأنبياء: ٨٧

قوله تعالى : « فساهم فكان من المدحضين » المساهمة المقارعة والإدحاض الغلبة أي فقارع من في السفينة فكان من المغلوبين، وقد كان عرض لسفينتهم الحوت فاضطروا إلى أن يلقوا واحداً منهم في البحر ليبتلعه ويخلي السفينة فقارعوا فأصابت يونس عليه السلام .

قوله تعالى : « فالتقمه الحوت وهو مليم » الالتقام الابتلاع ، ومليم من ألام أي دخل في اللوم كأحرم إذا دخل في الحرم أو بمعنى صار ذا ملامة .

قوله تعالى : « فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون » عده من المسبحين وهم الذين تكرر منهم التسبيح وتمكن منهم حتى صار وصفاً لهم يدل على دوام تلبسه زماناً بالتسبيح . قيل : أي من المسبحين قبل التقام الحوت إياه ، وقيل : بل في بطن الحوت ، وقيل : أي كان من المسبحين قبل التقام الحوت وفي بطنه .

والذي حكي من تسبيحه في كلامه تعالى قوله في سورة الأنبياء : « فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » الأنبياء : ٨٧ ولازم ذلك أن يكون من المسبحين في بطن الحوت خاصة أو فيه وفيما قبله فاحتمال كون المراد تسبيحه قبل التقام الحوت مرجوح لا ينبغي أن يصار إليه .

على أن تسبيحه مع اعترافه بالظلم في قوله : « سبحانك إني كنت من الظالمين » ـ على ما سيجيء ـ تسبيح له تعالى عما كان يشعر به[1] فعله من ترك قومه وذهابه على وجهه ، وقوله : « فلولا أنه كان من المسبحين» الخ يدل على أن تسبيحه كان هو السبب المستدعي لنجاته ، ولازم ذلك أن يكون إنما ابتلي بما ابتلي به ليتزه تعالى فينجو بذلك من الغم الذي ساقه إليه فعله إلى ساحة العافية .

---

(١) وهو أن الله لا يقدر عليه كما قال تعالى : « وظن أن لن نقدر عليه » .

وبذلك يظهر أن العناية في الكلام إنما هي بتسبيحه في بطن الحوت خاصة فخير الأقوال الثلاثة أوسطها .

فالظاهر أن المراد بتسبيحه نداؤه في الظلمات بقوله: « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » وقد قدم التهليل ليكون كالعلة المبينة لتسبيحه كأنه يقول : لا معبود بالحق يتوجه إليه غيرك فأنت منزه مما كان يشعر به فعلي أني آبق منك معرض عن عبوديتك متوجه إلى سواك اني كنت ظالماً لنفسي في فعلي فها أنا متوجه إليك متبرىء مما كان يشعر به فعلي من التوجه عنك إلى غيرك .

فهذا معنى تسبيحه ولو لا ذلك منه لم ينج أبداً إذ كان سبب نجاته منحصراً في التسبيح والتنزيه بالمعنى الذي ذكر .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله : « للبث في بطنه إلى يوم يبعثون » تأبيد مكثه في بطنه إلى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الذي يقبر فيه الإنسان ويلبث فيه حتى يبعث فيخرج منه قال تعالى: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أُخرى» طه:٥٥.

ولا دلالة في الآية على كونه عليه السلام على تقدير اللبث حياً في بطن الحوت إلى يوم يبعثون أو ميتاً وبطنه قبره مع بقاء بدنه وبقاء جسد الحوت على حالها أو بنحو آخر فلا مساغ لاختلافهم في كونه عليه السلام حياً على هذا التقدير أو ميتاً وبطنه قبره ، وأن المراد بيوم يبعثون النفخة الاولى التي فيها يموت الخلائق أو النفخة الثانية أو التأجيل بيوم القيامة كناية عن طول اللبث .

قوله تعالى : «فنبذناه بالعراء وهو سقيم» النبذ طرح الشيء والرمي به ، والعراء المكان الذي لا سترة فيه يستظل بها من سقف أو خباء أو شجر .

والمعنى على ما يعطيه السياق أنه صار من المسبحين فأخرجناه من بطن الحوت وطرحناه خارج الماء في أرض لا ظل فيها يستظل به وهو سقيم .

قوله تعالى : « وأنبتنا عليه شجرة من يقطين » اليقطين من نوع القرع ويكون ورقه عريضاً مستديراً وقد أنبتها الله عليه ليستظل بورقها .

قوله تعالى : « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » أو في مورد الترقي وتفيد معنى بل ، والمراد بهذه الجماعة أهل نينوى .

قوله تعالى : « فآمنوا فمتعناهم إلى حين » أي آمنوا به فلم نعذبهم ولم نهلكهم بما أشرف عليهم من العذاب فمتعناهم بالحياة والبقاء إلى أجلهم المقدر لهم .

والآية في إشعارها برفع العذاب عنهم وتمتيعهم تشير إلى قوله تعالى: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » يونس : ٩٨ .

ولا يخلو السياق من إشعار – بل دلالة – على أن المراد من إرساله في قوله : « فأرسلناه » أمره بالذهاب ثانياً إلى القوم ، وبإيمانهم في قوله : « فآمنوا » الخ إيمانهم بتصديقه واتباعه بعدما آمنوا وتابوا حين رأوا العذاب .

ومن هنا يظهر ضعف ما استدل بعضهم بالآيتين أن إرساله إلى القوم كان بعد خروجه من بطن الحوت وأنه أمر أولاً بالذهاب إلى أهل نينوى ودعوتهم إلى الله وكانوا يعبدون الأصنام فاستعظم الأمر وخرج من بيته يسير في الأرض لعل الله يصرف عنه هذا التكليف وركب البحر فابتلاه الله بالحوت ثم لما نبذ بالعراء كلف ثانياً فأجاب وأطاع ودعاهم فاستجابوا فدفع الله عذاباً كان يهددهم إن لم يؤمنوا .

وذلك أن السياق كما سمعت يدل على كون إرساله بأمر ثان وأن إيمانهم كان إيماناً ثانياً بعد الإيمان والتوبة وأن تمتيعهم إلى حين كان مترتباً على إيمانهم به لا على كشف العذاب عنهم فلم يكن الله سبحانه ليتركهم لو لم يؤمنوا برسوله ثانياً كما آمنوا به وتابوا إليه أولاً في غيبته فافهم ذلك .

على أن قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً » الأنبياء : ٨٧ وقوله : « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » ن : ٤٨ لا يلائم ما ذكروه ، وكذا قوله : « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا » يونس:٩٨ إذ لا يطلق الكشف إلا في عذاب واقع حال أو مشرف .

﴿ كلام في قصة يونس عليه السلام في فصول ﴾

١ – لم يتعرض القرآن الكريم إلا لطرف من قصته وقصة قومه فقد تعرض في سورة الصافات لإرساله ثم إباقه وركوبه الفلك والتقام الحوت له ثم نجاته وإرساله إلى

القوم وإيمانهم قال تعالى: « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين » .

وفي سورة الأنبياء: لتسبيحه في بطن الحوت وتنجيته قال تعالى: « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » الأنبياء : ٨٧ – ٨٨ .

وفي سورة ن: لندائه مكظوماً وخروجه من بطنه واجتبائه قال تعالى :« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . فلولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » ن : ٥٠ .

وفي سورة يونس: لإيمان قومه وكشف العذاب عنهم قال تعالى: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » يونس : ٩٨ .

وخلاصة ما يستفاد من الآيات بضم بعضها إلى بعض واعتبار القرائن الحافة بها أن يونس عليه السلام كان من الرسل أرسله الله تعالى إلى قومه وهم جمع كثير يزيدون على مائة ألف فدعاهم فلم يجيبوه إلا بالتكذيب والرد حتى جاءهم عذاب أوعدهم به يونس ثم خرج من بينهم .

فلما أشرف عليهم العذاب وشاهدوه مشاهدة عيان أجمعوا على الإيمان والتوبة إلى الله سبحانه فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا .

ثم إن يونس عليه السلام استخبر عن حالهم فوجد العذاب انكشف عنهم – وكأنه لم يعلم بإيمانهم وتوبتهم – فلم يعد إليهم وذهب لوجهه على ما به من الغضب والسخط عليهم فكان ظاهر حاله حال من يأبق من ربه مغاضباً عليه ظاناً أنه لا يقدر عليه وركب البحر في فلك مشحون .

فعرض لهم حوت عظيم لم يجدوا بداً من أن يلقوا إليه واحداً منهم يبتلعه

وينجو الفلك بذلك فساهموا وقـــارعوا فيما بينهم فأصابت يونس عليه‌السلام فألقوه في البحر فابتلعه الحوت ونجت السفينة .

ثم أن الله سبحانه حفظه حيا سويا في بطنه أياماً وليالي ويونس عليه‌السلام يعلم أنها بلية ابتلاه الله بها مؤاخذة بما فعل وهو ينادي في بطنه أن « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » .

فاستجاب الله له فأمر الحوت أن يلفظه فنبذه بالعراء وهو سقيم فأنبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين يستظل بأوراقها ثم لما استقامت حاله أرسله إلى قومه فلبوا دعوته وآمنوا به فمتعهم الله إلى حين .

والأخبار الواردة من طرق أئمة أهل البيت عليهم‌السلام على كثرتها وبعض الأخبار من طرق أهل السنة مشتركة المتون في قصة يونس عليه‌السلام على النحو الذي يستفاد من الآيات وإن اختلفت في بعض الخصوصيات الخارجة عن ذلك [١] .

٢ ـ **قصته عند أهل الكتاب** : هو عليه‌السلام مذكور باسم يوناه بن إمتاي في مواضع من العهد القديم وكذا في مواضع من العهد الجديد أشير في بعضها إلى قصة لبثه في بطن الحوت لكن لم تذكر قصته الكاملة في شيء منها .

ونقل الآلوسي في روح المعاني في قصته عند أهل الكتاب ويؤيده مـا في بعض كتبهم من إجمال[٢] القصة :

أن الله أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى[٣] وكانت إذ ذاك عظيمة جداً لا يقطع إلا في نحو ثلاثة أيام وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم ، فاستعظم الأمر وهرب إلى ترسيس[٤] فجاء يافا[٥] فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى ترسيس فاستأجر وأعطى

(١) ولذلك لم نوردها لأنها في نفسها آحاد لا حجية لها في مثل المقام ولا يمكن تصحيح خصوصياتها بالآيات وهو ظاهر لمن راجعها .

(٢) قاموس الكتاب المقدس .

(٣) كانت مدينة عظيمة من مدائن آشور على ساحل دجلة .

(٤) اسم مدينة .

(٥) مدينة في الارض المقدسة .

الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة و كثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق.

ففزع الملاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة وعند ذلك نزل يونس إلى بطن السفينة ونام حتى علا نفسه فتقدم إليه الرئيس فقال له : ما بالك نائماً؟ قم وادع إلهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا .

وقال بعضهم لبعض : تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس فقالوا له : أخبرنا ماذا عملت : ومن أين جئت ؟ وإلى أين تمضي ؟ ومن أي كورة أنت ؟ ومن أي شعب أنت ؟ فقال لهم : أنا عبد الرب إله السماء خالق البر والبحر وأخبرهم خبره فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا له : لم صنعت ما صنعت؟ يلومونه على ذلك .

ثم قالوا له : ما نصنع الآن بك ؟ ليسكن البحر عنا ؟ فقال : ألقوني في البحر يسكن فإنه من أجلي صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردوه إلى البر فلم يستطيعوا فأخذوا يونس وألقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة فسكن البحر وأمر الله حوتاً عظيماً فابتلعه فبقي في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال وصلى في بطنه إلى ربه واستغاث به فأمر سبحانه الحوت فألقاه إلى اليبس ثم قال له : قم وامض إلى نينوى وناد في أهلها كما أمرتك من قبل .

فمضى عليه السلام ونادى وقال : يخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فآمنت رجال نينوى بالله ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعاً ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحاً وجلس على الرماد ونودي أن لا يذق أحد من الناس والبهائم طعاماً ولا شرابا وجأروا إلى الله تعالى ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله ولم ينزل بهم العذاب.

فحزن يونس وقال : إلهي من هذا هربت ، فإني علمت أنك الرحيم الرؤف الصبور التواب . يا رب خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة فقال : يا يونس حزنت من هذا جداً ؟ فقال : نعم يا رب .

وخرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة ؟ فأمر الله يقطيناً فصعد على رأسه ليكون ظلاً له من كربه ففرح باليقطين فرحاً عظيماً وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجف ثم هبت ريح

سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس فعظم الأمر عليه واستطاب الموت .

فقال الرب : يا يونس أحزنت جداً على اليقطين؟ فقال: نعم يا رب حزنت جداً فقال تعالى : حزنت عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فأنا لا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنا عشر ربوة من الناس قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائمهم كثيرة انتهى . وجهات اختلاف القصة مع ما يستفاد من القرآن الكريم ظاهرة كالفرار من الرسالة وعدم رضاه برفع العذاب عنهم مع علمه بإيمانهم وتوبتهم .

فإن قلت : نظير ذلك وارد في القرآن الكريم كنسبة الإباق إليه في سورة الصافات وكذا مغاضبته وظنه أن الله لن يقدر عليه على ما في سورة الأنبياء .

قلت : بين النسبتين فرق فكتبهم المقدسة أعني العهدين لا تأبى عن نسبة المعاصي حتى الكبائر الموبقة إلى الأنبياء عليهم السلام فلا موجب لتوجيه ما نسب من المعاصي إليه بما يخرج به عن كونه معصية بخلاف القرآن الكريم فإنه ينزه ساحتهم عن لوث المعاصي حتى الصغائر فما ورد فيه مما يوهم ذلك يحمل على أحسن الوجوه بهذه القرينة الموجبة ولذا حملنا قوله : « إذ أبق » وقوله : « مغاضباً فظن أن لن نقدر » على حكاية الحال وإيهام فعله .

٣ ـ **ثناؤه تعالى عليه:** أثنى الله سبحانه عليه بأنه من المؤمنين « سورة الأنبياء ٨٨ » وأنه اجتباه وقد عرفت أن اجتباءه إخلاصه العبد لنفسه خاصة ، وأنه جعله من الصالحين « سورة ن : ٥٠ » وعده في سورة الأنعام فيمن عده من الأنبياء وذكر أنه فضلهم على العالمين وأنه هداهم إلى صراط مستقيم « سورة الانعام : ٨٧ » .

﴿ بحث روائي ﴾

في الفقيه وقال الصادق عليه السلام : ما تقارع قوم ففوضوا أمرهم إلى الله عز وجل إلا خرج سهم الحق ، وقال : أي قضية أعدل من القرعة إذا فوض الأمر إلى الله . أليس الله عز وجل يقول : « فساهم فكان من المدحضين » .

وفي البحار عن البصائر بإسناده عن حبة العرني قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام إن الله عرض ولايتي على أهل السماوات وعلى أهل الأرض أقر بها من أقر وأنكرها من أنكر أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقر بها .

اقول : وفي معناه روايات أخر ، والمراد الولاية الكلية الإلهية التي هو عليه السلام أول من فتح بابها من هذه الأمة وهي قيامه تعالى مقام عبده في تدبير أمره فلا يتوجه العبد إلا إليه ولا يريد إلا ما أراده وذلك بسلوك طريق العبودية التي تنتهي بالعبد إلى أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره .

وكان ظاهر ما أتى به يونس عليه السلام مما لا يرتضيه الله تعالى فلم يكن قابلا للانتساب إلى إرادته فابتلاه الله بابتلاء ليعترف بظلمه على نفسه وأنه تعالى منزه عن إرادة مثله فالبلايا والمحن التي يبتلى بها الأولياء من التربية الالهية التي يربيهم بها ويكملهم ويرفع درجاتهم بسببها وإن كان بعضها من جهة أخرى مؤاخذة ذات عتاب ، وقد قيل البلاء للولاء .

ويؤيد ذلك ما عن العلل بإسناده عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام لأي علة صرف الله العذاب عن قوم يونس وقد أظلهم ولم يفعل ذلك بغيرهم من الأمم ؟ فقال : لأنه كان في علم الله أنه سيصرفه عنهم لتوبتهم وإنما ترك إخبار يونس بذلك لأنه أراد أن يفرغه لعبادته في بطن الحوت فيستوجب بذلك ثوابه وكرامته .

* * *

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ـ ١٤٩ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلٰئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ـ ١٥٠ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ـ ١٥١ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ـ ١٥٢ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ـ ١٥٣ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ـ ١٥٤ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ـ ١٥٥ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ـ ١٥٦ . فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ـ ١٥٧ .

وَجَعَلوا بَيْنَهُ وبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ـ ١٥٨ .
سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ـ ١٥٩ . إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ـ ١٦٠ .
فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ـ ١٦١ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ـ ١٦٢ . إِلاَّ
مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ـ ١٦٣ . وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ـ ١٦٤ .
وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ـ ١٦٥ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ـ ١٦٦ .
وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ـ ١٦٧ . لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ ـ ١٥٨ .
لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ـ ١٦٩ . فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ـ ١٧٠
وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ـ ١٧١ . إِنَّهُمْ لَهُمُ
الْمَنْصُورُونَ ـ ١٧٢ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ـ ١٧٣ . فَتَوَلَّ
عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ـ ١٧٤ . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ـ ١٩٥
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ـ ١٧٦ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ
الْمُنْذَرِينَ ـ ١٧٧ . وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ـ ١٧٨ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ـ ١٧٩ . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ـ ١٨٠ .
وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ـ ١٨١ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ ١٨٢ .

﴿ بيان ﴾

قدم سبحانه ما بين به أنه رب معبود ، عبده عباد مخلصون كالأنبياء المكرمين وكفر به آخرون فنجّى عباده وأخذ الكافرين بأليم العذاب . ثم تعرض في هذه الآيات لما يعتقدونه في آلهتهم وهم الملائكة والجن وأن الملائكة بنات الله وبينه وبين الجنة نسباً .

والوثنية البرهمية والبوذية والصابئة ما كانوا يقولون بأنوثة جميع الملائكة وإن قالوا بها في بعضهم لكن المنقول عن بعض قبائل العرب الوثنيين كجهينة وسليم وخزاعة وبني مليح القول بانوثة الملائكة جميعاً ، وأما الجن فالقول بانتهاء نسبهم إليه في الجملة منقول عن الجميع .

وبالجملة يشير تعالى في الآيات إلى فساد قولهم ثم يبشر النبي ﷺ بالنصر ويهددهم بالعذاب ، ويختم السورة بتنزيه تعالى والتسليم على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون » حلل سبحانه قولهم : إن الملائكة بنات الله إلى ما يستلزمه من اللوازم وهي أن الملائكة أولاده ، وأنهم بنات ، وأنه تعالى خص نفسه بالبنات وهم مخصوصون بالبنين ثم رد هذه اللوازم واحداً بعد واحد فرد قولهم : إن له البنات ولهم البنين بقوله : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون » وهو استفهام إنكاري لقولهم بما يلزمه من تفضيلهم على الله لما أنهم يفضلون البنين على البنات ويتنزهون منهن ويئدونهن .

قوله تعالى : « أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون » أم منقطعة أي بل أخلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون يشهدون خلقهم ولم يكونوا شاهدين خلقهم ولا لهم أن يدّعوا ذلك ، والذكورة والانوثة مما لا يثبت إلا بنوع من الحس ، وهذا رد لقولهم بانوثة الملائكة .

قوله تعالى : « ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون » رد لقولهم بالولادة بأنه من الإفك أي صرف القول عن وجهه إلى غير وجهه أي من الحق إلى الباطل فيوجهون خلقهم بما يعدونه ولادة ويعبّرون عنه بها فهم آفكون كاذبون .

قوله تعالى : « أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون »

كرر الإنكار على اصطفاء البنات من بين لوازم قولهم لشدة شناعته .

ثم وبخهم بقوله : « مالكم كيف تحكمون » لكون قولهم حكماً من غير دليل ثم عقبه بقوله: « أفلا تذكّرون » توبيخاً وإشارة إلى أن قولهم ذلك ـ فضلاً عن كونه مما لا دليل عليه ـ الدليل على خلافه ولو تذكّروا لانكشف لهم فقد تنزهت ساحته تعالى عن أن يتجزى فيلد أو يحتاج فيتخذ ولداً ، وقد احتج عليهم بذلك في مواضع من كلامه .

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على اشتداد السخط الموجب لتوبيخهم شفاهاً.

قوله تعالى : « أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » أم منقطعة والمراد بالسلطان وهو البرهان كتاب نازل من عند الله سبحانه يخبر فيه أن الملائكة بناته على ما يعطيه السياق إذ لما لم يثبت بعقل أو حس بقي أن يثبت بكتاب من عند الله نازل بالوحي فلو كانت دعواهم حقة وهم صادقون فيها كان لهم أن يأتوا بالكتاب .

وإضافة الكتاب إليهم بعناية فرضه دالاً على دعواهم .

قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » جعل النسب بينه وبين الجنة قولهم : إن الجنة أولاده وقد تقدم تفصيل قولهم في تفسير سورة هود في الكلام على عبادة الأصنام .

وقوله : « ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » أي للحساب أو للنار على ما يفيده إطلاق « لمحضرون » وكيف كان فهم يعلمون أنهم مربوبون لله سيحاسبهم ويجازيهم بما عملوا فبينهم وبين الله سبحانه نسبة الربوبية والعبودية لا نسب الولادة ومن كان كذلك لا يستحق العبادة .

ومن الغريب قول بعضهم: إن المراد بالجنة طائفة من الملائكة يسمون بها ولازمه إرجاع ضمير « إنهم » إلى الكفار دون الجنة . وهو مما لا شاهد له من كلامه تعالى مضافاً إلى بعده من السياق .

قوله تعالى : « سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين » ضمير « يصفون » ـ نظراً إلى اتصال الآية بما قبلها ـ راجع إلى الكفار المذكورين قبل ، والاستثناء منه

منقطع والمعنى هو منزه عن وصفهم ـ أو عما يصفه الكفار به من الأوصاف كالولادة والنسب والشركة ونحوها ـ لكن عباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفاً يليق به ـ أو بما يليق به من الأوصاف ـ .

وقيل : إنه استثناء منقطع من ضمير «لمحضرون» ، وقيل : من فاعل «جعلوا» وما بينهما من الجمل المتخللة اعتراض ، وهما وجهان بعيدان .

وللآيتين باستقلالها معنى أوسع من ذلك وأدق وهو رجوع ضمير « يصفون » إلى الناس ، والوصف مطلق يشمل كل ما يصفه به واصف ، والاستثناء متصل والمعنى هو منزه عن كل ما يصفه الواصفون إلا عباد الله المخلصين .

وذلك أنهم إنما يصفونه بمفاهيم محدودة عندهم وهو سبحانه غير محدود لا يحيط به حد ولا يدركه نعت فكلما وصف به فهو أجل منه وكل ما توهم أنه هو فهو غيره لكن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه وخصهم بنفسه لا يشاركه فيهم أحد غيره فعرفهم نفسه وأنساهم غيره يعرفونه ويعرفون غيره به فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق بساحة كبريائه وإذا وصفوه بألسنتهم ـ والألفاظ قاصرة والمعاني محدودة ـ اعترفوا بقصور البيان وأقروا بكلال اللسان كما قال النبي ﷺ وهو سيد المخلصين : لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك [1] فافهم ذلك .

قوله تعالى : « فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم » تفريع على حكم المستثنى والمستثنى منه أو المستثنى خاصة ، والمعنى لما كان ما وصفتموه ضلالا ـ وعباد الله المخلصون لا يضلون في وصفهم ـ فلستم بمضلين به إلا سالكي سبيل النار .

والظاهر من السياق أن «ما» في «ما تعبدون» موصولة والمراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام وآلهة الضلال كشياطين الجن ، و «ما» في «ما أنتم» نافية ، وضمير «عليه» لله سبحانه والظرف متعلق بفاتنين ، وفاتنين اسم فاعل من الفتنة بمعنى الإضلال و « صالي » من الصلو بمعنى الاتباع فصالي الجحيم هو المتبع للجحيم السالك سبيل النار ، والاستثناء مفرغ تقديره ما أنتم بفاتنين أحداً إلا من هو صال الجحيم .

---

(١) فقد أثنى على الله وتمم نقصه بأنه يريد ما يريده الله من الثناء على نفسه .

والمعنى فإنكم وآلهة الضلال التي تعبدونها لستم جميعاً بمضلين أحداً على الله إلا من هو متبع الجحيم .

وقيل : إن « ما » الاولى مصدرية أو موصولة وجملة «فإنكم وما تعبدون كلام» تام مستقل من قبيل قولهم : أنت وشأنك والمعنى فإنكم ومـا تعبدون متقارنان ثم استونف وقيل : « ما أنتم عليه بفاتنين » و «فاتنين» مضمن معنى الحمل وضمير «عليه» راجع إلى«ما تعبدون» ان كانت ما مصدرية والى «ما» بتقدير مضاف ان كانت موصولة والمعنى ما أنتم بحاملين على عبادتكم أو على عبادة ما تعبدونه الا من هو صال الجحيم.

قيل : ويمكن أن يكون « على » بمعنى الباء والضمير لما تعبدون أو لما ان كانت موصولة و « فاتنين » على ظاهر معناه من غير تضمين ، والمعنى ما أنتم بمضلين أحداً بعبادتكم أو بعبادة ما تعبدونه الا « الخ » .

وهذه كلها تكلفات من غير موجب. والكلام فيما في الآية من الالتفات كالكلام فيما سبق منه .

قوله تعالى: «وما منا الا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون» الآيات الثلاث – على ما يعطيه السياق – اعتراض من كلام جبريل أو هو وأعوانه من ملائكة الوحي نظير قوله تعالى في سورة مريم : « وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك » الخ مريم : ٦٤ .

وقيل : حكي من كلام الرسول ﷺ يصف نفسه والمؤمنين به للكافرين تبكيتاً لهم وتقريعاً وهو متصل بقوله : « فاستفتهم » والتقدير فاستفتهم وقل : ما منا معشر المسلمين إلا له مقام معلوم على قدر أعماله يوم القيامة وإنا لنحن الصافون في الصلاة وإنا لنحن المسبحون . وهو تكلف لا يلائمه السياق .

والآيات الثلاث مسوقة لرد قولهم بالوهية الملائكة بإيراد نفس اعترافهم بما ينتفي به قول الكفار وهم لا ينفون العبودية عن الملائكة بل يرون أنهم مربوبون لله سبحانه أرباب وآلهة لمن دونهم يستقلون بالتصرف فيما فوض إليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شيء من هذا التدبير إلى الله سبحانه وهذا هو الذي ينفيه الملائكة عن أنفسهم لا كونهم أسباباً متوسطة بينه تعالى وبين خلقه كما قال تعالى «بل عباد مكرمون

لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

فقوله : « وما منا إلا له مقام معلوم » أي معين مشخص أقيم فيه ليس له أن يتعداه بأن يفوض إليه أمر فيستقل فيه بل مجبول على طاعة الله فيما يأمر به وعبادته .

وقوله : « وإنا لنحن الصافون » أي نصف عند الله في انتظار أوامره في تدبير العالم لنجريها على ما يريد . كما قال تعالى : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » هذا ما يفيده السياق ، وربما قيل : إن المراد إنا نصف للصلاة عند الله وهو بعيد من الفهم لا شاهد عليه .

وقوله : « وإنا لنحن المسبحون » أي المنزهون له تعالى عما لا يليق بساحة كبريائه كما قال تعالى : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » الأنبياء : ٢٠ .

فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكة في الخلقة وعملهم المناسب لخلقتهم وهو الاصطفاف لتلقي أمره تعالى والتنزيه لساحة كبريائه عن الشريك وكل ما لا يليق بكمال ذاته المتعالية .

قوله تعالى : « وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين » رجوع إلى السياق السابق .

والضمير في قوله : « وإن كانوا ليقولون » لقريش ومن يتلوهم ، و « إن » مخففة من الثقيلة ، والمراد بذكر من الأولين كتاب سماوي من جنس الكتب النازلة على الأولين .

والمعنى لو أن عندنا كتاباً سماوياً من جنس الكتب النازلة قبلنا على الأولين لاهتدينا وكنا عباد الله المخلصين يريدون أنهم معذورون لو كفروا لعدم قيام الحجة عليهم من قبل الله سبحانه .

وهذا في الحقيقة هفوة منهم فإن مذهب الوثنية يحيل النبوة والرسالة ونزول الكتاب السماوي .

قوله تعالى : «فكفروا به فسوف يعلمون » الفاء فصيحة ، والمعنى فأنزلنا عليهم الذكر وهو القرآن الكريم فكفروا به ولم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم

وهذا تهديد منه تعالى لهم .

قوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون » كلمته تعالى لهم قوله الذي قاله فيهم وهو حكمه وقضاؤه في حقهم وسبق الكلمة تقدمها عهداً أو تقدمها بالنفوذ والغلبة واللام تفيد معنى النفع أي إنا قضينا قضاء محتوماً فيهم أنهم لهم المنصورون وقد أكد الكلام بوجوه من التأكيد .

وقد أطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخرة أو بنحو آخر بل القرينة على خلافه قال تعالى : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» المؤمن : ٥١ .

فالرسل عليهم السلام منصورون في الحجة لأنهم على الحق والحق غير مغلوب .

وهم منصورون على أعدائهم اما بإظهارهم عليهم واما بالانتقام منهم قال تعالى: « وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى ـ الى أن قال ـ حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » يوسف : ١١٠ .

وهم منصورون في الآخرة كما قال تعالى : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » التحريم : ٨ ، وقد تقدم آنفاً آية في سورة المؤمن في هذا المعنى .

قوله تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » الجند هو المجتمع الغليظ ولذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنى من الحزب[١] وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » المائدة : ٥٦ .

والمراد بقوله : « جندنا » هو المجتمع المؤتمر بأمره المجاهد في سبيله وهم المؤمنون خاصة أو الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين وفي الكلام على التقدير الثاني تعميم بعد التخصيص ، وكيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيهم من الأنبياء قال تعالى : «ولا

---

(١) قال تعالى : « اذ جاءتكم جنود » الاحزاب : ٩ وقال فيهم بعينهم : « ولما رأى المؤمنون الاحزاب » الاحزاب : ٢٢ .

تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » آل عمران : ١٣٩ وقد مر بعض الآيات الدالة عليه آنفاً .

والحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعي منوط على العنوان لا غير أي إن الرسل وهم عباد أرسلهم الله والمؤمنون وهم جند لله يعملون بأمره ويجاهدون في سبيله ما داموا على هذا النعت منصورون غالبون ، وأما اذا لم يبق من الإيمان الا اسمه ومن الانتساب الا حديثه فلا ينبغي أن يرجي نصر ولا غلبة .

قوله تعالى: «فتول عنهم حتى حين» تفريع على حديث النصر والغلبة ففيه وعد للنبي ﷺ بالنصر والغلبة وايعاد للمشركين ولقريش خاصة .

والأمر بالإعراض عنهم ثم جعله مغيا بقوله : « حتى حين » يلوح الى أن الأمد غير بعيد وكان كذلك فهاجر النبي ﷺ بعد قليل وأباد الله صناديد قريش في غزوة بدر وغيرها .

قوله تعالى : « وأبصرهم فسوف يبصرون » الأمر بالإبصار والإخبار بإبصارهم عاجلا وعطف الكلام على الأمر بالتولي معجلا يفيد بحسب القياس أن المعنى أنظرهم وأبصر ما هم عليه من الجحود والعناد قبال انذارك وتخويفك فسوف يبصرون وبال جحودهم واستكبارهم .

قوله تعالى : « أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » توبيخ لهم لاستعجالهم وقولهم : متى هذا الوعد ؟ متى هذا الفتح ؟ وإيذان بأن هذا العذاب مما لا ينبغي أن يستعجل لأنه يعقب يوماً بئيساً وصباحا مشؤما .

ونزول العذاب بساحتهم كناية عن نزوله بهم على نحو الشمول والإحاطة ، وقوله : « فساء صباح المنذرين » أي بئس صباحهم صباحا ، والمنذرون هم المشركون من قريش .

قوله تعالى : « وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون » تأكيد لما مر بتكرار الآيتين على ما قيل ، واحتمل بعضهم أن يكون المراد بما تقدم التهديد بعذاب الدنيا وبهذا ، التهديد بعذاب الآخرة . ولا يخلو من وجه فإن الواقع في الآية « وأبصر»

من غير مفعول كما في الآية السابقة من قوله : « وأبصرهم » والحذف يشعر بالعموم وأن المراد إبصار ما عليه عامة الناس من الكفر والفسوق ويناسبه التهديد بعذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » تنزيه له تعالى عما يصفه به الكفار المخالفون لدعوة النبي ﷺ مما تقدم ذكره في السورة .

والدليل عليه إضافة التنزيه إلى قوله : « ربك » أي الرب الذي تعبده وتدعو إليه ، وإضافة الرب ثانيا إلى العزة المفيد لاختصاصه تعالى بالعزة فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذله مذل ولا يغلبه غالب ولا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحق المهددون بالعذاب ليسوا له بمعجزين .

قوله تعالى : « وسلام على المرسلين » تسليم على عامة المرسلين وصون لهم من أن يصيبهم من قبله تعالى ما يسوؤهم ويكرهونه .

قوله تعالى : « والحمد لله رب العالمين » تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج محمد بن نصر وابن عساكر عن العلاء بن سعيد أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه : أطّت السماء وحق لها أن تئط ، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد . ثم قرء « وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » .

أقول : وروي هذا المعنى عنه ﷺ بغير هذا الطريق .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: استووا تقدم يا فلان تأخر يا فلان أقيموا صفوفكم يريد الله بكم هدي الملائكة ثم يتلو : « وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » .

وفي نهج البلاغة قال عليه‌السلام في وصف الملائكة: وصافون لا يتزايلون ومسبحون لا يسأمون .

سورة ص : مكية وهي ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ـ ١ . بَلِ
الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ـ ٢ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ
فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ـ ٣ . وَعَجِبُوا أَنْ جَآءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ
وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ـ ٤ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً
إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ـ ٥ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا
عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ـ ٦ . مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ
إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ـ ٧ . ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ
فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ـ ٨ . أَمْ عِنْدَهُمْ
خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ـ ٩ . أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ـ ١٠ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ
مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ـ ١١ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
ذُو الْأَوْتَادِ ـ ١٢ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْئَيْكَةِ أُولٰئِكَ
الْأَحْزَابُ ـ ١٣ . إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ـ ١٤ .
وَمَا يَنْظُرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ ـ ١٥ . وَقَالُوا
رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ـ ١٦ .

﴿ بيان ﴾

يدور الكلام في السورة حول كون النبي ﷺ منذراً بالذكر النـازل عليه من عند الله سبحانه الداعي إلى التوحيد وإخلاص العبودية له تعالى .

فتبدء بذكر اعتزاز الكفار وشقاقهم وبالجملة استكبارهم عن اتباعه والإيمـان به وصد الناس عنه وتفوههم بباطل القول في ذلك ورده في فصل .

ثم تأمر النبي ﷺ بالصبر وذكر قصص عبـاده الأولين في فصل ثم يذكر مآل حال المتقين والطاغين في فصل . ثم تأمر النبي ﷺ بإبلاغ نذارته ودعوته إلى توحيد الله وأن مآل اتباع الشيطان إلى النار على ما قضى به الله يوم أمر الملائكة بالسجدة لآدم فأبى إبليس فرجمه وقضى عليه وعلى من تبعه النار . في فصل .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « صۤ والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق» المراد بالذكر ذكر الله تعالى بتوحيده وما يتفرع عليه من المعـارف الحقة من المعاد والنبوة وغيرهما ، والعزة الامتناع ، والشقاق المخالفة ، قال في مجمع البيان: وأصله أن يصير كل من الفريقين في شق أي في جانب ومنه يقال : شق فلان العصا إذا خالف انتهى .

والمستفاد من سياق الآيات أن قوله : «والقرآن ذي الذكر» قسم نظير ما في قوله: « يس والقرآن الحكيم » « قۤ والقرآن المجيد » « نۤ والقلم » لا عطف على ما تقدمه» وأما المقسم عليه فالذي يدل عليه الإضراب في قوله: «بل الذين كفروا في عزة وشقاق أنه أمر يمتنع عن قبوله القوم ويكفرون به عزة وشقاقا وقد هلك فيه قرون كثيرة ثم ذكر إنذار النبي ﷺ وما قاله الكفار عليه وما أمرهم به ملؤهم حول إنذاره ﷺ أنه أعني المقسم عليه نحو من قولنا : إنك لمن المنذرين ، ويشهد على ذلك أيضاً التعرض في السورة بإنذاره ﷺ بالذكر مرة بعد اخرى .

وقد قيـــل في قوله : « صۤ والقرآن ذي الذكر » من حيث الإعراب والمعنى وجوه كثيرة لا محصل لأكثرها تركنا إيرادها لعدم الجدوى .

والمعنى ـ والله أعلم ـ اقسم بالقرآن المتضمن للذكر ـ إنك لمن المنذرين ـ بل الذين كفروا في امتناع عن قبوله واتباعه ومخالفة له .

قوله تعالى: « كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص » القرن أهل عصر واحد ، والمناص بالنون مصدر ناص ينوص أي تأخر كما أنه بالباء الموحدة بمعنى التقدم على ما في المجمع وقيل : هو بمعنى الفرار .

والمعنى: كثيراً ما أهلكنا من قبل هؤلاء الكفار من قرن وامة بتكذيبهم الرسل المنذرين فنادوا عند نزول العذاب بالويل كقولهم : يا ويلنا إنا كنا ظالمين أو بالاستغاثة بالله سبحانه وليس الحين حين تأخر الأخذ والعذاب أو ليس الحين حين فرار .

قوله تعالى: «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب» أي تعجبوا من مجيء منذر من نوعهم بأن كان بشرا فإن الوثنية تنكر رسالة البشر .

وقوله : « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » يشيرون بهذا إلى النبي ﷺ يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به وهو القرآن ، وبالكذب لزعمهم أنه يفتري على الله بنسبة القرآن وما فيه من المعارف الحقة إليه تعالى .

قوله تعالى : «أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب » العجاب بتخفيف الجيم اسم مبالغة من العجب وهو بتشديد الجيم أبلغ .

وهو من تتمة قول الكافرين والاستفهام للتعجيب والجعل بمعنى التصيير وهو كما قيل تصيير بحسب القول والاعتقاد والدعوى لا بحسب الواقع كما في قوله تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا » الزخرف : ١٩ فمعنى جعله ﷺ الآلهة إلها واحدا هو إبطاله الوهية الآلهة من دون الله وحكمه بأن الإله هو الله لا إله إلا هو .

قوله تعالى : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد » نسبة الانطلاق إلى ملإهم وأشرافهم وقولهم ما قالوا يلوح إلى أن أشراف قريش اجتمعوا على النبي ﷺ ليحلوا مشكلة دعوته إلى التوحيد ورفض الآلهة بنوع من الاستمالة وكلموه في ذلك فما وافقهم في شيء منه ثم انطلقوا وقال بعضهم لبعض أو قالوا

لأتباعهم أن امشوا واصبروا « الخ »وهذا يؤيد ما ورد في أسباب النزول مما سيجيء في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

وقوله : « أن امشوا واصبروا على آلهتكم » بتقدير القول أي قائلين أن امشوا واصبروا على آلهتكم ولا تتركوا عبادتها وإن عابها وقدح فيها ، وظاهر السياق أن القول قول بعضهم لبعض ، ويمكن أن يكون قولهم لتبعتهم .

وقوله : « إن هذا لشيء يراد » ظاهره أنه إشارة إلى ما يدعو إليه النبي ﷺ ويطلبه وأن مطلوبه شيء يراد بالطبع وهو السيادة والرئاسة وإنما جعل الدعوة ذريعة إليه فهو نظير قول الملإ من قوم نوح لعامتهم : « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » المؤمنون : ٢٤ .

وقيل : المعنى إن هذا الذي شاهدناه من إصراره ﷺ على ما يطلبه وتصلبه في دينه لشيء عظيم يراد من قبله .

وقيل : المعنى أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا حيلة إلا إن تمشوا وتصبروا .

وقيل : المعنى إن الصبر خلق محمود يراد منا في مثل هذه الموارد ، وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة لا يلائمها السياق .

قوله تعالى : « ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » أرادوا بالملة الآخرة المذهب الذي تداوله الآخرون من الامم المعاصرين لهم أو المقارنين لعصرهم قبال الملل الاولى التي تداولتها الأولون كأنهم يقولون : ليس هذا من الملة الآخرة التي يرتضيها أهل الدنيا اليوم بل من أساطير الأولين .

وقيل: المراد بالملة الآخرة النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يقولون بالتوحيد بل بالتثليث . وضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانية وقع عندهم كالإسلام .

وقوله : « إن هذا إلا اختلاق » أي كذب وافتعال .

قوله تعالى : « ءأنزل عليه الذكر من بيننا » استفهام إنكاري بداعي التكذيب أي لا مرجح عند محمد ﷺ يترجح به علينا فينزل عليه الذكر دوننا فهو في إنكار

الاختصاص بنزول الذكر نظير قولهم : ما أنت إلا بشر مثلنا في نفي الاختصاص بالرسالة .

قوله تعالى : « بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب » إضراب عن جميع ما قالوه أي إنهم لم يقولوا عن إيمان واعتقاد به بل هم في شك من ذكري وهو القرآن .

وليس شكهم فيه من جهة خفاء دلالة آية النبوة وقصورها عن إفادة اليقين بل تعلق قلوبهم بما عندهم من الباطل ولزومهم التقليد يصرفهم عن النظر في دلالة الآية الإلهية المعجزة فشكوا في الذكر والحال أنه آية معجزة .

وقوله : « بل لما يذوقوا عذاب » إضراب عن الإضراب أي ليس إنكارهم وعدم إيمانهم به عن شك منهم فيه بل لأنهم لعتوهم واستكبارهم لا يعترفون بحقيته ولو لم يكن شك ، حتى يذوقوا عذابي فيضطروا إلى الاعتراف كما فعل غيرهم .

وفي قوله : « لما يذوقوا عذاب » أي لم يذوقوا بعد عذابي ، تهديد بعذاب واقع .

قوله تعالى : « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب » الكلام في موقع الإضراب و «أم» منقطعة والكلام ناظر إلى قولهم : « ما أنزل عليه الذكر من بيننا » أي بل أعندهم خزائن رحمة ربك التي ينفق منها على من يشاء حتى يمنعوك منها بل هي له تعالى وهو أعلم حيث يجعل رسالته ويخص برحمته من يشاء .

وتذييل الكلام بقوله : « العزيز الوهاب » لتأييد محصل الجملة أي ليس عندهم شيء من خزائن رحمته لأنه عزيز منيع جانبه لا يداخل في أمره أحد ، ولا لهم أن يصرفوا رحمته عن أحد لأنه وهاب كثير الهبات .

قوله تعالى : « أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب » « أم » منقطعة ، والأمر في قوله : « ليرتقوا » للتعجيز والارتقاء الصعود ، والأسباب المعارج والمناهج التي يتوسل بها إلى الصعود إلى السماوات ويمكن أن يراد بارتقاء لأسباب التسبب بالعلل والحيل الذي يحصل به لهم المنع والصرف .

والمعنى: بل أنهم ملك السماوات والأرض فيكون لهم أن يتصرفوا فيها فيمنعوا

نزول الوحي السماوي إلى بشر أرضي فإن كان كذلك فليصعدوا معارج السماوات أو فليتسببوا الأسباب وليمنعوا من نزول الوحي عليك.

قوله تعالى: «جندما هنالك مهزوم من الأحزاب» الهزيمة الخذلان و «من الأحزاب» بيان لقوله: «جندما» و «ما» للتقليل والتحقير، والكلام مسوق لتحقير أمرهم رغماً لما يشعر به ظاهر كلامهم من التعزز والإعجاب بأنفسهم.

يدل على ذلك تنكير «جند» وتتميمه بلفظة «ما» والإشارة إلى مكانتهم بهنالك الدال على البعيد وعدهم من الأحزاب المتحزبين على الرسل الذين قطع الله دابر الماضين منهم كما سيذكر ولذلك عد هذا الجند مهزوماً قبل انهزامهم.

والمعنى: هم جندما أقلاء أذلاء منهزمون هنالك من اولئك الأحزاب المتحزبين على الرسل الذين كذبوهم فحق عليهم عقابي.

قوله تعالى: «كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ـ إلى قوله ـ فحق عقاب» ذو الأوتاد وصف فرعون والأوتاد جمع وتد وهو معروف. قيل: سمي بذي الأوتاد لانه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها، وقيل: لأنه كان يعذب من غضب عليه من المجرمين بالأوتاد يوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض فيعذبه وقيل: معناه ذو الجنود أوتاد الملك، وقيل: غير ذلك من الوجوه، ولا دليل على شيء منها يعول عليه.

وأصحاب الأيكة قوم شعيب وقد تقدم في سورة الحجر والشعراء، وقوله: «فحق عقاب» أي ثبت في حقهم واستقر فيهم عقابي فأهلكتهم.

قوله تعالى: «وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق» النظر الانتظار والفواق الرجوع والمهلة اليسيرة، والمعنى وما ينتظر هؤلاء المكذبون من امتك إلا صيحة واحدة تقضي عليهم وتهلكهم مالها من رجوع أو مهلة وهي عذاب الاستئصال.

قالوا: والمراد من الصيحة صيحة يوم القيامة لأن امة محمد ﷺ مؤخر عنهم العذاب إلى قيام الساعة، وقد عرفت في تفسير سورة يونس أن ظاهر آيات الكتاب يعطي خلاف ذلك فراجع.

قوله تعالى : « وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » القط النصيب والحظ ، وهذه الكلمة استعجال منهم للعذاب قبل يوم القيامة استهزاء بحديث يوم الحساب والوعيد بالعذاب فيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا . إن ابن اخيك قد آذانا وآذى آلهتنا فادعه ومره فليكف عن آلهتنا ونكف عن إلهه .

قال : فبعث أبو طالب إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فدعاه فلما دخل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله لم ير في البيت إلا مشركا فقال : السلام على من اتبع الهدى ثم جلس فخبره أبو طالب بما جاؤا به فقال: أوهل لهم في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب ويطأون أعناقهم؟ فقال أبو جهل : نعم وما هذه الكلمة ؟ قال : تقولون : لا إله إلا الله .

قال : فوضعوا أصابعهم في آذانهم وخرجوا وهم يقولون : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق فأنزل الله في قولهم ص والقرآن ذي الذكر ـ إلى قوله ـ إلا اختلاق .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم » قال : لما أظهر رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله الدعوة اجتمعت قريش إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب إن إبن أخيك قد سفه أحلامنا وسب آلهتنا وأفسد شبابنا وفرق جماعتنا فإن كان الذي يحمله على ذلك العدم جمعنا له مالاً حتى يكون أغنى رجل في قريش ونملكه علينا .

فاخبر أبو طالب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بذلك فقال : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما أردته ولكن يعطوني كلمة يملكون بها العرب ويدين لهم بها العجم و يكونون ملوكا في الجنة فقال لهم أبو طالب ذلك فقالوا : نعم وعشر كلمات فقال لهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله تشهدون أن لا إله الا الله وأني رسول الله فقالوا : ندع ثلاث مائة وستين إلها ونعبد إلهاً واحداً ؟

فأنزل الله سبحانه: «بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ـ إلى قوله ـ إلا اختلاق» أي تخليط « «أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري ـ إلى قوله ـ من الأحزاب » يعني الذين تحزبوا عليه يوم الأحزاب .

أقول : والقصة مروية من طرق أهل السنة أيضاً وفي بعض رواياتهم أنه ﷺ لما عرض عليهم كلمة التوحيد قالوا له : سلنا غير هذه قال : لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها فغضبوا وقالوا والكلمة كناية عن تمليكهم إياه زمام نظام العالم الأرضي فإن الشمس والقمر من أعظم المؤثرات فيه، وقد أخذ علماً يظهران للحسن من القدر ليصح ما أريد من التمثيل.

وفي العلل بإسناده إلى إسحاق بن عمار قال : سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام كيف صارت الصلاة ركعة وسجدتين ؟ وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين ؟ فقال : إذا سألت عن شيء ففرغ قلبك لتفهم . إن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إنما صلاها في السماء بين يدي الله تبارك وتعالى قدام عرشه .

وذلك أنه لما أسري به وصار عند عرشه قال يا محمد أدن من صاد فاغسل مساجدك وطهرها وصل لربك فدنا رسول الله ﷺ إلى حيث أمره الله تبارك وتعالى فتوضأ واسبغ وضوءه .

قلت : جعلت فداك وما صاد الذي أمر أن يغتسل منه؟ فقال : عين تنفجر من ركن من أركان العرش يقال له ماء الحيوان وهو ما قال الله عز وجل : « ص والقرآن ذي الذكر » الحديث .

أقول : وروى هذا المعنى أعني أن ص نهر يخرج من ساق العرش في المعاني عن سفيان الثوري عن الصادق عليه السلام ، وروي ذلك في مجمع البيان عن ابن عباس أنه اسم من أسماء الله تعالى قال : وروي ذلك عن الصادق عليه السلام .

وفي المعاني بإسناده الى الأصبغ عن علي عليه السلام في قول الله عز وجل : « وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » قال : نصيبهم من العذاب .

* * *

إِصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ
أَوّٰابٌ - ١٧ . إِنّٰا سَخَّرْنَا الْجِبٰالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرٰاقِ - ١٨ .
وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ ١٩ وَشَدَدْنٰا مُلْكَهُ وَآتَيْنٰاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطٰابِ - ٢٠ . وَهَلْ أَتٰاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
الْمِحْرٰابَ - ٢١ . إِذْ دَخَلُوا عَلىٰ دٰاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قٰالُوا لاٰ تَخَفْ
خَصْمٰانِ بَغىٰ بَعْضُنٰا عَلىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَلاٰ تُشْطِطْ
وَاهْدِنٰا إِلىٰ سَوٰاءِ الصِّرٰاطِ - ٢٢ . إِنَّ هٰذٰا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ
نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وٰاحِدَةٌ فَقٰالَ أَكْفِلْنِيهٰا وَعَزَّنِي فِي الْخِطٰابِ - ٢٣ .
قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِكَ إِلىٰ نِعٰاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ
الْخُلَطٰاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ
وَقَلِيلٌ مٰا هُمْ وَظَنَّ دٰاوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رٰاكِعاً
وَأَنٰابَ - ٢٤ . فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ وَحُسْنَ
مَآبٍ - ٢٥ . يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ
النّٰاسِ بِالْحَقِّ وَلاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ
يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ - ٢٦ .

وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ـ ٢٧ . أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ـ ٢٨ . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ـ ٢٩ .

﴿ بيان ﴾

لما حكى سبحانه عن المشركين رميهم النبي ﷺ ودعوته الحقة باختلاق وأنها ذريعة الى التقدم والرئاسة وأنه لا مرجح له عليهم حتى يختص بالرسالة والإنذر . ثم استهزائهم بيوم الحساب وعذابه الذي ينذرون به ؛ أمر النبي ﷺ بالصبر وأن لا يزلز له هفواتهم ولا توهن عزمه وأن يذكر عدة من عباده الأوابين له الراجعين اليه فيما دهمهم من الحوادث .

وهؤلاء تسعة من الأنبياء الكرام ذكرهم الله سبحانه : داود وسليمان وأيوب ابراهيم واسحاق ويعقوب واسماعيل واليسع وذو الكفل عليهم السلام ، وبدء بداود عليه السلام وذكر بعض قصصه.

قوله تعالى : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب » الأيد القوة وكان عليه‌السلام ذا قوة في تسبيحه تعالى يسبح ويسبح معه الجبال والطير وذا قوة في ملكه وذا قوة في علمه وذا قوة وبطش في الحروب وقد قتل جالوت الملك كما قصه الله في سورة البقرة .

والأواب اسم مبالغة من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به كثرة رجوعه إلى ربه.

قوله تعالى : « انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق » الظاهر أن « معه » متعلق بقوله : « يسبحن » وجملة « معه يسبحن » بيان لمعنى التسخير وقدم الظرف لتعلق العناية بتبعيتها لداد واقتدائها به في التسبيح لكن قوله تعالى في موضع

آخر : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » الأنبياء : ٧٩ يؤيد تعلق الظرف بسخرنا ، وقد وقع في موضع آخر من كلامه تعالى : « يا جبال أوبي معه والطير » سبأ : ١٠ . والعشي والإشراق الرواح والصباح .

وقوله : «انا سخرنا» الخ « ان » فيه للتعليل والآية وما عطف عليها من الآيات بيان لكونه صلى الله عليه وآله ذا ايد في تسبيحه وملكه وعلمه وكونه أوابا إلى ربه .

قوله تعالى : « والطير محشورة كل له اواب » المحشورة من الحشر بمعنى الجمع بإزعاج أي وسخرنا معه الطير مجموعة له تسبح معه .

وقوله : « كل له أواب » استئناف يقرر ما تقدمه من تسبيح الجبال والطير أي كل من الجبال والطير أواب أي كثير الرجوع إلينا بالتسبيح فإن التسبيح من مصاديق الرجوع إليه تعالى . ويحتمل رجوع ضمير « له » إلى داود على بعد .

ولم يكن تأييد داود عليه السلام في أصل جعله تعالى للجبال والطير تسبيحا فإن كل شيء مسبح لله سبحانه قال تعالى: « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى: ٤٤ بل في موافقة تسبيحها لتسبيحه وقرع تسبيحها أسماع الناس وقد تقدم كلام في معنى تسبيح الأشياء لله سبحانه في تفسير قوله تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده » الآية وأنه بلسان القال دون لسان الحال .

قوله تعالى : « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » قال الراغب: الشد العقد القوي يقال : شددت الشيء قويت عقده . انتهى فشد الملك من الاستعارة بالكناية والمراد به تقوية الملك وتحكيم أساسه بالهيبة والجنود والخزائن وحسن التدبير وسائر ما يتقوى به الملك .

والحكمة في الأصل بناء نوع من الحكم والمراد بها المعارف الحقة المتقنة التي تنفع الإنسان وتكمله ، وقيل: المراد النبوة ، وقيل الزبور وعلم الشرائع ، وقيل غير ذلك وهي وجوه ردية .

وفصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبة واحد لغيره وتمييز حقه من باطله وينطبق على القضاء بين المتخاصمين في خصامهم .

وقيل : المراد به الكلام القصد ليس بإيجازه مخلا ولا بإطنابه مملا ، وقيل : فصل الخطاب قول أما بعد فهو عليه السلام أول من قال : أما بعد ، والآية التالية « وهل أتاك نبؤ الخصم » الخ تؤيد ما قدمناه .

قوله تعالى : « وهـــل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب » الخصم مصدر كالخصومة اريد به القوم الذي استقر فيهم الخصومة ، والتسور الارتقاء إلى أعلى السور وهو الحائط الرفيع كالتسنم بمعنى الارتقاء إلى سنام البعير والتذري بمعنى الارتقاء إلى ذروة الجبل ، وقد فسر المحراب بالغرفة والعلية ، والاستفهام للتعجيب والتشويق إلى استماع الخبر .

والمعنى هل أتاك يا محمد خبر القوم المتخاصمين إذ علوا سور المحراب محراب داود عليه السلام .

قوله تعالى : « إذ دخلوا على داود ففزع منهم » إلى آخر الآية لفظة «إن» هذه ظرف لقوله: « تسو روا » كما أن « إذ » الاولى ظرف لقوله : « نبؤ الخصم » ومحصل المعنى أنهم دخلوا على داود وهو في محرابه لا من الطريق العادي بل بتسوره بالإرتقاء إلى سوره والورود عليه منه ولذا فزع منهم لما رآهم دخلوا عليه من غير الطريق العادي وبغير إذن .

وقوله : « ففزع منهم » قال الراغب : الفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع ولا يقال: فزعت من الله كما يقال: خفت منه. انتهى.

وقد تقدم أن الخشية تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب والقلق وهي رذيلة مذمومة إلا الخشية من الله سبحانه ولذا كان الأنبياء عليهم السلام لا يخشون غيره قال تعالى : « ولا يخشون أحداً إلا الله » الأحزاب : ٣٩ .

وأن الخوف هو التأثير عن المكروه في مقام العمل بتهيئة ما يتحرز به من الشر ويدفع به المكروه لا في مقام الإدراك فليس برذيلة مذمومة لذاته بل هو حسن فيما يحسن الاتقاء قال تعالى خطابا لرسوله : « وإما تخافن من قوم خيانة » الأنفال : ٥٨ .

وإذا كان الفزع هو الانقباض والنفار الحاصل من الشيء المخوف كان أمراً راجعا

إلى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيلة بذاته بل كان فضيلة عند تحقق مكروه ينبغي التحرز منه فلا ضير في نسبته إلى داود عليه السلام في قوله : « ففزع منهم » وهو من الأنبياء الذين لا يخشون إلا الله .

وقوله : «قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض» لما رأوا ما عليه داود عليه السلام من الفزع أرادوا تطييب نفسه وإسكان روعه فقالوا : « لا تخف» وهو نهي عن الفزع بالنهي عن سببه الذي هو الخوف « خصمان بغى » الخ أي نحن خصمان أي فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلما على بعض .

وقوله : «فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط» الخ الشطط الجور أي فاحكم بيننا حكما مصاحبا للحق ولا تجر في حكمك ودلنا على الوسط العدل من الطريق .

قوله تعالى : « إن هذا أخي » إلى آخر الآية بيان لخصومتهم وقوله: « إن هذا أخي » كلام لواحد من أحد الفريقين يشير إلى آخر من الفريق الآخر بأن هذا أخي له » الخ .

وبهذا يظهر فساد ما استدل بعضهم بالآية على أن أقل الجمع اثنان لظهور قوله : إذ تسوروا » « إذ دخلوا » في كونهم جمعاً ودلالة قوله : « خصمان » « هذا أخي » على الاثنينية .

وذلك لجواز أن يكون في كل واحد من جانبي التثنية أكثر من فرد واحد قال تعالى : « هـــذا خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا » الخ الحج : ١٩ وجواز أن يكون أصل الخصومة بين فردين ثم يلحق بكل منهما غيره لإعانته في دعواه .

وقوله: « له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقـــال أكفلنيها وعزني في الخطاب» النعجة الانثى من الضأن ، و «أكفلنيها» أي اجعلها في كفالتي وتحت سلطتي و « عزني في الخطاب » أي غلبني فيه والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ـ إلى قوله ـ وقليل ما هم » جواب داود عليه السلام ، ولعله قضاء تقديري قبل استماع كلام المتخـاصم الآخر فإن من الجائز أن يكون عنده من القول ما يكشف عن كونه محقا فيما يطلبه ويقترحه على

صاحبه لكن صاحب النعجة الواحدة ألقى كلامه بوجه هيج الرحمة والعطوفة منه عليه السلام فبادر إلى هذا التصديق التقديري فقال : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » .

فاللام للقسم ، والسؤال ـ على ما قيل ـ مضمن معنى الإضافة ولذا عدي إلى المفعول الثاني بإلى ، والمعنى اقسم لقد ظلمك بسؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه .

وقوله : « وإن كثير من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » من تمـــام كلام داود عليه السلام يقرر به كلامه الأول والخلطاء الشركاء المخالطون .

قوله تعالى : « وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب » أي علم داود أنما فتناه بهذه الواقعة إي أنها إنما كانت فتنة فتناه بها والفتنة الامتحان، وقيل : ظن بمعناه المعروف الذي هو خلاف اليقين وذكر استغفاره وتوبته مطلقين يؤيد مـــا قدمناه ولو كان الظن بمعناه المعروف كان الاستغفار والتوبة على تقدير كونها فتنة واقعاً وإطلاق اللفظ يدفعه ، والخر على ما ذكره الراغب سقوط يسمع منه خرير والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو ، والركوع ـ على ما ذكره ـ مطلق الانحناء .

والإنابة إلى الله ـ على ما ذكره الراغب ـ الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل وهي من النوب بمعنى رجوع الشيء مرة بعد أخرى .

والمعنى : وعلم داود أن هذه الواقعة إنما كانت امتحاناً امتحناه وأنه أخطأ فاستغفر ربه ـ مما وقع منه ـ وخر منحنياً وتاب إليه .

وأكثر المفسرين تبعاً للروايات على أن هؤلاء الخصم الداخلين على داود عليه السلام كانوا ملائكة أرسلهم الله سبحانه إليه ليمتحنه وستعرف حال الروايات .

لكن خصوصيات القصة كتسورهم المحراب ودخولهم عليه دخولاً غير عادي بحيث أفزعوه ، وكذا تنبهه بأنه إنما كان فتنة من الله له لا واقعة عادية ، وقوله تعالى بعد : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » الظاهر في أن الله ابتلاه بمـــا ابتلى

لينبهه ويسدده في خلافته وحكمه بين الناس ، كل ذلك يؤيد كونهم من الملائكة وقد تمثلوا له في صورة رجال من الإنس .

وعلى هذا فالواقعة تمثل فيه الملائكة في صورة متخاصمين لأحدهما نعجة واحدة يسألها آخر له تسع وتسعون نعجة وسألوه القضاء فقال لصاحب النعجة الواحدة: « لقد ظلمك » الخ وكان قوله عليه السلام ـ لو كان قضاء منجزاً ـ حكماً منه في ظرف التمثل كما لو كان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال وحكم فيهم بما حكم ومن المعلوم أن لا تكليف في ظرف التمثل كما لا تكليف في عالم الرؤيا وإنما التكليف في عالمنا المشهود وهو عالم المادة ولم تقع الواقعة فيه ولا كان هناك متخاصمان ولا نعجة ولا نعاج إلا في ظرف التمثل فكانت خطيئة داود عليه السلام في هذا الظرف من التمثل ولا تكليف هناك كخطيئة آدم عليه السلام في الجنة من أكل الشجرة قبل الهبوط إلى الأرض وتشريع الشرائع وجعل التكاليف ، واستغفاره وتوبته مما صدر منه كاستغفار آدم وتوبته مما صدر منه وقد صرح الله بخلافته في كلامه كما صرح بخلافة آدم عليه السلام في كلامه وقد مر توضيح ذلك في قصة آدم عليه السلام من سورة البقرة في الجزء الأول من الكتاب .

وأما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشراً والقصة على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله : « لقد ظلمك » الخ قضاء تقديرياً أي إنك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجة بينة ، وإنما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجة من طريقي العقل والنقل أن الأنبياء معصومون بعصمة من الله لا يجوز عليهم كبيرة ولا صغيرة .

على أن الله سبحانه صرح قبلاً بأنه آتاه الحكمة وفصل الخطاب ولا يلائم ذلك خطأه في القضاء .

قوله تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » الزلفة والزلفى المنزلة والحظوة ، والمآب المرجع ، وتنكير « زلفى » و « مآب » للتفخيم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض » إلى آخر الآية الظاهر أن الكلام بتقدير القول والتقدير فغفرنا له ذلك وقلنا يا داود « الخ » .

وظاهر الخلافة إنها خلافة الله فتنطبق على ما في قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » البقرة: ٣٠ ومن شأن الخلافة أن يحاكي الخليفة

من استخلفه في صفاته وأعماله فعلى خليفة الله في الأرض أن يتخلق بأخلاق الله ويريد ويفعل ما يريده الله ويحكم ويقضي بما يقضي به الله - والله يقضي بالحق - ويسلك سبيل الله ولا يتعداها .

ولذلك فرّع على جعل خلافته قوله : « فاحكم بين الناس بالحق » وهذا يؤيد أن المراد بجعل خلافته إخراجها من القوة إلى الفعل في حقه لا مجرد الخلافة الشأنية لأن الله أكمله في صفاته وآتاه الملك يحكم بين الناس .

وقول بعضهم : إن المراد بخلافته المجعولة خلافته ممن قبله من الأنبياء وتفريع قوله : «فاحكم بين الناس بالحق» لأن الخلافة نعمة عظيمة شكرها العدل أو أن المترتب هو مطلق الحكم بين الناس الذي هو من آثار الخلافة وتقييده بالحق لأن سداده به ، تصرف في اللفظ من غير شاهد .

وقوله : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » العطف والمقابلة بينه وبين ما قبله يعطيان أن المعنى ولا تتبع في قضائك الهوى هوى النفس فيضلك عن الحق الذي هو سبيل الله فتفيد الآية أن سبيل الله هو الحق .

قال بعضهم : إن في أمره عليه السلام بالحكم بالحق ونهيه عن اتباع الهوى تنبيهاً لغيره ممن يلي امور الناس أن يحكم بينهم بالحق ولا يتبع الباطل وإلا فهو عليه السلام من حيث إنه معصوم لا يحكم إلا بالحق ولا يتبع الباطل .

وفيه أن أمر تنبيه غيره بما وجه إليه من التكليف في محله لكن عصمة المعصوم وعدم حكمه إلا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأمر والنهي إليه فإن العصمة لا توجب سلب اختياره وما دام اختياره باقياً جاز بل وجب توجه التكليف إليه كما يتوجه إلى غيره من الناس ، ولولا توجه التكليف إلى المعصوم لم يتحقق بالنسبة إليه واجب ومحرم ولم تتميز طاعة من معصية فلغى معنى العصمة التي هي المصونية عن المعصية .

وقوله : «إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» تعليل للنهي عن اتباع الهوى بأنه يلازم نسيان يوم الحساب وفي نسيانه عذاب شديد والمراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره .

وفي الآية دلالة على أن كل ضلال عن سبيل الله سبحانه بمعصية من المعاصي لا

ينفك عن نسيان يوم الحساب .

قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً » إلى آخر الآية، لما انتهى الكلام إلى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتج عليه بحجتين إحداهما ما ساقه في هذه الآية بقوله : « وما خلقنا السماء » الخ وهو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السماء والأرض وما بينهما ـ وهي أمور مخلوقة مؤجلة توجد وتفنى ـ مؤدياً إلى غاية ثابتة باقية غير مؤجلة كان باطلاً والباطل بمعنى ما لا غاية له ممتنع التحقق في الأعيان . على أنه مستحيل من الحكيم ولا ريب في حكمته تعالى .

وربما أطلق الباطل وأريد به اللعب ولو كان المراد ذلك كانت الآية في معنى قوله : «وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق» الدخان : ٣٩.

وقيل : الآية عطف على ما قبلها بحسب المعنى كأنه قيل : ولا تتبع الهوى لأنه يكون سبباً لضلالك ولأنـــه تعالى لم يخلق العالم لأجل اتباع الهوى وهو الباطل بل خلقه للتوحيد ومتابعة الشرع .

وفيه أن الآية التالية : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض » الخ لا تلائم هذا المعنى .

وقوله : « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » أي خلق العالم باطلاً لا غاية له وانتفاء يوم الحساب الذي يظهر فيه ما ينتجه حساب الامور ظن الذين كفروا بالمعاد فويل لهم من عذاب النار .

قوله تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » هذه هي الحجة الثانية على المعاد وتقريرها أن للإنسان كسائر الأنواع كمالاً بالضرورة وكمال الإنسان هو خروجه في جانبي العلم والعمل من القوة إلى الفعل بأن يعتقد الاعتقادات الحقة ويعمل الأعمال الصالحة اللتين يهديه إليهما فطرته الصحيحة وهما الإيمان بالحق والعمل الصالح اللذين بهما يصلح المجتمع الإنساني الذي في الأرض .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المتقون هم الكاملون من الإنسان والمفسدون

في الأرض بفساد اعتقادهم وعملهم وهم الفجار هم الناقصون الخاسرون في إنسانيتهم حقيقة ، ومقتضى هذا الكمال والنقص أن يكون بإزاء الكمال حياة سعيدة وعيش طيب وبإزاء خلافه خلاف ذلك .

ومن المعلوم أن هذه الحياة الدنيا التي يشتركان فيها هي تحت سيطرة الأسباب والعوامل المادية ونسبتها إلى الكامل والناقص والمؤمن والكافر على السواء فمن أجاد العمل ووافقته الأسباب المادية فاز بطيب العيش ومن كان على خلاف ذلك لزمه الشقاء وضنك المعيشة .

فلو كانت الحياة مقصورة على هذه الحياة الدنيوية التي نسبتها إلى الفريقين على السواء ولم تكن هناك حياة تختص بكل منهما وتناسب حاله كان ذلك منافياً للعناية الإلهية بإيصال كل ذي حق حقه وإعطاء المقتضيات ما تقتضيه .

وإن شئت فقل : تسوية [١] بين الفريقين وإلغاء ما يقتضيه صلاح هذا وفساد ذلك خلاف عدله تعالى .

والآية ـ كما ترى ـ لا تنفي استواء حال المؤمن والكافر وإنما قررت المقابلة بين من آمن وعمل صالحاً وبين من لم يكن كذلك سواء كان غير مؤمن أو مؤمناً غير صالح ولذا أتت بالمقابلة ثانياً بين المتقين والفجار .

قوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » أي هذا كتاب من وصفه كذا وكذا ، وتوصيفه بالإنزال المشعر بالدفعة دون التنزيل الدال على التدريج لأن ما ذكر من التدبر والتذكر يناسب اعتباره مجموعاً لا نجوماً مفرقة .

والمقابلة بين « ليدبروا » و « ليتذكر أولوا الألباب » تفيد أن المراد بضمير الجمع الناس عامة .

والمعنى : هذا كتاب أنزلناه إليك كثير الخيرات والبركات للعامة والخاصة ليتدبره الناس فيهتدوا به أو تتم لهم الحجة وليتذكر به أولو الألباب فيهتدوا إلى الحق باستحضار حجته وتلقيها من بيانه .

---

(١) الحجة الاولى برهانية والثانية جدلية .

بحث روائي

روى في الدر المنثور بطريق عن أنس وعن مجاهد والسدي وبعدة طرق عن ابن عباس قصة دخول الخصم على داود ﷺ على اختلاف ما في الروايات وروى مثلها القمي في تفسيره ورواها في العرائس وغيره وقد لخصها في مجمع البيان كما يأتي :

إن داود كان كثير الصلاة فقال : يا رب فضلت علي إبراهيم فاتخذته خليلاً وفضلت علي موسى فكلمته تكليماً فقال : يا داود إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليتك فقال : نعم يا رب فابتلني .

فبينا هو في محرابه ذات يوم إذ وقعت حمامة فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهمّ بتزويجها فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمـــام التابوت الذى فيه السكينة ففعل ذلك وقتل .

فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان فبينا هو ذات يوم في محرابه إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما فقالا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ـ إلى قوله ـ وقليل ما هم ، فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك فتنبه داود على إنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه .

ثم قال في المجمع ـ ونعم ما قال ـ : إنه مما لا شبهة في فساده فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه .

أقول : والقصة مأخوذة من التوراة غير أن التي فيها أشنع وأفظع فعدلت بعض التعديل على ما سيلوح لك .

ففي التوراة ما ملخصه : وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً.

فأرسل داود وسأل عن المرأة فقيل : إنها بتشبع امرأة أوريا الحثي فأرسل

داود رسلاً وأخذها فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود أنها حبلى .

وكان أوريا في جيش لداود يحاربون بني عمون فكتب داود إلى يوآب أمير جيشه يأمره بإرسال أوريا إليه ولما أتاه وأقام عنده أياماً كتب مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا ، وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ففعل به ذلك فقتل وأخبر داود بذلك .

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب .

فأرسل الرب ناثان النبي إلى داود فجاء إليه وقال له : كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني والآخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيىء للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ لضيفه ، فحمي غضب داود على الرجل جداً وقال لناثان : حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك وترد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق.

فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل يعاتبك الرب ويقول : سأقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع معهن قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس جزاء لما فعلت باوريا وامرأته .

فقال داود لناثان : قد أخطأت إلى الرب فقال ناثان لداود : الرب أيضاً قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك من المرأة يموت ، فأمرض الله الصبي سبعة أيام ثم قبضه ثم ولدت مرأة أوريا بعده لداود ابنه سليمان .

وفي العيون في باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل والمقالات قال

---

(١) ملخص من الاصحاح الحادي عشر والثاني عشر من صموئيل الثاني .

الرضا عليه‌السلام لابن جهم : وأما داود فما يقول من قبلكم فيه ؟ قال : يقولون : إن داود كان يصلي في محرابه إذ تصور له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور فقطع داود صلاته وقام يأخذ الطير إلى الدار فخرج في إثره فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيان .

فاطلع داود في إثر الطير فإذا بامرأة اوريا تغتسل فلما نظر إليها هواها وكان قد أخرج اوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدم اوريا أمام التابوت فقدم فظفر اوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب إليه ثانية أن قدمه أمام التابوت فقدم فقتل اوريا وتزوج داود بامرأته .

قال : فضرب الرضا عليه‌السلام يده على جبهته وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون لقد نسبتم نبياً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في إثر الطير ثم بالفاحشة ثم بالقتل.

فقال : يا ابن رسول الله ما كانت خطيئته ؟ فقال : ويحك إن داود عليه‌السلام إنما ظن أنه ما خلق الله خلقاً هو أعلم منه فبعث الله عز وجل إليه الملكين فسورا المحراب فقال : خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب فعجل داود على المدعى عليه فقال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ولم يسأل المدعي البينة على ذلك ، ولم يقبل على المدعي عليه فيقول له : ما تقول ؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه ألا تسمع الله عز وجل يقول : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » إلى آخر الآية .

فقال : يا ابن رسول الله فما قصته مع اوريا ؟ قال الرضا عليه‌السلام : إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبداً فأول من أباح الله عز وجل له أن يتزوج بامرأة قتل بعلها داود عليه‌السلام فتزوج بامرأة اوريا لما قتل وانقضت عدتها فذلك الذي شق على الناس من قتل اوريا .

وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله عليه‌السلام أنه قال لعلقمة : إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوا داود عليه‌السلام إلى أنه تبع الطير حتى نظر إلى امرأة اوريا فهواها ، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها الحديث.

﴿ كلام في قصص داود في فصول ﴾

١ ـ قصته في القرآن : لم يقع من قصته في القرآن إلا إشارات فقد ذكر سبحانه أنه كان في جيش طالوت الملك حين حارب جالوت فقتل داود فآتاه الله الملك بعد طالوت والحكمة وعلمه مما يشاء « البقرة: ٢٥١ » وجعله خليفة له يحكم بين الناس وآتاه فصل الخطاب « ص : ٢٠ و ٢٦ » وقد أيد الله ملكه وسخر معه الجبال والطير يسبحن معه « الأنبياء : ٧٩، ص ١٩ » وألان له الحديد يعمل وينسج منه الدروع « الأنبياء : ٨٠ سبأ : ١١ » .

٢ ـ جميل الثناء عليه في القرآن . عده سبحانه من الأنبياء وأثنى عليه بما أثنى عليهم وخصه بقوله : « وآتينا داود زبوراً » « النساء : ١٦٣ الأنعام : ٨٤ ـ ٨٧ » وآتاه فضلاً وعلماً « سبأ : ١٠ النمل : ١٥ » وآتاه الحكمة وفصل الخطاب وجعله خليفة في الأرض « ص : ٢٠ و ٢٦ » ووصفه بأنه أوّاب وأن له عنده لزلفى وحسن مآب « ص : ١٩ و ٢٥ » .

٣ ـ التدبر في آيات الكتاب المتعرضة لقصة دخول المتخاصمين على داود عليه السلام لا يعطي أزيد من كونه امتحاناً منه تعالى له عليه السلام في ظرف التمثل ليربيه تربية إلهية ويعلمه رسم القضاء العدل فلا يجور في الحكم ولا يعدل عن العدل .

وأما ما تضمنته غالب الروايات من قصة اوريا وامرأته فهو مما يجل عنه الأنبياء ويتنزه عنه ساحتهم وقد تقدم في بيان الآيات والبحث الروائي محصل الكلام في ذلك.

* * *

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ـ ٣٠ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ـ ٣١ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ـ ٣٢ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ

مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ـ ٣٣ . وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ـ ٣٤ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ـ ٣٥ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ـ ٣٦ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ـ ٣٧ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ـ ٣٨ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ـ ٣٩ . وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ـ ٤٠ .

﴿ بيان ﴾

القصة الثانية من قصص العباد الأوابين التي أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يصبر ويذكرها.

قوله تعالى : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » أي وهبناه له ولداً والباقي ظاهر مما تقدم .

قوله تعالى : « إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد » العشي مقابل الغداة وهو آخر النهار بعد الزوال ، والصافنات على ما في المجمع جمع الصافنة من الخيل وهي التي تقوم على ثلاث قوائم وترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر . قال : والجياد جمع جواد والياء ههنا منقلبة عن واو والأصل جواد وهي السراع من الخيل كأنها تجود بالركض . انتهى .

قوله تعالى : « فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب » الضمير لسليمان ، والمراد بالخير : الخيل ـ على ما قيل ـ فإن العرب تسمي الخيل خيراً وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة .

وقيل : المراد بالخير المال الكثير وقد استعمل بهذا المعنى في مواضع من كلامه تعالى كقوله : « إن ترك خيراً » البقرة : ١٨٠ .

وقوله : « إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي » قالوا : إن « أحببت » مضمن معنى الإيثار و « عن » بمعنى على ، والمراد إني آثرت حب الخيل على ذكر ربي وهو الصلاة محباً إياه أو أحببت الخيل حباً مؤثراً إياه على ذكر ربي ـ فاشتغلت بما عرض علي من الخيل عن الصلاة حتى غربت الشمس .

وقوله : « حتى توارت بالحجاب » الضمير على ما قالوا للشمس والمراد بتواريها بالحجاب غروبها واستتارها تحت حجاب الافق ، ويؤيد هذا المعنى ذكر العشي في الآية السابقة إذ لولا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتب على ذكر العشي .

فمحصل معنى الآية أني شغلني حب الخيل ـ حين عرض الخيل علي ـ عن الصلاة حتى فات وقتها بغروب الشمس ، وإنما كان يحب الخيل في الله ليتهيأ به للجهاد في سبيل الله فكان الحضور للعرض عبادة منه فشغلته عبادة عن عبادة غير أنه يعد الصلاة أهم .

وقيل : ضمير « توارت » للخيل وذلك أنه أمر بإجراء الخيل فشغله النظر في جريها حتى غابت عن نظره وتوارت بحجاب البعد ، وقد تقدم أن ذكر العشي يؤيد المعنى السابق ولا دليل على ما ذكره من حديث الأمر بالجري من لفظ الآية .

قوله تعالى : « ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » قيل : الضمير في « ردوها » للشمس وهو أمر منه للملائكة برد الشمس ليصلي صلاته في وقتها ، وقوله : « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » أي شرع يمسح ساقيه وعنقه ويأمر أصحابه أن يمسحوا سوقهم وأعناقهم وكان ذلك وضوءهم ثم صلى وصلوا ، وقد ورد ذلك في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقيل : الضمير للخيل والمعنى قال : ردوا الخيل فلما ردت . شرع يمسح مسحاً بسوقها وأعناقها ويجعلها مسبلة في سبيل الله جزاء ما اشتغل بها عن الصلاة .

وقيل : الضمير للخيل والمراد بمسح أعناق الخيل وسوقها ضربها بالسيف وقطعها والمسح القطع فهو عليه‌السلام غضب عليها في الله لما شغلته عن ذكر الله فأمر بردها ثم ضرب بالسيف أعناقها وسوقها فقتلها جميعاً .

وفيه أن مثل هذا الفعل مما تتنزه ساحة الأنبياء عليهم السلام عن مثله فما ذنب الخيل لو شغله النظر إليها عن الصلاة حتى تؤاخذ بأشد المؤاخذة فتقتل تلك القتلة الفظيعة عن آخرها مع ما فيه من إتلاف المال المحترم .

وأما استدلال بعضهم عليه برواية أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : فطفق مسحاً بالسوق والأعناق قطع سوقها وأعناقها بالسيف ثم أضاف أليها وقد جعلها بذلك قرباناً لله وكان تقريب الخيل مشروعاً في دينه فليس من التقريب ذكر في الحديث ولا في غيره .

على أنه عليه السلام لم يشتغل عن العبادة بالهوى بل شغلته عبادة عن عبادة كما تقدمت الإشارة إليه .

فالمعوّل عليه هو أول الوجوه إن ساعده لفظ الآية وإلا فالوجه الثاني .

قوله تعالى : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب » الجسد هو الجسم الذي لا روح فيه .

قيل : المراد بالجسد الملقى على كرسيه هو سليمان نفسه لمرض امتحنه الله به وتقدير الكلام ألقيناه على كرسيه جسداً أي كجسد لا روح فيه من شدة المرض .

وفيه أن حذف الضمير من « ألقيناه » وإخراج الكلام على صورته التي في الآية الظاهرة في أن الملقى هو الجسد مخل بالمعنى المقصود لا يجوز حمل أفصح الكلام عليه .

ولسائر المفسرين أقوال مختلفة في المراد من الآية تبعاً للروايات المختلفة الواردة فيها والذي يمكن أن يؤخذ من بينها إجمالاً أنه كان جسد صبي له أماته الله وألقى جسده على كرسيه ، ولقوله : « ثم أناب قال رب اغفر لي » إشعار أو دلالة على أنه كان له عليه السلام فيه رجاء أو امنية في الله فأماته الله سبحانه وألقاه على كرسيه فنبهه أن يفوض الأمر إلى الله ويسلم له .

قوله تعالى : « قال رب اغفر لي وهب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك انت الوهاب » ظاهر السياق أن الاستغفار مرتبطة بما في الآية السابقة من إلقاء الجسد على كرسيه ، والفصل لكون الكلام في محل دفع الدخل كأنه لما قيل : « ثم أناب » قيل: فماذا قال ؟ فقيل : قال رب اغفر لي » الخ .

وربما استشكل في قوله : « وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » أن فيه ضناً وبخلاً ، فإن فيه اشتراط أن لا يؤتى مثل ما اوتيه من الملك لأحد من العالمين غيره.

ويدفعه أن فيه سؤال ملك يختص به لا سؤال أن يمنع غيره عن مثل ما أتاه ويحرمه ففرق بين أن يسأل ملكاً اختصاصياً وأن يسأل الاختصاص بملك أوتيه .

قوله تعالى : « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب » متفرع على سؤاله الملك وإخباره عن إجابة دعوته وبيان الملك الذي لا ينبغي لأحد غيره وهو تسخير الريح والجن .

والرخاء بالضم اللينة والظاهر أن المراد بكون الريح تجري بأمره رخاء مطاوعتها لأمره وسهولة جريانها على ما يريده عليه السلام فلا يرد أن توصيف الريح ههنا بالرخاء يناقض توصيفه في قوله : « ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره » الأنبياء : ٨١ بكونها عاصفة .

وربما أجيب عنه بأن من الجائز أن يجعلها الله رخوة تارة وعاصفة اخرى حسب ما أراد سليمان عليه السلام .

وقوله: «حيث أصاب» أي حيث شاء سليمان عليه السلام وقصد وهو متعلق بتجري.

قوله تعالى : « والشياطين كل بناء وغواص » أي وسخرنا له الشياطين من الجن كل بناء منهم يبني له في البر وكل غواص يعمل له في البحر فيستخرج اللئالي وغيرها .

قوله تعالى : « وآخرين مقرنين في الأصفاد » الأصفاد جمع صفد وهو الغل من الحديد ، والمعنى وسخرنا له آخرين منهم مجموعين في الأغلال مشدودين بالسلاسل .

قوله تعالى : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » أي هذا الذي ذكر من الملك عطاؤنا لك بغير حساب والظاهر أن المراد بكونه بغير حساب أنه لا ينفد بالعطاء والمن ولذا قيل : « فامنن أو أمسك » أي أنهما يستويان في عدم التأثير فيه .

وقيل : المراد بغير حساب أنك لا تحاسب عليه يوم القيامة ، وقيل : المراد أن إعطاءه تفضل لا مجازاة وقيل غير ذلك .

قوله تعالى: « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » تقدم معناه .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي » الآية قيل : إن هذه الخيل كانت شغلته عن صلاة العصر حتى فات وقتها عن علي عليه السلام وفي رواية أصحابنا أنه فاته أول الوقت .

وفيه قال ابن عباس : سألت علياً عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها يابن عباس؟ قلت : سمعت كعباً يقول : اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة فقال : ردوها عليّ يعني الأفراس وكانت أربعة عشر فأمر بضرب سوقها وأعناقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً لأنه ظلم الخيل بقتلها .

فقال علي : كذب كعب لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : ردوها عليّ فردت فصلى العصر في وقتها وإن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم لأنهم معصومون مطهرون .

اقول : وقول كعب الأحبار : فسلبه الله ملكه إشارة إلى حديث الخاتم الذي سنشير إليه .

وفي الفقيه روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : إن سليمان بن داود عرض عليه ذات يوم بالعشي الخيل فاشتغل بالنظر إليها حتى توارت الشمس بالحجاب فقال للملائكة : ردوا الشمس عليّ حتى أصلي صلاتي في وقتها فردوها فقام ومسح ساقيه وعنقه بمثل ذلك وكان ذلك وضوءهم للصلاة ثم قام فصلى فلما فرغ غابت الشمس وطلعت النجوم ، وذلك قول الله عز وجل: «ووهبنا لداود سليمان ـ إلى قوله ـ مسحاً بالسوق والأعناق».

اقول : والرواية لا بأس بها لو ساعد لفظ الآية أعني قوله : « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » على ما فيها من المعنى ، وأما مسألة رد الشمس فلا إشكال فيه بعد ثبوت إعجاز الأنبياء ، وقد ورد ردها لغيره عليه السلام كيوشع بن نون وعلي بن أبي طالب عليه السلام في النقل المعتبر ولا يعبؤ بما أورده الرازي في تفسيره الكبير .

وأما عقره عليه السلام الخيل وضربه أعناقها بالسيف فقد روي في ذلك عدة روايات

من طرق أهل السنة وأورده القمي في تفسيره وكأنها تنتهي إلى كعب كما مر في رواية ابن عباس المتقدمة وكيف كان فلا يعبؤ بها كما تقدم .

وقد بلغ من إغراقهم في القصة أن رووا أن الخيل كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة ومثله ما روي في قوله : حتى توارت بالحجاب عن كعب أنه حجاب من ياقوتة خضراء محيط بالخلائق منه اخضرت السماء .

ومثل هذه الروايات أعاجيب من القصص رووها في قوله تعالى : « وألقينا على كرسيه جسداً » الآية كما روي أنه ولد له ولد فأمر بإرضاعه وحفظه في السحاب إشفاقاً عليه من مردة الجن وفي بعضها خوفاً عليه من ملك الموت فوقع يوماً جسده على كرسيه ميتاً .

وما روي أنه قال يوماً : لأطوفن الليلة بمائة امرأة من نسائي تلد لي كل واحدة منهن لي فارساً يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فلم تحمل منهن إلا واحدة بشق من ولد وكان يحبه فخبأه له بعض الجن من ملك الموت فأخذه من مخبإه وقبضه على كرسي سليمان .

وما روي في روايات كثيرة تنتهي عدة منها إلى ابن عباس وهو يصرح في بعضها أنه أخذه عن كعب أن ملك سليمان كان في خاتمه فتخطفه شيطان منه فزال ملكه وتسلط الشيطان على ملكه أياماً ثم أعاد الله الخاتم إليه فعاد إلى ما كان عليه من الملك، وقد أوردوا في القصة أموراً ينبغي أن تنزه ساحة الأنبياء عليهم السلام عن ذكرها فضلاً عن نسبتها إليهم . قالوا : وجلوس الشيطان على كرسي سليمان هو المراد بقوله تعالى : « وألقينا على كرسيه جسداً » الآية .

فهذه [1] كلها مما لا يعبؤ بها على ما تقدمت الإشارة إليه وإنما هي مما لعبت بها أيدي الوضع .

* * *

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ

---

(١) ليراجع في الحصول على عامة هذه الروايات الدر المنثور .

وَعَذَابٍ - ٤١ . أرْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ - ٤٢ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ - ٤٣ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ - ٤٤ . وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ - ٤٥ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ - ٤٦ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ - ٤٧ . وَاذْكُرْ إِسْمَعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ - ٤٨ .

﴿ بيان ﴾

القصة الثالثة مما أمر النبي ﷺ أن يصبر ويذكرها وهي قصة أيوب النبي عليه السلام وما ابتلي به من المحنة ثم أكرمه الله بالعافية والعطية . ثم الأمر بذكر إبراهيم وخمسة من ذريته من الأنبياء عليهم السلام .

قوله تعالى: «واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب» دعاء منه عليه السلام وسؤال للعافية وأن يكشف عنه ربه ما أصابه من سوء الحال ، ولم يصرح بما يريده ويسأله تواضعاً وتذللاً غير أن نداءه تعالى بلفظ ربي يشعر بأنه يناديه لحاجة.

والنصب التعب ، وقوله : « إذ نادى » الخ بدل اشتمال من «عبدنا» أو «أيوب» وقوله : « أني مسني » الخ حكاية ندائه .

والظاهر من الآيات التالية أن مراده من النصب والعذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه وأهله وهو الذي ذكره عنه عليه السلام في سورة الأنبياء من ندائه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين بناء على شمول الضر مصيبته في نفسه وأهله ولم يشر في هذه السورة ولا في سورة الأنبياء إلى ذهاب ماله وإن وقع ذكر المال ي الروايات .

والظاهر أن المراد من مس الشيطان له بالنصب والعذاب استناد نصبه وعذابه إلى الشيطان بنحو من السببية والتأثير وهو الذي يظهر من الروايات ، ولا ينافي استناد المرض ونحوه إلى الشيطان استناده أيضاً إلى بعض الأسباب العادية الطبيعية لأن السببين ليسا عرضيين متدافعين بل أحدهما في طول الآخر وقد أوضحنا ذلك في تفسير قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء » الأعراف : ٩٦ في الجزء الثامن من الكتاب .

ولا دليل يدل على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان في الإنسان وقد قال تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » المائدة : ٩٠ فنسبها أنفسها أليه ، وقال حاكياً عن موسى عليه‌السلام : « هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » القصص : ١٥ يشير إلى الاقتتال .

ولو أغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك إلى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه وابتعادهم وطعنهم فيه أن لو كان نبياً لم تحط به البلية من كل جانب ولم يصر إلى ما صار إليه من العاقبة السوآى وشماتتهم واستهزاؤهم به .

وقد أنكر في الكشاف ما تقدم من الوجه قائلاً : لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبيائه عليهم‌السلام ليقضي من تعذيبهم وإتعابهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب . انتهى .

وفيه أن الذي يخص الأنبياء وأهل العصمة أنهم لمكان عصمتهم في أمن من تأثير الشيطان في نفوسهم بالوسوسة ، وأما تأثيره في أبدانهم وسائر ما ينسب إليهم بإيذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على امتناعه ، وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهو يوشع النبي عليه‌السلام : « فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » الكهف : ٦٣ .

ولا يلزم من تسلطه على نبي بالإيذاء والإتعاب لمصلحة تقتضيه كظهور صبره في

الله سبحانه وأوبته إليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عباد الله تعالى إلا أن يشاء الله ذلك وهو ظاهر .

قوله تعالى : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » وقوع الآية عقيب ندائه ومسألته يعطي أنه إيذان باستجابة دعائه وأن قوله تعالى : « اركض برجلك » الخ حكاية لما اوحي إليه عند الكشف عن الاستجابة أو هو بإضمار القول والتقدير فاستجبنا له وقلنا: اركض «الخ» وسياق الأمر مشعر بل كاشف عن أنه كان لا يقدر على القيام والمشي بقدميه وكان مصاباً في سائر بدنه فأبرء الله ما في رجليه من ضر وأظهر له عيناً هناك وأمره أن يغتسل منها ويشرب حتى يبرء ظاهر بدنه وباطنه ويتأيد بذلك ما سيأتي من الرواية .

وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فركض برجله واغتسل وشرب فبرأه الله من مرضه .

قوله تعالى : « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لاولي الألباب » ورد في الرواية أنه ابتلي فيما ابتلي بموت جميع أهله إلا امرأته وأن الله أحياهم له ووهبهم له ومثلهم معهم ، وقيل : إنهم كانوا قد تفرقوا عنه أيام ابتلائه فجمعهم الله إليه بعد برئه وتناسلوا فكانوا مثلي ما كانوا عدداً .

وقوله : « رحمة منا وذكرى لاولي الألباب » مفعول له أي فعلنا به ما فعلنا ليكون رحمة منا وذكرى لاولي الألباب يتذكرون به .

قوله تعالى : « وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » في المجمع : الضغث ملء الكف من الشجرة والحشيش والشماريخ ونحو ذلك انتهى ، وكان عليه‌السلام قد حلف لئن عوفي أن يجلد امرأته مائة جلدة لأمر أنكره عليها على ما سيأتي من الرواية فلما عافاه الله تعالى أمره أن يأخذ بيده ضغثاً بعدد ما حلف عليه من الجلدات فيضربها به ولا يحنث .

وفي سياق الآية تلويح إلى ذلك وإنما طوي ذكر المرءة وسبب الحلف تأدباً رعاية لجانبه .

وقوله: « إنا وجدناه صابراً » أي فيما ابتليناه به من المرض وذهاب الأهل والمال،

والجملة تعليل لقوله : « واذكر » أو لقوله : « عبدنا » أي لتسميته عبداً وإضافته إليه تعالى ، والأول أولى .

وقوله : « نعم العبد إنه أواب » مدح له عليه السلام .

قوله تعالى : « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب اولي الأيدي والأبصار » مدحهم بتوصيفهم بأن لهم الأيدي والأبصار ويد الإنسان وبصره إنما يمدحان إذا كانا يد إنسان وبصر إنسان واستعملا فيما خلقا له وخدما الإنسان في إنسانيته فتكتسب اليد صالح العمل ويجري منها الخير على الخلق ويميز البصر طرق العافية والسلامة من موارد الهلكة ويصيب الحق ولا يلتبس عليه الباطل .

فيكون كونهم اولي الأيدي والأبصار كناية عن قوتهم في الطاعة وإيصال الخير وتبصرهم في إصابة الحق في الاعتقاد والعمل وقد جمع المعنيين في قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ فجعلهم أئمة والأمر والوحي لأبصارهم وفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأيديهم [١] وإليه يؤل ما في الرواية من تفسير ذلك باولي القوة في العبادة والبصر فيها .

قوله تعالى : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » الخالصة وصف قائم مقام موصوفه ، والباء للسببية والتقدير بسبب خصلة خالصة ، وذكرى الدار بيان للخصلة والدار هي الدار الآخرة .

والآية أعني قوله : « إنا أخلصناهم » الخ لتعليل ما في الآية السابقة من قوله : « أولي الأيدي والأبصار » او لقوله : « عبادنا » أو لقوله: « واذكر » وأوجه الوجوه أولها ، وذلك لأن استغراق الإنسان في ذكرى الدار الآخرة وجوار رب العالمين وركوز همه فيها يلازم كال معرفته في جنب الله تعالى وإصابة نظره في حق الاعتقاد والتبصر في سلوك سبيل العبودية والتخلص عن الجمود على ظاهر الحياة الدنيا وزينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا

---

(١) رواها القمي في تفسيره عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام .

ذلك مبلغهم من العلم » النجم : ٣٠ .

ومعنى الآية وإنما كانوا اولي الأيدي والأبصار لأنا أخلصناهم بخصلة خالصة غير مشوبة عظيمة الشأن هي ذكرى الدار الآخرة .

وقيل : المراد بالدار هي الدنيا والمراد بالآية بقاء ذكرهم الجميل في الألسن ما دامت الدنيا كما قال تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب ـ إلى أن قال ـ وجعلنا لهم لسان ذكر علياً » مريم : ٥٠ والوجه السابق أوجه .

قوله تعالى : « وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » تقدم أن الاصطفاء يلازم الإسلام التام لله سبحانه ، وفي الآية إشارة إلى قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » آل عمران : ٣٣ .

والأخيار جمع خير مقابل الشر على ما قيل ، وقيل : جمع خيّر بالتشديد أو التخفيف كأموات جمع ميت بالتشديد أو بالتخفيف .

قوله تعالى : « واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار » معناه ظاهر.

﴿ كلام في قصة أيوب عليه السلام في فصول ﴾

١ ـ **قصته في القرآن** : لم يذكر من قصته في القرآن إلا ابتلاؤه بالضر في نفسه وأولاده ثم تفريجه تعالى بمعافاته وإيتائه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى للعابدين « الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤ . ص : ٤١ ـ ٤٤ » .

٢ ـ **جميل ثنائه** : ذكره تعالى في زمرة الأنبياء من ذرية إبراهيم عليهم السلام في سورة الأنعام وأثنى عليهم بكل ثناء جميل « الأنعام : ٨٤ ـ ٩٠ » وذكره في سورة ص فعده صابراً ونعم العبد وأوّاباً « ص : ٤٤ » .

٣ ـ **قصته في الروايات** : في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن فضّال عن عبد الله ابن بحر عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن بلية أيوب التي ابتلي بها في الدنيا لأي علة كانت ؟ قال : لنعمة أنعم الله عز وجل عليه بها في الدنيا وأدى شكرها وكان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس دون العرش فلما صعد ورأى

شكر نعمة أيوب حسده إبليس .

فقال : يا رب إن أيوب لم يؤد إليك شكر هذه النعمة إلا بما أعطيته من الدنيا ولو حرمته دنياه ما أدى إليك شكر نعمة أبداً فسلّطني على دنياه حتى تعلم أنه لم يؤد إليه شكر نعمة أبداً فقيل له : قد سلطتك على ما له وولده .

قال : فانحدر إبليس فلم يبق له مالاً ولا ولداً إلا أعطبه فازداد أيوب لله شكراً وحمداً ، وقال : فسلّطني على زرعه يا رب . قال : قد فعلت فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب لله شكراً وحمداً فقال : يا رب سلّطني على غنمه فأهلكها فازداد أيوب لله شكراً وحمداً .

فقال : يا رب سلّطني على بدنه فسلّطه على بدنه ما خلا عقله وعينيه فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه فبقي في ذلك دهراً طويلاً يحمد الله ويشكره حتى وقع في بدنه الدود فكانت تخرج من بدنه فيردها فيقول لها : ارجعي إلى موضعك الذي خلقك الله منه ، ونتن حتى أخرجه أهل القرية من القرية وألقوه في المزبلة خارج القرية .

وكانت امرأته رحمة بنت أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وعليها يتصدق من الناس وتأتيه بما تجده .

قال : فلما طال عليه البلاء ورآى إبليس صبره أتى أصحاباً لأيوب كانوا رهباناً في الجبال وقال لهم : مرّوا بنا إلى هذا العبد المبتلى فنسأله عن بليته فركبوا بغالاً شهباً وجاؤوا فلما دنوا منة نفرت بغالهم من نتن ريحه فنظر بعضهم إلى بعض ثم مشوا إليه وكان فيهم شاب حدث السن فقعدوا إليه فقالوا : يا أيوب لو أخبرتنا بذنبك لعل الله يهلكنا إذا سألناه ، وما نرى ابتلاءك بهذا البلاء الذي لم يبتل به أحد إلا من أمر كنت تستره .

فقال أيوب : وعزة ربي إنه ليعلم أني ما أكلت طعاماً إلا ويتيم أو ضعيف يأكل معي ، وما عرض لي أمران كلاهما طاعة الله إلا أخذت بأشدهما على بدني . فقال الشاب: سوءة لكم عيرتم نبي الله حتى أظهر من عبادة ربه ما كان يسترها .

فقال أيوب : يا رب لو جلست مجلس الحكم منك لأدليت بحجتي فبعث الله إليه

غمامة فقال : يا أيوب أدل بحجتك فقد أقعدتك مقعد الحكم وها أنا ذا قريب ولم أزل.

فقال : يا رب إنك لتعلم أنه لم يعرض لي أمران قط كلاهما لك طاعة إلا أخذت بأشدهما على نفسي . ألم أحمدك ؟ ألم أشكرك ؟ ألم أسبحك ؟

قال : فنودي من الغمامة بعشرة آلاف لسان: يا أيوب من صيرك تعبد الله والناس عنه غافلون ؟ وتحمده وتسبحه وتكبّره والناس عنه غافلون ؟ أتمن على الله بما لله فيه المنة عليك؟ قال: فأخذ التراب ووضعه في فيه ثم قال: لك العتبى يا رب أنت فعلت ذلك بي.

فأنزل الله عليه ملكاً فركض برجله فخرج الماء فغسله بذلك الماء فعاد أحسن ما كان وأطرأ ، وأنبت الله عليه روضة خضراء ، ورد عليه أهله وماله وولده وزرعه وقعد معه الملك يحدثه ويؤنسه .

فأقبلت امرأته معها الكسرة [1] فلما انتهت إلى الموضع إذا الموضع متغير وإذا رجلان جالسان فبكت وصاحت وقالت : يا أيوب ما دهاك ؟ فناداها أيوب فأقبلت فلما رأته وقد رد الله عليه بدنه ونعمه سجدت لله شكراً . فرآى ذوابتها مقطوعة وذلك أنها سألت قوماً أن يعطوها ما تحمله إلى أيوب من الطعام وكانت حسنة الذوائب فقالوا لها : تبيعينا ذوابتك هذه حتى نعطيك ؟ فقطعتها ودفعتها إليهم وأخذت منهم طعاماً لأيوب ، فلما رآها مقطوعة الشعر غضب وحلف عليها أن يضربها مائة فأخبرته أنه كان سببه كيت وكيت . فاغتم أيوب من ذلك فأوحى الله عز وجل إليه « خذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث » فأخذ عذقاً مشتملاً على مائة شمراخ فضربها ضربة واحدة فخرج من يمينه .

أقول : وروي عن ابن عباس ما يقرب منه ، وعن وهب أن امرأته كانت بنت ميشا بن يوسف ، والرواية ـ كما ترى ـ تذكر ابتلاءه بما تتنفر عنه الطباع وهناك من الروايات ما يؤيد ذلك لكن بعض الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ينفي ذلك وينكره أشد الإنكار كما يأتي .

وعن الخصال : القطان عن السكّري عن الجوهري عن ابن عمارة عن أبيه عن

---

(١) الكسرة القطعة من الخبز .

جعفر بن محمد عن أبيه عليهم السلام قال : إن أيوب عليه السلام ابتلي سبع سنين من غير ذنب وإن الأنبياء لا يذنبون لأنهم معصومون مطهّرون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً .

وقال : إن أيوب من جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة ، ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ، ولا استقذره أحد رآه ، ولا استوحش منه أحد شاهده ، ولا تدوّد شيء من جسده وهكذا يصنع الله عز وجل بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه .

وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بما له عند ربه تعالى ذكره من التأييد والفرج ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

وإنما ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس لئلا يدّعوا له الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه ، وليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله على ضربين : استحقاق واختصاص ، ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه ولا فقيراً لفقره ولا مريضاً لمرضه ، وليعلموا أنه يسقم من يشاء ، ويشفي من يشاء متى شاء كيف شاء بأي سبب شاء ، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء ، وشقاوة لمن شاء ، وسعادة لمن شاء ، وهو عز وجل في جميع ذلك عدل في قضائه وحكيم في أفعاله لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلا به .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم » الآية قال : فرد الله عليه أهله الذين ماتوا قبل البلاء ، ورد عليه أهله الذين ماتوا بعد ما أصابهم البلاء كلهم أحياهم الله له فعاشوا معه .

وسئل أيوب بعد ما عافاه الله : أي شيء كان أشد عليك مما مر ؟ فقال : شماتة الأعداء .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أني مسني الشيطان » الآية قيل : إنه اشتد مرضه حتى تجنبه الناس فوسوس الشيطان إلى الناس أن يستقذروه ويخرجوه من بينهم ولا يتركوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم فكان أيوب يتأذى بذلك ويتألم به ولم يشك

الألم الذي كان من أمر الله سبحانه . قال قتادة : دام ذلك سبع سنين وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

﴿ خبر اليسع وذي الكفل « ع » ﴾

ذكر سبحانه اسمها في كلامه وعدهما من الأنبياء وأثنى عليهما وعدهما من الأخيار « ص : ٤٨ » وعد ذا الكفل من الصابرين « الأنبياء : ٨٥ » ولهما ذكر في الأخبار .

ففي البحار عن الاحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا عليه السلام فيما احتج به على جاثليق النصارى أن قال عليه السلام أن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرء الأكمه والأبرص فلم يتخذه امته ربا ، الخبر .

وعن قصص الأنبياء: الصدوق عن الدقاق عن الأسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني قال : كتبت إلى أبي جعفر الثاني أسأله عن ذي الكفل ما اسمه ؟ وهل كان من المرسلين ؟

فكتب عليه السلام بعث الله جل ذكره مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي . مرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وإن ذا الكفل منهم ، وكان بعد سليمان بن داود ، وكان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود ، ولم يغضب إلا لله عز وجل وكان اسمه عويديا وهو الذي ذكره الله جلت عظمته في كتابه حيث قال: « واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار » .

أقول : وهناك روايات متفرقة اخر في قصصهما عليهما السلام تركنا إيرادها لضعفها وعدم الاعتماد عليها .

* * *

هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ - ٤٩ . جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً

لَهُمُ الْأَبْوَابُ ـ ٥٠ . مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ
وَشَرَابٍ ـ ٥١ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ـ ٥٢ . هٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ـ ٥٣ . إِنَّ هٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ ـ ٥٤ .
هٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ـ ٥٥ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ـ ٥٦ .
هٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ـ ٥٧ . وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ـ ٥٨ .
هٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ـ ٥٩ . قَالُوا
بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ـ ٦٠ .
قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ـ ٦١ .
وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ـ ٦٢ .
أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ـ ٦٣ . إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ
تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ـ ٦٤ .

﴿ بيان ﴾

فصل آخر من الكلام يبين فيه مآل أمر المتقين والطاغين تبشيراً وإنذاراً .

قوله تعالى : « هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب » الإشارة بهذا إلى ما ذكر من قصص الأوابين من الأنبياء الكرام عليهم السلام ، والمراد بالذكر الشرف والثناء الجميل أي هذا الذي ذكر شرف وذكر جميل وثناء حسن لهم يذكرون به في الدنيا أبداً ولهم حسن مآب من ثواب الآخرة . كذا قالوا .

وعلى هـذا فالمراد بالمتقين هم المذكورون من الأنبياء بالخصوص أو عموم أهل التقوى وهم داخلون فيهم ويكون ذكر مآب الطاغين بعد من باب الاستطراد .

والظاهر أن الإشارة بهذا إلى القرآن والمراد بالذكر ما يشتمل عليه من الذكر وفي الكلام عود إلى ما بدىء به في السورة من قوله « والقرآن ذي الذكر » فهو فصل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما في الدار الآخرة من ثواب المتقين وعقاب الطاغين.

وقوله: «وإن للمتقين لحسن مآب» المآب المرجع والتنكير للتفخيم ، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى : « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » أي جنات استقرار وخلود وكون الأبواب مفتحة لهم كناية عن أنهم غير ممنوعين عن شيء من النعم الموجودة فيها فهي مهيأة لهم مخلوقة لأجلهم ، وقيل : المراد أن أبوابها مفتحة لهم لا تحتاج إلى الوقوف وراءها ودقها ، وقيل : المراد أنها تفتح بغير مفتاح وتغلق بغير مغلاق .

والآية وما بعدها بيان لحسن مآبهم .

قوله تعالى : «متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب» أي حال كونهم جالسين فيها بنحو الاتكاء والاستناد جلسة الأعزة والأشراف .

وقوله: «يدعون فيها بفاكهة» الخ أي يتحكمون فيها بدعوة الفاكهة وهي كثيرة والشراب فإذا دعيت فاكهة أو دعي شراب أجابهم المدعو فأتاهم من غير حاجة إلى من يحمله ويناوله .

قوله تعالى : « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » الضمير للمتقين وقاصرات الطرف صفة قائمة مقام الموصوف والتقدير وعندهم أزواج قاصرات الطرف والمراد قصور طرفهن على أزواجهن يرضين بهم ولا يرون غيرهم أو هو كناية عن كونهن ذوات غنج ودلال .

والأتراب الأقران أي إنهن أمثال لا يختلفن سناً أو جمالاً أو إنهن أمثال لأزواجهن فكلما زادوا نوراً وبهاء زدن حسناً وجمالاً .

قوله تعالى : « هذا ما توعدون ليوم الحساب » الإشارة إلى ما ذكر من الجنة ونعيمها ، والخطاب للمتقين ففي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب والنكتة فيه

إظهار القرب منهم والإشراف عليهم ليكمل نعمهم الصورية بهذه النعمة المعنوية .

قوله تعالى : « إن هذا لرزقنا ما له من نفاد » النفاد الفناء والانقطاع ، والآية من تمام الخطاب الذي في الآية السابقة على ما يعطيه السياق .

قوله تعالى : « هذا وإن للطاغين لشر مآب » الإشارة بهذا إلى ما ذكر من مقام المتقين أي هذا ما للمتقين من المآب ، ويمكن أن يكون هذا اسم فعل أي خذ هذا . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « جهنم يصلونها فبئس المهاد » الصلي دخول النار ومقاساة حرارتها أو اتباعها والمهاد ـ على ما في المجمع ـ الفراش الموطأ يقال : مهدت له تمهيداً مثل وطأت له توطئة ، والآية وما بعدها تفسير لمآب الطاغين .

قوله تعالى : «هذا فليذوقوه حميم وغساق» الحميم الحار الشديد الحرارة والغسّاق ـ على ما في المجمع ـ قيح شديد النتن، وفسر بتفاسير أخر ، وقوله : « حميم وغساق » بيان لهذا ، وقوله : « فليذوقوه » دال على إكراههم وحملهم على ذوقه وتقديم الخبر عنه وجعله اسم إشارة يؤكد ذلك ، والمعنى هذا حميم وغساق عليهم أن يذوقوه ليس إلا .

قوله تعالى: «وآخر من شكله أزواج» شكل الشيء ما يشابهه وجنسه والأزواج الأنواع والأقسام أي وهذا آخر من جنس الحميم والغساق أنواع مختلفة ليذوقوها .

قوله تعالى : «هذا فوج مقتحم معكم ـ إلى قوله ـ في النار» الآيات الثلاث ـ على ما يعطيه السياق ـ حكاية ما يجري بين التابعين والمتبوعين من الطاغين في النار من التخاصم والمجاراة .

فقوله : « هذا فوج مقتحم معكم » خطاب يخاطب به المتبوعون يشار به إلى التابعين الذين يدخلون النار مع المتبوعين فوجاً ، والاقتحام الدخول في الشيء بشدة وصعوبة .

وقوله : « لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار » جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله : « هذا فوج » ومرحباً تحية للوارد معناه عرض رحب الدار وسعتها له فقولهم : « لا مرحباً بهم » معناه نفي الرحب والسعة عنهم . وقولهم : « إنهم صالوا النار » أي داخلوها ومقاسوا حرارتها أو متبعوها تعليل لتحيتهم بنفي التحية .

وقوله : «قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار » نقل كلام التابعين وهم القائلون يردون إلى متبوعيهم نفي التحية ويذمون القرار في النار .

قوله تعالى : « قالوا ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار » لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم : « أنتم قدمتموه لنا » الخ وقد ذكره في سورة الصافات فيما حكى من تساؤلهم بقوله : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين » الخ الآية ٣٠ فقولهم : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار » كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمة .

وجملة « من قدم » الخ شرط وجزاء ، والضعف المثل و « عذاباً ضعفاً » أي ذا ضعف ومثل أي ضعفين من العذاب .

قوله تعالى : «وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار» القائلون ـ على ما يعطيه السياق ـ مطلق أهل النار ، ومرادهم بالرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار المؤمنون وهم في الجنة فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها .

قوله تعالى : « أتخذنا هم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار » أي أتخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا وقد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم وهم معنا في النار .

قوله تعالى : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » إشارة إلى ما حكي من تخاصمهم وبيان أن تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه وهو ظهور ما استقر في نفوسهم في الدنيا من ملكة التنازع والتشاجر .

* * *

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ ٱللهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ـ ٦٥ .
رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ـ ٦٦ . قُلْ هُوَ
نَبَؤٌا عَظِيمٌ ـ ٦٧ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ـ ٦٨ . مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ
بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ـ ٦٩ . إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا

نَذِيرٌ مُبِينٌ ـ ٧٠ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ
طِينٍ ـ ٧١ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ـ ٧٢ .
فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ـ ٧٣ . إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ
مِنَ الْكَافِرِينَ ـ ٧٤ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ
بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ـ ٧٥ . قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ـ ٧٦ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ ـ ٧٧ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ ـ ٧٨ . قَالَ رَبِّ
فَأَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ـ ٧٩ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ـ ٨٠ .
إِلىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ـ ٨١ . قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ـ ٨٢ .
إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ـ ٨٣ . قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ـ ٨٤ .
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ـ ٨٥ . قُلْ مَا
أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ـ ٨٦ . إِنْ هُوَ إِلاَّ
ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ـ ٨٧ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ـ ٨٨ .

﴿ بيان ﴾

الفصل الأخير من فصول السورة المشتمل على أمر النبي ﷺ بإبلاغ نذارته ودعوته إلى التوحيد . وأن الإعراض عن الحق واتباع الشيطان ينتهي بالإنسان إلى

عذاب النار المقضي في حقه وحق أتباعه وعند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهّار ـ إلى قوله ـ العزيز الغفار » في الآيتين أمر النبي ﷺ بإبلاغ أنه منذر وأن الله تعالى واحد في الالوهية فقوله : « إنما أنا منذر » يفيد قصره في كونه منذراً ونفي سائر الأغراض التي ربما تتلبس به الدعوة بين الناس من طلب مال أو جاه كما يشير إليه ما في آخر الآيات من قوله : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » .

وقوله : « وما من إله إلا الله » إلى آخر الآيتين إبلاغ لتوحيده تعالى بحجة يدل عليها ما اورد من صفاته المدلول عليها بأسمائه .

فقوله : « وما من إله إلا الله » نفي لكل إله ـ والإله هو المعبود بالحق ـ غيره تعالى وأما ثبوت ألوهيته تعالى فهو مسلّم بانتفاء الوهية غيره إذ لا نزاع بين الإسلام والشرك في أصل ثبوت الإله وإنما النزاع في أن الإله وهو المعبود بالحق هو الله تعالى أو غيره . على أن ما ذكر في الآيتين من الصفات متضمن لإثبات الوهيته كما أنها حجة على انتفاء الوهية غيره تعالى .

وقوله : « الواحد القهار » يدل على توحده تعالى في وجوده وقهره كل شيء وذلك أنه تعالى واحد لا يماثله شيء في وجوده ولا تناهي كماله الذي هو عين وجوده الواجب فهو الغني بذاته وعلى الإطلاق وغيره من شيء فقير يحتاج إليه من كل جهة ليس له من الوجود وآثار الوجود إلا ما أنعم وأفاض فهو سبحانه القاهر لكل شيء على ما يريد وكل شيء مطيع له فيما أراد خاضع له فيما شاء .

وهذا الخضوع الذاتي هو حقيقة العبادة فلو جاز أن يُعبد شيء في الوجود عملاً بأن يؤتى بعمل يمثل به العبودية والخضوع فهي عبادته سبحانه إذ كل شيء مفروض دونه فهو مقهور خاضع له لا يملك لنفسه ولا لغيره شيء ولا يستقل من الوجود وآثار الوجود بشيء فهو سبحانه الإله المعبود بالحق لا غير .

وقوله : « رب السماوات والأرض وما بينهما » يفيد حجة اخرى على توحده تعالى في الالوهية وذلك أن نظام التدبير الجاري في العالم برمته نظام واحد متصل غير متبعض ولا متجز وهو آية وحدة المدبر ، وقد تقدم كراراً أن الخلق والتدبير لا ينفكان

فالتدبير خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه، والخالق الموجد للسماوات والأرض وما بينهما هو الله سبحانه ــ حق عند الخصم ــ فهو تعالى ربها المدبر لها جميعاً فهو وحده لإله الذي يجب أن يقصد بالعبادة لأن العبادة تمثيل عبودية العابد ومملوكيته تجاه مولوية المعبود ومالكيته وتصرفه في المعبود بإفاضة النعمة ودفع النقمة فهو سبحانه الإله في السماوات والأرض وما بينهما لا إله غيره . فافهم ذلك .

ويمكن أن يكون قوله : « رب السماوات والأرض ومـــا بينهما » بياناً لقوله « القهار » أو « الواحد القهار » .

وقوله : « العزيز الغفار » يفيد حجة اخرى على توحده تعالى في الالوهية وذلك أنه تعالى عزيز لا يغلبه شيء بإكراهه على ما لم يرد أو بمنعه عما أراد فهو العزيز على الإطلاق وغيره من شيء ذليل عنده قانت له والعبادة إظهار للمذلة ولا يستقيم إلا قبال العزة ولا عزة لغيره تعالى إلا به .

وأيضاً غاية العبادة وهي تمثيل العبودية التقرب إلى المعبود ورفع وصمة البعد عن العبد العابد وهو مغفرة الذنب والله سبحانه هو المستقل بالرحمة التي لا تنفد خزائنها وهو الذي يورد عباده العابدين له في الآخرة دار كرامته فهو الغفار الذي يجب أن يعبد طمعاً في مغفرته .

ويمكن أن يكون قوله : « العزيز الغفار » تلويحاً إلى وجه الدعوة إلى التوحيد أو وجوب الإيمان به المفهوم بحسب المقـــام من قوله : « وما من إله إلا الله الواحد القهار » والمعنى أدعوكم إلى توحيده فآمنوا به لأنه العزيز الذي لا يشوبه ذلة الغفار للذنوب وهكذا يجب أن يكون الإله .

قوله تعالى : « قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون » مرجع الضمير ما ذكره من حديث الوحدانية في قوله : « وما من إله إلا الله » الخ .

وقيل : الضمير للقرآن فهو النبأ العظيم الذي أعرضوا عنه ، وهو أوفق لسياق الآيات السابقة المرتبطة بأمر القرآن ، وأوفق أيضاً لقوله الآتي : « ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون » أي حتى أخبرني به القرآن ، وقيل : المراد به يوم القيامة وهو أبعد الوجوه .

قوله تعالى : « ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون » الملأ الأعلى جماعة الملائكة و كأن المراد باختصامهم ما أشار تعالى إليه بقوله : إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » إلى آخر الآيات .

و كأن المعنى إني ما كنت أعلم اختصام الملأ الأعلى حتى أوحى الله إليّ ذلك في كتابه فإنما أنا منذر أتبع الوحي .

قوله تعالى : « إن يوحى إلي إلا انما أنا نذير مبين » تأكيد لقوله : « إنما أنا منذر » وبمنزلة التعليل لقوله : « ما كان لي من علم بالملإ الأعلى » والمعنى لم أكن أعلم ذلك لأن علمي ليس من قبل نفسي وإنما هو بالوحي وليس يوحى إلي إلا ما يتعلق بالإنذار .

قوله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين » الذي يعطيه السياق أن الآية وما بعدها ليست تتمة لقول النبي ﷺ : « إنما أنا منذر » الخ والشاهد عليه قوله : « ربك » فهو من كلامه تعالى يشير إلى زمان اختصام الملاء الأعلى والظرف متعلق بما تعلق به قوله : « إذ يختصمون » أو متعلق بمحذوف والتقدير « اذكر إذ قال ربك للملائكة » الخ فإن قوله تعالى للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة » وقوله لهم : « إني خالق بشرا من طين » متقارنان وقعا في ظرف واحد .

وعلى هذا يؤل معنى قوله : « إذ قال ربك » الخ إلى نحو من قولنا : اذكر وقتئذ قال ربك كذا و كذا فهو وقت اختصامهم .

وجعل بعضهم قوله : « إذ قال ربك » الخ مفسراً لقوله : « إذ يختصمون » ثم أخذ الاختصام بعد تفسيره بالتقاول بمجموع قوله تعالى للملائكة « إني جاعل في الأرض خليفة » وقولهم : « أتجعل » الخ » وقوله لآدم وقول آدم لهم » وقوله تعالى لهم : إني خالق بشرا » وقول إبليس وقوله تعالى له .

وقال على تقدير كون الاختصام بمعنى المخاصمة ودلالة قوله : « إذ يختصمون » على كون المخاصمة بين الملائكة أنفسهم لا بينهم وبين الله سبحانه إن إخباره تعالى لهم بقوله : « إني جاعل في الأرض خليفة » « إني خالق بشرا » كان بتوسط ملك من الملائكة و كذا قوله لآدم ولإبليس فيكون قولهم لربهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها » الخ وغيره قولا منهم للملك المتوسط ويقع الاختصام فيما بينهم انتهى .

وأنت خبير بأن شيئاً مما ذكره لا يستفاد من سياق الآيات .

وقوله: « إني خالق بشرا من طين » البشر الإنسان، قال الراغب : البشر ظاهر الجلد والأدمة باطنه . كذا قال عامة الأدباء ، قال : وعبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر ، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع وثني فقال تعالى : « أنؤمن لبشرين » وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر . انتهى .

وقد عد في الآية مبدء خلق الإنسان الطين ، وفي سورة الروم التراب وفي سورة الحجر صلصال من حماء مسنون ، وفي سورة آلرحمان صلصال كالفخار ولا ضير فإنها أحوال مختلفة لمادته الأصلية التي منها خلق وقد أشير في كل موضع إلى واحدة منها .

قوله تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » تسوية الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض وتتميمها صورة إنسان تام ، ونفخ الروح فيه جعله ذا نفس حية إنسانية وإضافة الروح إليه تعالى تشريفية وقوله: «فقعوا» أمر من الوقوع وهو متفرع على التسوية والنفخ .

قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون» ظاهر الدلالة على سجود الملائكة له من غير استثناء .

قوله تعالى : « إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين » أي استكبر إبليس فلم يسجد له وكان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه في سورة الحجر قوله : « لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون » الحجر : ٣٣ .

قوله تعالى : « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين » نسبة خلقه إلى اليد للتشريف بالإختصاص كما قال : « ونفخت فيه من روحي » وتثنية اليد كناية عن الإهتمام التام بخلقه وصنعه فان الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله : «خلقت بيدي» كقوله : «مما عملت أيدينا» يس: ٧١

وقيل : المراد باليد القدرة والتثنية لمجرد التأكيد كقوله: «فارجع البصر كرتين»

به و كان امر

وقوله : « وممن تبعك منهم »

وقد أشبعنا الكلام في نظائر الآيات من سورة الحجر وفي ..

والأعراف والإسراء فعليك بالرجوع إليها .

قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » رجوع إلى ما تقدم في أول السورة وخلال آياتها أن القرآن ذكر وأن ليس النبي ﷺ إلا منذرا لا غير ورد لما رموه بقولهم « امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد » .

فقوله : « ما أسألكم عليه من أجر » أي أجرا دنيويا من مال أو جاه ، وقوله : « وما أنا من المتكلفين » أي من أهل التكلف وهو التصنع والتحلي بما ليس له .

قوله تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين » أي القرآن ذكر عام للعالمين من جماعات الناس ومختلف الشعوب والامم وغيرهم لا يختص بقوم دون قوم حتى يؤخذ على تلاوته مال وعلى تعليمه أجر بل هو للجميع .

قوله تعالى : « ولتعلمن نبأه بعد حين » أي لتعلمن ما أخبر به القرآن من الوعد والوعيد وظهوره على الأديان وغير ذلك بعد حين أي بعد مرور زمان .

قيل : المراد بعد حين يوم القيامة ، وقيل : يوم الموت ، وقيل : يوم بدر ، ولا يبعد أن يقال : إن نبأه مختلف لا يختص بيوم من هذه الأيام حتى يكون هو المراد بل المراد به المطلق فلكل من أقسام نبائه حينه .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث يذكر فيه المعراج ، عن النبي ﷺ : قال تعالى : يا محمد . قلت : لبيك يارب . قال: فيما اختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : سبحانك لا علم لي إلا ما علمتني. قال: فوضع يده أي يد القدرة بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي . قال : فلم يسألني عما مضى ولا عما بقي إلا علمته . فقال : يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : في الكفارات والدرجات والحسنات الحديث .

وفي المجمع روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال : قال لي ربي: أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا . قال : اختصموا في الكفارات والدرجات فأما الكفارات فإسباغ الوضوء في السبرات ونقل الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة ،

وأما الدرجات فإفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام .

اقول : ورواه في الخصال عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعل ما فسر به الكفارات تفسيراً للدرجات وبالعكس ، وروى في الدر المنثور حديث المجمع بطرق كثيرة عن عدة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على اختلاف ما في الروايات .

وكيفما كان فسياق الآية يأبى الإنطباق على مضمون هذه الروايات ولا دليل يدل على كون الروايات في مقام تفسير الآية فلعل الاختصام المذكور فيها غير المذكور في الآية .

وفي نهج البلاغة الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما حمى وحرما على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده ، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب : إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله .

فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ، ونازع الله رداء الجبرية ، وادرع لباس التعزز ، وخلع قناع التذلل ألا ترون كيف صغره الله بتكبره ، ووضعه بترفعه فجعله في الدنيا مدحورا ، وأعد له في الآخرة سعيرا . الخطبة .

وفي العيون بإسناده إلى محمد بن عبيدة قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى لإبليس : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » قال : يعني بقدرتي وقوتي .

اقول : وروى مثله في التوحيد بإسناده عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام .

وفي القصة روايات اخر أوردناها في ذيلها من سور البقرة والأعراف والحجر والإسراء فراجع .

وعن جوامع الجامع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى مالا ينال ، ويقول مالا يعلم .

اقول : وروى مثله في الخصال عن الصادق عليه السلام عن لقمان في وصيته لابنه ،

بسمِ اللهِ الر

الْحَكِيمِ ـ ١ . إنّا أنزَلْنا إليك

لَهُ الدِّينَ ـ ٢ . ألا للهِ الدِّينُ الْخالِصُ

أوْلِياءَ ما نَعبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقرِّبُونا إلىَ اللهِ زُلْفى إن اللهَ يَحـ

فِي ما هُمْ فِيهِ يَختَلِفُونَ إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ ـ ٣ .
لَوْ أرادَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصطَفى مِمّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ ـ ٤ . خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلىَ النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلىَ اللَّيـلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأجَلٍ مُسَمّىً ألاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ ـ ٥ . خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأنْعامِ ثَمانِيَةَ أزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ فَأنّى تُصْرَفُونَ ـ ٦ .
إنْ تَكْفُرُوا فَإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضىٰ لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإنْ

تَشكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ثم
مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ - ٧.
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ
نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنداداً لِيُضِلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ - ٨ . أَمَّنْ
هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا
الْأَلْبَابِ - ٩ . قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ
أَحسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى
الصَّابِرُونَ أَجرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ - ١٠ .

﴿ بيان ﴾

يظهر من خلال آيات السورة أن المشركين من قومه ﷺ سألوه أن ينصرف عما هو عليه من التوحيد والدعوة إليه والتعرض لآلهتهم وخوفوه بآلهتهم فنزلت السورة - وهي قرينة سورة ص بوجه - وهي تؤكد الأمر بأن يخلص دينه لله سبحانه ولا يعبأ بآلهتهم وأن يعلمهم أنه مأمور بالتوحيد وإخلاص الدين الذي تواترت الآيات من طريق الوحي والعقل جميعاً عليه .

ولذلك نراه سبحانه يعطف الكلام عليه في خلال السورة مرة بعد مرة كقوله في مفتتح السورة : « فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص» ثم يرجع إليه ويقول :

« قل إني امرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » – إلى قوله – « قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه » .

ثم يقول : « إنك ميت وإنهم ميتون » الخ ثم يقول : « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » ثم يقول : « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل » ثم يقول : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » إلى غير ذلك من الإشارات .

ثم عمم الاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية والالوهية من الوحي ومن طريق البرهان وقايس بين المؤمنين والمشركين مقايسات لطيفة فوصف المؤمنين بأجمل أوصافهم وبشرهم بما سيثيبهم في الآخرة مرة بعد مرة وذكر المشركين وأنذرهم بما سيلحقهم من الخسران وعذاب الآخرة مضافا إلى ما يصيبهم في الدنيا من وبال أمرهم كما أصاب الذين كذبوا من الامم الدارجة من عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

ومن ثم وصفت السورة يوم البعث وخاصة في مختتمها بأوضح الوصف وأتمه .

والسورة مكية لشهادة سياق آياتها بذلك وكأنها نزلت دفعة واحدة لما بين آياتها من الإتصال .

والآيات العشر المنقولة تجمع الدعوة من طريق الوحي والحجة العقلية بادئة بالنبي ﷺ .

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » « تنزيل الكتاب » خبر لمبتدء محذوف ، وهو مصدر بمعنى المفعول فيكون إضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى موصوفها و «من الله» متعلق بتنزيل والمعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم .

وقيل : « تنزيل الكتاب » مبتدء و «من الله» خبره ولعل الأول أقرب إلى الذهن .

قوله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين » عبر بالإنزال دون التنزيل كما في الآية السابقة لأن القصد إلى بيان كونه بالحق وهو يناسب مجموع ما نزل إليه من ربه .

وقوله : « بالحق » الباء فيه للملابسة أي أنزلناه إليك متلبسا بالحق فما فيه من الأمر بعبادة الله وحده حق ، وعلى هذا المعنى فرّع عليه قوله : « فاعبد الله مخلصا له

الدين » والمعنى فإذا كان بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين لأن فيه ذلك .

والمراد بالدين – على ما يعطيه السياق – العبادة ويمكن أن يراد به سنة الحياة وهي الطريقة المسلوكة في الحياة في المجتمع الإنساني، ويراد بالعبادة تمثيل العبودية بسلوك الطريق التي شرعها الله سبحانه والمعنى فأظهر العبودية لله في جميع شئون حياتك باتباع ما شرعه لك فيها والحال أنك مخلص له دينك لا تتبع غير ما شرعه لك .

قوله تعالى : « ألا لله الدين الخالص » إظهار وإعلان لما أضمر وأجمل في قوله : «بالحق » وتعميم لما خصص في قوله: « فاعبد الله مخلصا له الدين» أي إن الذي أوحيناه إليك من إخلاص الدين لله واجب على كل من سمع هذا النداء ، ولكون الجملة نداء مستقلاً أظهر اسم الجلالة وكان مقتضى الظاهر أن يضمر ويقال : له الدين الخالص .

ومعنى كون الدين الخالص له أنه لا يقبل العبادة ممن لا يعبده وحده سواء عبده وغيره أو عبد غيره وحده .

قوله تعالى: « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» إلى آخر الآية تقدم أن الوثنية يرون أن الله سبحانه أجل من أن يحيط به الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حس فيتنزه تعالى عن أن يقع عليه توجه عبادي منا .

فمن الواجب أن نتقرب إليه بالتقرب إلى مقربيه من خلقه وهم الذين فوض إليهم تدبير شئون العالم فنتخذهم أربابا من دون الله ثم آلهة نعبدهم ونتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند الله ويقربونا إليه زلفى وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسوا البشر وهؤلاء هم الأرباب والآلهة بالحقيقة .

أما الأصنام المصنوعة المنصوبة في الهياكل والمعابد فإنما هي تماثيل للأرباب والآلهة وليست في نفسها أربابا ولا آلهة غير أن الجهلة من عامتهم ربما لم يفرقوا بين الأصنام وأرباب الأصنام فعبدوا الأصنام كما يعبد الأرباب والآلهة وكذلك كانت عرب الجاهلية وكذلك الجهلة من عامة الصابئين ربما لم يفرقوا بين أصنام الكواكب والكواكب التي هي أيضاً أصنام لأرواحها الموكلة عليها وبين أرواحها التي هي الأرباب والآلهة بالحقيقة عند خاصتهم .

وكيف كان فالأرباب والآلهة هم المعبودون عندهم وهم موجودات ممكنة مخلوقة لله مقربة عنده مفوضة إليهم تدبير أمر العالم لكل بحسب منزلته وأما الله سبحانه فليس له إلا الخلق والإيجاد وهو رب الأرباب وإله الآلهة .

إذا تذكرت ما مر ظهر أن المراد بقوله : « والذين اتخذوا من دونه أولياء » اتخاذهم أربابا يدبرون الأمر بأن يسندوا الربوبية وأمر التدبير إليهم لا إلى الله فهم المدبرون للأمر عندهم ويتفرع عليه أن يخضع لهم ويعبدوا لأن العبادة لجلب النفع أو لدفع الضرر أو شكر النعم وكل ذلك إليهم لتصديهم أمر التدبير دون الله سبحانه .

فالمراد باتخاذهم أولياء اتخاذهم أربابا [1] ، ولذا عقب اتخاذ الأولياء بذكر العبادة « ما نعبدهم إلا ليقربونا » فقوله : « والذين اتخذوا من دونه أولياء » مبتدء خبره « إن الله يحكم » الخ والمراد بهم المشركون القائلون بربوبية الشركاء والوهيتهم دون الله إلا ما ذهب إليه جهلتهم من كونه تعالى شريكا لهم في المعبودية .

وقوله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » تفسير لمعنى اتخاذ الأولياء من دون الله وهو حكاية لقولهم أو بتقدير القول أي يقولون : ما نعبدهم هؤلاء إلا ليقربونا بسبب عبادتنا لهم إلى الله تقريبا فهم عادلون منه تعالى إلى غيره ، وإنما سموا مشركين لأنهم يشركون به تعالى غيره حيث يقولون بكونهم أربابا وآلهة للعالم وكونه تعالى ربا وإلها لاولئك الأرباب والآلهة ، وأما الشركة في الخلق والإيجاد فلم يقل به لا مشرك ولا موحد .

وقوله : « إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون » قيل : ضمير الجمع للمشركين وأوليائهم أي إن الله يحكم بين المشركين وبين أوليائهم فيما هم فيه يختلفون ، وقيل : الضميران راجعان إلى المشركين وخصمائهم من أهل الإخلاص في الدين المفهوم من السياق ، والمعنى أن الله يحكم بينهم وبين المخلصين للدين .

وقوله : « إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار » الكفار كثير الكفران لنعم الله

---

(١) فالولاية والربوبية قريبا المعنى فالرب هو المالك المدبر والولي هو مالك التدبير أو متصدي التدبير .

فقوله : « لو ...

للامتناع ، وقوله : « لاصطفى

به مشيئته على ما يفيده السياق وكونه مما ...

وقوله : « سبحانه » تنزيه له سبحانه ، و ...

لاستحالة الشرط وهو إرادة اتخاذ الولد ليترتب عليه استح ...

يشاء مما يخلق وذلك لأنه سبحانه واحد في ذاته المتعالية لا يشاركه ... له

فيها أحد لأدلة التوحيد ، وواحد في صفاته الذاتية التي هي عين ذاته كالحياة والعلم والقدرة ، وواحد في شؤونه التي هي من لوازم ذاته كالخلق والملك والعزة والكبرياء لا يشاركه فيها أحد .

وهو سبحانه قهار يقهر كل شيء بذاته وصفاته فلا يستقل قبال ذاته ووجوده شيء في ذاته ووجوده ولا يستغني عنه شيء في صفاته وآثار وجوده فالكل ... داخرون بالنسبة إليه مملوكون له فقراء إليه .

فمحصل حجة الآية قياس استثنائي ساذج يستثنى فيه نقيض المقدم لينتج نقيض التالي وهو نحو من قولنا : لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى لذلك بعض من يشاء من خلقه لكن إرادته اتخاذ الولد ممتنعة لكونه واحـداً قهاراً فاصطفاؤه لذلك بعض من يشاء من خلقه ممتنع .

وقد أغرب بعضهم في تقريب حجة الآية فقـال : حاصل المعنى لو أراد سبحانه اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع أعني الاتخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض .

وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الالوهية فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ وأبلغ ثم حذف هذا الجواب وجيء بدله لاصطفى تنبيهاً على أن الممكن هذا لا الأول وأنه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز اتخاذ الولد عليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم وإثبات الملزوم دون صعوبة . انتهى .

وكأنه مأخوذ من قول الزمخشري في الكشاف في تفسير الآية حيث قال : يعني لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولاده جهـــلا منكم به وبحقيقته المخـالفة لحقائق الأجسام والأعراض كأنه قال : لو أراد اتخـاذ الولد لم يزد على ما فعـل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة لكنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادا ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غالين في الكفر . انتهى .

وأنت خبير أن سياق الآية لا يلائم هذا البيان . على أنه لا يدفع قول القائل بالتبني التشريفي كقول اليهود عزير ابن الله فإنهم لا يريدون بالتبني إلا اصطفاء من يشاء من خلقه .

وهناك بعض تقريبات أخر منهم لا جدوى فيه تركنا إيراده .

قوله تعالى : « خلق السماوات والأرض بالحق » لا يبعد أن يكون ما فيه من

الإشارة إلى الخلق والتدبير بيانا لقهاريته تعالى لكن اتصال الآيتين وارتباطهما مضمونا وانتهاء الثانية إلى قوله : « ذلكم الله ربكم » الخ كالصريح في أن ذلك استئناف بيان للاحتجاج على توحيد الربوبية .

فالآية والتي تليها مسوقتان لتوحيد الربوبية وقد جمع فيهما بين الخلق والتدبير لما مر مراراً أن إثبات وحدة الخالق لا يستلزم عندالوثني نفي تعدد الأرباب والآلهة لأنهم لا ينكرون انحصار الخلق والإيجاد فيه تعالى لكنه سبحانه فيما يحتج على توحده في الربوبية والالوهية في كلامه يجمع بين الخلق والتدبير إشارة إلى أن التدبير غير خارج من الخلق بل هو خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه وعند ذلك يتم الاحتجاج على رجوع التدبير إليه تعالى وانحصاره فيه برجوع الخلق إليه .

وقوله : «خلق السماوات والأرض بالحق» إشارة إلى الخلقة ، وفي قوله : «بالحق» ـ والباء للملابسة ـ إشارة إلى البعث فإن كون الخلقة حقاً غير باطل يلازم كونها لغاية تقصدها وتنساق إليها وهي البعث قال تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » ص : ٢٧ .

وقوله : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» قال في المجمع التكوير طرح الشيء بعضه على بعض . انتهى فالمراد طرح الليل على النهار وطرح النهار على الليل فيكون من الاستعارة بالكناية قريب المعنى من قوله : « يغشي الليل النهار » الأعراف: ٥٤ والمراد استمرار توالي الليل والنهار بظهور هذا على ذاك ثم ذاك على هذا وهكذا ، وهو من التدبير .

وقوله : « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » أي سخر الشمس والقمر فأجراهما للنظام الجاري في العالم الأرضي إلى أجل مسمى معين لا يتجاوزانه .

وقوله : « ألا هو العزيز الغفار » يمكن أن يكون في ذكر الاسمين إشارة إلى ما يحتج به على توحده تعالى في الربوبية والالوهية فإن العزيز الذي لا يعتريه ذلة إن كان فهو الله وهو المتعين للعبادة لا غيره الذي تغشاه الذلة وتغمره الفاقة و كذا الغفار للذنوب إذا قيس إلى من ليس من شأنه ذلك .

ويمكن أن يكون ذكرهما تحضيضا على التوحيد والإيمان بالله الواحد والمعنى

عير م

وهكذا ، والظلمات

عن أبي جعفر عليه‌السلام .

وقيل: المراد بها ظلمة الصلب والرحم والمشيمة وهو

امهاتكم ، صريح في أن المراد بالظلمات الثلاث ما في بطون النساء دون اصه .

وقوله: «ذلكم الله ربكم» أي الذي وصف لكم في الآيتين بالخلق والتدبير هو ربكم دون غيره لأن الرب هو المالك الذي يدبر أمر ما ملكه وإذ كان خالقا لكم ولكل شيء دونكم وللنظام الجاري فيكم فهو الذي يملككم ويدبر أمركم فهو ربكم لا غير .

وقوله : « له الملك » أي على جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة فهو المليك على الإطلاق ، وتقديم الظرف يفيد الحصر ، والجملة خبر بعد خبر لقوله: «ذلكم الله» كما أن قوله : « لا إله إلا هو » كذلك ، وانحصار الالوهية فيه تعالى فرع انحصار الربوبية فيه

. أو رجاء فيه أو شكراً له .

ادته إلى عبادة غيره وهو

آخر

وإخلاص الدين له يرض الشكر لكم وأنتم عباده ، والشكر والكفر المقابل له ينطبقان على الإيمان والكفر المقابل له .

ومما تقدم يظهر أن العباد في قوله : « ولا يرضى لعبـــاده الكفر » عام يشمل الجميع فقول بعضهم : إنه خاص اريد به من عنـاهم في قوله : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ وهم المخلصون–أو المعصومون على ما فسره الزمخشري – ولازمه أن الله سبحانه رضي الإيمان لمن آمن ورضى الكفر لمن كفر إلا المعصومين فإنه أراد منهم الإيمان ، وصانهم عن الكفر سخيف جداً، والسياق يأباه كل الإباء ، إذ الكلام مشعر حينئذ برضاه الكفر للكافر فيؤول معنى الكلام إلى نحو من قولنا : إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى للانبياء مثلا الكفر لرضاه لهم الإيمان وإن تشكروا أنتم يرضه لكم وإن تكفروا يرضه لكم وهذا – كما ترى– معنى ردي ساقط وخاصة من حيث وقوعه في سياق الدعوة .

على أن الأنبياء مثلا داخلون فيمن شكر وقد رضي لهمالشكر والإيمان ولم يرض لهم الكفر فلا موجب لإفرادهم بالذكر وقد ذكر الرضا عمن شكر .

وقوله : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » أي لا تحمـــل نفس حاملة حمل نفس اخرى أي لا يؤاخذ بالذنب إلا من ارتكبه .

وقوله : « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بمـا كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور » أي هذا في الدنيا من كفر أو شكر ثم يبعثكم الله فيظهر لكم حقيقة أعمالكم ويحاسبكم على ما في قلوبكم وقد تكرر الكلام في معاني هذه الجمل فيما تقدم .

(كلام في معنى الرضا والسخط من الله)

الرضا من المعاني التي يتصف بها اولو الشعور والإرادة ويقـابله السخط وكلاهما وصفان وجوديان .

ثم الرضا يتعلق بالمعاني من الأوصاف والأفعال دون الذوات يقال : رضي له كذا ورضي بكذا قال تعالى : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله رسوله » التوبة : ٥٩ وقال :

ورضوا بالحياة الدنيا » يونس : ٧ وما ربما يتعلق بالذوات فإنما هو بعناية ما ويؤول بالآخرة إلى المعنى كقوله : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى » البقرة : ١٢٠ .

وليس الرضا هو الإرادة بعينها وإن كان كلما تعلقت به الإرادة فقد تعلق به الرضا بعد وقوعه بوجه . وذلك لأن الإرادة - كما قيل - تتعلق بأمر غير واقع والرضا إنما يتعلق بالأمر بعد وقوعه أو فرض وقوعه فإذن كون الإنسان راضيا بفعل كذا كونه بحيث يلائم ذلك الفعل ولا ينافره ، وهو وصف قائم بالراضي دون المرضي .

ثم الرضا لكونه متعلقا بالأمر بعد وقوعه كان متحققا بتحقق المرضي حادثا بحدوثه فيمتنع أن يكون صفة من الصفات القائمة بذاته لتنزهه تعالى عن أن يكون محلا للحوادث فما نسب إليه تعالى من الرضا صفة فعل قائم بفعله منتزع عنه كالرحمة والغضب والإرادة والكراهة قال تعالى: «رضي الله عنهم ورضوا عنه» البينة : ٨ وقال: « وأن أعمل صالحا ترضاه » النمل : ١٩ ، وقال : « ورضيت لكم الإسلام دينا » المائدة : ٣.

فرضاه تعالى عن أمر من الامور ملائمة فعله تعالى له ، وإذ كان فعله قسمين تكويني وتشريعي انقسم الرضا منه أيضاً إلى تكويني وتشريعي فكل أمر تكويني وهو الذي أراد الله وأوجده فهو مرضي له رضا تكوينيا بمعنى كون فعله وهو إيجاده عن مشية ملائما لما أوجده ، وكل أمر تشريعي وهو الذي تعلق به التكليف من اعتقاد أو عمل كالإيمان والعمل الصالح فهو مرضي له رضا تشريعيا بمعنى ملاءمة تشريعه للآتي به .

وأما ما يقابل هذه الامور المأمور بها مما تعلق به نهي فلا يتعلق بها رضى البتة لعدم ملاءمة التشريع لها كالكفر والفسوق كما قال تعالى: « إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر » الزمر: ٧ ، وقال: «فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » التوبة : ٩٦ .

قوله تعالى: « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه » إلى آخر الآية الإنابة الرجوع ، والتخويل العطية العظيمة على وجه الهبة وهي المنحة . على ما في المجمع .

لما مر في الآية السابقة ذكر من كفر النعمة وأن الله سبحانه على غناه من الناس

لا يرضى لهم ذلك نبه في هذه الآية على أن الإنسان كفور بالطبع مع أنه يعرف ربه بالفطرة ولا يلبث عند الاضطرار دون أن يرجع إليه فيسأله كشف ضره كما قال: «وكان الإنسان كفورا » أسرى : ٦٧ ، وقال: إن الإنسان لظلوم كفار » إبراهيم : ٣٤.

فقوله : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه » أي إذا أصاب الإنسان ضر من شدة أو مرض أو قحط ونحوه دعا ربه -وهو الله يعترف عند ذلك بربوبيته - راجعا إليه معرضا عمن سواه يسأله كشف الضر عنه .

وقوله : « ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل » أي وإذا أعطاه ربه سبحانه بعد كشف الضر نعمة منه اشتغل به مستغرقا ونسي الضر الذي كان يدعو إليه أي إلى كشفه من قبل إعطاء النعمة .

فما في قوله : « ما كان يدعو إليه » موصولة والمراد به الضر وضمير « إليه » له وقيل : مصدرية والضمير للرب سبحانه والمعنى نسي دعاءه إلى ربه من قبل الإعطاء ، وقيل : موصولة والمراد به الله سبحانه وهو أبعد الوجوه .

وقوله : « وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله » الأنداد الأمثال والمراد بها - على ما قيل - الأصنام وأربابها ، واللام في « ليضل عن سبيله » للعاقبة ، والمعنى واتخذ لله أمثالاً يشار كونه في الربوبية والالوهية على مزعمته لينتهي به ذلك إلى إضلال الناس عن سبيل الله لأن الناس مطبوعون على التقليد يتشبه بعضهم ببعض، وفي الفعل دعوة كالقول.

ولا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب التي يعتمد عليها الإنسان ويطمئن إليها ومن جملتها أرباب الأصنام عند الوثني وذلك لأن الآية تصف الإنسان وهو أعم من المشرك نعم مورد الآية هو الكافر .

وقوله : « قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » أي تمتع تمتعا قليلا لا يدوم لك لأنك من أصحاب النار مصيرك إليها ، وهو أمر تهديدي في معنى الإخبار أي إنك إلى النار ولا يدفعها عنك تمتعك بالكفر أياما قلائل .

قوله تعالى: « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » الآية لا تخلو عن مناسبة واتصال بقوله السابق : « ولا تزر وازرة وزر اخرى »

فإن فحواه أن الكافر والشاكر لا يستويان ولا يختلطان فأوضح ذلك في هذه الآية بأن القانت الذي يخاف العذاب ويرجو رحمة ربه لا يساوي غيره .

فقوله : «أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه» أحد شقي الترديد محذوف والتقدير أهذا الذي ذكرناه خير أم من هو قانت الخ ؟

والقنوت – على ما ذكره الراغب – لزوم الطاعة مع الخضوع ، والآناء جمع أنى وهو الوقت ، و «يحذر الآخرة» أي عذاب الله في الآخرة قال تعالى: «إن عذاب ربك كان محذورا » أسرى : ٥٧ ، وقوله : « يرجو رحمة ربك » هو وما قبله يجمعان خوف العذاب ورجاء الرحمة ، ولم يقيد الرحمة بالآخرة فإن رحمة الآخرة ربما وسعت الدنيا .

والمعنى أهـــذا الكافر الذي هو من أصحاب النار خير أم من هو لازم للطاعة والخضوع لربه في أوقات الليل إذا جن عليه ساجداً في صلاته تارة قائما فيها اخرى يحذر عذاب الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ أي لا يستويان .

وقوله : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » العلم وعدمه مطلقان لكن المراد بهما بحسب ما ينطبق على مورد الآية العلم بالله وعدمه فإن ذلك هو الذي يكمل به الإنسان وينتفع بحقيقة معنى الكلمة ويتضرر بعدمه ، وغيره من العلم كالمال ينتفع به في الحياة الدنيا ويفنى بفنائها .

وقوله : « إنما يتذكر اولو الألباب» أي ذوو العقول وهو في مقام التعليل لعدم تساوي الفريقين بأن أحد الفريقين يتذكر حقائق الامور دون الفريق الآخر فلا يستويان بل يترجح الذين يعلمون على غيرهم .

قوله تعالى: «قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة» إلى آخر الآية ، الجار والمجرور « في هـــذه الدنيا » متعلق بقوله : « احسنوا » فالمراد بالجملة وعد الذين أحسنوا أي لزموا الأعمال الحسنة أن لهم حسنة لا يقدر وصفها بقدر.

وقد أطلق الحسنة فلم يقيدها بدنيا أو آخرة وظاهرها ما يعم الدنيا فللمؤمنين المحسنين في هذه الدنيا طيب النفس وسلامة الروح وصون النفوس عما يتقلب فيه الكفار من تشوش البال وتقسم القلب وغل الصدر والخضوع للأسباب الظاهرية وفقد من يرجى

في كل نائبة وينصر عند طروق الطارقة ويطمأن إليـه في كل نازلة وفي الآخرة سعادة دائمة ونعيم مقيم .

وقيل : « في هذه الدنيا » متعلق بحسنة . وليس بذاك .

وقوله : « وأرض الله واسعة » حث وترغيب لهم في الهجرة من مكة إذ كان التوقف فيها صعبا على المؤمنـــين بالنبي ﷺ والمشركون يزيدون كل يوم في التشديد عليهم وفتنتهم ، والآية بحسب لفظها عامة .

وقيــل : المراد بأرض الله الجنة أي إن الجنة واسعة لا تزاحم فيهـا فاكتسبوها بالطاعة والعبادة . وهو بعيد .

وقوله : « إنما يوفي الصابرون أجرهم بغـير حساب » توفية الأجر إعطاؤه تاما كاملا ، والسياق يفيد أن القصر في الكلام متوجه إلى قوله : « بغير حساب » فالجار والمجرور متعلق بقوله : « يوفى » صفة لمصـدر يدل عليه والمعنى لا يعطى الصابرون أجرهم إلا إعطاء بغير حسـاب، فالصابرون لا يحاسبون على أعمالهم ولا ينشر لهم ديوان ولا يقدر أجرهم بزنة عملهم .

وقد اطلق الصابرون في الآية ولم يقيد بكون الصبر على الطاعة أو عن المعصية أو عنـد المصيبة وإن كان الذي ينطبق على مورد الآية هو الصـبر على مصائب الدنيا وخاصة ما يصيب من جهة أهل الكفر والسوق من آمن بالله وأخلص له دينه واتقاه.

وقيل : « بغير حساب » حال من « أجرهم » ويفيد كثرة الأجر الذي يوفونه ، والوجه السابق أقرب .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلا قال: يا رسول الله انا نعطي أموالنا التماس الذكر فهل لنا في ذلك من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله لا يقبل إلا من أخلص له . ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «ألا لله الدين الخالص» .

وفيه أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن ابن عباس « والذين اتخذوا من دونه

أولياء » الآية قال : أنزلت في ثلاثة أحياء : عامر وكنانة وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان ويقولون : الملائكة بناته فقالوا : « إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى » .

أقول : الآية مطلقة تشمل عامة الوثنيين ، وقول : « إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى » قول جميعهم ، وكذا القول بالولد ولا تصريح في الآية بالقول بكون الملائكة بنات فالحق أن الخبر من التطبيق .

وفي الكافي والعلل بإسنادهما عن زرارة عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : قلت : « آناء الليل ساجداً وقائماً » الخ قال : يعني صلاة الليل .

وفي الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله عز وجل : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر اولو الألبـــاب » قال نحن الذين يعلمون ، وعدونا الذين لا يعلمون ، وشيعتنا اولو الألباب .

أقول : وهذا المعنى مروى بطرق كثيرة عن الباقر والصادق عليهما السلام وهو جرى وليس من التفسير في شيء .

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: « أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً » قال : نزلت في عمار بن ياسر .

اقول : وروى مثله عن جويبر عن عكرمة ، وروى عن جويبر عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسالم مولى أبي حذيفة ، وروى عن أبي نعيم وابن عساكر عن ابن عمر أنه عثمان وقيل غير ذلك ، والجميع من التطبيق وليس من النزول بالمعنى المصطلح عليه ، والسورة نازلة دفعة .

وفي المجمع روى العياشي بالإسنـــاد عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان. ثم تلا هذه الآية «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب».

اقول : وروى ما في معنـــاه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في حديث .

* * *

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ - ١١ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ - ١٢ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ - ١٣ . قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي - ١٤ . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَلَا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ - ١٥ . لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ - ١٦ . وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ - ١٧ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ - ١٨ . أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ - ١٩ . لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ - ٢٠ .

﴿ بيان ﴾

في الآيات نوع رجوع إلى أول الكلام وأمره ﷺ أن يبلغهم أن الدي يدعوهم إليه من التوحيد وإخلاص الدين لله هو مأمور به كأحدهم ويزيد أنه مأمور أن يكون

أول مسلم لما يدعو إليه أي يكون بحيث يدعو إلى ما قد أسلم له وآمن به قبل ، سواء أجابوا إلى دعوته أو ردوها .

فعليهم أن لا يطمعوا فيه أن يخالف فعله قوله وسيرته دعوته فإنه مجيب لربه مسلم له متصلب في دينه خائف منه أن يعصيه ثم تنذر الكافرين وتبشر المؤمنين بما أعد الله سبحانه لكل من الفريقين من عذاب أو نعمة .

قوله تعالى : « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ـ إلى قوله ـ أول المسلمين» نحو رجوع إلى قوله تعالى في مفتتح السورة : « إنا أنزلنا إليك الكتاب فاعبد الله مخلصا له الدين » بداعي أن يؤيسهم من نفسه ، فلا يطمعوا فيه أن يترك دعوتهم ويوافقهم على الإشراك بالله كما يشير إليه أول سورة ص وآيات أخر .

فكأنه يقول : قل لهم إن الذي تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين ـ وقد وجه به الخطاب إلى ـ ليس المراد به مجرد دعوتكم إلى ذلك بإقامتي في الخطاب مقام السامع فيكون من قبيل « إياك أعني واسمعي ياجارة » بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصا له الدين ، ولا ذلك فحسب، بل مأمور بأن أكون أول المسلمين لما ينزل إلي من الوحي فأسلم له أولاً ثم ابلغه لغيري ـ فأنا أخاف ربي وأعبده بالإخلاص آمنتم به أو كفرتم فلا تطمعوا في .

فقوله : « قل إني امرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » إشارة إلى أنه ﷺ يشارك غيره في الأمر بدون الإخلاص .

وقوله : « وأمرت لأن أكون أول المسلمين » إشارة إلى أن في الأمر المتوجه إلى زيادة على ما توجه إليكم من التكليف وهو أني امرت بما امرت وقد توجه الخطاب إلى قبلكم والغرض منه أن أكون أول من أسلم لهذا الأمر وآمن به .

قيل : اللام في قوله : « لأن أكون » للتعليل والمعنى وأمرت بذلك لأجل أن أكون أو المسلمين ، وقيل : اللام زائدة كما تركت اللام في قوله تعالى : « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم » الأنعام : ١٤.

ومآل الوجهين واحد بحسب المعنى فإن كونه ﷺ أول المسلمين يعطى عنوانا

لإسلامه وعنوان الفعل يصح أن يجعل غاية للأمر بالفعل وأن يجعل متعلقا للامر فيؤمر به يقال : اضربه للتأديب ، ويقال : أدبه بالضرب .

قال في الكشاف: وفي معناه أوجه: أن أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها ، وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما ، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعا ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون ، وأن أفعل ما أستحق به الأولّية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب . انتهى .

وأنت خبير بأن الأنسب لسياق الآيات هو الوجه الثالث وهو الذي قدمناه ويلزمه سائر الوجوه .

قوله تعالى : « قال إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » المراد بمعصية ربه بشهادة السياق مخالفة أمره بعبادته مخلصا له الدين ، وباليوم العظيم يوم القيامة والآية كالتوطئة لمضمون الآية التالية .

قوله تعالى : « قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه » تصريح بأنه ممتثل لأمر ربه مطيع له بعد التكنية عنه في الآية السابقة ، وإيآس لهم أن يطمعوا فيه أن يخالف أمر ربه .

وتقديم المفعول في قوله: « قل الله أعبد » يفيد الحصر ، وقوله: «مخلصا له ديني» يؤكد معنى الحصر ، وقوله : « فاعبدوا ما شئتم من دونه » أمر تهديدي بمعنى أنهم لا ينفعهم ذلك فإنهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عبادة الله بالإخلاص كما يشير إليه ذيل الآية « قل إن الخاسرين » الخ .

قوله تعالى : « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » الخ الخسر والخسران ذهاب رأس المال إما كلا أو بعضا والخسران أبلغ من الخسر ، وخسران النفس هو إيرادها مورد الهلكة والشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال فيفوتها السعادة بحيث لا يطمع فيها وكذا خسارة الأهل .

وفي الآية تعريض للمشركين المخاطبين بقوله: « فاعبدوا ما شئتم من دونه » كأنه

يقول : فأياما عبدتم فإنكم تخسرون أنفسكم بإيرادها بالكفر مورد الهلكة وأهليكم وهم خاصتكم بحملهم على الكفر والشرك وهي الخسران بالحقيقة .

وقوله: « ألا ذلك هو الخسران المبين» وذلك لأن الخسران المتعلق بالدنيا ـ وهو الخسران في مال أوجاه ـ سريع الزوال منقطع الآخر بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد فإنه لا زوال له ولا انقطاع .

على أن المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمكن أن يخلفه آخر مثله أو خير منه بخلاف النفس إذا خسرت .

هذا على تقدير كون المراد بالأهل خاصة الإنسان في الدنيا، وقيل: المراد بالأهل من أعده الله في الجنة للإنسان لو آمن واتقى من أزواج وخدم وغيرهم وهو أوجه وأنسب للمقام فإن النسب وكل رابطة من الروابط الدنيوية الاجتماعية مقطوعة يوم القيامة قال تعالى : « فلا أنساب بينهم يومئذ » المؤمنون : ١٠١ وقال : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا » الانفطار : ١٩ إلى غير ذلك من الآيات .

ويؤيده أيضاً قوله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسروراً » الانشقاق : ٩ .

قوله تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » الخ الظلل جمع ظلة وهي ـ كما قيل ـ الستر العالي .

والمراد بكونها من فوقهم ومن تحتهم إحاطتها بهم فإن المعهود من النار الجهتان والباقي ظاهر .

قوله تعالى: «والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى» قال الراغب : الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ، ويستعمل في الواحد والجمع . انتهى ، والظاهر أن المراد بها في الآية الأوثان وكل معبود طاغ من دون الله .

ولم يقتصر على مجرد اجتناب عبادة الطاغوت بل أضاف إليه قوله: « وأنابوا إلى الله » إشارة إلى أن مجرد النفي لا يجدي شيئاً بل الذي ينفع الإنسان مجموع النفي

والإثبات ، عبادة الله وترك عبادة غيره وهو عبادته مخلصاً له الدين .

وقوله : « لهم البشرى » إنشاء بشرى وخبر لقوله : « والذين اجتنبوا » الخ .

قوله تعالى : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » إلى آخر الآية كان مقتضى الظاهر أن يقال: فبشرهم غير أنه قيل: فبشر عباد واضيف إلى ضمير التكلم لتشريفهم به ولتوصيفهم بقوله : «الذين يستمعون القول » الخ .

والمراد بالقول بقرينة ما ذكر من الإتباع ماله نوع ارتباط ومساس بالعمل فأحسن القول أرشده في إصابة الحق وأنصحه للإنسان ، والإنسان إذا كان ممن يحب الحسن وينجذب إلى الجمال كان كلما زاد الحسن زاد انجذابا فإذا وجد قبيحا وحسنا مال إلى الحسن ، وإذا وجد حسنا وأحسن قصد ما هو أحسن ، وأما لو لم يمل إلى الأحسن وانجمد على الحسن كشف ذلك عن أنه لا ينجذب إليه من حيث حسنه وإلا زاد الانجذاب بزيادة الحسن .

فتوصيفهم باتباع أحسن القول معناه أنهم مطبوعون على طلب الحق وإرادة الرشد وإصابة الواقع فكلما دار الأمر بين الحق والباطل والرشد والغي اتبعوا الحق والرشد وتركوا الباطل والغي وكلما دار الأمر بين الحق والأحق والرشد وما هو أكثر رشداً أخذوا بالأحق الأرشد .

فالحق والرشد هو مطلوبهم ولذلك يستمعون القول ولا يردون قولا بمجرد ما قرع سمعهم اتباعاً لهوى أنفسهم من غير أن يتدبروا فيه ويفقهوه .

فقوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » مفاده أنهم طالبوا الحق والرشد يستمعون القول رجاء أن يجدوا فيه حقا وخوفا أن يفوتهم شيء منه .

وقيل : المراد باستماع القول واتباع أحسنه استماع القرآن وغيره واتباع القرآن ، وقيل : المراد استماع أوامر الله تعالى واتباع أحسنها كالقصاص والعفو فيتبعون العفو وإبداء الصدقات وإخفائها فيتبعون الإخفاء ،والقولان من قبيل التخصيص من غير مخصص.

وقوله : « أولئك الذين هداهم الله » إشارة إلى أن هذه الصفة هي الهداية الإلهية وهذه الهداية أعني طلب الحق والتهيأ التام لاتباع الحق أينما وجد هي الهداية الإجمالية

وإليها تنتهي كل هداية تفصيلية إلى المعارف الإلهية .

وقوله: « وأولئك هم اولو الألباب» أي ذوو العقول ويستفاد منه أن العقل هو الذي به الإهتداء إلى الحق وآيته صفة اتباع الحق ، وقد تقدم في تفسير قوله : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » البقرة : ١٣٠ أنه يستفاد منه أن العقل ما يتبع به دين الله .

قوله تعالى : « أفمن حقت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار » ثبوت كلمة العذاب وجوب دخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم إلى الأرض: « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ وما في معناه من الآيات .

ومقتضى السياق أن في الآية إضماراً يدل عليه قوله : « أفأنت تنقذ من في النار» والتقدير أفمن حقت عليه كلمة العذاب ينجو منه وهو اولى من تقدير قولنا : خير أم من وجبت عليه الجنة

وقيل : المعنى أفمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب أفأنت تخلصه من النار فاكتفى بذكر « من النار » عن ذكر الضمير العائد إلى المبتدء وجيء بالاستفهام مرتين للتأكيد تنبيها على المعنى .

وقيل : التقدير أفأنت تنقذ من في النار منهم فحذف الضمير، وهو أردء الوجوه .

قوله تعالى: « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار » الغرف جمع غرفة وهي المنزل الرفيع . قيل : وهذا في مقابلة قوله في الكافرين : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » .

وقوله: « وعد الله » أي وعدهم الله ذلك وعداً فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله وقوله: «لا يخلف الله الميعاد» إخبار عن سنته تعالى في مواعيده وفيه تطييب لنفوسهم.

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى : « قل

إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم » يقول : غبنوا أنفسهم وأهليهم .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى ربهم لهم البشرى » روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : أنتم هم ومن أطاع جبارا فقد عبده .

اقول : وهو من الجرى .

وفي الكافي : بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الألباب » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » قال : نزلت هاتان الآيتان في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله ، في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي .

اقول : ورواه في المجمع عن عبد الله بن زيد ، وروى في الدر المنثور أيضاً عن ابن مردويه عن ابن عمر أنها نزلت في سعيد بن زيد وأبي ذر وسلمان ، وروى أيضاً عن جويبر عن جابر بن عبد الله أنها نزلت في رجل من الأنصار أعتق سبعة مماليك لما نزل قوله تعالى : «لها سبعة أبواب» الآية ، والظاهر أن الجميع من تطبيق القصة على الآية.

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ - ٢١ . أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ

لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ـ ٢٢ . اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ـ ٢٣ . أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ـ ٢٤ . كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ـ ٢٥ . فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ـ ٢٦ . وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ـ ٢٧ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ـ ٢٨ . ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ـ ٢٩ . إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ـ ٣٠ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ـ ٣١ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ـ ٣٢ . وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ

وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ـ ٣٣ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ
ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ـ ٣٤ . لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَءَ الَّذِي عَمِلُوا
وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ـ ٣٥ . أَلَيْسَ اللهُ
بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ
مِنْ هَادٍ ـ ٣٦ . وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ
ذِي انْتِقَامٍ ـ ٣٧ .

﴿ بيان ﴾

عود إلى بدء من الاحتجاج على ربوبيته تعالى والقول في اهتداء المهتدين وضلال الضالين والمقايسة بين الفريقين وما ينتهي إليه عاقبة أمر كل منهما ، وفيها معنى هداية القرآن .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض » إلى آخر الآية ، قال في المجمع: الينابيع جمع ينبوع وهو الذي ينبع منه الماء يقال نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه ، والزرع ما ينبت على غير ساق والشجر ما له ساق وأغصان النبات يعم الجميع ، وهاج النبت يهيج هيجا إذا جف وبلغ نهايته في اليبوسة ، والحطام فتات التبن والحشيش . انتهى .

وقوله : « فسلكه ينابيع في الأرض » أي فأدخله في عيون ومجاري في الأرض هي كالعروق في الأبدان تنقل ما تحمله من جانب إلى جانب ، والباقي ظاهر والآية ـ كما ترى ـ تحتج على توحده تعالى في الربوبية .

قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » الخ لما ذكر في الآية السابقة أن فيما ذكره من إنزال الماء وإنبات

النبات ذكرى لأولي الألباب وهم عباده المتقون وقد ذكر قبل أنهم الذين هداهم الله ذكر في هذه الآية أنهم ليسوا كغيرهم من الضالين وأوضح السبب في ذلك وهو أنهم على نور من ربهم يبصرون به الحق وفي قلوبهم لين لا تعصي عن قبول ما يلقى إليهم من أحسن القول .

فقوله : « أفمن شرح الله صدره » خبره محذوف يدل عليه قوله: «فويل للقاسية قلوبهم » الخ أي كالقاسية قلوبهم والاستفهام للإنكار أي لا يستويان .

وشرح الصدر بسطه ليسع ما يلقى إليه من القول وإذ كان ذلك للاسلام وهو التسليم لله فيما أراد وليس إلا الحق كان معناه كون الإنسان بحيث يقبل ما يلقى إليه من القول الحق ولا يرده ، وليس قبولا من غير دراية وكيفما كان بل عن بصيرة بالحق وعرفان بالرشد ولذا عقبه بقوله : « فهو على نور من ربه » فجعله بحسب التمثيل راكب نور يسير عليه ويبصر ما يمر به في ساحة صدره الرحب الوسيع من الحق فيبصره ويميزه من الباطل بخلاف الضال الذي لا في صدره شرح فيسع الحق ولا هو راكب نور من ربه فيبصر الحق ويميزه .

وقوله: « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » تفريع على الجملة السابقة بما يدل على أن القاسية القلوب ـ وقساوة القلب وصلابته لازمة عدم شرح الصدر وعدم النور ـ لا يتذكرون بآيات الله فلا يهتدون إلى ما تدل عليه من الحق ، ولذا عقبه بقوله: «أولئك في ضلال مبين » .

وفي الآية تعريف الهداية بلازمها وهو شرح الصدر وجعله على نور من ربه ، وتعريف الضلال بلازمه وهو قساوة القلب من ذكر الله .

وقد تقدم في تفسير قوله : « ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » الآية الأنعام : ١٢٥ كلام في معنى الهداية فراجع .

قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني » إلى آخر الآية كالإجمال بعد التفصيل بالنسبة إلى الآية السابقة بالنظر إلى ما يتحصل من الآية في معنى الهداية وان كانت بيانا لهداية القرآن .

فقوله: « الله نزل أحسن الحديث » هو القرآن الكريم والحديث هو القول كما في قوله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله » الطور : ٣٤ ، وقوله : « فبأي حديث بعده يؤمنون » المرسلات: ٥٠ فهو أحسن القول لاشتماله على محض الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو كلامه المجيد .

وقوله : « كتابا متشابها » أي يشبه بعض أجزائه بعضا وهذا غير التشابه الذي في المتشابه المقابل للمحكم فإنه صفة بعض آيات الكتاب وهذا صفة الجميع .

وقوله : « مثاني » جمع مثنية بمعنى المعطوف لانعطاف بعض آياته على بعض ورجوعه إليه بتبين بعضها ببعض وتفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضاً ويناقضه كما قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » النساء : ٨٢ .

وقوله : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » صفة الكتاب وليس استئنافا ، والاقشعرار تقبض الجلد تقبضا شديداً لخشية عارضة عن استماع أمر هائل أو رؤيته ، وليس ذلك إلا لأنهم على تبصر من موقف نفوسهم قبال عظمة ربهم فإذا سمعوا كلامه توجهوا إلى ساحة العظمة والكبرياء فغشيت قلوبهم الخشية وأخذت جلودهم في الاقشعرار.

وقوله : « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » «تلين» مضمنة معنى السكون والطمأنينة ولذا عدي بإلى والمعنى ثم تسكن وتطمئن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله لينة تقبله أو تلين له ساكنة إليه .

ولم يذكر القلوب في الجملة السابقة عند ذكر الاقشعرار لأن المراد بالقلوب النفوس ولا اقشعرار لها وإنما لها الخشية .

وقوله: « ذلك هدى الله يهدي به من يشاء » أي ما يأخذهم من اقشعرار الجلود من القرآن ثم سكون جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله هو هدى الله وهذا تعريف آخر للهداية بلازمها .

وقوله: «يهدي به من يشاء من عباده» أي يهدي بهداه من يشاء من عباده وهو الذي لم يبطل استعداده للاهتداء ولم يشتغل بالموانع عنه كالفسق والظلم وفي السياق

إشعار بأن الهداية من فضله وليس بموجب فيها مضطر إليها .

وقيل : المشار إليه بقوله : « ذلك هدى الله » القرآن وهو كما ترى ، وقد استدل بالآيات على أن الهداية من صنع الله لا يشاركه فيها غيره ، والحق أنها خالية عن الدلالة على ذلك وإن كان الحق هو ذلك بمعنى كونها لله سبحانه أصالة ولمن اختاره من عباده لذلك تبعاً كما يستفاد من مثل قوله : « قل إن هدى الله هو الهدى » البقرة : ١٢٠ وقوله : « إن علينا للهدى » الليل : ١٢ ، وقوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ ، وقوله : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » الشورى : ٥٢ .

فالهداية كلها لله إما بلا واسطة أو بواسطة الهداة المهديين من خلقه وعلى هذا فمن أضله من خلقه بأن لم يهده بالواسطة ولا بلا واسطة فلا هادي له وذلك قوله في ذيل الآية : « ومن يضلل الله فما له من هاد » وسيأتي الجملة بعد عدة آيات وهي متكررة في كلامه تعالى .

قوله تعالى : « أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » مقايسة بين أهل العذاب يوم القيامة والآمنين منه والفريقان هما أهل الضلال وأهل الهدى ولذا عقب الآية السابقة بهذه الآية .

والاستفهام للإنكار وخبر « من » محذوف والتقدير كمن هو في أمن منه ، ويوم القيامة متعلق بيتقي ، والمعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده التي بها كان يتقي المكاره مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه . كذا قيل .

وقيل : الاتقاء بوجهه بالمعنى المذكور لا وجه له لأن الوجه ليس مما يتقى به بل المراد الاتقاء بكليته أو بخصوص وجهه سوء عذاب يوم القيامة ويوم القيامة قيد للعذاب والمراد عكس الوجه السابق ، والمعنى أفمن يتقي سوء العذاب الذي يوم القيامة في الدنيا بتقوى الله كالمصر على كفره ، ولا يخلو من التكلف .

وقوله : « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » القول للملائكة النار ، والظاهر أن الجملة بتقدير قد أو بدونه والأصل وقيل لهم ذوقوا « الخ » لكن وضع الظاهر موضع

الضمير للدلالة على علة الحكم وهي الظلم .

قوله تعالى : « كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » أي من الجهة التي لا يحتسبون ففوجؤا وأخذوا على غفلة وهو أشد الأخذ ، وفي الآية وما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفار من عذاب الخزي ليكون عبرة لغيرهم .

قوله تعالى : « فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » الخزي هو الذل والصغار ، وقد أذاقهم الله ذلك في ألوان من العذاب أنزلنا عليهم كالغرق والخسف والصيحة والرجفة والمسخ والقتل .

قوله تعالى : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » أي ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال شيئاً لعلهم يتنبهون ويعتبرون ويتعظون بتذكر ما تتضمنه .

قوله تعالى : « قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون » العوج الانحراف والانعطاف ، « قرآنا عربيا » منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخص ونحوه أو حال معتمد على الوصف .

قوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان » الخ، قال الراغب : الشكس ـ بالفتح فالكسر ـ سيىء الخلق ، وقوله : « شركاء متشاكسون » أي متشاجرون لشكاسة خلقهم . انتهى وفسروا السلم بالخالص الذي لا يشترك فيه كثيرون .

مثل ضربه الله للمشرك الذي يعبد أربابا وآلهة مختلفين فيشتركون فيه وهم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر وكل يريد أن يتفرد فيه ويخصه بخدمة نفسه، والموحد الذي هو خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدي إلى الحيرة فالمشرك هو الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون والموحد هو الرجل الذي هو سلم لرجل . لا يستويان بل الذي هو سلم لرجل أحسن حالا من صاحبه .

وهذا مثل ساذج ممكن الفهم لعامة الناس لكنه عند المداقة يرجع إلى قوله

تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » الأنبياء : ٢٢ وعاد برهاناً على نفي تعدد الأرباب والآلهة .

وقوله : « الحمد لله » ثناء لله بما أن عبوديته خير من عبودية من سواه .

وقوله : « بل أكثرهم لا يعلمون » مزية عبادته على عبادة غيره على ما له من الظهور التام لمن له أدنى بصيرة .

قوله تعالى: « إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » الآية الاولى تمهيد لما يذكر في الثانية من اختصامهم يوم القيامة عند ربهم والخطاب في « إنكم » للنبي ﷺ وامته أو المشركين منهم خاصة والاختصام ـ كما في المجمع ـ رد كل واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه .

والمعنى: إن عاقبتك وعاقبتهم الموت ثم إنكم جميعا يوم القيامة بعد ما حضرتم عند ربكم تختصمون وقد حكى مما يلقيه النبي ﷺ « وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » الفرقان : ٣٠ .

والآيتان عامتان بحسب لفظهما لكن الآيات الأربع التالية تؤيد أن المراد بالاختصام ما يقع بين النبي ﷺ وبين الكافرين من امته يوم القيامة .

قوله تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين » في الآية وما بعدها مبادرة إلى ذكر ما ينتهي إليه أمر اختصامهم يوم القيامة وتلويح إلى ما هو نتيجة القضاء بينهم كأنه قيل : ونتيجة ما يقضى به بينكم معلومة اليوم وأنه من هو الناجي منكم ، ومن هو الهالك ؟ فإن القضاء يومئذ يدور مدار الظلم والإحسان ولا أظلم من الكافر والمؤمن متق محسن والظلم إلى النار والإحسان إلى الجنة . هذا ما يعطيه السياق .

فقوله : « فمن أظلم ممن كذب على الله » أي افترى عليه بأن ادعى أن له شركاء والظلم يعظم بعظم من تعلق به وإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم من كل ظلم ومرتكبه أظلم من كل ظالم .

وقوله : « وكذب بالصدق إذ جاءه » المراد بالصدق الصادق من النباء وهو الدين

الإلهي الذي جاء به الرسول بقرينة قوله : « إذ جاءه » .

وقوله : « أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » المثوى اسم مكان بمعنى المنزل والمقام ، والاستفهام للتقرير أي إن في جهنم مقام هؤلاء الظالمين لتكبرهم على الحق الموجب لافترائهم على الله وتكذيبهم بصادق النبأ الذي جاء به الرسول .

والآية خاصة بمشركي عهد النبي ﷺ أو بمشركي امته بحسب السياق وعامة لكل من ابتدع بدعة وترك سنة من سنن الدين .

قوله تعالى : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » المراد بالمجيء بالصدق الإتيان بالدين الحق والمراد بالتصديق به الإيمان به والذي جاء به النبي ﷺ .

وقوله : « أولئك هم المتقون » لعل الإشارة إلى الذي جاء به بصيغة الجمع لكونه جمعا بحسب المعنى وهو كل نبي جاء بالدين الحق وآمن بما جاء به بل وكل مؤمن آمن بالدين الحق ودعى إليه فإن الدعوة إلى الحق قولا وفعلا من شئون اتباع النبي ، قال تعالى: «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » يوسف : ١٠٨ .

قوله تعالى : « لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » هذا جزاؤهم عند ربهم وهو أن لهم ما تتعلق به مشيتهم فالمشية هناك هي السبب التام لحصول ما يشاؤه الإنسان أياما كان بخلاف ما عليه الأمر في الدنيا فإن حصول شيء من مقاصد الحياة فيها يتوقف ـ مضافا إلى المشية ـ على عوامل وأسباب كثيرة منها السعي والعمل المستمد من الاجتماع والتعاون .

فالآية تدل أولاً على إقامتهم في دار القرب وجوار رب العالمين ، وثانياً أن لهم ما يشاؤن فهذان جزاء المتقين وهم المحسنون فإحسانهم هو السبب في إيتائهم الأجر المذكور وهذه هي النكتة في إقامة الظاهر مقام الضمير في قوله : « وذلك جزاء المحسنين » وكان مقتضى الظاهر أن يقال : وذلك جزاؤهم .

وتوصيفهم بالإحسان وظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحق والعمل الحسن جميعا يشهد أن المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولا وفعلا . على أن القرآن لا يسمي تارك بعض ما أنزله الله من حكم مصدقا به .

قوله تعالى : « ليكفر الله عنهم أسوء الذي عملوا » إلى آخر الآية ومن المعلوم أنه إذا كفر أسوء أعمالهم كفر ما دون ذلك ، والمراد بأسوء الذي عملوا ما هو كالشرك والكبائر .

قال في مجمع البيان في الآية : أي أسقط الله عنهم عقاب الشرك والمعاصي التي فعلوها قبل ذلك بإيمانهم وإحسانهم ورجوعهم إلى الله تعالى انتهى وهو حسن من جهة تعميم الأعمال السيئة ، ومن جهة تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالإيمان والإحسان والتوبة فإن الآية تبين أثر تصديق الصدق الذي أتاهم وهو تكفير السيئات بالتصديق والجزاء الحسن في الآخرة .

وقوله : « ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون » .

قيل : المراد أنه ينظر إلى أعمالهم فيجازيهم في أحسنها جزاءه اللائق به وفي غير الأحسن يجازيهم جزاء الأحسن فالباء للمقابلة نحو بعت هذا بهذا .

ويمكن أن يقال : إن المراد أنه ينظر إلى أرفع أعمالهم درجة فيترفع درجتهم بحسبه فلا يضيع شيء مما هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن في جريان نظير الكلام في تكفير الأسوء خفاء .

وقيل : صيغة التفضيل في الآية « أسوء » و « أحسن» مستعملة في الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه فإن معصية الله كلها أسوء وطاعته كلها أحسن .

قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » المراد بالذين من دونه آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق ، والمراد بالعبد من مدحه الله تعالى في الآيات السابقة ويشمل النبي ﷺ شمولاً أولياً .

والاستفهام للتقرير والمعنى هو يكفيهم ، وفيه تأمين للنبي ﷺ قبال تخويفهم إياه بآلهتهم وكناية عن وعده بالكفاية كما صرح به في قوله : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » البقرة : ١٣٧ .

قوله تعالى : « ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل » الخ جملتان كالمتعاكستين مرسلتان إرسال الضوابط الكلية ولذا جيء فيهما باسم الجلالة

وكان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير .

وفي تعقيب قوله : « أليس الله بكاف » الخ بقوله : « ومن يضلل » الخ إشارة إلى أن هؤلاء المخوفين لا يهتدون بالإيمان أبداً ولن ينجح مسعاهم وأنهم لن ينالوا بغيتهم ولا امنيتهم من النبي ﷺ فإن الله لن يضله وقد هداه .

وقوله : « أليس الله بعزيز ذي انتقام » استفهام للتقرير أي هو كذلك ، وهو تعليل ظاهر لقوله: «ومن يضلل الله» الخ فإن عزته و كونه ذا انتقام يقتضيان أن ينتقم ممن جحد الحق وأصرعلى كفره فيضله ولا هادي يهديه لأنه تعالى عزيز لا يغلبه فيما يريد غالب ، و كذا إذا هدى عبداً من عباده لتقواه وإحسانه لم يقدر على إضلاله مضل .

وفي التعليل دلالة على أن الإضلال المنسوب إلى الله تعالى هو ما كان على نحو المجازاة والانتقام دون الضلال الابتدائي وقد مر مرارا .

﴿ بحث روائي ﴾

عن روضة الواعظين روي أن النبي ﷺ قرء « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » فقال : إن النور إذا وقع في القلب انفسح له وانشرح . قالوا : يا رسول الله فهل لذلك علامة يعرف بها ؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

أقول: ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود وعن الحكيم الترمذي عن ابن عمر ، وعن ابن جرير وغيره عن قتادة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره » الآية قال : نزلت في أمير المؤمنين عليه‌السلام .

أقول : ونزول السورة دفعة لا يلائمه كما مر في نظيره .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قالوا : يا رسول الله لو حدثتنا فنزل : « الله نزل أحسن الحديث » .

أقول : وهو من التطبيق .

وفي المجمع في قوله تعالى : « تقشعر منه جلود » الآية روى عن العباس بن عبد المطلب أن النبي ﷺ قال : إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت [1] عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « قرآنا عربيا غير ذي عوج » أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي ﷺ في قوله : « قرآنا عربيا غير ذي عوج » قال: غير مخلوق .

اقول : الآية تأبى عن الانطباق على الرواية وقد تقدم كلام في معنى الكلام في ذيل قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » البقرة : ٢٥٣ في الجزء الثاني من الكتاب .

وفي المجمع في قوله تعالى: « ورجلا سلما لرجل» روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن علي أنه قال : أنا ذلك الرجل السلم لرسول الله ﷺ .

اقول: ورواه أيضاً عن العياشي بإسناده عن أبي خالد عن أبي جعفر عليه السلام وهو من الجري والمثل عام .

وفيه في قوله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » قال ابن عمر : كنا نرى أن هذه فينا وفي أهل الكتابين وقلنا: كيف نختصم نحن ونبينا واحد وكتابنا واحد ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعلمت أنها فينا نزلت .

وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول: إن ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

اقول : وروى في الدر المنثور الحديث الأول بطرق مختلفة عن ابن عمر وفي ألفاظها اختلاف والمعنى واحد، ورواه أيضاً عن عدة من أصحاب الجوامع عن إبراهيم النخعي، وروى ما يقرب منه بطريقين عن الزبير بن العوام ، وروى الحديث الثاني عن سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري .

---

(١) أي تناثرت .

والأحاديث تعارض ما روي أن الصحابة مجتهدون مأجورون إن أصابوا وإن أخطأوا .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والذي جاء بالصدق وصدق به » قيل : الذي جاء بالصدق محمد ﷺ وصدق به علي بن ابي طالب عليه السلام وهو المروي عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أبي هريرة ، والظاهر أنه من الجري نظراً إلى قوله في ذيل الآية « أولئك هم المتقون » .

وروي من طرقهم أن الذي صدق به أبو بكر وهو أيضاً من تطبيق الراوي ، روي أن الذي جاء به جبريل والذي صدق به محمد ﷺ وهو أيضاً تطبيق غير أن السياق يدفعه فإن الآيات مسوقة لوصف النبي ﷺ والمؤمنين وجبريل أجنبي عنه لا تعلق للكلام به .

* * *

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ـ ٣٨ . قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ـ ٣٩ . مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ـ ٤٠ . إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بوكيل - ٤١ . اللهُ يَتوفّى الأنفسَ حينَ موتِها والّتي لم تمتْ في مَنامِها فيُمسِكُ الّتي قضى عليها الموتَ ويُرسلُ الأخرى إلى أجلٍ مُسمًّى إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكّرونَ - ٤٢ . أمِ اتّخذوا مِنْ دونِ اللهِ شُفعاءَ قلْ أوَ لوْ كانوا لا يملِكونَ شيئاً ولا يعقلونَ - ٤٣ . قُلْ للهِ الشّفاعةُ جميعاً لهُ مُلْكُ السّمواتِ والأرضِ ثمَّ إليهِ ترجعونَ - ٤٤ . وإذا ذُكِرَ اللهُ وحدَهُ اشمأزّتْ قلوبُ الّذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ وإذا ذُكِرَ الّذينَ مِنْ دونِهِ إذا هُمْ يستبشِرونَ - ٤٥ . قُلِ اللّهمَّ فاطِرَ السّمواتِ والأرضِ عالمَ الغيبِ والشّهادةِ أنتَ تحكُمُ بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيهِ يختلِفونَ - ٤٦ . ولوْ أنَّ للّذينَ ظلموا ما في الأرضِ جميعاً ومثلَهُ معَهُ لافتدَوا بهِ مِنْ سوءِ العذابِ يومَ القيمةِ وبدَا لهمْ مِنَ اللهِ ما لمْ يكونوا يحتسِبونَ - ٤٧ . وبدا لهمْ سيّئاتُ ما كسبوا وحاقَ بهِمْ ما كانوا بهِ يستهزِءونَ - ٤٨ . فإذا مسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعانا ثمَّ إذا خوّلناهُ نعمةً منّا قالَ إنّما أوتيتُهُ على عِلْمٍ بلْ هيَ فتنةٌ ولكنَّ أكثرَهُم لا يعلمونَ - ٤٩ . قدْ قالَها الّذينَ مِنْ قبلِهِمْ فما أغنى عنهُمْ ما كانوا يكسِبونَ - ٥٠ .

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ - ٥١ . أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ - ٥٢ .

﴿ بيان ﴾

في الآيات كرة اخرى على المشركين بالاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية وأنه لا يصلح لها شركاؤهم وأن الشفاعة التي يدعونها لشركائهم لايملكها إلا الله سبحانه وفيها امور أخر متعلقة بالدعوة من موعظة وإنذار وتبشير .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » إلى آخر الآية ، شروع في إقامة الحجة وقد قدم لها مقدمة تبتني الحجة عليها وهي مسلمة عند الخصم وهي أن خالق العالم هو الله سبحانه فإن الخصم لا نزاع له في أن الخالق هو الله وحده لا شريك له وإنما يدعي لشركائه التدبير دون الخلق .

وإذا كان الخلق إليه تعالى فما في السماوات والأرض من عين ولا أثر إلا وينتهي وجوده إليه تعالى فما يصيب كل شيء من خير أو شر كان وجوده منه تعالى وليس لأحد أن يمسك خيراً يريده تعالى له أو يكشف شرا يريده تعالى له لأنه من الخلق والإيجاد ولا شريك له تعالى في الخلق والإيجاد حتى يزاحمه في خلق شيء أو يمنعه من خلق شيء أو يسبقه إلى خلق شيء والتدبير نظم الامور وترتيب بعضها على بعض خلق وإيجاد فالله الخالق لكل شيء كاف في تدبير أمر العالم لأنه الخالق لكل شيء وليس وراء الخلق شيء حتى يتوهم إستناده إلى غيره فهو الله رب كل شيء وإلهه لا رب سواه ولا إله غيره .

فقوله : « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله » أي أقم الحجة عليهم بانياً لها على هذه المقدمة المسلمة عندهم أن الله خالق كل شيء وقل مفرعاً عليه أخبروني عما تدعون من دون الله ، والتعبير عن آلهتهم بلفظة « ما » دون « من » ونحوه يفيد تعميم البيان للأصنام وأربابها جميعا فإن الخواص منهم وإن قصروا العبادة على الأرباب من الملائكة

وغيرهم واتخذوا الأصنام قبلة وذريعة إلى التوجه إلى أربابها لكن عامتهم ربما أخذوا الأصنام نفسها أربابا وآلهة يعبدونها ونتيجة الحجة عامة تشمل الجميع .

وقوله : « إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته » الضر كالمرض والشدة ونحوهما ، وظاهر مقابلته الرحمة عمومه لكل مصيبة ، وإضافة الضر والرحمة إلى ضميره تعالى في «كاشفات ضره» و « ممسكات رحمته» لحفظ النسبة لأن المانع من كشف الضر وإمساك الرحمة هو نسبتها إليه تعالى .

وتخصيص الضر والرحمة به ﷺ من عموم الحجة له ولغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم وقد خوفوه بآلهتهم من دون الله .

وإرجاع ضمير الجمع المؤنث إلى ما يدعونه من دون الله لتغليب جانب غير اولي العقل من الأصنام وهو يؤيد ما قدمناه في قوله : « أفرأيتم ما تدعون من دون الله » أن التعبير بما لتعميم الحجة للأصنام وأربابها .

وقوله : « قل حسبي الله » أمر بالتوكل عليه تعالى كما يدل عليه قوله بعده : « عليه يتوكل المتوكلون » وهو موضوع موضع نتيجة الحجة كأنه قيل : قل لهم : إني اتخذت الله وكيلا لأن أمر تدبيري إليه كما أن أمر خلقي إليه فهو في معنى قولنا: فقد دلت الحجة على ربوبيته وصدقت ذلك عملا باتخاذه وكيلا في اموري .

وقوله: « عليه يتوكل المتوكلون» تقديم الظرف على متعلقه للدلالة على الحصر أي عليه يتوكلون لا على غيره ، وإسناد الفعل إلى الوصف من مادته للدلالة على كون المراد المتوكلين بحقيقة معنى التوكل ففي الجملة ثناء عليه تعالى بأنه الأهل للتوكل عليه يتوكل أهل البصيرة في التوكل فلا لوم علي إن توكلت عليه وقلت : حسبي الله .

قوله تعالى : « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل – إلى قوله – عذاب مقيم » المكانة هي المنزلة والقدر وهي في المعقولات كالمكان في المحسوسات فأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم معناه أمرهم أن يستمروا على الحالة التي هم عليها من الكفر والعناد والصد عن سبيل الله .

وقوله : « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه » الظاهر أن « من » استفهامية

لا موصولة لظهور العلم فيما يتعلق بالجملة لا بالمفرد .

وقوله : « ويحل عليه عذاب مقيم » أي دائم وهو المناسب للحلول ، وتفكيك أمر العذابين يشهد أن المراد بالأول عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الآخرة ، وفي الكلام أشد التهديد .

والمعنى قل مخاطباً للمشركين من قومك : يا قوم اعملوا ـ مستمرين ـ على حالتكم التي أنتم عليها من الكفر والعناد إني عامل ـ كما أمر غير منصرف عنه ـ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله ؟ وهو عذاب الدنيا كما في يوم بدر ويحل عليه ولا يفارقه عذاب دائم وهو عذاب الآخرة .

قوله تعالى : « إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق » إلى آخر الآية : في مقام التعليل للأمر الذي في الآية السابقة ، واللام في قوله : « الناس » للتعليل أي لأجل الناس أن تتلوه عليهم وتبلغهم ما فيه ، والباء في قوله : « بالحق » للملابسة أي ملابساً للحق لا يشوبه باطل .

وقوله : « فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها » أي يتفرع على هذا الإنزال أن من اهتدى فإنما يعود نفعه من سعادة الحياة وثواب الدار الآخرة إلى نفسه ، ومن ضل ولم يهتد به فإنما يعود شقاؤه ووباله من عقاب الدار الآخرة إلى نفسه فالله سبحانه أجل من أن ينتفع بهداهم أو يتضرر بضلالهم .

وقوله : « وما أنت عليهم بوكيل » أي مفوضاً إليه أمرهم قائماً بتدبير شئونهم حتى توصل ما فيه من الهدى إلى قلوبهم .

والمعنى إنما أمرناك أن تهددهم بما قلنا لأنا نزلنا عليك الكتاب بالحق لأجل أن تقرأه على الناس لا غير فمن اهتدى منهم فإنما يعود نفعه إلى نفسه ومن ضل ولم يهتد به فإنما يعود ضرره إلى نفسه وما أنت وكيلا من قبلنا عليهم تدبر شئونهم فتوصل الهدى إلى قلوبهم فليس لك من الأمر شيء .

قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » إلى آخر الآية ، قال في المجمع: التوفي قبض الشيء على الإيفاء والإتمام يقال : توفيت حقي من فلان واستوفيته بمعنى .

انتهى . تقديم المسند إليه في الآية يفيد الحصر أي هو تعالى المتوفي لها لا غير وإذا انضمت الآية إلى مثل قوله تعالى: « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » السجدة : ١١ ، وقوله : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا » الأنعام : ٦١ أفادت معنى الأصالة والتبعية أي إنه تعالى هو المتوفي بالحقيقة وملك الموت والملائكة الذين هم أعوانه أسباب متوسطة يعملون بأمره .

وقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » المراد بالأنفس الأرواح المتعلقة بالأبدان لا مجموع الأرواح والأبدان لأن المجموع غير مقبوض عند الموت وإنما المقبوض هو الروح يقبض من البدن بمعنى قطع تعلقه بالبدن تعلق التصرف والتدبير والمراد بموتها موت أبدانها إما بتقدير المضاف أو بنحو المجاز العقلي ، وكذا المراد بمنامها .

وقوله : « والتي لم تمت في منامها » معطوف على الأنفس في الجملة السابقة ، والظاهر أن المنام اسم زمان وفي منامها متعلق بيتوفى والتقدير ويتوفى الأنفس التي لم تمت في وقت نومها .

ثم فصل تعالى في القول في الأنفس المتوفاة في وقت النوم فقال : « فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى » أي فيحفظ النفس التي قضى عليها الموت كما يحفظ النفس التي توفاها حين موتها ولا يردها إلى بدنها ، ويرسل النفس الاخرى التي لم يقض عليها الموت إلى بدنها إلى أجل مسمى تنتهي إليه الحياة .

وجعل الأجل المسمى غاية للإرسال دليل على أن المراد بالإرسال جنسه بمعنى أنه يرسل بعض الأنفس إرسالاً واحداً وبعضها إرسالا بعد إرسال حتى ينتهي إلى الأجل المسمى .

ويستفاد من الآية أولاً : أن النفس موجود مغاير للبدن بحيث تفارقه وتستقل عنه وتبقى بحيالها .

وثانيا : أن الموت والنوم كلاهما توف وإن افترقا في أن الموت توف لا إرسال بعده والنوم توف ربما كان بعده إرسال .

ثم تمم الآية بقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فيتذكرون أن الله

سبحانه هو المدبر لأمرهم وأنهم إليه راجعون سيحاسبهم على ما عملوا .

قوله تعالى : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء » الخ « أم » منقطعة أي بل اتخذ المشركون من دون الله شفعاء وهم آلهتهم الذين يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه كما قال في أول السورة : « ما نعبـــدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وقال : « يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ .

وقوله : « قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقـلون » أمر بأن يرده عليهم بالمناقشة في إطلاق كلامهم فإن من البديهي أن الشفاعة تتوقف على علم في الشفيع يعلم به ما يريد ؟ وممن يريد ؟ ولمن يريد ؟ فلا معنى لشفاعة الجماد الذي لا شعور له وكذا تتوقف على أن يملك الشفيع الشفاعة ويكون له حق أن يشفع ولا ملك لغير الله إلا أن يملكه الله شيئاً ويأذن له في التصرف فيه فقولهم بشفاعة أوليائهم مطلقا الشامل لما لا يملكونه ولا علم لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرص .

فالاستفهام في «أو لو كانوا» الخ للإنكار والمعنى قل لهم: هل تتخذونهم شفعاء لكم ولو كانوا لا يملكون من عند أنفسهم شيئاً كالملائكة ولا يعقلون شيئاً كالأصنام؟ فإنه سفه.

قوله تعالى : « قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض » الخ توضيح وتأكيد لما مر من قوله : « قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً » واللام في « لله » للملك ، وقوله: « له ملك السماوات والأرض» في مقام التعليل الجملة السابقة ، والمعنى كل شفاعة فإنها مملوكة لله فإنه المالك لكل شيء إلا أن يأذن لأحد في شيء منها فيملكه إياها ، وأما استقلال بعض عباده كالملائكة يملك الشفاعة مطلقاً كما يقولون فمما لا يكون قال تعالى : « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » يونس : ٣ .

وللآية معنى آخر أدق إذا انضمت إلى مثل قوله تعالى: «ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع » الأنعام : ٥١ وهو أن الشفيع بالحقيقة هو الله سبحانه وغيره من الشفعاء لهم الشفاعة بإذن منه فقد تقدم في بحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن الشفاعة ينتهي إلى توسط بعض صفاته تعالى بينه وبين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسط الرحمة والمغفرة بينه وبين عبده المذنب لانجائه من وبال الذنب وتخليصه من العذاب .

والفرق بين هذا الملك وما في الوجه السابق أن المالك لا يتصف بمملوكه في الوجه

السابق كما في ملك زيد للدار بخلاف الملك في هذا الوجه فإن المالك فيه يتصف بمملوكه كملك زيد الشجاع لشجاعته .

وقوله : « ثم إليه ترجعون » تعليل آخر لكونه يملك الشفاعة جميعا الدال على الحصر وذلك أن الشفاعة إنما يملكها الذي ينتهي إليه أمر المشفوع له إن شاء قبلها وأصلح حال المشفوع له وأما غيره فإنما يملكها إذا رضي بها وأذن فيها والله سبحانه هو الذي يرجع إليه العباد دون الذين يدعون من دون الله فالله هو المالك للشفاعة جميعا فقولهم يكون أوليائهم شفعاء لهم مطلقا ثم عبادتهم لهم كذلك بناء بلا مبنى يعتمد عليه .

وقيل : قوله : « ثم إليه ترجعون » تهديد لهم كأنه قيل : ثم إليه ترجعون فتعلمون أنهم لا يشفعون لكم ويخيب سعيكم في عبادتهم .

وقيل: يحتمل أن يكون تنصيصا على مالكية الآخرة التي فيها معظم نفع الشفاعة وإيماء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه تعالى ، والوجه ما قدمناه .

قوله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة » الخ المراد من ذكره تعالى وحده جعله مفردا بالذكر من غير ذكر آلهتهم ومن مصاديقه قول لا إله إلا الله ، والاشمئزاز الانقباض والنفور عن الشيء .

وإنما ذكر من وصفهم عدم إيمانهم بالآخرة لأن ذلك هو الأصل في اشمئزازهم ولو كانوا مؤمنين بالآخرة وأنهم يرجعون إلى الله فيجازيهم بأعمالهم عبدوه دون أوليائهم ولم يرغبوا عن ذكره وحده .

وقوله : « وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون » المراد بالذين من دونه آلهتهم ، والاستبشار سرور القلب بحيث يظهر أثره في الوجه .

قوله تعالى: «قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم» الخ لما بلغ الكلام مبلغا لا يرجى معه فيهم خير لنسيانهم أمر الآخرة وإنكارهم الرجوع إليه تعالى حتى كانوا يشمئزون من ذكره تعالى وحده أمره ﷺ أن يذكره تعالى وحده ويذكر حكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه في صورة الإلتجاء إليه تعالى على ما فيه من الإقرار بالبعث وقد وصف الله تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض أي مخرجها من

كتم العدم إلى ساحة الوجود ، وعالم الغيب والشهادة فلا يخفى عليه شيء ، ولازمه أن يحكم بالحق وينفذ حكمه .

قوله تعالى : « ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة » الخ المراد بالذين ظلموا هم الذين ظلموا في الدنيا فالفعل يفيد مفاد الوصف ، والظالمون هم المنكرون للمعاد كما قال : « أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ .

والمعنى: ولو أن الظالمين المنكرين للمعاد ضعفي ما في الأرض من أموال وذخائر وكنوز لجعلوه فدية من سوء العذاب .

وقوله : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » البداء والبدو بمعنى الظهور والحساب والحسبان العد ، والاحتساب الاعتداد بالشيء بمعنى البناء على عده شيئاً ، وكثيراً ما يستعمل الحسبان والاحتساب بمعنى الظن كما قيل ومنه قوله: « ما لم يكونوا يحتسبون » أي ما لم يكونوا يظنون لكن فرق الراغب بين الحسبان والظن حيث قال: والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، ويقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر . انتهى .

ومقتضى سياق الآية أن المراد بيان أنهم سيواجهون يوم القيامة اموراً على صفة هي فوق ما تصوروه وأعظم وأهول مما خطر ببالهم لا أنهم يشاهدون أموراً ما كانوا يعتقدونها ويذعنون بها وبالجملة كانوا يسمعون أن الله حساباً ووزناً للأعمال وقضاء وناراً وألواناً من العذاب فيقيسون ما سمعوه – على إنكار منهم له – على ما عهدوه من هذه الامور في الدنيا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما كان يخطر ببالهم من صفتها فهذه الآية في وصف عذابه نظير قوله في وصف نعيم أهل الجنة : « فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين » السجدة : ١٧ .

وأيضاً مقتضى السياق أن البدو المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء والإنكشاف بعد الاستتار كما يشير إليه قوله تعالى: « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ .

قوله تعالى : « وبدا لهم سيئات ما كسبوا » إلى آخر الآية أي ظهر لهم سيئات

أعمالهم بعد ما كانت خفية عليهم فهو كقوله : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

وقوله : « وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن » أي ونزل عليهم وأصابهم ما كانوا يستهزؤن به في الدنيا إذا سمعوه من أولياء الدين من شدائد يوم القيامة وأهواله وأنواع عذابه .

قوله تعالى : « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة قال إنما اوتيته على علم » الخ الآية في مقام التعليل البياني لما تقدم من وصف الظالمين ولذا صدرت بالفاء لتتفرع على ما تقدم تفرع البيان على المبين .

فهو تعالى لما ذكر من حالهم أنهم أعرضوا عن كل آية دالة على الحق ولم يصغوا إلى الحجج المقامة عليهم ولم يسمعوا موعظة ولم يعتدوا بعبرة فجحدوا ربوبيته تعالى وأنكروا البعث والحساب وبلغ بهم ذلك أن اشمأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده .

بيّن أن ذلك مما يستدعيه طبع الإنسان المائل إلى اتباع هوى نفسه والاغترار بما زين له من نعم الدنيا والأسباب الظاهرية الحافة بها فالإنسان حليف النسيان إذا مسه الضر أقبل إلى ربه وأخلص له ودعاه ثم إذا خوله ربه نعمة نسبه إلى علم نفسه وخبرته ونسي ربه وجهل أنها فتنة فتن بها .

فقوله : « فإذا مس الإنسان ضر » أي مرض أو شدة « دعانا » أي خصنا بالدعاء وانقطع عن غيرنا .

وقوله : « ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما اوتيته على علم » التخويل الإعطاء على نحو الهبة ، وتقييد النعمة بقوله : « منا » للدلالة على كون وصف النعمة محفوظاً لها والمعنى خولناه نعمة ظاهراً كونها نعمة .

وضمير « اوتيته » للنعمة بما أنه شيء أو مال والعناية في ذلك بالإشارة إلى أنه لا يعترف بكونها نعمة منا بل يقطعها عنا فيسميها شيئاً أو مالاً ونحوه ولا يسميها نعمة حتى يضطره ذلك إلى الاعتراف بمنعم والإشارة إليه كما قال : « اوتيته » فصفح عن

الفاعل لذلك والتعبيران أعني « نعمة منا » « إنما اوتيته » من لطيف تعبير القرآن ، وقد وجهوا تذكير الضمير في « اوتيته » بوجوه أخر غير موجهة من أرادها فليرجع إلى المفصلات .

والملائم لسياق الآية أن يكون معنى «على علم» على علم مني أي اوتيت هذا الذي أوتيت على علم مني وخبرة بطرق كسب المعاش واقتناء الثروة وجمع المال .

وقيل : المراد إنما أُوتيته على علم من الله بخير عندي استحق به أن يؤتيني النعمة ؛ وقيل : المراد على علم مني برضى الله عني ، وأنت خبير بأن ما تقدم من معنى قوله : « ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أُوتيته » لا يلائم شيئاً من القولين .

وقوله : « بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » أي بل النعمة التي خولناه منا فتنة أي ابتلاء وامتحان نمتحنه بذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون بذلك .

وقيل : معناه بل تلك النعمة عذاب لهم ، وقيل : المعنى بل هذه المقالة فتنة لهم يعاقبون عليها والوجهان بعيدان سيما الأخير .

قوله تعالى: « قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا» ضمير « قد قالها » راجع إلى القول السابق باعتبار أنه مقالة أو كلمة.

والآية رد لقولهم وإثبات لكونها فتنة يمتحنون بها بأنهم لو اوتوها على علم منهم واكتسبوها بحولهم وقوتهم لأغنى عنهم كسبهم ولم يصبهم سيئات ما كسبوا وحفظوها لأنفسهم وتنعموا بها ولم يهلكوا دونها وليس كذلك فهؤلاء الذين قبلهم قالوا هذه المقالة فما أغنى عنهم كسبهم وأصابهم سيئات ما كسبوا .

والظاهر أن الآية تشير بقوله : « قد قالها الذين من قبلهم » إلى قارون وأمثاله وقد حكي عنه قول « إنما اوتيته على علم مني » في قصته من سورة القصص .

قوله تعالى : « والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم ما كسبوا وما هم بمعجزين » الإشارة بهؤلاء إلى قومه ﷺ والمعنى أن هؤلاء الذين ظلموا من قومك سبيلهم سبيل من قبلهم سيصيبهم سيئات كسبهم ووبالات عملهم وما هم بمعجزين لله .

قوله تعالى : «أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» الخ جواب آخر

عن قول القائل منهم : « إنما اوتيته على علم » وقد كان الجواب الأول « قد قالها الذين من قبلهم » الخ جوابا من طريق النقض وهذا جواب من طريق المعارضة بالإشارة إلى دلالة الدليل على أن الله سبحانه هو الذي يبسط الرزق ويقدر .

بيان ذلك : أن سعي الإنسان عن علم وإرادة لتحصيل الرزق ليس سببا تاما موجبا لحصول الرزق وإلا لم يتخلف ومن البين خلافه فكم من طالب رجع آيسا وساع خاب سعيه

فهناك علل وشرائط زمانية ومكانية وموانع مختلفة باختلاف الظروف خارجة عن حد الإحصاء إذا اجتمعت وتوافقت أنتج ذلك حصول الرزق .

وليس اجتماع هذه العلل والشرائط على ما فيها من الاختلاف والتشتت والتفرق من مادة وزمان ومكان ومقتضيات اخر مرتبطة بها مقارنة أو متقدمة وعلل العلل ومقدماتها الذاهبة إلى ما لا يحصى ، اجتماعا وتوافقا على سبيل الاتفاق فإن الاتفاق لا يكون دائميا ولا أكثريا وقانون ارتزاق المرتزقين الشامل للموجودات الحية بل المنبسط على أقطار العالم المشهود وأرجائه ثابت محفوظ في نظام جار على ما فيه من السعة والانبساط ولو انقطع لهلكت الأشياء لأول لحظة ومن فورها .

وهذا النظام الجاري بوحدته وتناسب أجزاؤه وتلاؤمها يكشف عن وحدانية ناظمه وفردانية مدبره ومديره الخارج عن أجزاء العالم المحفوظة بنفس النظام الباقية به وهو الله عز اسمه .

على أن النظام من التدبير والتدبير من الخلق كما مر مرارا فخالق العالم مدبره ومدبره رازقه وهو الله تعالى شأنه .

ويشير إلى هذا البرهان في الآية قوله : « لمن يشاء » فإنه إذا كان بسط الرزق وقدره بمشيئته تعالى لم يكن بمشيئة الإنسان الذي يتبجح بعلمه وسعيه ولا بمشيئة شيء من العلل والأسباب وإيجابه كما هو ظاهر وليس من قبيل الاتفاق بل هو على نظام جار فهو بمشيئة جاعل النظام ومجريه وهو الله سبحانه .

وقد تقدم كلام في معنى الرزق في ذيل قوله تعالى : « وترزق من تشاء بغير حساب » آل عمران : ٢٧ وسيأتي كلام فيه في تفسير قوله : « فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » الذاريات : ٢٣ إن شاء الله تعالى

﴿ بحث روائي ﴾

في التوحيد عن علي عليه‌السلام في حديث وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات قال : وأما قوله : « يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » وقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » وقوله : « توفته رسلنا وهم لا يفرطون » وقوله: « الذين يتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » وقوله : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم » فإن الله تبارك وتعالى يدبر الأمر كيف يشاء ويوكل من خلقه من يشاء بما يشاء أما ملك الموت فإن الله يوكله بخاصته ممن يشاء من خلقه ويوكل رسله من الملائكة خاصة بمن يشاء من خلقه .

وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس لأن فيهم القوي والضعيف ، ولأن منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله إلا أن يسهل الله له حمله وأعانه عليه من خاصة أوليائه .

وإنما يكفيك أن تعلم أن الله المحيي المميت ، وأنه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم .

وفي الخصال عن علي عليه‌السلام في حديث الأربعمائة : لا ينام المسلم وهو جنب لا ينام إلا على طهور فإن لم يجد الماء فليتيمم بالصعيد فإن روح المؤمن ترفع إلى الله تعالى فيقبلها ويبارك عليها فإن كان أجلها قد حضر جعلها في كنوز رحمته وإن لم يكن أجلها قد حضر بعث بها مع امنائه من ملائكته فيردونها في جسده .

وفي المجمع روى العياشي بالإسناد عن الحسن بن محبوب عن عمرو بن ثابت عن أبي المقدام عن أبيه عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه وصار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح وهو قوله سبحانه: « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الآية .

فمهما رأت في ملكوت السماوات فهو مما له تأويل وما رأت فيما بين السماء والأرض فهو مما يخيله الشيطان ولا تأويل له .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال : العجب من رؤيا الرجل إنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال فيكون رؤياه كأخذ باليد ويرى الرجل الرؤيا فلا يكون رؤياه شيئاً .

فقال علي بن أبي طالب : أفلا اخبرك بذلك يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى » فالله يتوفى الأنفس كلها فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا ارسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فعجب عمر من قوله .

اقول : تقدم تفصيل الكلام في الرؤيا في سورة يوسف والرجوع إليه يعين في فهم معنى الروايتين ، وقد اطلق فيهما السماء على ما اصطلح عليه بعالم المثال الأعظم وما بين السماء والأرض على ما اصطلح عليه بعالم المثال الأصغر فتبصر .

* * *

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ـ ٥٣ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ـ ٥٤ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ـ ٥٥ . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ـ ٥٦ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ـ ٥٧ .

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ـ ٥٨ . بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ـ ٥٩ . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ـ ٦٠ . وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ـ ٦١ .

﴿ بيان ﴾

في الآيات أمره ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام واتباع ما أنزل الله ويحذرهم عما يستعقبه اسرافهم على أنفسهم من الحسرة والندامة يوم لا ينفعهم ذلك مع استكبارهم في الدنيا على الحق والفوز والنجاة يومئذ للمتقين والنار والخسران للكافرين ، وفي لسان الآيات من الرأفة والرحمة ما لا يخفى .

قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » الخ أمره ﷺ أن يدعوهم من قبله ويناديهم بلفظة يا عبادي وفيه تذكير بحجة الله سبحانه على دعوتهم إلى عبادتهم وترغيب لهم إلى استجابة الدعوة أما التذكير بالحجة فلأنه يشير إلى أنهم عباده وهو مولاهم ومن حق المولى على عبده أن يطيعه ويعبده فله أن يدعوه إلى طاعته وعبادته ، وأما ترغيبهم إلى استجابة الدعوة فلما فيه من الإضافة إليه تعالى الباعث لهم إلى التمسك بذيل رحمته ومغفرته .

وقوله: « الذين أسرفوا على أنفسهم » الإسراف ـ على ما ذكره الراغب ـ تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر ؛ وكأن الفعل مضمن معنى الجناية أو ما يقرب منها ولذا عدي بعلى. والإسراف على النفس هو التعدي عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك وسائر الذنوب الكبيرة والصغيرة على ما يعطيه السياق.

وقال جمع : إن المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافاً إليه تعالى

في القرآن فمعنى يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم أيها المؤمنون المذنبون .

ويدفعه أن قوله : «يا عبادي الذين أسرفوا» إلى تمام سبع آيات ذو سياق واحد متصل يفصح عن دعوتهم وقوله في ذيل الآيات : « بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت » الخ كالصريح أو هو صريح في شمول العباد للمشركين .

وما ورد في كلامه تعالى من لفظ « عبادي» والمراد به المؤمنون بضعة عشر مورداً جميعها محفوفة بالقرينة وليس بحيث ينصرف عند الإطلاق إلى المؤمنين كما أن الموارد التي أطلق فيها واريد به الأعم من المشرك والمؤمن في كلامه كذلك .

وبالجملة شمول «عبادي» في الآية للمشركين لا ينبغي أن يرتاب فيه ، والقول بأن المراد به المشركون خاصة نظراً إلى سياق الآيات كما نقل عن ابن عباس أقرب إلى القبول من تخصيصه بالمؤمنين .

وقوله: « لا تقنطوا من رحمة الله » القنوط اليأس، والمراد بالرحمة بقرينة خطاب المذنبين ودعوتهم هو الرحمة المتعلقة بالآخرة دون ما هي أعم الشاملة للدنيا والآخرة ومن المعلوم أن الذي يفتقر إليه المذنبون من شئون رحمة الآخرة بلا واسطة هو المغفرة فالمراد بالرحمة المغفرة ولذا علل النهي عن القنوط من الرحمة بقوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

وفي الآية التفات من التكلم إلى الغيبة حيث قيل : « إن الله يغفر » ولم يقل : إني أغفر وذلك للإشارة إلى أنه الله الذي له الأسماء الحسنى ومنها أنه غفور رحيم كأنه يقول لا تقنطوا من رحمتي فإني أنا الله أغفر الذنوب جميعا لأن الله هو الغفور الرحيم .

وقوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » تعليل للنهي عن القنوط وإعلام بأن جميع الذنوب قابلة للمغفرة فالمغفرة عامة لكنها تحتاج إلى سبب مخصص ولا تكون جزافا ، والذي عده القرآن سبباً للمغفرة أمران : الشفاعة [1] والتوبة لكن ليس المراد في قوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » المغفرة الحاصلة بالشفاعة لأن الشفاعة لا تنال

(١) وقد مر الكلام فيها في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب .

الشرك بنص القرآن في آيات كثيرة وقد مر أيضاً أن قوله: « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء: ٤٨ ناظر إلى الشفاعة والآية أعني قوله: « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » موردها الشرك وسائر الذنوب .

فلا يبقى إلا أن يكون المراد المغفرة الخاصة بالتوبة وكلامه تعالى صريح في مغفرة الذنوب جميعاً حتى الشرك بالتوبة .

على أن الآيات السبع – كما عرفت – كلام واحد ذو سياق واحد متصل ينهى عن القنوط – وهو تمهيد لما يتلوه – ويأمر بالتوبة والإسلام والعمل الصالح وليست الآية الاولى كلاما مستقلا منقطعا عما يتلوه حتى يحتمل عدم تقييد عموم المغفرة فيها بالتوبة وأي سبب آخر مفروض للمغفرة .

والآية أعني قوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » من معارك الآراء بينهم فقد ذهب قوم إلى تقييد عموم المغفرة فيها بالشرك وسائر الكبائر التي وعد الله عليها النار مع عدم تقييد العموم بالتوبة فالمغفرة لا تنال إلا الصغائر من الذنوب .

وذهب آخرون إلى إطلاق المغفرة وعدم تقيدها بالتوبة ولا بسبب آخر من أسباب المغفرة غير أنهم قيدوها بالشرك لصراحة قوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » الآية فاستنتجوا عموم المغفرة وإن لم يكن هناك سبب مخصص يرجح المذنب المغفور له على غيره في مغفرته كالتوبة والشفاعة وهي المغفرة الجزافية وقد استدلوا على[1] ذلك بوجوه غير سديدة .

وأنت خبير بأن مورد الآية هو الشرك وسائر الذنوب، ومن المعلوم من كلامه تعالى أن الشرك لا يغفر إلا بالتوبة فتقييد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة مما لا مفر منه .

قوله تعالى: «وانيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون» عطف على قوله « : لا تقنطوا » ، والإنابة إلى الله الرجوع إليه وهو التوبة ، وقوله :

---

(١) وقد استدل الآلوسي في روح المعاني على عدم تقييد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة بسبعة عشر وجها لا تغني طائلا، وناقش في كون المغفرة لا عن سبب موجب من التوبة وغيرها منافيا للحكمة ثم قيد الآية بتقدير « لمن يشاء » لوقوعه في بعض القراءات غير المشهورة فراجعه إن شئت .

« إلى ربكم » من وضع الظاهر موضع المضمر وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وأنيبوا إليه والوجه فيه الإشارة إلى التعليل فإن الملاك في عبادة الله سبحانه صفة ربوبية .

والمراد بالإسلام التسليم لله والانقياد له فيما يريد ، وإنما قال : « وأسلموا له » ولم يقل : وآمنوا به لأن المذكور قبل الآية وبعدها استكبارهم على الحق والمقابل له الإسلام.

وقوله : « من قبل أن يأتيكم العـــذاب ثم لا تنصرون » متعلق بقوله : « أنيبوا وأسلموا » والمراد بالعـذاب عذاب الآخرة بقرينة الآيات التالية ، ويمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الذي لا تقبل معه التوبة ومنه عذاب الاستئصال قال تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده » المؤمن : ٨٥ .

والمراد بقوله : « ثم لا تنصرون » أن المغفرة لا تدرككم بوجه لعدم تحقق سببها فالتوبة مفروضة العدم والشفاعة لا تشمل الشرك .

قوله تعالى : « واتبعوا أحسن ما انزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العـذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » الخطاب عام للمؤمن والكافر كالخطـابات السابقة والقرآن قد انزل إلى الفريقين جميعاً .

وفي الآية أمر بإتبـــاع أحسن ما انزل من الله قيل : المراد به اتباع الأحكام من الحلال والحرام دون القصص ، وقيل : اتباع ما أمر به ونهي عنه كاتيان الواجب والمستحب واجتناب الحرام والمكروه دون المباح ، وقيل : الاتباع في العزائم وهي الواجبات والمحرمات، وقيل : اتباع الناسخ دون المنسوخ ، وقيل : ما أنزل هو جنس الكتب السماوية وأحسنها القرآن فاتباع أحسن ما انزل وهو اتباع القرآن .

والإنصاف أن قوله في الآية السابقة : « وأسلموا له » يشمل مضمون كل من هذه الأقوال فحمل قوله: « واتبعوا أحسن ما انزل إليكم » على شيء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب .

ولعـــل المراد من أحسن ما أنزل الخطابات التي تشير إلى طريق استعمال حق العبودية في امتثال الخطابات الإلهيـــة الاعتقادية والعملية وذلك كالخطابات الداعية إلى ذكر الله تعالى بالاستغراق وإلى حبه وإلى تقواه حق تقاته وإلى إخلاص الدين له فإن

اتباع هذه الخطابات يحيي الإنسان حياة طيبة وينفخ فيـــه روح الإيمان ويصلح أعماله ويدخله في ولاية الله تعالى وهي الكرامة ليست فوقها كرامة.

وقوله : « من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » أنسب لهذا المعنى فإن الدعوة إلى عمل بالتخويف من مفاجاة الحرمان ومباغتة المانع إنما تكون غالبا فيما يساهل المدعو في أمره ويطيب نفسه بسوف ولعل ، وهذا المعنى أمس بإصلاح الباطن منه بإصلاح الظاهر والإتيان بأجساد الأعمال ، ويقرب منه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » الأنفال : ٢٤ .

قوله تعالى : « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » الخ قال في المجمع : التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته ، وقال : التحسر الاغتمام مما فات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه . انتهى . وقال الراغب : الجنب الجارحة . قال: ثم يستعار في الناحية التي تليها لعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال . انتهى . فجنب الله جانبه وناحيته وهي ما يرجع إليه تعالى مما يجب على العبد أن يعامله ومصداق ذلك أن يعبده وحده ولا يعصيه والتفريط في جنب الله التقصير في ذلك .

وقوله : « وإن كنت لمن الساخرين » « إن » مخففة من الثقيلة ، والساخرين اسم فاعل من سخر بمعنى استهزء .

ومعنى الآية إنما نخاطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لئلا تقول نفس منكم يا حسرتا على ما قصرت في جانب الله وإني كنت من المستهزئين، وموطن القول يوم القيامة.

قوله تعالى : « أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين » ضمير تقول للنفس، والمراد بالهداية الإرشاد وإراءة الطريق ، والمعنى ظاهر وهو قطع للعذر .

قوله تعالى : « أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين » لو للتمني والكرة الرجعة ، والمعنى أو تقول نفس متمنية حين ترى العذاب يوم القيامة : ليت لي رجعة إلى الدنيا فأكون من المحسنين .

قوله تعالى: «بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين» رد لها وجواب لخصوص قولها ثانيا : « لو أن الله هداني لكنت من المتقين » وموطن الجواب يوم القيامة كما أن موطن القول ذلك ولسياق الجواب شهادة عليه .

وقد فصل بين قولها وجوابه بقوله : « أو تقول حين ترى » الخ ولم يجب إلا عن قولها : « لو أن الله هداني » الخ .

والوجه في الفصل أن الأقوال الثلاثة المنقولة عنها مرتبة على ترتيب صدورها عن المجرمين يوم القيامة فإذا قامت القيامة ورآى المجرمون أن اليوم يوم الجزاء بالأعمال وقد فرطوا فيها وفاتهم وقتها تحسروا على ما فرطوا ونادوا بالحسرة على تفريطهم « ياحسرتا على ما فرطت » قال تعالى : « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » الأنعام : ٣١ .

ثم إذا حوسبوا وأمر المتقون بدخول الجنة وقيل: «وامتازوا اليوم أيها المجرمون» يس : ٥٩ تعللوا بقولهم : « لو أن الله هداني لكنت من المتقين » .

ثم إذا امروا بدخول النار فأوقفوا عليها ثم ادخلوا فيها تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليحسنوا فيها فيسعدوا « أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة » قال تعالى: « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » الأنعام : ٢٧ ، وقال حاكيا عنهم : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » المؤمنون : ١٠٧ .

ثم لما نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ في الجواب ولو أخر القول المجاب عنه حتى يتصل بالجواب أو قدم الجواب حتى يتصل به اختل النظم (١).

وقد خص قولهم الثاني : « لو أن الله هداني » الخ بالجواب وأمسك عن جواب قولهم الأول والثالث لأن في الأول حديث استهزائهم بالحق وأهله وفي الثالث تمنيهم للرجوع إلى الدنيا والله سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامة ويمنعهم أن يكلموه ولا يجيب عن كلامهم كما يشير إلى ذلك قوله : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا

(١) وأصل الوجه مأخوذ من تفسير أبي السعود بإصلاح منا .

أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسؤا فيهـــا ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفـائزون » المؤمنون : ١١١ .

قوله تعالى : « ويوم القيـامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » الـكذب على الله هو القول بأن له شريـكا وأن له ولداً ومنه البدعة في الدين .

وسواد الوجه آية الذلة وهي جزاء تكبرهم ولذا قال : « أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » .

قوله تعالى : « وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » الظاهر أن مفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز وهو الظفر بالمراد ، والبـاء في « بمفازتهم » للملابسة أو السببية فالفوز الذي يقضيه الله لهم اليوم سبب تنجيتهم .

وقوله : « لا يمسهم » الخ بيان لتنجيتهم كأنه قيل : ينجيهم لا يمسهم السوء من خارج ولا هم يحزنون في أنفسهم .

وللآية نظر إلى قوله تعالى في ذيل آيات ســـورة المؤمنون المنقولة آنفا : « إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون » فتدبر ولا تغفل .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع عن أمير المؤمنين عليه‌السلام أنه قال : ما في القرآن آية أوسـع من : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم » الآية .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير عن ابن سيرين عنه عليه‌السلام ، وستأتي إن شاء الله في تفسير سورة الليل الرواية عنه عليه‌السلام أن قوله تعالى: « ولسوف يعطيك ربك فترضى » أرجى من هذه الآية .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي

في شعب الإيمان عن ثوبان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم » إلى آخر الآية. فقال رجل: يا رسول الله فمن أشرك ، فسكت النبي ﷺ ثم قال : إلا من أشرك .

اقول : في الرواية شيء فقد تقدم أن مورد الآية هو الشرك وأن الآية مقيدة بالتوبة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم .

اقول: ما في الحديث من المغفرة لا يأبى التقيد بأسباب المغفره كالتوبة والشفاعة.

وفي المجمع قيل : هذه الآية يعني قوله: « يا عبادي الذين أسرفوا » الخ نزلت في وحشي قاتل حمزة حين أراد أن يسلم وخاف أن لا تقبل توبته فلما نزلت الآية أسلم فقيل: يا رسول الله هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ فقال ﷺ : بل للمسلمين عامة .

وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس نقلا عن تفسير الكلبي: بعث وحشي وجماعة إلى النبي ﷺ أنه ما يمنعنا من دينك إلا أننا سمعناك تقرء في كتابك أن من يدعو مع الله إلها آخر ويقتل النفس ويزني يلق أثاما ويخلد في العذاب ونحن قد فعلنا ذلك كله فبعث إليهم بقوله تعالى : « إلا من تاب وآمن وعمل صالحا » فقالوا : نخاف أن لا نعمل صالحاً .

فبعث إليهم « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فقالوا نخاف أن لا ندخل في المشية. فبعث إليهم «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » فجاؤا وأسلموا .

فقال النبي ﷺ لو حشي قاتل حمزة : غيب وجهك عني فإني لا أستطيع النظر إليك . قال : فلحق بالشام فمات في الخمر .

اقول : وروى ما يقرب منه في الدر المنثور بعدة طرق وفي بعضها أن قوله : « ياعبادي الذين أسرفوا » الخ نزل فيه كما في خبر المجمع السابق، ويضعفه أن السورة مكية وقد أسلم وحشي بعد الهجرة . على أن ظاهر الخبر عدم تقيد إطلاق المغفرة في

الآية بالتوبة وقد عرفت أن السياق يأباه .

وقوله: فمات في الخمر لعله بفتح الخاء وتشديد الميم موضع من أعراض المدينة ولعله من غلط الناسخ والصحيح الحمص ، ولعل المراد به موته عن شرب الخمر فإنه كان مدمن الخمر وقد جلد في ذلك غير مرة ثم ترك .

واعلم أن هناك روايات كثيرة عن أئمة اهل البيت عليهم السلام في تطبيق هذه الآيات على شيعتهم وتطبيق جنب الله عليهم وهي جميعاً من الجري دون التفسير ولذا تركنا إيرادها ههنا .

* * *

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ - ٦٢ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ - ٦٣ . قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ - ٦٤ . وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ - ٦٥ . بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ - ٦٦ . وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ - ٦٧ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ - ٦٨ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ـ ٦٩ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ـ ٧٠ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ـ ٧١ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ـ ٧٢ . وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ـ ٧٣ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ـ ٧٤ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ ٧٥ .

﴿ بيان ﴾

فصل من الآيات به تختتم السورة يذكر فيه خلاصة ما تنتجه الحجج المذكورة فيها قبل ذلك ثم يؤمر ﷺ أن يخاطب المشركين أن ما اقترحوا به عليه أن يعبد آلهتهم ليس إلا جهلاً بمقامه تعالى ويذكر النبي ﷺ ما اوحى إليه وإلى الذين من قبله : لئن أشركت ليحبطن عمله .

ثم يذكر سبحانه أن المشركين ما عرفوه واجب معرفته وإلا لم يرتابوا في ربوبيته لهم ولا عبدوا غيره ثم يذكر تعالى نظام الرجوع إليه وهو تدبير جانب المعاد من الخلقة ببيان جامع كاف لا مزيد عليه ويختم السورة بالحمد .

قوله تعالى: « الله خالق كل شيء » هذا هو الذي ذكر اعتراف المشركين به من قبـــل في قوله : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » الآية ٣٨ من السورة وبنى عليه إستناد الأشياء في تدبيرها إليه .

والجملة في المقام تمهيد لما يذكر بعدها من كون التدبير مستنداً إليه لما تقدم مراراً أن الخلق لا ينفك عن التدبير فانتقل في المقام من استناد الخلق إليه إلى اختصاص الملك به وهو قوله : « له مقاليـد السماوات والأرض » ومن اختصاص الملك به إلى كونه هو الوكيل على كل شيء القائم مقامه في تدبير أمره .

وقد تقدم في ذيل قوله : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء » الأنعام: ١٠٢ في الجزء السابع من الكتاب كلام في معنى عموم الخلقة لكل شيء .

قوله تعالى: « وهو على كل شيء وكيل » وذلك لأن انتهاء خلق كل شيء وجوده إليه يقتضي أن يكون تعالى هو المالك لكل شيء فلا يملك شيء من الأشياء لا نفسه ولا شيئاً مما يترشح من نفسه إلا بتمليك الله تعـالى ، فهو لفقره مطلقا لا يملك تدبيراً والله المالك لتدبيره .

وأما تمليكه تعالى له نفسه وعمله فهو أيضاً نوع من تدبيره تعالى مؤكد لملكه غير ناف ولا مناف حتى أن توكيله الملائكة على شيء من الأمر من شئون وكالته تعالى عليهم لا تفويض للأمر وإبطال للوكالة فافهم ذلك .

وبالجملة إذ كان كل شيء من الأشياء لا يملك لنفسه شيئاً كان سبحانه هو الوكيل عليه القائم مقامه المدبر لأمره والأسباب والمسببات في ذلك سواء فالله سبحانه هو ربها وحده

فقد تبين أن الجملة مسوقة للإشارة إلى توحده في الربوبية وهو المقصود بيانه فقول بعضهم إن ذكر ذلك بعد قوله : « الله خالق كل شيء » للدلالة على أنه هو الغني المطلق وأن المنـافع والمضار راجعة إلى العباد ، أو أن المراد أنه تعالى حفيظ على كل شيء

فيكون إشارة إلى أن الأشياء محتاجة إليه في بقائها كما أنها محتاجة إليه في حدوثها ، أجنبي عن معنى الآية بالمرة .

قوله تعالى : « له مقاليد السماوات والأرض » الخ المقاليد ـ كما قيل ـ بمعنى المفاتيح ولا مفرد له من لفظه .

ومفاتيح السماوات والأرض مفاتيح خزائنها قال تعالى : « ولله خزائن السماوات والأرض » المنافقون : ٧ وخزائنها غيبها الذي يظهر منه الأشياء والنظام الجاري فيها فتخرج إلى الشهادة قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

وملك مقاليد السماوات والأرض كناية عن ملك خزائنها التي منها وجودات الأشياء وأرزاقها وأعمارها وآجالها وسائر ما يواجهها في مسيرها من حين تبتدىء منه تعالى إلى حين ترجع إليه .

وهو أعني قوله : « له مقاليد » الخ في مقام التعليل لقوله : « وهو على كل شيء وكيل » ولذا جيء به مفصولا من غير عطف .

وقوله : « والذين كفروا بآيات ربهم أولئك هم الخاسرون » قد تقدم أن قوله : « الله خالق كل شيء ـ إلى قوله ـ والأرض» ذكر خلاصة ما تفيده الحجج المذكورة في خلال الآيات السابقة ، وعليه فقوله : « والذين كفروا بآيات ربهم » الخ معطوف على قوله : « الله خالق كل شيء » والمعنى الذي تدل عليه الآيات والحجج المتقدمة أن الله سبحانه خالق فما لك فوكيل على كل شيء أي متوحد في الربوبية والالوهية والذين كفروا بآيات ربهم فلم يوحدوه ولم يعبدوه أولئك هم الخاسرون .

وقد اختلفوا فيما عطف عليه قوله : « والذين كفروا » الخ فذكروا فيه وجوها مختلفة كثيرة لا جدوى فيها من أرادها فليرجع إلى المطولات .

قوله تعالى : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » لما أورد سبحانه خلاصة ما تنطق به الحجج المذكورة في السورة من توحده تعالى بالخلق والملك والتدبير

ولازم ذلك توحده تعالى في الربوبية والالوهية أمر نبيه ﷺ أن يخاطب المشركين المقترحين عليه أن يعبد آلهتهم أنه لا يبقى مع هذه الحجج الباهرة الظاهرة محل لعبادته غير الله وإجابة اقتراحهم وهل هي إلا الجهل .

فقوله : « أفغير الله تأمروني أعبد » الفاء لتفريع مضمون الجملة على قوله : « الله خالق كل شيء » إلى آخر الآيتين ، والاستفهام إنكارى ، و « غير الله » مفعول « أعبد » قدم عليه لتعلق العناية به ، و « تأمروني » معترض بين الفعل ومفعوله وأصله تأمرونني أدغمت فيه إحدى النونين في الاخرى .

وقوله : « أيها الجاهلون » خطابهم بصفة الجهل للإشارة إلى أن أمرهم إياه بعبادة غير الله واقتراحهم بذلك مع ظهور آيات وحدته في الربوبية والالوهية ليس إلا جهلا منهم .

قوله تعالى : « ولقد اوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك » الخ فيه تأييد لمدلول الحجج العقلية المذكورة بالوحي كأنه قيل: لا تعبد غير الله فإنه جهل وكيف يسوغ لك أن تعبده وقد دل الوحي على النهي عنه كما دل العقل على ذلك.

فقوله : «ولقد اوحي إليك» اللام للقسم، وقوله: «لئن أشركت ليحبطن عملك» بيان لما اوحي إليه، وتقدير الكلام وأقسم لقد أوحي إليك لئن أشركت «الخ» وإلى الذين من قبلك من الأنبياء والرسل لئن أشركتم ليحبطن عملكم ولتكونن من الخاسرين .

وخطاب النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام بالنهي عن الشرك وإنذارهم بحبط العمل والدخول في زمرة الخاسرين خطاب وإنذار على حقيقة معناهما كيف ؟ وغرض السورة ـ كما تقدمت الإشارة إليه ـ بيان أن النبي ﷺ مأمور بالإيمان بما يدعو المشركين إلى الإيمان به مكلف بما يكلفهم ولا يسعه أن يجيبهم إلى ما يقترحون به عليه من عبادة آلهتهم .

وأما كون الأنبياء معصومين بعصمة إلهية يمتنع معها صدور المعصية عنهم فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم وعدم صحة توجهه إليهم ولو كان كذلك لم تتصور في حقهم معصية كسائر من لا تكليف عليه فلم يكن معنى لعصمتهم .

على أن العصمة – وهي قوة يمتنع معها صدور المعصية– من شئون مقام العلم ـ كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى : « وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء » النساء : ١١٣ ـ لا تنافي ثبوت الاختيار الذي هو من شئون مقام العمل وصحة صدور الفعل والترك عن الجوارح .

فمنع العلم القطعي بمفسدة شيء منعا قطعيا عن صدوره عن العالم به كمنع العلم بأثر السم عن شربه لا ينافي كون العالم بذلك مختارا في الفعل لصحة صدوره ولا صدوره عن جوارحه فالعصمة لا تنافي بوجه التكليف .

ومما تقدم يظهر ضعف ما يستفاد من بعضهم أن نهيه ﷺ عن الشرك ونحوه نهي صوري والمراد به نهي امته فهو من قبيل « إياك أعني واسمعي يا جارة » .

ووجه الضعف ظاهر مما تقدم ، وأما قولنا كما ورد في بعض الروايات أن هذه الخطابات القرآنية من قبيل « إياك أعني واسمعي يا جارة » فمعناه أن التكليف لما كان من ظاهر أمره أن يتعلق بمن يجوز عليه الطاعة والمعصية فلو تعلق بمن ليس منه إلا الطاعة مع مشاركة غيره له كان ذلك تكليفا على وجه أبلغ كالكناية التي هي أبلغ من التصريح.

وقوله : « ولتكونن من الخاسرين » ظهر معناه مما تقدم ويمكن أن يكون اللام في الخاسرين مفيداً للعهد ، والمعنى ولتكونن من الخاسرين الذين كفروا بآيات الله وأعرضوا عن الحجج الدالة على وحدانيته .

قوله تعالى : « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين» إضراب عن النهي المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل : فلا تعبد غير الله بل الله فاعبد ، وتقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر .

والفاء في « فاعبد » زائدة للتأكيد على ما قيل ، وقيل : هي فاء الجزاء وقد حذف شرطه والتقدير بل إن كنت عابدا أو عاقلا فاعبد الله .

وقوله : « وكن من الشاكرين » أي وكن بعبادتك له من الذين يشكرونه على نعمه الدالة على توحده في الربوبية والالوهية ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: «وسيجزي الله الشاكرين » آل عمران : ١٤٤ وقوله : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » الأعراف :

١٧ أن مصداق الشاكرين بحقيقة معنى الكلمة هم المخلصون بفتح اللام فراجع .

قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره » إلى آخر الآية قدر الشيء هو مقداره وكميته من حجم أو عدد أو وزن وما أشبه ذلك ثم استعير للمعنويات من المكانة والمنزلة .

فقوله : « وما قدروا الله حق قدره » تمثيل أريد به عدم معرفتهم به تعالى واجب المعرفة إذ لم يعرفوه من حيث المعاد ورجوع الأشياء إليه كما يدل عليه تعقيب الجملة بقوله : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » إلى آخر السورة حيث ذكر فيه انقطاع كل سبب دونه يوم القيامة ، وقبضه الأرض وطيه السماوات ونفخ الصور لإماتة الكل ثم لإحيائهم وإشراق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء وتوفية كل نفس ما عملت وسوق المجرمين إلى النار والمتقين إلى الجنة فمن كان شأنه في الملك والتصرف هـذا الشأن وعرف بذلك أوجبت هذه المعرفة الاقبال إليه بعبادته وحده والإعراض عن غيره بالكلية .

لكن المشركين لـما لم يؤمنوا بالمعاد ولم يقدروه حق قدره ولم يعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته إلى عبادة من سواه .

وقوله : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » أي الأرض بما فيها من الأجزاء والأسباب الفعالة بعضها في بعض ، والقبضة مصدر بمعنى المقبوضة ، والقبض على الشيء وكونه في القبضة كناية عن التسلط التام عليه أو انحصار التسلط عليه في القابض والمراد ههنا المعنى الثاني كما يدل عليه قوله تعالى : « والأمر يومئذ لله » الانفطار : ١٩ وغيره من الآيات .

وقد مر مراراً أن معنى انحصار الملك والأمر والحكم والسلطان وغير ذلك يوم القيامة فيه تعالى ظهور ذلك لأهل الجمع يومئذ وإلا فهي له تعالى دائماً فمعنى كون الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ظهور ذلك يومئذ للناس لا أصله .

وقوله : « والسماوات مطويات بيمينه » يمين الشيء يده اليمنى وجانبه القوى ويكنى بها عن القدرة ، ويستفاد من السياق أن محصل الجملتين أعني قوله : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » تقطع الأسباب الأرضية والسماوية وسقوطها وظهور أن لا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه .

وقوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » تنزيه له تعالى عما أشركوا غيره في ربوبيته وألوهيته فنسبوا تدبير العالم إلى آلهتهم وعبدوها .

قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله » الخ ظاهر ما ورد في كلامه تعالى في معنى نفخ الصور أن النفخ نفختان نفخة للإماتة ونفخة للإحياء ، وهو الذي تدل عليه روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبعض ما ورد من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ وإن كان بعض آخر من رواياتهم لا يخلو عن إبهام ولذا اختار بعضهم أنها ثلاث نفخات نفخة للإماتة ونفخة للإحياء والبعث ونفخة للفزع والصعق وقال بعضهم: إنها أربع نفخات ولكن دون إثبات ذلك من ظواهر الآيات خرط القتاد .

ولعل انحصار النفخ في نفختي الإماتة والإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق في النفخة الاولى بالموت مع أن المعروف من معنى الصعق الغشية ، قال في الصحاح: يقال : صعق الرجل صعقاً وتصاعقاً أي غشي عليه وأصعقه غيره ، ثم قال : وقوله تعالى : « فصعق من في السماوات ومن في الأرض » أي مات . انتهى .

وقوله: «إلا من شاء الله» استثناء من أهل السماوات والأرض واختلف في من هم؟

فقيل: هم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل سادة الملائكة فإنهم إنما يموتون بعد ذلك ، وقيل : هم هؤلاء الأربعة وحملة العرش ، وقيل : هم رضوان والحور ومالك والزبانية ، وقيل : وهو أسخف الأقوال: إن المراد بمن شاء الله هو الله سبحانه. وأنت خبير بأن شيئاً من هذه الأقاويل لا يستند إلى دليل من لفظة الآيات يصح الاستناد إليه.

نعم لو تصور لله سبحانه خلق وراء السماوات والأرض جاز استثناؤهم من أهلها استثناء منقطعا أو قيل : إن الموت إنما يلحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها وأما الأرواح فإنها لا تموت فالأرواح هم المستثنون استثناء متصلا ، ويؤيد هذا الوجه بعض[1] الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

---

(١) وهو ما ورد في قوله تعالى : « لمن الملك اليوم » المؤمن : ١٦ أن الجواب بقوله : « لله الواحد القهار » من أرواح الأنبياء وغير ذلك من الروايات .

وقوله : « ونفخ فيه اخرى فإذا هم قيام ينظرون » ضمــير « فيه » للصور ، و « اخرى » صفة محذوف موصوفها أي نفخة أخرى ، وقيام جمع قائم و « ينظرون » أي ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف .

والمعنى: ونفخ في الصور نفخـــة اخرى فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ماذا يفعل بهم أو فإذا هم قائمون ينظرون نظر المبهوت المتحير .

ولا ينافي ما في هذه الآية من كونهم بعدالنفخ قياما ينظرون ما في قوله : « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون» يس: ٥١ أي يسرعون، وقوله: « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا» النبأ: ١٨ ، وقوله: « ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض » النمل: ٨٧ فإن فزعهم بالنفخ وإسراعهم في المشي إلى عرصة المحشر وإتيانهم إليها أفواجا كقيامهم ينظرون حوادث متقارنة لا يدفع بعضها بعضا .

قوله تعالى : « وأشرقت الأرض بنور ربها » إلى آخر الآية إشــراق الأرض إضاءتها، والنور معروف المعنى وقد استعمل النور في كلامه تعالى في النور الحسي كثيراً واطلق أيضاً على الإيمان وعلى القرآن بعناية أن كلا منها يظهر للمتلبس به ما خفي عليه لولاه قال تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » البقرة : ٢٥٧، وقال : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا » التغابن : ٨ .

وقد اختلفوا في معنى إشراق الأرض بنور ربها فقيل: إنها تضيء بنور يخلقه الله بلا واسطة أجسام مضيئة كالشمس والقمر وإضافته إليه تعالى من قبيل « روحي » و « ناقة الله » .

وفيه أنه لا يستند إلى دليل يعتمد عليه .

وقيل : المراد به تجلي الرب تعــالى لفصل القضاء كما ورد في بعض الأخبار من طرق أهل السنة .

وفيه أنه على تقدير صحة الرواية لا يدل على المدعي .

وقيل : المراد به إضاءة الأرض بعدل ربها يوم القيامة لأن نور الأرض بالعدل كما أن نور العلم بالعمل .

وفيه أن صحة استعارة النور للعدل في نفسه لا تستلزم كون المراد بالنور في الآية هو العدل إلا بدليل يدل عليه ولم يأت به .

وفي الكشاف قد استعار الله عز وجل النور للحق والبرهان في مواضع من التنزيل وهذا من ذاك ، والمعنى وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات .

وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل ، وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه ، وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها وإنما يجور فيها غير ربها ، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور ، وترى الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما تقول أظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله ﷺ : الظلم ظلمات يوم القيامة وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم . انتهى

وفيه أولاً : أن قوله إن النور مستعار في مواضع كثيرة من القرآن للحق والقرآن والبرهان فاستعارته للحق والبرهان غير ظاهر في شيء من الآيات .

وثانياً : ان الحق والعدل مفهومان متغايران وإن كانا ربما يتصادقان وكون النور في الآية مستعاراً للحق لا يستلزم كون العدل مراداً به ، ولذا لما أراد بيان إرادة العدل من النور ذكر الحق مع العدل ثم استنتج للعدل دون الحق .

ولا يبعد أن يراد ـ والله أعلم ـ من إشراق الأرض بنور ربها ما هو خاصة يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وبدو الأعمال من خير أو شر أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين ، وإشراق الشيء هو ظهوره بالنور ولا ريب أن مظهرها يومئذ هو الله سبحانه إذ الأسباب ساقطة دونه فالأشياء مشرقة بنور مكتسب منه تعالى .

وهذا الإشراق وإن كان عاما لكل شيء يسعه النور لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض وأهله يومئذ من الشأن خصها بالبيان فقال : « وأشرقت الأرض بنور ربها »

وذكره تعالى بعنوان ربوبية الأرض تعريضاً للمشركين المنكرين لربوبيته تعالى للأرض وما فيها .

والمراد بالأرض مع ذلك الأرض وما فيها وما يتعلق بها كما تقدم أن المراد بالأرض في قوله : « والأرض جميعا قبضته » ذلك .

ويستفاد ما قدمناه من مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هـذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ وقوله : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ ، وقوله: « يومئذ تحـدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خـيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » الزلزال : ٨ وآيات اخرى كثيرة تدل على ظهور الأعمال وتجسمها وشهادة الأعضاء وغير ذلك.

وقوله : « ووضع الكتاب » قيل: المراد به الحساب وهو كما ترى وقيل: المراد به صحائف الأعمال التي يحاسب عليها ويقضى بها ، وقيل: المراد به اللوح المحفوظ ويؤيده قوله تعالى : « هـكذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ .

وقوله : « وجيء بالنبيين والشهداء » أما النبيون فليسألوا عن أداء رسالتهم كما يشعر به السياق قال تعالى: «فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين » الأعراف: ٦ ، وأما الشهداء وهم شهداء الأعمال فليؤدوا ما تحملوه من الشهادة قال تعالى: «فكيف إذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » النساء : ٤١ .

وقوله : « وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » ضميرا الجمع للناس المعـلوم من السياق ، والقضاء بينهم هو القضاء فيما اختلفوا فيه الوارد كراراً في كلامه تعالى قال : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يونس : ٩٣ .

قوله تعالى : « ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » التوفية الإعطاء بالتمام وقد علقت بنفس ما عملت دون جزائه ويقطع ذلك الريب في كونه قسطا وعدلا من أصله والآية بمنزلة البيان لقوله : « وهم لا يظلمون » .

وقوله : « وهو أعلم بما يفعلون » أي ليس حكمه بهذا النمط من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء عن جهل منه وحاجة بل لأن يجري حكمه على القسط والعدل فهو أعلم بما يفعلون .

والآية السابقة تتضمن القضاء والحكم وهذه الآية إجراؤه والآيات اللاحقة تفصيل إجرائه .

قوله تعالى : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم » إلى آخر الآية السوق بالفتح فالسكون – على ما في المجمع – الحث على السير ، والزمر جمع زمرة وهي – كما في الصحاح – الجماعة من الناس .

والمعنى « وسيق » وحث على السير « الذين كفروا إلى جهنم زمرا » جماعة بعد جماعة « حتى إذا جاؤها » بلغوها « فتحت أبوابها » لأجل دخولهم وهي سبعة قال تعالى : « لها سبعة أبواب » الحجر : ٤٤ « وقال لهم خزنتها » وهم الملائكة الموكلون عليها يقولون لهم تهجيناً وإنكاراً عليهم « ألم يأتكم رسل منكم » من نوعكم من البشر « يتلون » ويقرؤن « عليكم آيات ربكم» من الحجج الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته «قالوا» بلى قد جاؤا وتلوا «ولكن» كفرنا و كذبنا و «حقت كلمة العذاب على الكافرين» و كلمة العذاب هي قوله تعالى حين أمر آدم بالهبوط: « والذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ .

قوله تعالى : « قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » القائل ـ على ما يفيده السياق ـ خزنة جهنم ، وفي قوله : « فبئس مثوى المتكبرين » دلالة على أن هؤلاء الذين كفروا هم المكذبون بآيات الله المعاندون للحق .

قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها » لم يذكر في الآية جواب إذا إشارة إلى أنه أمر فوق ما يوصف ووراء ما يقدر بقدر ، وقوله : « وفتحت أبوابها » حال أي جاؤها وقد فتحت أبوابها ، وقوله : « خزنتها » هم الملائكة الموكلون عليها .

والمعنى « وسيق » وحث على السير « الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا » جماعة بعد جماعة « حتى إذا جاؤها و» قد « فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » الموكلون عليها

مستقبلين لهم « سلام عليكم » أنتم في سلام مطلق لا يلقاكم إلا ما ترضون « طبتم » ولعله تعليل لإطلاق السلام « فادخلوها خالدين » فيها . وهو أثر طيبهم .

قوله تعالى : « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض » إلى آخر الآية . القائلون هم المتقون والمراد بالوعد ما تكرر في كلامه تعالى وفيما اوحي إلى سائر الأنبياء من وعد المتقين بالجنة قال : « للذين اتقوا عند ربهم جنات » آل عمران : ١٥ وقال : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » القلم : ٣٤ ، كذا قيل ، وقيل : المراد بالوعد الوعد بالبعث والثواب .

ولا يبعد أن يراد بالوعد الوعد بإيراث الجنة كما في قوله : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » المؤمنون : ١١ ويكون قوله : « وأورثنا الأرض » عطف تفسير لقوله « صدقنا وعده » .

وقوله : « وأورثنا الأرض » المراد بالأرض ـ على ما قالوا ـ أرض الجنة وهي التي عليها الاستقرار فيها وقد تقدم في أول سورة المؤمنون أن المراد بوراثتهم الجنة بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركهم غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت إليهم .

وقوله : « نتبوء من الجنة حيث نشاء » بيان لإيراثهم الأرض ، وتبديل ضمير الأرض بالجنة للاشارة إلى أنها المراد بالأرض .

وقيل : المراد بالأرض هي أرض الدنيا وهو سخيف إلا أن يوجه بأن الجنة هي عقبى هذه الدار قال تعالى : « أولئك لهم عقبى الدار » الرعد : ٢٢ .

والمعنى وقال المتقون بعد دخول الجنة : الحمد لله الذي صدقنا وعده أن سيدخلنا أو أن سيورثنا الجنة نسكن منها حيث نشاء ونختار ـ فلهم ما يشاؤن فيها ـ .

وقوله : « فنعم أجر العاملين » أي فنعم الأجر أجر العاملين لله تعالى ، وهو على ما يعطيه السياق قول أهل الجنة ، واحتمل أن يكون من قوله تعالى .

قوله تعالى : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم » إلى آخر الآية . الحف الإحداق والاحاطة بالشيء ، والعرش هو المقام الذي يصدر منه

الفرامين والأوامر الإلهية التي يدبر بها العالم ، والملائكة هم المجرون لمشيته العاملون بأمره ، ورؤية الملائكة على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك وقد طويت السماوات .

والمعنى: وترى يومئذ الملائكة والحال أنهم محدقون بالعرش مطيفون به لإجراء الأمر الصادر منه وهم يسبحون بحمد ربهم .

وقوله : «وقضى بينهم» احتمل رجوع الضمير إلى الملائكة ، ورجوعه إلى الناس والملائكة جميعا ، ورجوعه إلى جميع الخلائق ، ورجوعه إلى الناس فالقضاء بين أهل الجنة وأهل النار منهم أو بين الأنبياء واممهم .

ويضعف الاحتمال الأخير أن القضاء بين الناس قد ذكر قبلا في قوله : « وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » فذكر القضاء بينهم ثانياً تكرار من غير موجب .

لكن ظاهر القضاء بين جماعة هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف ما بينهم ولا تحقق للاختلاف بين الملائكة ، وهذا يؤيد أن يكون الضمير لغيرهم والقضاء بين الناس غير أن القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصح إطلاقه على مجموع الحكم ومقدماته وتبعاته من حضور المتخاصمين وطرح الدعوى وشهادة الشهود وحكم الحاكم وإيفاء المحق حقه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أولاً نفس الحكم الإلهي وبهذا القضاء المذكور ثانيا هو مجموع ما يجري عليهم من حين يبعثون إلى حين دخول أهل النار النار وأهل الجنة الجنة واستقرارهم فيها وبذلك يندفع إشكال التكرار من غير موجب .

وقوله: « وقيل الحمد لله رب العالمين» كلمة خاتمة للبدء والعود وثناء عام له تعالى أنه لم يفعل ولا يفعل إلا الجميل .

قيل : قائله المتقون وكان حمدهم الأول على دخولهم الجنة والثاني للقضاء بينهم وبين غيرهم بالحق ، وقيل: قائله الملائكة ولم ينسب إليهم صريحاً لتعظيم أمرهم ، وقيل : القائل جميع الخلائق .

ويؤيد الأول قوله تعالى في صفة أهل الجنة : « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » يونس : ١٠ وهو حمد عام خاتم للخلقة كما سمعت .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعـالى : « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » فهذه مخاطبة النبي ﷺ والمعنى لامته ، وهو ما قاله الصادق عليه‌السلام : إن الله عز وجل بعث نبيه بإياك أعني واسمعي يا جارة .

وعن كتاب التوحيد بإسناده إلى الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله عليه‌السلام يقول : إن الله عز وجل لا يوصف .

قال : وقال زرارة: قال أبو جعفر عليه‌السلام : إن الله لا يوصف وكيف يوصف وقد قال في كتابه : «وما قدروا الله حق قدره ؟» فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك.

وفيه بإسناده عن سليمان بن مهران قال : سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن قول الله عز وجل : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » قال : ملكه لا يملكها معه أحد .

والقبض عن الله تعالى في موضع آخر المنع والبسط منه الإعطاء والتوسع كما قال عز وجل : « والله يقبض ويبسط وإليـــه ترجعون » يعني يعطي ويوسع ويضيق ، والقبض منه عز وجل في وجه آخر الأخذ والأخذ في وجه القبول منه كما قال : « و يأخذ الصدقات » أي يقبلها من أهلها ويثيب عليها .

قلت : فقوله عز وجل: « والسماوات مطويات بيمينه » ؟ قال: اليمين اليد واليد القـــدرة والقوة يقول عز وجل : « والسماوات مطويات بيمينه » أي بقدرته وقوته سبحانه وتعالى عما يشركون .

أقول: وروى في الدر المنثور عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شــاء الله » أنهم الشهداء مقلدون بأسيافهم حول عرشه الخبر وظاهره أن النفخة غير نفخة الإماتة وقد تقدم أن الآية ظاهرة في خلافه .

وروى عن أنس عنه ﷺ أنهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش وأنهم يموتون بعدها الخبر . والآية ظاهرة في خلافه .

وروى عن جابر : استثنى موسى لأنه كان صعق قبل ، الخبر . وفيه أن الصعق

سواء أخذ بمعنى الموت أو بمعنى الغشية لا يختص الصعق قبل ذلك بموسى عليه السلام .

وفي المجمع في قوله تعالى: «لها سبعة أبواب» فيه قولان أحدهما ما روى عن امير المؤمنين عليه السلام أن جهنم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال : هكذا وأن الله وضع الجنان على الأرض ، ووضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنم ، وفوقها لظى ، وفوقها الحطمة ، وفوقها سقر ، وفوقها الجحيم ، وفوقها السعير ، وفوقها الهاوية وفي رواية الكلبي أسفلها الهاوية وأعلاها جهنم .

وفي الخصال عن أبي عبد الله عن أبيه عن جده عن علي عليهم السلام قال : إن للجنه ثمانية أبواب : باب يدخل منه النبيون والصديقون ، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون ، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا .

فلا أزال واقفا على الصراط أدعو وأقول : رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش قد أجيبت دعوتك وشفعت في شيعتك ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه .

وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مثقال من بغضنا أهل البيت .

* * *

سورة المؤمن مكية وهي خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ـ ١ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ـ ٢ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ـ ٣ . مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ـ ٤ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ

قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ـ ٥ . وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النّارِ ـ ٦ .

﴿ بيان ﴾

تتكلم السورة في استكبار الكافرين ومجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق الذي يدعون إليه ولذلك نراها تذكر جدالهم وتعود إليه عودة بعد عودة « ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد» « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا » « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون » .

فتكسر سورة استكبارهم وجدالهم بذكر ما عاقب الله به الماضين من الامم المكذبين وما أعد الله لهم من العذاب المهين بذكر طرف مما يجري عليهم في الآخرة .

وتدحض باطل أقاويلهم بوجوه من الحجج الناطقة بتوحده في الربوبية والالوهية وتأمر النبي ﷺ بالصبر وتعده والمؤمنين به بالنصر ، وتأمرهم أن يؤذنهم أنه مسلم لربه غير تارك لعبادته فلييأسوا منه .

والسورة مكية كلها لاتص[...]تها وشهادة مضامينها بذلك ، وما قيل فيه من الآيات أنه نزل بالمدينة لا يع[...] [...]ي الإشارة إليها إن شاء الله .

قوله تعالى : « حم تنز[...] من الله العزيز العليم » التنزيل مصدر بمعنى المفعول فقوله : « تنزيل الكتاب » [...] [...]ضافة الصفة إلى موصوفها والتقدير هذا كتاب منزل من الله .

وتخصيص الوصفين : « العزيز العليم » با[...] قيل: للإشارة إلى ما في القرآن من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عنها نطاق الأفه[...] . وقيل: هو من باب التفنن .

والوجه أن يقال : إن السورة لما كانت تتكلم حول جحد الجاحدين ومجادلتهم في

آيات الله بالباطل جهلا وهم يحسبونه علما ويعتزون به كما حكى ذلك عنهم في خاتمة السورة بقوله : « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » وكما حكى عن فرعون قوله لقومه في موسى : « إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » وقوله لهم : « ما اريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .

افتتح الكلام في السورة بما فيه إشارة إلى أن هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل ممن هو عزيز على الإطلاق لايغلبه غالب حتى يخاف على ما نزله من استعلائهم واستكبارهم بحسب أوهامهم ، عليم على الإطلاق لا يداخل علمه جهل وضلال فلا يقاوم جدالهم بالباطل ما نزله من الحق وبينه بحججه الباهرة .

ويؤيد هذا الوجه ما في الآية التالية من قوله : « غافر الذنب وقابل التوب » الخ على ما سنبين .

قوله تعالى : « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير » الإتيان بصيغة اسم الفاعل في « غافر الذنب وقابل التوب » ـ لعله ـ للدلالة على الاستمرار التجددي فإن المغفرة وقبول التوب من صفاته الفعلية ولا يزال تعالى يغفر الذنب ثم يغفر ويقبل التوب ثم يقبل .

وإنما عطف قابل التوب على ما قبله دون « شديد العقاب ذي الطول » لأن غافر الذنب وقابل التوب بمجموعها كصفة واحدة متعلقة بالعباد المذنبين يغفر لهم تارة بتوبة وتارة بغيرها كالشفاعة .

والعقاب والمعاقبة المؤاخذة التي تكون في عاقبة الذنب قال الراغب : والعُقْب والعقبى يختصان بالثواب نحو خير ثوابا وخير عقبا ، وقال تعالى : وأُلئك لهم عقبى الدار ، والعاقبة إطلاقها يختص بالثواب نحو والعاقبة للمتقين ، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو ثم كان عاقبة الذين أساؤا ، وقوله : فكان عاقبتها أنهما في النار يصح أن يكون ذلك استعارة من ضده ، والعقوبة والمعاقبة والعقاب تختص بالعذاب . انتهى .

فشديد العقاب كذي انتقام من أسماء الله الحسنى تحكي صفته تعالى في جانب العذاب كما يحكي الغفور والرحيم صفته تعالى في جانب الرحمة .

والطول ـ على ما في المجمع ـ الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه فذو الطول من أسمائه الحسنى في معنى المنعم لكنه أخص من المنعم لعدم شموله النعم القصار .

وذكر هذه الأسماء الأربعة : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول بعد اسم العليم للاشارة إلى أن تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقة المبني على العلم مبني على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعة .

وذلك أن العالم الإنساني كما يتحد قبيلا واحداً في نيل الطول الإلهي والتنعم بنعمه المستمرة المتوالية مدى الحياة الدنيا ينقسم من حيث حياته الآخرة قسمين وينشعب إلى شعبتين : سعيد وشقي والله سبحانه عالم بتفاصيل خلقه وكيف لا يعلم وهو خالقها وفاعلها ، ومقتضى كونه غافراً للذنب قابلا للتوب أن يغفر لمن استعد للمغفرة وأن يقبل توبة التائب إليه ، ومقتضى كونه شديد العقاب أن يعاقب من استحق ذلك .

ومقتضى ذلك أن يهدي الناس إلى صراط السعادة كما قال : « إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والاولى » الليل : ١٣ ، وقال : « وعلى الله قصد السبيل » النحل : ٩ . لينقسم الناس بذلك قسمين ويتميز عنده السعيد من الشقي والمهتدي من الضال فيرحم هذا ويعذب ذلك .

فتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم مبني على علمه المحيط بخلقه أنهم في حاجة إلى دعوة يهتدي بها قوم ويضل بردها آخرون ليغفر لقوم ويعذب آخرين ، وفي حاجة إليها لينتظم بها نظام معاشهم في الدنيا فينعمّوا بطوله ونعمته في الدنيا ثم في دار القرار .

فهذا شأن كتابه المنزل بعلمه الذي لا يشوبه جهل والمبني على الحق الذي لا يداخله باطل ، وأين هو من تكذيب الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة وجدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق .

وعلى هذا الذي ذكرنا من العناية بالعلم يشهد ما سيذكره تعالى من دعاء الملائكة للمؤمنين بالمغفرة : « ربنـــا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » فتدبر فيه .

وقوله : « لا إله إلا هو إليه المصير » ذكر كلمة التوحيد للاشارة إلى وجوب

عبادته وحده فـــلا تلغو الدعوة الدينية بتنزيل الكتاب ، وذكر كون مصير الكل ورجوعهم إليه وهو البعث للإشارة إلى أنه هو السبب العمدة الداعي إلى الإيمـــان بالكتاب واتباعه فيما يدعو إليه لأن الاعتقاد بيوم الحساب هو الذي يستتبع الخوف والرجاء خوف العقاب ورجاء الثواب الداعيين إلى عبادة الله سبحانه .

قوله تعالى : « ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد » لما ذكر تنزيل الكتاب وأشار إلى الحجة البـاهرة على حقيته ، المستفادة من صفاته الكريمة المعدودة في الآيتين ، الدالة على أنه منزّل بعلمه الذي لا يشوبه جهل وبالحق الذي لا يدحضه باطل تعرض لحال الذين قابلوا حججه الحقة بباطل جدالهم فلوّح إلى إن هؤلاء أهل العقاب وليسوا بفائتين ولا مغفولاً عنهم فإنهم كما نزّل الكتاب ليغفر الذنب ويقبل التوب كذلك نزّله ليعاقب أهل العقاب فلا يسوءن النبي ﷺ جدالهم ولا يغرنه ما يشاهده من حالهم .

فقوله : « ما يجادل في آيات الله » لم يقل : ما يجادل فيه أي في القرآن ليدل على أن الجدال في الحق الذي تدل عليه الآيات بما هي آيات . على أن طرف جدالهم هو النبي ﷺ وهو داع إلى الحق الذي تدل عليه الآيات فجدالهم لدفع الحق لا للدفاع عن الحق . على أن الجدال في الآية التالية مقيدة بالباطل لإدحاض الحق .

فالمراد بالمجادلة في آيات الله هي المجادلة لإدحاضها ودفعها وهي المذمومة ولا تشمل الجدال لإثبات الحق والدفاع عنه كيف؟ وهو سبحانه يأمر نبيه ﷺ بذلك إذا كان جدالاً بالتي هي أحسن قال تعالى : « وجادلهم بالتي هي أحسن » النحل : ١٢٥ .

وقوله : « إلا الذين كفروا » ظاهر السياق أنهم الذين رسخ الكفر في قلوبهم فلا يرجى زواله ، وقد قيل : « ما يجادل » ولم يقل : لا يجادل ، وكذا ظاهر قوله : « فلا يغررك تقلبهم في البلاد » أن المراد بهم الكفار المعاصرون للنبي ﷺ وإن لم يكونوا من أهل مكة .

وتقلبهم في البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحياة إلى طور آخر ومن نعمة إلى

نعمة في سلامة وصحة وعافية ، وتوجيه النهي عن الغرور إلى تقلبهم في البلاد كناية عن نهي النبي ﷺ عن الاغترار بما يشاهده منهم أن يحسب أنهم أعجزوه سبحانه .

قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم » الخ في مقام الجواب عما يسبق إلى الوهم أنهم استكبروا وجادلوا في آيات الله فلم يكن بهم بأس وسبقوا في ذلك .

ومحصل الجواب: أن الامم الماضين كقوم نوح والأحزاب من بعدهم كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم سبقوا هؤلاء إلى مثل صنيعهم من التكذيب والجدال بالباطل وهموا برسولهم ليأخذوه فحلّ بهم العقاب وكذلك قضى في حق الكفار العذاب فتوهم أن هؤلاء سبقوا الله إلى ما يريد توهم باطل .

فقوله : « كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم » دفع المدخل السابق ولذا جيىء بالفصل ، وقوله : « وهمّت كل أمة برسولهم ليأخذوه » يقال : هم به أي قصده ويغلب فيه القصد بالسوء أي قصدوا رسولهم ليأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غيرهما كما قصه الله تعالى في قصصهم .

وقوله : « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » الإدحاض الإزالة والإبطال وقوله : « فأخذتهم » أي عذبتهم ، وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم وحده والنكتة فيه الإشارة إلى أن أمرهم في هذا الطغيان والاستكبار إلى الله وحده لا يدخل بينه وبينهم أحد بنصرة أو شفاعة كما قال : « فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد » الفجر : ١٤ .

وقوله : « فكيف كان عقاب » توجيه لذهن المخاطب إلى ما يعلمه من كيفية إهلاكهم وقطع دابرهم ليحضر شدة ما نزل بهم وقد قصه الله فيما قص من قصصهم .

قوله تعالى : « وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » ظاهر السياق أن المشبه به هو ما في الآية السابقة من أخذهم وعقابهم ، والمراد بالذين كفروا مطلق الكفار من الماضين ، والمعنى كما أخذ الله المكذبين من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقت كلمته على مطلق الكافرين بعذاب الآخرة ، والذين كفروا من قومك منهم .

وقيل : المراد بالذين كفروا كفار مكة ، ولا يساعد عليه السياق والتشبيه لا يخلو عليه من اختلال .

وفي قوله : « كلمة ربك » ولم يقل : كلمتي تطييب لنفس النبي ﷺ وتأييد له بالإشارة إلى أن الركن الذي يركن إليه هو الشديد القوي .

* * *

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ـ ٧ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ـ ٨ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ـ ٩ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ـ ١٠ . قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ـ ١١ . ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ـ ١٢ .

﴿ بيان ﴾

لما ذكر سبحانه تكذيب الذين كفروا وجدالهم في آيات الله بالباطل ولوّح إلى انهم غير معجزين ولا مغفول عنهم بل معنيون في هذه الدعوة والعناية فيهم أن يتميزوا فيحق عليهم كلمة العذاب فيعاقبوا عاد إلى بدء الكلام الذي أشار فيه إلى أن تنزيل الكتاب وإقامة الدعوة لمغفرة جمع وقبول توبتهم وعقاب آخرين فذكر أن الناس قبال هذه الدعوة قبيلان: قبيل تستغفر لهم حملة العرش والحافون به من الملائكة وهم التائبون إلى الله المتّبعون سبيله ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وقبيل ممقوتون معذبون وهم الكافرون بالتوحيد .

قوله تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به » إلى آخر الآية . لم يعرّف سبحانه هؤلاء الحاملين للعرش من هم ؟ ولا في كلامه تصريح بأنهم من الملائكة لكن يشعر عطف قوله : «ومن حوله» عليهم وقد قال فيهم: « وترى الملائكة حافين من حول العرش » الزمر : ٧٥ أن حملة العرش أيضاً من الملائكة.

وقد تقدم تفصيل الكلام في معنى العرش في الجزء الثامن من الكتاب .

فقوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله » أي الملائكة الذين يحملون العرش الذي منه تظهر الأوامر وتصدر الأحكام الإلهية التي بها يدبر العالم، والذين حول العرش من الملائكة وهم المقربون منهم .

وقوله : « يسبحون بحمد ربهم » أي ينزهون الله سبحانه والحال أن تنزيههم له يصاحب ثناءهم لربهم فهم ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بساحة قدسه ومن ذلك وجود الشريك في ملكه ويثنون عليه على فعله وتدبيره .

وقوله : « ويؤمنون به » إيمانهم به ـ والحال هذه الحال عرش الملك والتدبير لله وهم حاملوه أو مطيفون حوله لتلقي الأوامر وينزهونه عن كل نقص ويحمدونه على أفعاله ـ معناه الإيمان بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته ففي ذكر العرش ونسبة التنزيه والتحميد والإيمان إلى الملائكة رد للمشركين حيث يعدون الملائكة المقربين شركاء لله في ربوبيته وألوهيته ويتخذونهم أربابا آلهة يعبدونهم .

وقوله : «ويستغفرون للذين آمنوا» أي يسألون الله سبحانه أن يغفر للذين آمنوا.

وقوله : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً » الخ حكاية متن استغفارهم وقد بدؤا فيه بالثناء عليه تعالى بسعة الرحمة والعلم ، وإنما ذكروا الرحمة وشفعوها بالعلم لأنه برحمته ينعم على كل محتاج فالرحمة مبدء إفاضة كل نعمة ، وبعلمه يعلم حاجة كل محتاج مستعد للرحمة .

وقوله : « فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » تفريع على ما أثنوا به من سعة الرحمة والعلم ، والمراد بالسبيل التي اتبعوها هو ما شرع لهم من الدين وهو الإسلام واتباعهم له هو تطبيق عملهم عليه فالمراد بتوبتهم رجوعهم إليه تعالى بالإيمان والمعنى فاغفر للذين رجعوا إليك بالإيمان بوحدانيتك وسلوك سبيلك الذي هو الإسلام وقهم عذاب الجحيم وهو غاية المغفرة وغرضها .

قوله تعالى : « ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم » إلى آخر الآية تكرار النداء بلفظة ربنا لمزيد الاستعطاف والمراد بالوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله وفي كتبه.

وقوله : « ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » عطف على موضع الضمير في قوله : « وأدخلهم » والمراد بالصلوح صلاحية دخول الجنة ، والمعنى وأدخل من صلح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم جنات عدن .

ثم من المعلوم من سياق الآيات أن استغفارهم لعامة المؤمنين ، ومن المعلوم أيضاً أنهم قسموهم قسمين اثنين قسموهم إلى الذين تابوا واتبعوا سبيل الله وقد وعدهم الله جنات عدن ، وإلى من صلح وقد جعلوا الطائفة الاولى متبوعين والثانية تابعين .

ويظهر منه أن الطائفة الاولى هم الكاملون في الإيمان والعمل على ما هو مقتضى حقيقة معنى قولهم: «الذين تابوا واتبعوا سبيلك» فذكروهم وسألوه أن يغفر لهم وينجز لهم ما وعدهم من جنات عدن ، والطائفة الثانية دون هؤلاء في المنزلة ممن لم يستكمل الإيمان والعمل من ناقص الإيمان ومستضعف وسيىء العمل من منسوبي الطائفة الاولى فذكروهم وسألوه تعالى أن يلحقهم بالطائفة الاولى الكاملين في جناتهم ويقيهم السيئات .

فالآية في معنى قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء » الطور : ٢١ غير أن الآية التي نحن فيها أوسع

وأشمل لشمولها الآباء والأزواج بخلاف آية سورة الطور ، والمأخوذ فيها الصلوح وهو أعم من الإيمان المأخوذ في آية الطور .

وقوله : « إنك أنت العزيز الحكيم » تعليل لقولهم : « فاغفر الذين تابوا » إلى آخر مسألتهم ، وكان الذي يقتضيه الظاهر أن يقال : إنك أنت الغفور الرحيم لكنه عدل إلى ذكر الوصفين : العزيز الحكيم لأنه وقع في مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً » . ولازم سعة الرحمة وهي عموم الإعطاء أن له أن يعطي ما يشاء لمن يشاء ويمنع ما يشاء ممن يشاء وهذا معنى العزة التي هي القدرة على الإعطاء والمنع ، ولازم سعة العلم لكل شيء أن ينفذ العلم في جميع أقطار الفعل فلا يداخل الجهل شيئاً منها ولازمه إتقان الفعل وهو الحكمة .

فقوله : « إنك أنت العزيز الحكيم » في معنى الاستشفاع بسعة رحمته وسعة علمه تعالى المذكورتين في مفتتح المسألة تمهيداً وتوطئة لذكر الحاجة وهي المغفرة والجنة .

قوله تعالى : « وقهم السيآت ومن تق السيآت يومئذ فقد رحمته » الخ ظاهر السياق أن الضمير في « قهم » للذين تابوا ومن صلح جميعاً .

والمراد بالسيآت ـ على ما قيل ـ تبعات المعاصي وهي جزاؤها وسميت التبعات سيآت لأن جزاء السيىء سيىء قال تعالى : «وجزاء سيئة سيئة مثلها» الشورى : ٤٠ .

وقيل: المراد بالسيآت المعاصي والذنوب نفسها والكلام على تقدير مضاف والتقدير وقهم جزاء السيآت أو عذاب السيآت .

والظاهر أن الآية من الآيات الدالة على أن الجزاء بنفس الأعمال خيرها وشرها ، وقد تكرر في كلامه تعالى أمثال قوله : « إنما تجزون ما كنتم تعملون » التحريم : ٧ .

و كيف كان فالمراد بالسيآت التي سألوا وقايتهم عنها هي الأهوال والشدائد التي تواجههم يوم القيامة غير عذاب الجحيم فلا تكرار في قوليهم: «وقهم عذاب الجحيم» « وقهم السيآت » .

وقيل : المراد بالسيآت نفس المعاصي التي في الدنيا ، وقولهم : « يومئذ » إشارة إلى الدنيا ، والمعنى واحفظهم من اقتراف المعاصي وارتكابها في الدنيا بتوفيقك .

وفيه أن السياق يؤيد كون المراد بيومئذ يوم القيامة كما يشهد به قولهم : «وقهم عذاب الجحيم» وقولهم : «وأدخلهم جنات عدن» الخ فالحق أن المراد بالسيآت ما يظهر للناس يوم القيامة من الأهوال والشدائد .

ويظهر من هذه الآيات المشتملة على دعاء الملائكة ومسألتهم :

أولاً : أن من الأدب في الدعاء أن يبدء بحمده والثناء عليه تعالى ثم يذكر الحاجة ثم يستشفع بأسمائه الحسنى المناسبة له .

وثانياً : أن سؤال المغفرة قبل سؤال الجنة وقد كثر ذكر المغفرة قبل الجنة في كلامه تعالى إذا ذكرا معاً ، وهو الموافق للاعتبار فإن حصول استعداد أي نعمة كانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمة .

وذكر بعضهم أن في قوله: «فاغفر للذين تابوا» الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل من الله تعالى إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة .

وفيه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالى لا ينافي صحة مسألته وطلبه منه تعالى كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار : «ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم» فقد سألوا لهم الجنة مع اعترافهم بأن الله وعدهم إياها ووعده تعالى واجب الإنجاز فإنه لا يخلف الميعاد ، وأصرح من هذه الآية قوله يحكي عن المؤمنين: «ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد» آل عمران : ١٩٤ .

وقبول التوبة مما أوجبه الله تعالى على نفسه وجعله حقاً للتائبين عليه قال تعالى : «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم» النساء : ١٧ فطلب كل حق أوجبه الله تعالى على نفسه منه كسؤال المغفرة للتائب هو في الحقيقة رجوع إليه لاستنجاز ما وعده وإظهار اشتياق للفوز بكرامته.

وكذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبه فكل عطية من عطاياه تفضل سواء كانت واجبة الصدور أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه وقهره عليه إذ هو المؤثر في كل شيء لا يؤثر فيه غيره بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه ويؤل معناه إلى

قضائه تعالى فعل شيء من الأفعال وإفاضة عطية من العطايا قضاء حتم فيكون سبحانه إنما يفعله بشيّة من نفسه منزهاً عن إلزام الغير إياه عليه متفضلاً به فالفعل تفضل منه وإن كان واجب الصدور، وأما لو لم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضلاً أوضح.

قوله تعالى: « إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » المقت أشد البغض. لما ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهة إيمانهم رجع إلى ذكر الكافرين ببعض ما عليهم من جهة كفرهم.

وظاهر الآية والآية التالية أن هذا النداء المذكور فيها إنما ينادون به في الآخرة بعد دخول النار حين يذوقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أن كفرهم في الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء إلى الإيمان كان مقتاً وشدة بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم.

وينادون من جانب الله سبحانه فيقال لهم: أقسم لمقت الله وشدة بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم وشدة بغضكم لها إذ تدعون ـ حكاية حال ماضية ـ إلى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون.

قوله تعالى: « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » سياق الآية وما قبلها يشعر بأنهم يقولون هذا القول بعد استماع النداء السابق، وإنما يقولونه وهم في النار بدليل قولهم: « فهل إلى خروج من سبيل ».

وتقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسبيب وتوسل إلى التخلص من العذاب ولات حين مناص؛ وذلك أنهم كانوا ـ وهم في الدنيا ـ في ريب من البعث والرجوع إلى الله فأنكروه ونسوا يوم الحساب وكان نسيان ذلك سبب استرسالهم في الذنوب وذهابهم لوجوههم في المعاصي ونسيان يوم الحساب مفتاح كل معصية وضلال قال تعالى: « إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص: ٢٦.

ثم لما أماتهم الله إماتة بعد إماتة وأحياهم إحياءة بعد إحياءة زال ارتيابهم في أمر البعث والرجوع إلى الله بما عاينوا من البقاء بعد الموت والحياة بعد الحياة وقد كانوا يرون أن الموت فناء، ويقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

وبالجملة زال عنهم الارتيـــاب بحصول اليقين وبقيت الذنوب والمعاصي ولذلك

توسلوا إلى التخلص من العذاب بالاعتراف فتارة اعترفوا بحصول اليقين كما حكاه الله عنهم في قوله : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » الم السجدة : ١٢ ، وتارة اعترفوا بذنوبهم كما في الآية المبحوث عنها وقد كانوا يرون أنهم أحرار مستقلون في إرادتهم وأفعالهم لهم أن يشاؤا ما شاؤا وأن يفعلوا ما فعلوا ولا حساب ولا ذنب .

ومن ذلك يظهر وجه ترتب قولهم : « فاعترفنا بذنوبنا » على قولهم : « أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » فالاعتراف في الحقيقة مترتب على حصول اليقين بالمعاد الموجب لحصول العلم بكون انحرافاتهم عن سبيل الله ضلالات وذنوباً .

والمراد بقولهم : « أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » ـ كما قيل ـ الإماتة عن الحياة الدنيا والإحياء للبرزخ ثم الإماتة عن البرزخ والإحياء للحساب يوم القيامة فالآية تشير إلى الإماتة بعد الحياة الدنيا والإماتة بعد الحياة البرزخية وإلى الإحياء في البرزخ والإحياء ليوم القيامة ولولا الحياة البرزخية لم تتحقق الإماتة الثانية لأن كلا من الإماتة والإحياء يتوقف تحققه على سبق خلافه .

ولم يتعرضوا للحياة الدنيا ولم يقولوا : وأحييتنا ثلاثاً وإن كانت إحياء لكونها واقعة بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح لأن مرادهم ذكر الإحياء الذي هو سبب الإيقان بالمعاد وهو الإحياء في البرزخ ثم في القيامة وأما الحياة الدنيوية فإنها وإن كانت إحياء لكنها لا توجب بنفسها يقيناً بالمعاد فقد كانوا مرتابين في المعاد وهم أحياء في الدنيا.

وبما تقدم من البيان يظهر فساد ما اعترض عليه بأنه لو كان المراد بالإحياءتين ما كان في البرزخ وفي الآخرة لكان من الواجب أن يقال : « أمتنا اثنتين وأحييتنا ثلاثاً » إذ ليس المراد إلا ذكر ما مر عليهم من الإماتة والإحياءة وذلك إماتتان اثنتان وإحياءآت ثلاث .

والجواب أنه ليس المراد هو مجرد ذكر الإماتة والإحياء اللتين مرتا عليهم كيفما كانتا بل ذكر ما كان منها مورثاً لليقين بالمعاد ، وليس الإحياء الدنيوي على هذه الصفة.

وقيل : المراد بالإماتة الاولى حال النطفة قبل ولوج الروح ، وبالإحياءة الاولى ما هو حال الإنسان بعد ولوجها ، وبالإماتة الثانية إماتته في الدنيا ، وبالإحياءة الثانية

إحياءته بالبعث للحساب يوم القيامة ، والآية منطبقة على ما في قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » البقرة : ٢٨ .

ولما أحسوا بعدم صدق الإماتة على حال الإنسان قبل ولوج الروح في جسده لتوقفها على سبق الحياة تمحلوا في تصحيحه تمحلات عجيبة من أراد الوقوف عليها فليراجع الكشاف وشروحه .

على أنك قد عرفت أن ذكرهم ما مر عليهم من الإماتة والاحياءة إشارة إلى أسباب حصول يقينهم بالمعاد والحياة الدنيا والموت الذي قبلها لا أثر لهما في ذلك .

وقيل : إن الحياة الاولى في الدنيا والثانية في القبر ، والموتة الاولى في الدنيا والثانية في القبر ولا تعرّض في الآية لحياة يوم البعث ، ويرد عليه ما تقدم أن الحياة الدنيا لا تعلق لها بالغرض فلا موجب للتعرض لها ، والحياة يوم القيامة بالخلاف من ذلك.

وقيل : المراد بالإحياءتين إحياء البعث والإحياء الذي قبله وإحياء البعث قسمان إحياء في القبر وإحياء عند البعث ولم يتعرض لهذا التقسيم في الآية فتشمل الآية الإحياءات الثلاث والإماتتين جميعاً .

ويرد عليه ما يرد على الوجهين السابقين عليه مضافاً إلى ما أورد عليه أن ذكر الإماتة الثانية التي في القبر دليل على أن التقسيم ملحوظ والمراد التعدد الشخصي لا النوعي.

وقيل : المراد إحياء النفوس في عالم الذر ثم الإماتة ثم الاحياء في الدنيا ثم الإماتة ثم الإحياء للبعث ، ويرد عليه ما يرد على سوابقه .

وقيل : المراد بالتثنية التكرار كما في قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرّتين » الملك : ٤ ، والمعنى أمتنا إماتة وأحييتنا إحياءة بعد إحياءة .

وأورد عليه أنه إنما يتم لو كان القول : أمتنا إماتتين وأحييتنا إحياءتين أو كرتين مثلاً لكن المقول نفس العدد وهو لا يحتمل ذلك كما قيل في قوله : « إلهين اثنين » النحل : ٥١ .

وقولهم : « فهل إلى خروج من سبيل » دعاء ومسألة في صورة الاستفهام ، وفي تنكير الخروج والسبيل إشارة إلى رضاهم بأي نوع من الخروج كان من أي سبيل كانت

فقد بلغ بهم الجهد واليوم يوم تقطعت بهم الأسباب فلا سبب يرجى أثره في تخلصهم من العذاب.

قوله تعالى : « ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا » الخ خطاب تشديد للكفار موطنه يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون موطنه الدنيا خوطبوا بداعي زجرهم عن الشرك .

والإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما هم فيه من الشدة ، وفي قوله : « وإن يشرك به » دلالة على الاستمرار ، والكلام مسوق لبيان معاندتهم للحق ومعاداتهم لتوحيده تعالى فهم يكفرون بكل ما يلوح فيه أثر التوحيد ويؤمنون بكل ما فيه سمة الشرك فهم لا يراعون لله حقاً ولا يحترمون له جانباً فالله سبحانه يحرم عليهم رحمته ولا يراعي في حكمه لهم جانباً .

وبهذا المعنى يتصل قوله : « فالحكم لله العلي الكبير » بأول الآية ويتفرع عليه كأنه قيل : فإذا قطعتم عن الله بالمرة وكفرتم بكل ما يريده وآمنتم بكل ما يكرهه فهو يقطع عنكم ويحكم فيكم بما يحكم من غير أي رعاية لحالكم .

فالآية في معنى قوله : « نسوا الله فنسيهم » التوبة : ٦٧ ، والجملة أعني قوله : « فالحكم لله العلي الكبير » خاصة بحسب السياق وإن كانت عامة في نفسها ، وفيها تهديد ويتأكد التهديد باختتامها بالاسمين العلي الكبير .

* * *

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ـ ١٣ . فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ـ ١٤ . رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ـ ١٥ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ

الْقَهَّارِ - ١٦ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ - ١٧ . وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ - ١٨ . يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ - ١٩ . وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ - ٢٠ .

﴿ بيان ﴾

احتجاج على التوحيد وإنذار بعد تقسيم الناس إلى راجع إلى الله متبع سبيله ومكذب بالآيات مجادل بالباطل .

قوله تعالى : « هو الذي يريكم آياته » إلى آخر الآية المراد بالآيات هي العلائم والحجج الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية والالوهية بدليل ما سيجيىء من تفريع قوله : « فادعوا الله مخلصين له الدين » عليه ، والآيات مطلقة شاملة للآيات الكونية المشهودة في العالم لكل إنسان صحيح الإدراك والآيات التي تجري على أيدي الرسل والحجج القائمة من طريق الوحي .

والجملة مشتملة على حجة فإنه لو كان هناك إله تجب عبادته على الإنسان وكانت عبادته كمالاً للإنسان وسعادة له كان من الواجب في تمام التدبير وكامل العناية أن يهدي الإنسان إليه ، والذي تدل الآيات الكونية على ربوبيته وألوهيته ويؤيد دلالتها الرسل والأنبياء بالدعوة والإتيان بالآيات هو الله سبحانه ، وأما آلهتهم الذين يدعونهم من دون الله فلا آية من قبلهم تدل على شيء فالله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له ، وإلى هذه الحجة يشير عليّ عليه‌السلام بقوله فيما روي عنه : « لو كان لربك شريك لأتتك رسله » .

وقوله : « وينزّل لكم من السماء رزقاً » حجة أخرى على وحدانيته تعالى من جهة الرزق فإن رزق العباد من شؤن الربوبية والالوهية والرزق من الله دون شركائهم فهو الرب الإله دونهم .

وقد فسروا الرزق بالمطر ، والسماء بجهة العلو ، ولا يبعد أن يراد بالرزق نفس الأشياء التي يرتزق بها وبنزولها من السماء بروزها من الغيب إلى الشهادة على ما يفيده قوله : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

وقوله : « وما يتذكر إلا من ينيب » معترضة تبين أن حصول التذكر بهذه الحجج إنما هو شأن إحدى الطائفتين المذكورتين من قبل وهم المنيبون الراجعون إلى ربهم دون المجادلين الكافرين فإن الكفر والجحود يبطل استعداد التذكر بالحجة والاتباع للحق .

قوله تعالى : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » الأنسب للسياق أن يكون الخطاب عاماً للمؤمنين وغيرهم متفرعاً على الحجة السابقة غير أنه لا يشمل الكافرين المذكورين في آخر الآية وهم المكذبون المجادلون بالباطل .

كأنه قيل : إذا كانت الآيات تدل على وحدانيته تعالى وهو الرازق فعلى غير الكافرين الذين كذبوا وجادلوا أن يدعوا الله مخلصين له الدين ، وأما الكافرون الكارهون للتوحيد فلا مطمع فيهم ولا آية تفيدهم ولا حجة تقنعهم فاعبدوه بالإخلاص ودعوا الكافرين يكرهون ذلك .

قوله تعالى : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » الخ صفات ثلاث له تعالى وكل منها خبر بعد خبر للضمير في قوله : « هو الذي يريكم آياته » والآية وما بعدها مسوقة للإنذار .

وقد أورد لقوله : « رفيع الدرجات » تفاسير شتى فقيل : معناه رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة ، وقيل : رافع السماوات السبع التي منها تصعد الملائكة إلى عرشه ، وقيل : رفيع مصاعد عرشه ، وقيل : كناية عن رفعة شأنه وسلطانه .

والذي يعطيه التدبر أن الآية وما بعدها يصفان ملكه تعالى على خلقه أن له عرشاً تجتمع فيه أزمة أمور الخلق ويتنزل منه الأمر متعالياً بدرجات رفيعة هي

مراتب خلقه ولعلها السماوات التي وصفها في كلامه بأنها مساكن ملائكته وأن أمره يتنزل بينهن وهي التي تحجب عرشه عن الناس .

ثم إن له يوماً هو يوم التلاقي يرفع فيه الحجاب ما بينه وبين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم وطي السماوات بيمينه وإظهار عرشه لهم فينكشف لهم أنه هو المليك على كل شيء لا ملك إلا ملكه فيحكم بينهم .

فالمراد بالدرجات الدرجات التي يرتقى منها إلى عرشه وبعود قوله : « رفيع الدرجات ذو العرش كناية استعارية عن تعالي عرش ملكه عن مستوى الخلق وغيبته واحتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعة ومراحل بعيدة .

وقوله : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » إشارة إلى أمر الرسالة التي من شأنها الإنذار ، وتقييد الروح بقوله : « من أمره » دليل على أن المراد بها الروح التي ذكرها في قوله : «قل الروح من أمر ربي» أسرى : ٨٥ ، وهي التي تصاحب ملائكة الوحي كما يشير إليه قوله : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا » النحل : ٢ .

فالمراد بالقاء الروح على من يشاء تنزيلها مع ملائكة الوحي عليه ، والمراد بقوله : « من يشاء من عباده » الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالته ، وفي معنى الروح الملقاة على النبي أقوال أخر لا يعبؤ بها .

وقوله : « لينذر يوم التلاق » وهو يوم القيامة سمي به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء الخالق والمخلوق أو لالتقاء أهل السماء والأرض أو لالتقاء الظالم والمظلوم أو لالتقاء المرء وعمله ولكل من هذه الوجوه قائل .

ويمكن أن يتأيد القول الثاني بما تكرر في كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله : « بلقاء ربهم لكافرون » الروم : ٨ ، وقوله: « إنهم ملاقوا ربهم » هود : ٢٩ ، وقوله: « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » الانشقاق : ٦ ومعنى اللقاء تقطع الأسباب الشاغلة وظهور أن الله هو الحق المبين وبروزهم لله .

قوله تعالى : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » الخ تفسير ليوم التلاق ، ومعنى بروزهم لله ظهور ذلك لهم وارتفاع الأسباب الوهمية التي كانت تجذبهم

إلى نفسها وتحجبهم عن ربهم وتغفلهم عن إحـاطة ملكه وتفرده في الحكم وتوحده في الربوبية والالوهية .

فقوله : « يوم هم بارزون » إشارة إلى ارتفاع كل سبب حاجب ، وقوله : « لا يخفى على الله منهم شيء » تفسير لمعنى بروزهم لله وتوضيح فقلوبهم وأعمالهم بعين الله وظاهرهم وباطنهم وما ذكروه وما نسوه مكشوفة غير مستورة .

وقوله : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » سؤال وجواب من ناحيته سبحانه تبين بهما حقيقة اليوم وهي ظهور ملكه وسلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق .

وفي توصيفه تعالى بالواحد القهار تعليل لانحصار الملك فيه لأنه إذ قهر كل شيء ملكه وتسلط عليه بسلب الاستقلال عنه وهو واحد فله الملك وحده .

قوله تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » الباء في « بما كسبت » للصلة والمراد بيان خصيصة اليوم وهي أن كل نفس تجزى عين ما كسبت فجزاؤها عملها ، قال تعالى : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » التحريم : ٧ .

وقوله : « إن الله سريع الحساب » تعليل لنفي الظلم في قوله : « لا ظلم اليوم » أي إنه تعالى سريع في المحاسبة لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى حتى يخطىء فيجزي نفساً غير جزائها فيظلمها .

وهذا التعليل ناظر إلى نفي الظلم الناشىء عن الخطاء وأما الظلم عن عمد وعلم فانتفاؤه مفروغ عنه لأن الجزاء لما كان بنفس العمل لم يتصور معه ظلم .

قوله تعالى : « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » إلى آخر الآية . الآزفة من أوصاف القيامة ومعناهـا القريبة الدانية قال تعالى : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » المعارج : ٧ .

وقوله : « إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » الحناجر جمع حنجرة وهي رأس الغلصمة من خارج وكون القلوب لدى الحناجر كناية عن غاية الخوف كأنها تزول عن مقرها وتبلغ الحناجر من شدة الخوف ، وكاظمين من الكظم وهو شدة الاغتمام .

وقوله : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » الحميم القريب أي ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحمية القرابة قال تعالى: «فلا أنساب بينهم يومئذ» المؤمنون:١٠١، ولا شفيع يطاع في شفاعته .

قوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » قيل : الخائنة مصدر كالخيانة نظيرة الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب واللغو ، وليس المراد بخائنة الأعين كل معصية من معاصيها بل المعاصي التي لا تظهر للغير كسارقة النظر بدليل ذكرها مع ما تخفي الصدور .

وقيل : « خائنة الأعين » من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف ، ولازمه كون العلم بمعنى المعرفة والمعنى يعرف الأعين الخائنة ، والوجه هو الأول .

وقوله : « وما تخفي الصدور » وهو ما تسره النفس وتستره من وجوه الكفر والنفاق وهيئات المعاصي .

قوله تعالى : « والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء » الخ هذه حجة أخرى على توحده تعالى بالالوهية أقامها بعد ما ذكر حديث انحصار الملك فيه يوم القيامة وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور تمهيداً وتوطئة .

ومحصلها أن من اللازم الضروري في الالوهية أن يقضي الإله في عباده وبينهم والله سبحانه هو يقضي بين الخلق وفيهم يوم القيامة والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء لأنهم عباد مملوكون لا يملكون شيئاً .

ومن قضائه تعالى تدبيره جزئيات أمور عباده بالخلق بعد الخلق فإنه مصداق القضاء والحكم قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ ، وقال : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » آل عمران : ٤٧ ، ولا نصيب لغيره تعالى في الخلق فلا نصيب له في القضاء .

ومن قضائه تعالى تشريع الدين وارتضا[ء] سبيلاً لنفسه قال تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه » الآية أسرى : ٢٣ .

وقوله : « إن الله هو السميع البصير » أي له حقيقة العلم بالمسموعات والمبصرات لذاته ، وليس لغيره من ذلك إلا ما ملكه الله وأذن فيه لا لذاته .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » قال : روح القدس وهو خاص برسول الله والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم .

وفي المعاني بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض .

أقول : ورواه القمي في تفسيره مضمرا مرسلا .

وفي التوحيد بإسناده عن ابن فضال عن الرضا عن آبائه عن علي عليه‌السلام في حديث قال : ويقول الله عز وجل : « لمن الملك اليوم » ثم ينطق أرواح أنبيائه ورسله وحججه فيقولون « « لله الواحد القهار » ثم يقول الله جل جلاله : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » الآية .

وفي نهج البلاغة : وإنه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها ، بلا وقت ولا زمان ولا حين ولا مكان، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات ، فلا شيء إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الامور ، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها ، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها .

وفي تفسير القمي بإسناده عن ثوير بن أبي فاختة عن علي بن الحسين عليه‌السلام قال : سئل عن النفختين كم بينهما ؟ قال : ما شاء .

ثم ذكر عليه‌السلام كيفية النفخ وموت أهل الأرض والسماء إلى أن قال ـ فيمكثون في ذلك ما شاء الله ثم يأمر السماء فتمور ويأمر الجبال فتسير وهو قوله : « يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا » يعني يبسط وتبدل الأرض غير الأرض يعني بأرض لم تكسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرة ، ويعيد عرشه على الماء كما كان أول مرة مستقلا بعظمته وقدرته .

قال : فعند ذلك ينادي الجبار جل جلاله بصوت من قبله جهوري يسمع أقطار السماوات والأرضين « لمن الملك اليوم » فلم يجبه مجيب فعند ذلك يقول الجبار عز وجل مجيباً لنفسه « لله الواحد القهار » الحديث .

أقول : التدبر في الروايات الثلاث الأخيرة يهدي إلى أن الذي يفنى من الخلق استقلال وجودها والنسب وروابط التأثير التي بينها كما تفيده الآيات القرآنية وأن الأرواح لا تموت ، وأن لا وقت بين النفختين فلا تغفل ، وفي الروايات لطائف من الإشارات تظهر للمتدبر ، وفيها ما يخالف بظاهره ما تقدم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام في حديث قال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنبا إلا أساءه ذلك وندم عليه وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « كفى بالندم توبة » وقال : « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » فإن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له شفاعة وكان ظالما والله تعالى يقول : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .

وفي المعاني بإسناده إلى عبد الرحمان بن سلمة الجريري قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « يعلم خائنة الأعين » فقال : ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر فذلك خائنة الأعين .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال : لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان ابن عفان .

فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس إلى البيعة جاء به فقال: يا رسول الله بايع عبد الله فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى أن يبايعه ثم بايعه ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا إلى حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك . قال : إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين .

* * *

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ - ٢١ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ - ٢٢ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسٰى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ - ٢٣ . إِلٰى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ - ٢٤ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ - ٢٥ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسٰى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ - ٢٦ . وَقَالَ مُوسٰى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ - ٢٧ . وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ - ٢٨ . يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ

فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ـ ٢٩ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ـ ٣٠ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ـ ٣١ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ـ ٣٢ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ـ ٣٣ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ـ ٣٤ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ـ ٣٥ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ـ ٣٦ . أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ـ ٣٧ . وَقَالَ

الذِي آمَنَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ـ ٣٨ . يٰا قَوْمِ
إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دٰارُ الْقَرٰارِ ـ ٣٩ .
مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهٰا وَمَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهٰا بِغَيْرِ
حِسٰابٍ ـ ٤٠ . وَيٰا قَوْمِ مٰالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجٰاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى
النّٰارِ ـ ٤١ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفّٰارِ ـ ٤٢ . لٰا جَرَمَ أَنَّمٰا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيٰا وَلٰا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ
الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ ـ ٤٣ . فَسَتَذْكُرُونَ مٰا أَقُولُ لَكُمْ
وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ ـ ٤٤ . فَوَقٰاهُ اللهُ
سَيِّئٰاتِ مٰا مَكَرُوا وَحٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذٰابِ ـ ٤٥ . النّٰارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذٰابِ ـ ٤٦ . وَإِذْ يَتَحٰاجُّونَ فِي النّٰارِ فَيَقُولُ الضُّعَفٰؤُا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُنّٰا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا نَصِيباً مِنَ
النّٰارِ ـ ٤٧ . قٰالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُلٌّ فِيهٰا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ

بَيْنَ الْعِبَادِ ـ ٤٨ . وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ ـ ٤٩ . قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ـ ٥٠ . إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ـ ٥١ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ـ ٥٢ . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ـ ٥٣ . هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ـ ٥٤ .

﴿ بيان ﴾

في الآيات موعظتهم بالإرجاع إلى آثار الامم الماضين وقصصهم للنظر والاعتبار فلينظروا فيها وليعتبروا بها ويعلموا أن الله سبحانه لا تعجزه قوة الأقوياء واستكبار المستكبرين ومكر الماكرين وتذكر منهـا من باب الانموذج طرفا من قصص موسى وفرعون وفيها قصة مؤمن آل فرعون .

قوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا » إلى آخر الآية الاستفهام إنكاري ، والواقي اسم فاعل من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره .

والمعنى : أو لم يسيروا هؤلاء الذين أرسلناك إليهم « في الأرض فينظروا » نظر تفكر واعتبار « كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم » من الامم الدارجة المكذبين لرسلهم « كانوا هم أشد منهم قوة » أي قدرة وتمكنا وسلطة « وآثارا » كالمدائن الحصينة والقلاع المنيعة والقصور العالية المشيدة « في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم » وأهلكهم بأعمالهم « وما كان لهم من الله من واق » يقيهم وحافظ يحفظهم .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات» الخ الإشارة بذلك إلى الأخذ الإلهي ، والمراد بالبينات الآيات الواضحات ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » لعل المراد بالآيات الخوارق المعجزة التي أرسل بها كالعصا واليد وغيرهما وبالسلطان المبين السلطة الإلهية القاهرة التي أيد بها فمنعت فرعون أن يقتله ويطفىء نوره، وقيل: المراد بالآيات الحجج والدلالات وبالسلطان معجزاته من العصا واليد وغيرهما ، وقيل : غير ذلك .

قوله تعالى : « إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب» فرعون جبار القبط ومليكهم ، وهامان وزيره وقارون من طغاة بني إسرائيل ذو الخزائن المليئة ؟ وإنما اختص الثلاثة من بين الامتين بالذكر لكونهم اصولاً ينتهي إليهم كل فساد وفتنة فيها.

قوله تعالى : « فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه » الخ مقايسة بين ما جاءهم به موسى ودعاهم إليه وبين ما قابلوه به من كيدهم فقدجاءهم بالحق وكان من الواجب أن يقبلوه لأنه حق وكان ما جاء به من عند الله وكان من الواجب أن يقبلوه ولا يردوه فقابلوه بالكيد وقالوا ما قالوا لئلا يؤمن به أحد لكن الله أضل كيدهم فلم يصب المؤمنين معه .

ويشعر السياق أن من القائلين بهذا القول قارون وهو من بني إسرائيل ولا ضير فيه لأن الحكم بقتل الأبناء واستحياء النساء كان قبل الدعوة صادرا في حق بني إسرائيل عامة وهذا الحكم في حق المؤمنين منهم خاصة فلعل قارون وافقهم عليه لعداوته وبغضه موسى والمؤمنين من قومه .

وفي قوله : « الذين آمنوا معه » ولم يقل : آمنوا به إشارة إلى مظاهرتهم موسى في دعوته .

قوله تعالى : « وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه» الخ « ذروني » أي اتركوني، خطاب يخاطب به ملأه، وفيه دلالة على أنه كان هناك قوم يشيرون عليه أن لا يقتل موسى ويكف عنه كما يشير إليه قوله تعالى: «قالوا أرجه وأخاه» الشعراء:٣٦.

وقوله : « وليدع ربه » كلمة قالها كبراً وعتواً يقول: اتركوني أقتله وليدع ربه

فلينجه من يدي وليخلصه من القتل إن قدر .

وقوله : « إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » تعليل لما عزم عليه من القتل وقد ذكر أنه يخافه عليهم من جهة دينهم ومن جهة دنياهم ، أما من جهة دينهم ـ وهو عبادة الأصنام ـ فأن يبدله ويضع موضعه عبادة الله وحده ، وأما من جهة دنيـــاهم فكأن يعظم أمره ويتقوى جانبه ويكثر متبعوه فيتظاهروا بالتمرد والمخالفة فيؤل الأمر إلى المشاجرة والقتال وانسلاب الأمن .

قوله تعالى : « وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » مقابلة منه عليه السلام لتهديد فرعون إياه بالقتل واستعاذة منه بربه ، وقوله : « عذت بربي وربكم » فيه مقابلة منه أيضاً لفرعون في قوله : « وليدع ربه » حيث خص ربوبيته تعالى بموسى فأشار موسى بقوله: « عذت بربي وربكم » إلى أنه تعالى ربهم كما هو ربه نافذ حكمه فيهم كما هو نافذ فيه فله أن يقي عائذه من شرهم وقد وقى .

ومن هنـــا يظهر أن الخطاب في قوله : « وربكم » لفرعون ومن معه دون قومه من بني إسرائيل .

وقوله : « من كل متـــكبر لا يؤمن بيوم الحساب » يشير به إلى فرعون وكل من يشاركه في صفتي التكبر وعدم الإيمان بيوم الحساب ولا يؤمن ممن اجتمعت فيه الصفتان شر أصلا .

قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » إلى آخر الآية . ظاهر السياق أن « من آل فرعون » صفة رجل و « يكتم إيمانه » صفة اخرى فكان الرجل من القبط من خاصة فرعون وهم لا يعلمون بإيمانه لكتمانه إياهم ذلك تقية .

وقيل : قوله : « من آل فرعون » مفعول ثان لقوله : « يكتم » قدم عليه ، والغالب فيه وإن كان التعدي إلى المفعول الثاني بنفسه كما في قوله : « ولا يكتمون الله حديثا » النساء . ٤٢ لكنه قد يتعدى إليه بمن كما صرح به في المصباح .

وفيه أن السياق يأباه فلا نكتة ظاهرة تقتضي تقدم المفعول الثاني على الفعل من حصر ونحوه . على أن الرجل يكرر نداء فرعون وقومه بلفظة «يا قومي» ولو لم يكن منهم لم يكن له ذلك .

وقوله : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » إنكار لعزمهم على قتله ، وفي قوله : « من ربكم » دليل على أن في البينات التي جاء بها دلالة على أن الله ربهم أيضاً كما اتخذه ربا فقتله قتل رجل جاء بالحق من ربهم .

وقوله : « وإن يك كاذبا فعليه كذبه » قيل: إن ذكره هذا التقدير تلطف منه لا أنه كان شاكا في صدقه .

وقوله : « وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم » فيه تنزل في المخاصمة بالاكتفاء على أيسر التقادير وأقلها كأنه يقول : وإن يك صادقا يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب ولا أقل من إصابة بعضما يعدكم مع أن لازم صدقه إصابة جميع ما وعد.

وقوله : « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » تعليل للتقدير الثاني فقط والمعنى إن يك كاذبا كفاه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم لأنكم حينئذ مسرفون متعدون طوركم كذابون في نفي ربوبية ربكم واتخاذ أرباب من دونه والله لا يهدي من هو مسرف كذاب ، وأما على تقدير كذبه فلا ربوبية لمن اتخذه ربا حتى يهديه أو لا يهديه .

ومن هنا يظهر أن ما ذكره بعضهم من كون الجملة تعليلا للتقديرين جميعا متعلقة بكلتا الجملتين غير مستقيم .

قوله تعالى : « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » ظهورهم غلبتهم وعلوهم في الأرض ، والأرض أرض مصر ، وبأس الله أخذه وعذابه والاستفهام للإنكار .

والمعنى: يا قوم لكم الملك حال كونكم غالبين عالين في أرض مصر على من دونكم من بني إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ الله وعذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا؟ وقد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيء البأس ليكون أبلغ في النصح وأوقع في قلوبهم أنه يريد لهم من العافية ما يريده لنفسه .

قوله تعالى : « قال فرعون ما اريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » أي طريق الصواب المطابقة للواقع يريد أنه على يقين مما يهدي إليه قومه من الطريق

وهي مع كونها معلومة له مطابقة للواقع ، وهذا كان تمويها منه وتجلدا .

قوله تعالى : « وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب – إلى قوله – للعباد » المراد بالذي آمن هو مؤمن آل فرعون ، ولا يعبؤ بما قيل : إنه موسى لقوة كلامه ، والمراد بالأحزاب الامم المذكورون في الآية التالية قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وقوله : «مثل دأب قوم نوح» بيان للمثل السابق والدأب هو العادة.

والمعنى: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأقوام الماضين مثل العادة الجارية من العذاب عليهم واحداً بعد واحد لكفرهم وتكذيبهم الرسل ، أو مثل جزاء عادتهم الدائمة من الكفر والتكذيب وما الله يريد ظلما للعباد .

قوله تعالى : « ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد – إلى قوله – من هاد » يوم التناد يوم القيامة، ولعل تسميته بذلك لكون الظالمين فيه ينادي بعضهم بعضا وينادون بالويل والثبور على ما اعتادوا به في الدنيا .

وقيل : المراد بالتنادي المناداة التي تقع بين أصحاب الجنة وأصحاب النار على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف ، وهناك وجوه آخر ذكروها لا جدوى فيها .

وقوله : « يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم » المراد به يوم القيامة ولعل المراد أنهم يفرون في النار من شدة عذابها ليتخلصوا منها فردوا إليها كما قال تعالى : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » الحج : ٢٢ .

وقوله : « ومن يضلل الله فما له من هاد » بمنزلة التعليل لقوله : « ما لكم من الله من عاصم» أي تفرون مدبرين ما لكم من عاصم ولو كان لكان من جانب الله وليس وذلك لأن الله أضلهم ومن يضلل الله فما له من هاد .

قوله تعالى : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » إلى آخر الآية . لما ذكر أن الله أضلهم ولا هادي لهم استشهد له بما عاملوا به يوسف عليه‌السلام في رسالته إليهم حيث شكوا في نبوته ما دام حيا ثم إذا مات قالوا : لا نبي بعده .

فالمعنى: وأقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البينات التي لا تدع ريبا في

رسالته من الله فما زلتم في شك مما جاءكم به ما دام حيا حتى إذا هلك ومات، قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا فناقضتم أنفسكم ولم تبالوا .

ثم أكده ـ وهو في معنى التعليل ـ بقوله : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » .

قوله تعالى : « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم » الخ وصف لكل مسرف مرتاب فإن من تعدى طوره بالإعراض عن الحق واتباع الهوى واستقر في نفسه الإرتياب فكان لا يستقر على علم ولا يطمئن إلى حجة تهديه إلى الحق جادل في آيات الله بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه .

وقوله : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » يفيد أن قلوبهم مطبوع عليها فلا يفقهون حجة ولا يركنون إلى برهان .

قوله تعالى : « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ـ إلى قوله ـ في تباب » أمر منه لوزيره هامان أن يبني له بناء يتوصل به إلى الإطلاع إلى إله موسى ولعله أصدر هذا الأمر أثناء محاجة الذي آمن وبعد الإنصراف عن قتل موسى ولذلك وقع ذكره بين مواعظ الذي آمن واحتجاجاته .

والصرح ـ على ما في المجمع ـ البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد ، والأسباب جمع سبب وهو ما تتوصل به إلى ما يبتعد عنك .

وقوله : « لعلي أبلغ الأسباب » في معنى التعليل لأمره ببنـاء الصرح ، والمعنى آمرك ببنائه لأني أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ثم فسر الأسباب بقوله : « أسباب السماوات » وفرع عليه قوله : « فأطلع إلى إله موسى » كأنه يقول: إن الإله الذي يدعوه ويدعو إليه موسى ليس في الأرض إذ لا إله فيها غيري فلعله في السماء فابن لي صرحاً لعلي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماوية الكاشفة عن خبايا السماء فأطلع من جهتها إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا .

وقيل : إن مراده أن يبني له رصدا يرصد فيـه الأوضاع السماوية لعله يعثر فيها على ما يستدل به على وجود إله موسى بعد اليـأس عن الظفر عليه بالوسائل الأرضية

وهو حسن ، وعلى أي حال لا يستقيم ما ذكره على شيء من مذاهب الوثنية فلعله كان منه تمويهاً على الناس أو جهلا منه وما هو من الظالمين ببعيد .

وقوله : « وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل » مفاد السياق أنه في معنى إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحق الذي كان يدعوه إليه موسى فقد زين الشيطان له قبيح عمله فرآه حسنا وصده عن سبيل الرشاد فرأى انصداده عنها ركوبا عليها فجادل في آيات الله بالباطل وأتى بمثل هذه الأعمال القبيحة والمكائد السفهية لإدحاض الحق .

ولذلك ختمت الآية بقوله : « وما كيد فرعون إلا في تباب» أي هلاك وانقطاع.

قوله تعالى : « وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » يدعوهم إلى اتباعه ليهديهم ، واتباعه اتباع موسى ، وسبيل الرشاد السبيل التي في سلوكها إصابة الحق والظفر بالسعادة ، والهداية بمعنى إراءة الطريق ، وفي قوله : « أهدكم سبيل الرشاد » تعريض لفرعون حيث قال : « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » والباقي ظاهر.

قوله تعالى : « يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار » هذا هو السناد الذي يستند إليه سلوك سبيل الرشاد والتدين بدين الحق لا غنى عنه بحال وهو الاعتقاد بأن للإنسان حياة خالدة مؤبدة هي الحياة الآخرة وأن هذه الحياة الدنيا متاع في الآخرة ومقدمة مقصودة لأجلها ، ولذلك بدء به في بيان سبيل الرشاد ثم ذكر السيئة والعمل الصالح .

قوله تعالى : « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها » إلى آخر الآية . أي إن الذي يصيبه ويعيش به في الآخرة يشاكل ما أتى به في هذه الحياة الدنيا التي هي متاع فيها فإنما الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء .

من عمل في الدنيا سيئة ذات صفة المساءة فلا يجزى في الآخرة إلا مثلها مما يسوؤه ومن عمل صالحا من ذكر أو انثى من غير فرق بينهما في ذلك والحال أنه مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب .

وفيه إشارة إلى المساواة بين الذكر والانثى في قبول العمل وتقييد العمل الصالح

في تأثيره بالإيمان لكون العمل حبطا بدون الإيمان قال تعالى : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله » المائدة : ٥ إلى غيرها من الآيات .

وقد جمع الدين الحق وهو سبيل الرشاد في أوجز بيان وهو أن للإنسان دار قرار يجزى فيها بما عمل في الدنيا من عمل سيىء أو صالح فليعمل صالحا ولا يعمل سيئاً ، وزاد بيانا إذ أفاد أنه إن عمل صالحا يرزق بغير حساب .

قوله تعالى : « ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار – إلى قوله – العزيز الغفار » كأنه لما دعاهم إلى التوحيد قابلوه بدعوته إلى عبادة آلهتهم أو قدّرها لهم لما شاهد جدالهم بالباطل وإصرارهم على الشرك فنسب إليهم الدعوة بشهادة حالهم فأظهر العجب من مقابلتهم دعوته الحقة بدعوتهم الباطلة .

فقال : ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة أي النجاة من النار وتدعونني إلى النار وقد كان يدعوهم إلى سبب النجاة ويدعونه إلى سبب دخول النار فجعل الدعوة إلى السببين دعوة إلى المسببين أو لأن الجزاء هو العمل بوجه .

ثم فسر ما دعوه إليه وما دعاهم إليه فقال : تدعونني لأكفر أي إلى أن أكفر بالله وأُشرك به ما ليس لي به علم أي أشرك به شيئا لا حجة لي على كونه شريكا فأفتري على الله بغير علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الذي يغلب ولا يغلب ، الغفار لمن تاب إليه وآمن به أي أدعوكم إلى الإيمان به والإسلام له .

قوله تعالى : « لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة » الخ لا جرم بمعنى حقا أو بمعنى لابد ، ومفاد الآية إقامة الحجة على عدم كون ما يدعون إليه إلهاً من طريق عدم الدعوة إليه وفي ذلك تأييد لقوله في الآية السابقة « ما ليس لي به علم » .

والمعنى: ثبت ثبوتا أن ما تدعونني إليه مما تسمونه شريكا له سبحانه ليس له دعوة في الدنيا إذ لم يعهد نبي أرسل إلى الناس من ناحيته ليدعوهم إلى عبادته ، ولا في الآخرة إذ لا رجوع إليه فيها من أحد ، وأما الذي أدعوكم إليه وهو الله سبحانه فإن له دعوة في الدنيا وهي التي تصداها أنبياؤه ورسله المبعوثون من عنده المؤيدون بالحجج والبينات ،

وفي الآخرة وهي التي يتبعها رجوع الخلق إليه لفصل القضاء بينهم، قال تعالى: «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده» أسرى : ٥٢ .

ومن المعلوم كما قررناه في ذيل قوله تعالى : «هو الذي يريكم آياته» الآية ١٣ من السورة أن الربوبية لا تتم بدون دعوة في الدنيا ونظيرتها الدعوة في الآخرة، وإذ كان الذي يدعوهم إليه ذا دعوة في الدنيا والآخرة دون ما يدعونه إليه فهو الإله دون ما يدعون إليه .

وقوله : «وإن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار» معطوف على قوله : «أن ما تدعونني» أي لا جرم أن مردنا إلى الله فيجب الإسلام له واتباع سبيله ورعاية حدود العبودية، ولا جرم أن المسرفين وهم المتعدون طور العبودية - وهم أنتم - أصحاب النار فالذي أدعوكم إليه فيه النجاة دون ما تدعونني إليه .

قوله تعالى : «فستذكرون ما أقول لكم وافوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد» صدر الآية موعظة وتخويف لهم وهو تفريع على قوله : «وأن مردنا إلى الله» الخ أي إذ كان لابد من الرجوع إلى الله وحلول العذاب بالمسرفين وأنتم منهم ولم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عاينتم العذاب وتعلمون عند ذاك أني كنت ناصحاً لكم .

وقوله : «وافوض أمري إلى الله» التفويض على ما فسره الراغب هو الرد فتفويض الأمر إلى الله رده إليه فيقرب من معنى التوكل والتسليم والاعتبار مختلف : فالتفويض من العبد رده ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه وحال العبد حينئذ حال من هو أعزل لا أمر راجعاً إليه، والتوكل من العبد جعله ربه وكيلا يتصرف فيما له من الأمر، والتسليم من العبد مطاوعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه ومنه من غير نظر إلى انتساب أمر إليه فهي مقامات ثلاث من مقامات العبودية: التوكل ثم التفويض وهو أدق من التوكل ثم التسليم وهو أدق منهما .

وقوله : «إن الله بصير بالعباد» تعليل لتفويضه أمره إلى الله، وفي وضع اسم الجلالة موضع ضميره - وكان مقتضى الظاهر الإضمار إشارة إلى علة بصيرته بالعباد كأنه قيل : إنه بصير بالعباد لأنه الله عز اسمه .

قوله تعالى : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » تفريع على تفويضه الأمر إلى الله فكفاه الله شرهم ووقاه سيئات مكرهم ، وفيه إشارة إلى أنهم قصدوه بالسوء لكن الله دفعهم عنه .

قوله تعالى : «وحاق بآل فرعون سوء العذاب ـ إلى قوله ـ أشد العذاب » أي نزل بهم وأصابهم العذاب السيىء فسوء العذاب من إضافة الصفة إلى موصوفها وفي التوصيف بالمصدر مبالغة ، وآل فرعون أشياعه وأتباعه ، وربما يقال آل فلان ويشمل نفسه .

وقوله : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» ظاهر السياق أنه بيان لسوء العذاب وليس من الاستئناف في شيء .

والآية صريحة أولاً في أن هناك عرضا على النار ثم إدخالا فيها والإدخال أشد من العرض ، وثانياً : في أن العرض على النار قبل قيام الساعة التي فيها الإدخال وهو عذاب البرزخ ـ عالم متوسط بين الموت والبعث ـ وثالثاً : أن التعذيب في البرزخ ويوم تقوم الساعة بشيء واحد وهو نار الآخرة لكن البرزخيين يعذبون بها من بعيد وأهل الآخرة بدخولها .

وفي قوله : « غدواً وعشياً » إشارة إلى التوالي من غير انقطاع ، ولعل لأهل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنيا بالكلية نسبة ما إلى الغداة والعشي .

وفي قوله : « ويوم تقوم الساعة ادخلوا » إيجاز بالحذف والتقدير يقال : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب .

قوله تعالى : « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء الذين استكبروا ـ إلى قوله ـ بين العباد » يفيد السياق أن الضمير في « يتحاجون » لآل فرعون ومن الدليل على ذلك تغيير السياق في قوله بعد : « وقال الذين في النار » والمعنى وحاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون في النار أو واذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا إنا كنا في الدنيا لكم تبعاً وكان لازم ذلك أن تكفونا في الحوائج وتنصرونا في الشدائد ولا شدة أشد مما نحن فيه فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار وإن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا بالبعض .

وهذا ظهور مما رسخ في نفوسهم في الدنيا من الإلتجاء بكبريائهم ومتبوعيهم من دون الله يظهر منهم ذلك يوم القيامة وهم يعلمون أنهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً والأمر يومئذ لله وله نظائر محكية عنهم في كلامه تعالى من كذبهم يومئذ وخلفهم وإنكارهم أعمالهم وتكذيب بعضهم لبعض وغير ذلك .

وقوله : « قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد » جواب من مستكبريهم عن قولهم ومحصله أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فالأسباب ساقطة عن التأثير وقد طاحت منا ما كنا نتوهمه لأنفسنا في الدنيا من القوة والقدرة فحالنا وحالكم ـ ونحن جميعاً في النار ـ واحدة .

فقولهم : « إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد » مفاده أن ظهور الحكم الإلهي قد أبطل أحكام سائر الأسباب وتأثيراتها وأثبتنا على ما نحن فيه من الحال في حد سواء فلسنا نختص دونكم بقوة حتى نغني عنكم شيئاً من العذاب .

ومما قيل في الآية أن الضمير في قوله : « يتحاجون » لمطلق الكفار من أهل النار وهو بعيد كما عرفت ، وقيل : الضمير لقريش وهو أبعد .

قوله تعالى : « وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » مكالمة بين أهل النار ـ ومنهم آل فرعون ـ وبين خزنة جهنم أوردها سبحانه تلو قصة آل فرعون ، وهم إنما سألوا الخزنة أن يدعوا لهم ليأسهم من أن يستجاب منهم أنفسهم .

والمراد باليوم من العذاب ما يناسب من معنى اليوم لعالمهم الذي هم فيه ، ويؤول معناه إلى قطعة من العذاب .

قوله تعالى : « قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » أجابوهم بالاستخبار عن إتيان رسلهم إياهم بالبينات فاعترفوا بذلك وهو اعتراف منهم بأنهم كفروا بهم مع العلم بكونهم على الحق وهو الكفر بالنبوة فلم يجبهم الخزنة فيما سألوهم من الدعاء إثباتا ولا نفيا بل ردوهم إلى أنفسهم مشيرين إلى أنهم لا يستجاب لهم دعاء .

وقوله : « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » أي إن دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدي إلى هدف الإجابة وهو تتمة كلام الخزنة على ما يعطيه السياق ، ويحتمل أن يكون من كلامه تعالى ، على بعد .

والجملة على أي حال تفيد معنى التعليل والمحصل : ادعوا فلا يستجاب لكم فإنكم كافرون ، والكافرون لا يستجاب لهم دعاء .

وتعليق حكم عدم الإستجابة بوصف الكفر مشعر بعليته وذلك أن الله سبحانه وإن وعد عباده وعداً قطعياً أن يجيب دعوة من دعاه منهم فقال: «أجيب دعوة الداع إذا دعان » البقرة ١٨٦ ، والدعاء إذا كان واقعـا على حقيقته لا يرد البتة لكن الذي يتضمنه متن هذا الوعد هو أن يكون هنـاك دعاء وطلب حقيقة وأن يتعلق ذلك بالله حقيقة أي يدعو الداعي ويطلب جدا وينقطع في ذلك إلى الله عن سائر الأسباب التي يسميها أسبابا .

والكافر بعذاب الآخرة وهو الذي ينكرها ويستر حقيقتها لا يتمشى منه طلب جدي لرفعه أما في الدنيا فظاهر ، وأما في الآخرة فلأنه وإن أيقن به بالمعاينة وانقطع إلى الله سبحانه لمـــا هو فيه من الشدة وقد انقطعت عنه الأسباب لكن صفة الإنكار لزمته وبالاً وقد جوزي بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلبا جديا .

على أن الكلام في انقطاعه إلى الله أيضاً كالكلام في طلبه الجدي للتخلص وأنى له الإنقطاع إلى الله هناك ولم يتلبس به في الدنيا فافهمه .

وبذلك يظهر ضعف الاستدلال بالآية على أن دعاءالكافر لا يستجاب مطلقا فإنك عرفت أن مدلول الآية عدم استجـــابة دعائه فيما يكفر به وينكره لا مطلقا كيف ؟ وهناك آيات كثيرة تذكر استجابة دعائه في موارد الاضطرار .

قوله تعالى: « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » الأشهاد جمع شهيد بمعنى شاهد ، والآية وعد نوعي لا وعد شخصي لكل واحد شخصي منهم في كل واقعة شخصية ، وقد تقدم كلام في معنى النصر الإلهي فيتفسير قوله تعالى:

« إنهم لهم المنصورون » الصافات : ١٧٢ .

قوله تعالى : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » تفسير ليوم يقوم الأشهاد ، وظاهر إضافة المصدر إلى فاعله في قوله « معذرتهم » ولم يقل : أن يعتذروا ، تحقق معذرة ما منهم يومئذ ، وأما قوله : «هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » المرسلات: ٣٦ فمحمول على بعض مراحل يوم القيامة وعقباته لدلالة آيات اخرى على وقوع تكلم ما منهم يومئذ .

وقوله : « ولهم اللعنة » أي البعد من رحمة الله ، وقوله : « لهم سوء الدار » أي الدار السيئة وهي جهنم .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ـ إلى قوله ـ الألباب » خاتمة لما تقدم من إرسال موسى بالآيات والسلطان المبين ومجادلة آل فرعون في الآيات بالباطل ومحاجة مؤمن آل فرعون ، يشير بها وقد صدرت بلام القسم إلى حقية ما ارسل به وظلمهم فيما قابلوه به .

والمراد بالهدى الدين الذي اوتيه موسى ، و « بايراث بني إسرائيل الكتاب » إبقاء التوراة بينهم يعملون بها ويهتدون .

وقوله : « هدى وذكرى لأولي الألباب» أي حالكون الكتاب هدى يهتدي به عامتهم وذكرى يتذكر به خاصتهم من اولي الألباب .

﴿ بحث روائي ﴾

في العلل بإسناده عن إسماعيل بن منصور أبي زياد عن رجل عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قول فرعون : « ذروني أقتل موسى » ما كان يمنعه ؟ قال : منعته رشدته ، ولا يقتل الأنبياء ولا أولاد الأنبياء إلا أولاد الزنا .

وفي المجمع قال أبو عبد الله : التقية ديني ودين آبائي ، ولا دين لمن لا تقية له ، والتقية ترس الله في الأرض لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل .

اقول : والروايات من طرق الشيعة فيها كثيرة والآيات تؤيدها كقوله : « إلا أن

تتقوا منهم تقاة » آل عمران : ٢٨ وقوله : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » النحل : ١٠٦ .

وفي المحاسن بإسناده عن أيوب بن الحر عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قول الله : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » قال : أما لقد سطوا عليه وقتلوه ولكن أتدرون ما وقاه ؟ وقاه أن يفتنوه في دينه .

اقول : وفي معناه بعض روايات اخر وفي بعض ما ورد من طرق أهل السنة أن الله نجاه من القتل .

وفي الخصال عن الصادق عليه‌السلام قال : عجبت لمن يفزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع ؟ ـ إلى أن قال ـ وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله : « وافوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد » فإني سمعت الله تعالى يقول بعقبها : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » .

اقول : وهو مروي في غير هذا الكتاب .

وفي تفسير القمي قال رجل لأبي عبد الله عليه‌السلام : ما تقول في قول الله عز وجل: « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » فقال أبو عبد الله عليه‌السلام : ما يقول الناس؟ فقال: يقولون: إنها في نار الخلد وهم لا يعذبون فيما بين ذلك فقال : فهم من السعداء . فقيل له: جعلت فداك فكيف هذا ؟ فقال : إنما هذا في الدنيا فأما في دار الخلد فهو قوله : « يوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

اقول : مراده عليه‌السلام بالدنيا البرزخ وهو كثير الورود في رواياتهم .

وفي المجمع عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي فإن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة أورده البخاري ومسلم في الصحيح .

أقول : ورواه السيوطي في الدر المنثور عنهما وعن ابن أبي شيبة وابن مردويه وهذا المعنى كثير الورود في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد مر كثير منها في البحث عن البرزخ في الجزء الأول من الكتاب وغيره من المواضع .

* * *

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ـ ٥٥ . إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ـ ٥٦ . لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ـ ٥٧ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ ـ ٥٨ . إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ـ ٥٩ . وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ـ ٦٠ .

﴿ بيان ﴾

لما قص قصة موسى وإرساله بالحق إلى فرعون وقومه ، ومجادلتهم في آيات الله بالباطل ومكرهم فيها ونصره تعالى لنبيه وإبطاله كيدهم وما آل إليه أمرهم من خيبة السعي وسوء المنقلب فرّع على ذلك أمر نبيه ﷺ بالصبر منبها له أن وعد الله بالنصر حق وأن كيد قومه وجدالهم بالباطل واستكبارهم عن قبول دعوته سيبطل ويعود وبالاً على أنفسهم فليسوا بمعجزي الله وستقوم الساعة الموعودة ويدخلون جهنم داخرين .

قوله تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق » إلى آخر الآية . تفريع على ما تقدم

من الأمر بالاعتبار في قوله : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم» وما أورد بعده من قصة موسى ومآل أمر المستكبرين المجادلين بالباطل ونصره تعالى للحق وأهله .

والمعنى : إذا كان الأمر على ذلك فاصبر على إيذاء المشركين ومجادلتهم بالباطل إن وعد الله حق وسيفي لك بما وعد، والمراد بالوعد ما في قوله قبيل هذا: « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا » الآية من وعد النصر .

وقوله : « واستغفر لذنبك » أمر له بالاستغفار لما يعد بالنسبة إليه ذنبا وإن لم يكن ذنبا بمعنى المخالفة للأمر المولوي لمكان عصمته ﷺ ، وقد تقدم كلام في معنى الذنب والمغفرة في أواخر الجزء السادس من الكتاب .

وللذنب المنسوب إليه ﷺ معنى آخر سنشير إليه في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى ، وقيل : المراد بذنبه ﷺ ذنب امته أعطي الشفاعة فيه .

وقوله : « وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » أي نزهه سبحانه مصاحبا لحمده على جميل آلائه مستمرا متواليا بتوالي الأيام أو في كل صباح ومساء ، وكونه بالعشي والإبكار على المعنى الأول من قبيل الكناية .

وقيل : المراد به صلاة الصبح والعصر ، والآية مدنية .

وفيه أن المسلم من الروايات ومنها أخبار المعراج أن الصلوات الخمس فرضت جميعا بمكة قبل الهجرة فلو كان المراد به الفريضتين كان ذلك بمكة قبل فرض بقية الصلوات الخمس .

قوله تعالى : « إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » الخ تأكيد لما تقدم في الآية السابقة من أمره ﷺ بالصبر وتطييب نفسه بتأييد وعد النصر ، ومحصله أن هؤلاء المجادلين لاينالون بغيتهم ولن ينالوا فلا يحزنك جدالهم وطب نفساً من ناحيتهم .

فقوله : « إن في صدورهم إلا كبر » حصر للسبب الموجب لمجادلتهم في الكبر أي ليس عاملهم في ذلك طلب الحق أو الإرتياب في آياتنا والشك فيها حتى يريدوا بها

ظهور الحق ولا حجة ولا سلطان عندهم حتى يريدوا إظهارها بل الذي في صدورهم وهو الداعي لهم إلى الجدال ، الكبر ، يريدون به إدحاض الحق الصريح .

وقوله : « ما هم ببالغيه » الضمير لكبر باعتبار مسببه فإن الكبر سبب للجدال والجدال يراد به إبطال الحق ومحق الدعوة الحقة ، والمعنى ما هم ببالغي مرادهم وبغيتهم من الجدال الذي يأتون به لكبرهم .

وقوله : « فاستعذ بالله » أي فاستعذ بالله منهم بما لهم من الكبر كما استعاذ موسى من كل متكبر مجادل كما قال : « وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

وقوله : « إنه هو السميع البصير » أي السميع لدعاء عباده البصير بحوائجهم والذي يبصر ما هم فيه من شدة أو رخاء .

قوله تعالى : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » اللام للقسم ، والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم ، ومعنى الآية حسب ما يعطيه المقام أنهم ليسوا ببالغي بغيتهم وليسوا بمعجزين فإن الله الذي قدر على خلق مجموع العالم ولم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمة ليس يعجزه جزء يسير منه وهو الناس المخلوقون الذين هم أهون عليه ولكن أكثر الناس جاهلون يظنون بجهلهم أنهم يعجزون الله بجدال يجادلونه أو أي كيد يكيدونه .

قوله تعالى : « ولا يستوي الأعمى والبصير » الخ لما ذكر أن أكثر الناس لا يعلمون أكده بأنهم ليسوا على وتيرة واحدة فإن منهم الأعمى والبصير ولا يستويان وعطف عليها الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيىء فالطائفة الاولى أولو بصيرة يتذكرون بها والثانية اعمى الله قلوبهم فلا يتذكرون .

وقوله : « قليلا ما تتذكرون » خطاب للنـــاس بداعي التوبيخ وهو الوجه في الالتفات من الغيبة إلى الحضور .

قوله تعالى : « إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » ذكرهم تعالى في هذه الآية بإتيان الساعة وفي الآية التالية بدعوة ربهم إياهم إلى دعائه

وعبادته كما نبه الذي آمن من آل فرعون في القصة السابقة بإتيان الساعة وبأن لله الدعوة وليس لآلهتهم دعوة في الدنيا ولا في الآخرة .

قوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » دعوة منه تعالى لعباده إلى دعائه ووعد بالاستجابة ، وقد اطلق الدعوة والدعاء والإستجابة إطلاقاً ، وقد أشبعنا الكلام في معنى الدعاء والإجابة في ذيل قوله تعالى : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » البقرة : ١٨٦ في الجزء الأول من الكتاب .

وقوله : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » الدخور الذلة ، وقد بدل الدعاء عبادة فدل على أن الدعاء عبادة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الصحيفة السجادية : وقلت : « ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » فسميت دعاءك عبادة وتركه استكبارا وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين .

وفي الكافي بإسناده عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ادع ولا تقل : قد فرغ من الأمر فإن الدعاء هو العبادة إن الله عز وجل يقول : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين» وقال: «ادعوني أستجب لكم».

أقول : قوله عليه السلام : فإن الدعاء – إلى قوله – داخرين احتجاج على ما ندب إليه أولا بقوله : ادع ، وقوله : وقال : « ادعونى أستجب لكم » احتجاج على ما قاله ثانياً : ولا تقل: قد فرغ من الأمر ولذا قدم عليه السلام في بيانه ذيل الآية على صدرها .

وفي الخصال عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : يا معاوية من أعطي ثلاثة لم يحرم ثلاثة : من أعطي الدعاء أعطي الإجابة ، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية فإن الله عز وجل يقول في كتابه : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، وقال : « ادعوني أستجب لكم » .

وفي التوحيد بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام قال: قال قوم للصادق عليه السلام:

ندعوه فلا يستجاب لنا . قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .

أقول : وقد أوردنا جملة من روايات الدعاء في ذيل قوله : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » البقرة : ١٨٦ في الجزء الأول من الكتاب .

* * *

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبصِراً إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ـ ٦١ . ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إلهَ إلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ـ ٦٢ . كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ـ ٦٣ . اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ـ ٦٤ . هُوَ الْحَيُّ لا إلهَ إلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ـ ٦٥ . قُلْ إنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ ـ ٦٦ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ـ ٦٧ . هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضَى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ـ ٦٨ .

﴿ بيان ﴾

رجع سبحانه ثانيا إلى الإشارة إلى آيات التوحيد توحيد الربوبية والالوهية بعد ما بدء بها في السورة أولاً بقوله : « هو الذي يريكم آياته » .

قوله تعالى : « هو للذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا » الآية . أي جعل لأجلكم الليل مظلما لتسكنوا فيه من التعب الذي عرض لكم وجه النهار من جهة السعي في طلب الرزق، والنهار مبصراً لتبتغوا من فضل ربكم وتكسبوا الرزق، وهذا من أركان تدبير الحياة الإنسانية .

وقد ظهر بذلك أن نسبة الإبصار الى النهار من المجاز العقلي لكن ليس من المبالغة في شيء كما ادعاه بعضهم .

وقوله : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » امتنان عليهم بالفضل وتقريع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم ولو شكروه لعبدوه ووضع « الناس » الثاني موضع الضمير للإشارة إلى أن من طبع الناس بما هم ناس كفران النعم كما قال : « إن الإنسان لظلوم كفار » إبراهيم : ٣٤ .

قوله تعالى : « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون » أي ذلكم الذي يدبر أمر حياتكم ورزقكم بسكون الليل وسعي النهار هو الله تعالى وهو ربكم لأن تدبير أمركم إليه .

وقوله : « خالق كل شيء » أي ورب كل شيء لأنه خالق كل شيء والخلق لا ينفك عن التدبير ولازم ذلك أن لا يكون في الوجود رب غيره لا لكم ولا لغيركم ولذلك عقبه بقوله : « لا إله إلا هو » أي فإذن لا معبود بالحق غيره إذ لو كان هناك معبود آخر كان رب آخر فإن الالوهية من شئون الربوبية .

وقوله : « فأنى تؤفكون » أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

قوله تعالى : « كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون » أي كمثل هذا الافك يؤفك الجاحدون لآيات الله فإن الآيات ظاهرة غير خفية فالإنصراف عن مدلولها لا سبب له إلا الجحد .

قوله تعالى : « الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء » إلى آخر الآية القرار المستقر الذي يستقر عليه ، والبناء - على ما قيل - القبة ومنه أبنية العرب للقباب المضروبة عليهم . يذكر تعالى نعمة استقرار الإنسان على الأرض وتحت السماء .

وقوله : «وصوركم فأحسن صوركم» الفاء للتفسير والمعنى أحسن خلق صوركم وذلك أن الإنسان جهز من دقائق التجهيز في صورته بما يقوى به من الأعمال المتنوعة العجيبة على مالا يقوى عليه شيء من سائر الموجودات الحية ، ويلتذ من مزايا الحياة بما لا يتيسر لغيره أبداً .

وقوله : « ورزقكم من الطيبات » هي الأرزاق المتنوعة التي تلائم بطبائعها طبيعة الإنسان من الحبوب والفواكه واللحوم وغيرها ، وليس في الحيوان متنوع في الرزق كالإنسان .

وقوله : « ذلكم الله ربكم » أي المدبر لأمركم ، وقوله : « فتبارك الله رب العالمين » ثناء عليه عز وجل بربوبيته لجميع العالمين ، وقد فرعه على ربوبيته وتدبيره للإنسان إشارة إلى أن الربوبية واحدة وتدبيره لأمر الإنسان عين تدبيره لأمر العالمين جميعا فإن النظام الجاري نظام واحد روعي في انطباقه على كل ، انطباقه على الكل فهو سبحانه متبارك منشأ للخير الكثير فتبارك الله رب العالمين .

قوله تعالى : « هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين » الخ في جملة « هو الحي » إطلاق لا مقيد له لا عقلا ولا نقلا مضافا إلى إفادة الحصر فمفادها أن له تعالى وحده حياة لا يداخلها موت ولا يزيلها فناء فهو تعالى حي بذاته وغيره كائنا ما كان حي بإحياء غيره .

وإذا فرض هناك حي بذاته وحي بغيره لم يستحق العبادة بذاته إلا من كان حيا بذاته ، ولذلك عقب قوله : « هو الحي » بقوله : « لا إله إلا هو » . .

وقد سبقت الجملتان توطئة للأمر بدعائه ولا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد وإخلاص الدين له وحده لأنه الحي بذاته دون غيره ولأنه المعبود بالاستحقاق الذاتي دون غيره ، ولذلك فرع على قوله : « هو الحي لا إله إلا هو » قوله : « فادعوه مخلصين له الدين » .

وقوله : « الحمد لله رب العالمين » ثناء عليه بربوبيته للعالمين .

قوله تعالى : « قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين » معنى الآية ظاهر ، وفيه إيآس للمشركين من موافقته لهم في عبادة آلهتهم ، وقد تكرر هذا المعنى في سورة الزمر ويمكن أن يستأنس منه أن هذه السورة نزلت بعد سورة الزمر .

قوله تعالى : « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة » الخ المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن خلق غيره ينتهي إليه فخلقه من تراب هو خلقهم منه أو المراد بخلقهم من تراب تكوين النطفة من البسائط الأرضية .

وقوله : « ثم من نطفة » الخ أي ثم خلقناكم من نطفة حقيرة معلومة الحال « ثم من علقة » كذلك « ثم يخرجكم » من بطون امهاتكم « طفلا » أي أطفالا ، والطفل ـ كما قيل ـ يطلق على الواحد والجمع قال تعالى. « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » النور : ٣١ .

« ثم لتبلغوا أشدكم » اللام للغاية وكأن متعلقها محذوف والتقدير ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم وهو من العمر زمان اشتداد القوى « ثم لتكونوا شيوخا» معطوف على « لتبلغوا » « ومنكم من يتوفى من قبل » فلا يبلغ أحد هـذه المراحل من العمر كالشيخوخة وبلوغ الأشد وغيرهما .

«ولتبلغوا أجلا مسمى» وهو النهاية من الأمد المضروب الذي لا سبيل للتغير إليه أصلا ، وهو غاية عامة لجميع الناس كيفما عمروا قال تعالى : « وأجل مسمى عنـده » الأنعام : ٢ . ولذلك لم تعطف الجملة بثم حتى تتميز من الغايتين المذكورتين سابقا .

وقوله : « ولعلكم تعقلون » أي تدركون الحق بالتعقل المغروز فيكم ، وهذا غاية خلقة الإنسان بحسب حياته المعنوية كما أن بلوغ الأجل المسمى غاية حياته الدنيا الصورية .

قوله تعالى : « هو الذي يحيي ويميت » الخ أي هو الذي يفعل الإحياء والإماتة وفيهما نقل الأحياء من عالم إلى عالم وكل منهما مبدء لتصرفاته بالنعم التي يتفضل بها على من يدبر أمره .

وقوله : « فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » تقدم تفسيره كراراً .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ وقالوا إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ويكون من أمره فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا فأنزل الله: «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه» قال: لا يبلغ الذي يقول. «فاستعذ بالله» فأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من فتنة الدجال «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» الدجال.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في قوله: «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان» قال: هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال.

وفيه أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» قال: زعموا أن اليهود قالوا: يكون منا ملك في آخر الزمان البحر إلى ركبتيه، والسحاب دون رأسه، يأخذ الطير بين السماء والأرض، معه جبل خبز ونهر فنزلت: «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس».

أقول: قد عرفت فيما تقدم أن غرض السورة - كما يستفاد من سياق آياتها - التكلم حول استكبارهم ومجادلتهم في آيات الله بغير الحق فمنها ابتدء الكلام وإليها يعود عودة بعد عودة كقوله: «ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا» وقوله: «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق»، وقوله: «الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا»، وقوله: «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر»، وقوله: «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون».

فسياق آيات السورة يأبى أن يكون بعضها يختص بسبب في نزولها لا يشاركها فيه غيرها كما هو مؤدى هذه الروايات الثلاث.

على أن ما في الروايات من قصة إخبار اليهود بالدجال لا ينطبق على الآيتين إنطباقا ظاهراً بعد التأمل في مضمون الآيتين نفسها أعني قوله: «إن الذين يجادلون - إلى قوله - ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

ومن هذا يظهر أن القول بـ[illegible] الآيتين مدنيتين استناداً إلى هذه الروايات كما ترى.

* * *

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ـ ٦٩ . الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ـ ٧٠ . إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ـ ٧١ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ـ ٧٢ . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ـ ٧٣ . مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ ـ ٧٤ . ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ـ ٧٥ . أُدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ـ ٧٦ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ـ ٧٧ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ـ ٧٨ .

﴿ بيان ﴾

رجوع بعد رجوع إلى حديث المجادلين في آيات الله وقد تعرض لبيان مآل أمرهم بذكر ما آل إليه أمر أشباههم من الامم الخالية ونصره تعالى لدينه في أول السورة

إجمالا ثم بذكر الحال في دعوة موسى عليه‌السلام بالخصوص فيما قصه من قصته ونصره له بالخصوص ثم في ضمن أمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بالصبر ووعده بالنصر .

وهذا آخر كرة عليهم يذكر فيها مآل أمرهم وما يصرفون إليه وهو العذاب المخلد ثم يأمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بالصبر ويعده بالنصر ويطيب نفسه بأن وعد الله حق .

قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون » « ألم تر » مفيد للتعجيب و « أنى » بمعنى كيف ، والمعنى ألا تعجب أو ألم تعجب من أمر هؤلاء المجادلين في آيات الله كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال .

والتعرض لحال المجادلين ههنا من حيث الإشارة إلى كونهم مصروفين عن الحق والهدى ومآل ذلك ، وفيما تقدم من قوله : « إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » من حيث إن الداعي لهم إلى ذلك الكبر وأنهم لا يبلغون ما يريدون فلا تكرار .

ومنه يظهر ما في قول بعضهم : إن تكرير ذكر المجادلة محمول على تعدد المجادل بأن يكون المجادلون المذكورون في الآية السابقة غير المذكورين في هذه الآية أو على اختلاف ما فيه المجادلة كأن يكون المجادلة هناك في أمر البعث وههنا في أمر التوحيد على أن فيه غفلة عن غرض السورة كما عرفت .

قوله تعالى : « الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون » الذي يعطيه سياق الآيات التالية أن المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وعليه فالأنسب أن يكون المراد بالكتاب هو القرآن الكريم ، وبقوله : « بما أرسلنا به رسلنا » ما جاءت به الرسل عليهم السلام من عند الله من كتاب ودين فالوثنية منكرون للنبوة .

وقوله : « فسوف يعلمون » تفريع على مجادلتهم وتكذيبهم وتهديد لهم أي سوف يعلمون حقيقة مجادلتهم في آيات الله وتكذيبهم بالكتاب وبالرسل .

قوله تعالى : « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون » في المجمع : الأغلال جمع غل وهو طوق يدخل في العنق للذل والألم وأصله الدخول ، وقال : السلاسل جمع سلسلة وهي الحلق منتظمة في جهة الطول مستمرة

وقال : السحب جر الشيء على الأرض . هذا أصله ، وقال : السجر أصله إلقاء الحطب في معظم النار كالتنور الذي يسجر بالوقود . انتهى .

وقوله : « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل » ظرف لقوله : « فسوف يعلمون » قيل : الإتيان بإذ ـ وهو للماضي ـ للدلالة على تحقق الوقوع وإن كان موقعه المستقبل فلا تنافي ، في الجمع بين سوف وإذ .

و « الأغلال في أعناقهم » مبتدء وخبر ، و « السلاسل » معطوف على الأغلال ، و «يسحبون في الحميم » خبر بعد خبر، و «في النار يسجرون» معطوف على «يسحبون».

والمعنى : سوف يعلمون حقيقة علمهم حين تكون الأغلال والسلاسل في أعناقهم يجرون في الماء الحار الشديد الحرارة ثم يقذفون في النار .

وقيل : معنى قوله : « ثم في النار يسجرون » ثم يصيرون وقود النار ، ويؤيده قوله تعالى في صفة جهنم : « وقودها الناس والحجارة » البقرة : ٢٤ ، وقوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الأنبياء : ٩٨ .

قوله تعالى : « ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا » إلى آخر الآية . أي قيل لهم وهم يتقلبون بين السحب والسجر : أين ما كنتم تشركون من شركائكم من دون الله حتى ينصروكم بالإنجاء من هذا العذاب أو يشفعوا لكم كما كنتم تزعمون أنهم سيشفعون لكم قبال عبادتكم لهم ؟ .

وقوله : « قالوا ضلوا عنا » أي غابوا عنا من قولهم : ضلت الدابة إذا غابت فلم يعرف مكانها ، وهذا جوابهم عما قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله .

وقوله : « بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً » إضراب منهم عن الجواب الأول لما يظهر لهم أن الآلهة الذين كانوا يزعمونهم شركاء لم يكونوا إلى أسماء لا مسميات لها ومفاهيم لا يطابقها شيء ولم يكن عبادتهم لها إلا سدى، ولذلك نفوا أن يكونوا يعبدون شيئاً قال تعالى : « فزيلنا بينهم » يونس : ٢٨ وقال : «لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام : ٩٤ .

وقيل : هذا من كذبهم يوم القيامة على حد قوله: « والله ربنا ما كنا مشركين» .

الأنعام : ٢٣ .

وقوله : « كذلك يضل الله الكافرين» أي إضلاله تعالى للكافرين وهم الساترون للحق يشبه هذا الضلال وهو أنهم يرون الباطل حقا فيقصدونه ثم يتبين لهم بعد ضلال سعيهم أنه لم يكن إلا باطلا في صورة حق وسراباً في سيماء الحقيقة .

والمعنى : على الوجه الثاني أعني كون قولهم : «بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً» كذبا منهم : كمثل هذا الإضلال يضل الله الكافرين فيؤول أمرهم إلى الكذب حيث لا ينفع مع علمهم بأنه لا ينفع .

وقد فسرت الجملة بتفاسير اخرى متقاربة وقريبة مما ذكرناه .

قوله تعالى : «ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون» الفرح مطلق السرور ، والمرح الإفراط فيه وهو مذموم ، وقال الراغب : الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية ، وقال: المرح شدة الفرح والتوسع فيه . انتهى .

وقوله : « ذلكم بما كنتم » الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب والباء في « بما كنتم » للسببية أو المقابلة .

والمعنى : ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون في الأرض بغير الحق من اللذات العاجلة وبسبب كونكم تفرطون في الفرح وذلك لتعلق قلوبهم بعرض الدنيا وزينتها ومعاداتهم لكل حق يخالف باطلهم فيفرحون ويمرحون بإحياء باطلهم وإماتة الحق واضطهاده .

قال في المجمع : قيد الفرح وأطلق المرح لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه وقد يكون بالباطل فيذم عليه ، والمرح لا يكون إلا باطلا . انتهى .

قوله تعالى : « ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » أي ادخلوا أبوابها المقسومة لكم خالدين فيها فبئس مقام الذين يتكبرون عن الحق جهنم ، وقد تقدم أن أبواب جهنم دركاتها .

قوله تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق » لما بين مآل أمر المجادلين في آيات الله

وهي النار وأن الله يضلهم بكفرهم فرع عليه أمر نبيه ﷺ بالصبر معللا ذلك بأن وعد الله حق .

وقوله : « فإما نرينك بعض الذي نعدهم » هو عذاب الدنيا « أو نتوفينك » بالموت فلم نرك ذلك « فإلينا يرجعون » ولا يفوتوننا فننجز فيهم ما وعدناه .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» الخ بيان لكيفية النصر المذكور في الآية السابقة أن آية النصر ـ التي جرت سنة الله على إنزالها للقضاء بين كل رسول وامته وإظهار الحق على الباطل كما يشير إليه قوله : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون» يونس : ٤٧ ـ لم يفوض أمرها إلى رسول من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله ، وحالك حالهم ، فمن الممكن أن نأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم ، ومن الممكن أن نتوفاك فلا نريك غير أن أمر الله إذا جاء قضى بينهم بالحق وخسر هنالك المبطلون . هذا ما يفيده السياق .

فقوله : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » مسوق للإشارة إلى كون ما سيذكره سنة جارية منه تعالى .

وقوله : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » الآية وإن كانت أعم من الآية المعجزة التي يؤتاها الرسول لتأييد رسالته ، والآية التي تنصر الحق وتقضي بين الرسول وبين امته والكل بإذن الله لكن مورد الكلام كما استفدناه من السياق القسم الثاني وهي القاضية بين الرسول وامته .

وقوله : « فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون » أي فإذا جاء أمر الله بالعذاب قضي بالحق فأظهر الحق وأزهق الباطل وخسر عند ذلك المتمسكون بالباطل في دنياهم بالهلاك وفي آخرتهم بالعذاب الدائم .

واستدل بالآية على أن من الرسل من لم تذكر قصته في القرآن ، وفيه أن الآية مكية لا تدل على أزيد من عدم ذكر قصة بعض الرسل إلى حين نزولها بمكة ، وقد ورد

في سورة النساء : « ورسلا قد قصصنا هم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » النساء : ١٦٤ ولم يذكر في السور النازلة بعد سورة النساء اسم أحد من الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن .

وفي المجمع وروي عن علي عليه السلام أنه قال : بعث الله نبيا أسود لم يقص علينا قصته ، وروى في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه ما في معناه .

* * *

اَللهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الْأنعامَ لِترْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تأكُلُونَ ـ ٧٩ . وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلى الفُلْكِ تحْمَلُونَ ـ ٨٠ . وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ ـ ٨١ . أفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أكْثَرَ مِنْهُمْ وَأشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأرْضِ فَما أغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ـ ٨٢ . فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ـ ٨٣ . فَلَمَّا رَأوْا بَأسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ـ ٨٤ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمَّا رَأوْا بَأسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ ـ ٨٥ .

﴿ بيان ﴾

رجوع بعد رجوع إلى ذكر بعض آيات التوحيد وإرجاع لهم إلى الاعتبار بحال الامم الدارجة الهالكة وسنّة الله الجارية فيهم بإرسال رسله إليهم ثم القضاء بين رسلهم وبينهم المؤدي إلى خسران الكافرين منهم ، وعند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون » ذكر سبحانه مما ينتفع به الإنسان في حياته ويدبر به أمره الأنعام والمراد بها الإبل والبقر والغنم ، وقيل : المراد بها ههنا الإبل خاصة .

فقوله : « جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون » الجعل هنا الخلق أو التسخير ، واللام في « لتركبوا » للغرض و « من » للتبعيض ، والمعنى خلق لأجلكم أو سخّر لكم الأنعام والغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل وبعضها كبعض الإبل والبقر والغنم تأكلون .

قوله تعالى : « ولكم فيها منافع » الخ كانتفاعكم بألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وغير ذلك ، وقوله : « ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم » أي ومن الغرض من جعلها أن تبلغوا ، حالكونكم عليها بالركوب ، حاجة في صدوركم وهي الانتقال من مكان إلى مكان لأغراض مختلفة .

وقوله : «وعليها وعلى الفلك تحملون» كناية عن قطع البر والبحر بالأنعام والفلك.

قوله تعالى : « ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون » تقدم معنى إراءته تعالى آياته في تفسير أوائل السورة ، وكأن الجملة أعني قوله : « ويريكم آياته » غير مقصودة لنفسها حتى يلزم التكرار وإنما هي تمهيد وتوطئة للتوبيخ الذي في قوله : « فأي آيات الله تنكرون » أي أيّ هذه الآيات التي يريكم الله إياها عياناً وبياناً ، تنكرون إنكاراً يمهد لكم الإعراض عن توحيده .

قوله تعالى : «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا» إلى آخر الآية توبيخ لهم وعطف لأنظارهم إلى ما جرى من سنّة القضاء والحكم في الامم السالفة ، وقد تقدمت نظيرة الآية في أوائل السورة وكان الغرض هناك أن يتبين لهم أن الله أخذ كلا منهم بذنوبهم

لما كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فيكفرون بهم ولذا ذيل الآية بقوله : « فأخذهم الله بذنوبهم » ، والغرض ههنا أن يتبين لهم أنهم لم يغنهم ما كسبوا ولم ينفعهم في دفع عذاب الله ما فرحوا به من العلم الذي عندهم ولا توبتهم وندامتهم مما عملوا .

وقد صدّرت الآية بفاء التفريع فقيل : « أفلم يسيروا » الخ مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، وكأن الكلام تفريع على قوله : «فأي آيات الله تنكرون » فكأنه لما ذمهم وأنكر إنكارهم لآياته رجع وانصرف عنهم إلى النبي ﷺ مشيراً إلى سقوطه من منزلة الخطاب وقال : إذا كانت آياته تعالى ظاهرة بينة لا تقبل الإنكار ومن جملتها ما في آثار الماضين من الآيات الناطقة وهم قد ساروا في الأرض وشاهدوها فلمَ لم ينظروا فيها فيتبين لهم أن الماضين مع كونهم أقوى من هؤلاء كماً وكيفاً لم ينفعهم ما فرحوا به من علم وقوة .

قوله تعالى : «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » الخ ضمائر الجمع في الآية – وهي سبع – للذين من قبلهم ، والمراد بما عندهم من العلم ما وقع في قلوبهم وشغل نفوسهم من زينة الحياة الدنيا وفنون التدبير للظفر بها وبلوغ لذائذها وقد عد الله سبحانه ذلك علماً لهم وقصر علمهم فيه ، قال تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » الروم : ٧ ، وقال : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » النجم : ٣٠ .

والمراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدة إعجابهم بما كسبوه من الخبرة والعلم الظاهري وانجذابهم إليه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقيقية التي جاءت بها رسلهم ، واستهانتهم بها وسخريتهم لها ، ولذا عقب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله : « وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن » .

وفي معنى قوله : « فرحوا بما عندهم من العلم » أقوال أخر :

منها : أن المراد بما عندهم من العلم عقائدهم الفاسدة وآراؤهم الباطلة وتسميتها علماً للتهكم فهم كانوا يفرحون بها ويستحقرون لذلك علم الرسل ، وأنت خبير بأنه تصوير من غير دليل .

ومنها : أن المراد بالعلم هو علوم الفلاسفة من يونان والدهريين فكانوا إذا سمعوا بالوحي ومعارف النبوة صغروا علم الأنبياء وتبجحوا بما عندهم ، وهو كسابقه على أنه

لا ينطبق على أحد من الامم التي قص القرآن قصتهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم .

ومنها : أن أصل المعنى فلما جاءتهم رسلهم بالبينات لم يفرحوا بما جاءهم من العلم فوضع موضعه فرحوا بما عندهم من الجهل ثم بدل الجهل علماً تهكماً فقيل : فرحوا بما عندهم من العلم ، وهذا الوجه ـ على ما فيه من التكلف والبعد من الفهم ـ يرد عليه ما يرد على الأول .

ومنها: أن ضمير فرحوا للكفار وضمير «عندهم» للرسل، والمعنى فرح الكفار بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء وفيه أن لازمه اختلاف الضمائر المتسقة مضافاً إلى أن الضحك والاستهزاء لا يسمى فرحاً ولا قرينة .

ومنها: أن ضميري « فرحوا بما عندهم » للرسل ، والمعنى أن الرسل لما جاؤهم وشاهدوا ما هم فيه من الجهل والتمادي على الكفر والجحود وعلموا عاقبة أمرهم فرحوا بما عندهم من العلم الحق وشكروا الله على ذلك .

وفيه أن سياق الآيات أصدق شاهد على أنها سيقت لبيان حال الكفار بعد إتيان رسلهم بالبينات وكيف آلت إلى نزول العذاب ولم ينفعهم الإيمان بعد مشاهدة البأس ؟ وأي ارتباط له بفرح الرسل بعلومهم الحقة ؟ على أن لازمه أيضاً اختلاف الضمائر .

قوله تعالى: « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين » البأس شدة العذاب ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » الخ وذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ إلى الاختيار ، وقوله : « سنّة الله التي قد خلت في عباده » أي سنها الله سنّة ماضية في عباده أن لا تقبل توبة بعد رؤية البأس « وخسر هنالك الكافرون » .

﴿ سورة حمٓ السجدة مكية وهي أربع وخمسون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ـ ١ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ـ ٢ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ـ ٣ . بَشِيراً وَنَذِيراً

فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ـ ٤ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ـ ٥ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ـ ٦ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ـ ٧ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ـ ٨ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ـ ٩ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ـ ١٠ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ـ ١١ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ـ ١٢ .

﴿ بيان ﴾

تتكلم السورة حول إعراضهم عن الكتاب المنزل عليهم وهو القرآن الكريم فهو الغرض الأصلي ولذلك ترى طائف الكلام يطوف حوله ويبتدىء به ثم يعود إليه فصلاً

بعد فصل فقد افتتح بقوله : « تنزيل من الرحمان الرحيم » الخ ثم قيل : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن » الخ ، وقيل : « إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا » الخ ، وقيل: « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم » الخ ، وقيل ـ وهو في خاتمة الكلام ـ : « قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به » الخ .

ولازم إعراضهم عن كتاب الله إنكار الاصول الثلاثة التي هي أساس دعوته الحقة وهي الوحدانية والنبوة والمعـاد فبسطت الكلام فيها وضمنته التبشير والإنذار .

والسورة مكية لشهادة مضامين آياتها على ذلك وهي من السور النازلة في أوائل البعثة على ما يستفاد من الروايات .

قوله تعالى : « حمٓ تنزيل من الرحمان الرحيم » خبر مبتدء محذوف ، والمصدر بمعنى المفعول ، والتقدير هذا منزل من الرحمان الرحيم ، والتعرض للصفتين الكريمتين : الرحمان الدال على الرحمة العامة للمؤمن والكافر ، والرحيم الدال على الرحمة الخـاصة بالمؤمنين الإشارة إلى أن هذا التنزيل يصلح للناس دنياهم كما يصلح لهم آخرتهم .

قوله تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » خبر بعد خبر ، والتفصيل يقابل الإحكام والإجمال ، والمراد بتفصيل آيات القرآن تميز أبعاضه بعضها من بعض بإنزاله إلى مرتبة البيان بحيث يتمكن السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه وتعقل مقاصده وإلى هذا يشير قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ ، وقوله : « والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » الزخرف : ٤ .

وقوله: « قرآناً عربياً » حال من الكتاب أو من آياته ، وقوله: «لقوم يعلمون» اللام للتعليل أو للاختصاص، ومفعول «يعلمون» إما محذوف والتقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذي نزّل به وهم العرب وإما متروك والمعنى لقوم لهم علم .

ولازم المعنى الأول أن يكون هناك عناية خاصة بالعرب في نزول القرآن عربياً وهو الذي يشعر به أيضاً قوله الآتي : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي » الآية وقريب منه قوله : « ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه

عليهم ما كانوا به يؤمنون » الشعراء : ١٩٩ .

ولا ينافي ذلك عموم دعوته ﷺ لعامة البشر لأن دعوته ﷺ كانت مرتبة على مراحل فأول ما دعى دعى الناس بالموسم فقوبل بإنكار شديد منهم ثم كان يدعو بعد ذلك سراً مدة ثم أمر بدعوة عشيرته الأقربين كما يشير إليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » الشعراء : ٢١٤ ثم أمر بدعوة قومه كما يشير إليه قوله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » الحجر : ٩٤ ثم أمر بدعوة الناس عامة كما يشير إليه قوله : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » الأعراف : ١٥٨ ، وقوله : وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » الأنعام : ١٩ .

على أن من المسلّم تاريخاً أنه كان من المؤمنين به سلمان وكان فارسياً ، وبلال وكان حبشياً ، وصهيب وكان رومياً ، ودعوته لليهود ووقائعه ﷺ معهم ، وكذا كتابه إلى ملك إيران ومصر وحبشة والروم في دعوتهم إلى الإسلام كل ذلك دليل على عموم الدعوة .

قوله تعالى : « بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون « بشيراً ونذيراً » حالان من الكتاب في الآية السابقة ، والمراد بالسمع المنفي سمع القبول كما يدل عليه قرينة الإعراض .

قوله تعالى : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » إلى آخر الآية . قال الراغب : الكِن ما يحفظ فيه الشيء . قال : الكنان الغطاء الذي يكن فيه الشيء والجمع أكنة نحو غطاء وأغطية قال تعالى: «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه». انتهى.

فقوله : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » كناية عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه ما يدعو ﷺ إليه من التوحيد كأنها مغطاة بأغطية لا يتطرق إليها شيء من خارج .

وقوله : « وفي آذاننا وقر » أي ثقل من الصمم فلا تسمع شيئاً من هذه الدعوة، وقوله : « ومن بيننا وبينك حجاب » أي حاجز يحجزنا منك فلا نجتمع معك على شيء مما تريد فقد أيأسوه ﷺ من قبول دعوته بما أخبروه أولاً بكون قلوبهم في أكنة فلا تقع فيها دعوته حتى يفقهوها ، وثانياً بكون طرق ورودها إلى القلوب وهي الآذان مسدودة فلا تلجها دعوة ولا ينفذ منها إنذار وتبشير ، وثالثاً بأن بينهم وبينه ﷺ

حجاباً مضروباً لا يجمعهم معه جامع وفيه تمام الإيآس .

وقوله : « فاعمل إننا عاملون » تفريع على ما سبق ، ولا يخلو من شوب تهديد، وعليه فالمعنى إذا كان لا سبيل إلى التفاهم بيننا فاعمل بما يمكنك العمل به في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك .

وقيل : المعنى فاعمل على دينك فإننا عاملون على ديننا ، وقيل : المعنى فاعمل في هلاكنا فإننا عاملون في هلاكك ، ولا يخلوان من بعد .

قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه » في مقام الجواب عن قولهم : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » على ما يعطيه السياق فمحصله قل لهم : إنما أنا بشر مثلكم أعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضاً وأكلمكم كما يكلم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالملك حتى يكون بيني وبينكم حجاب مضروب أولاً ينفذ كلامي في آذانكم أولاً يرد قولي في قلوبكم غير أن الذي أقول لكم وأدعوكم إليه وحي يوحى إليّ وهو أنما إلهكم الذي يستحق أن تعبدوه إله واحد لا آلهة متفرقون .

وقوله : « فاستقيموا إليه واستغفروه » أي فإذا لم يكن إلا إلهاً واحداً لا شريك له فاستووا إليه بتوحيده ونفي الشركاء عنه واستغفروه فيما صدر عنكم من الشرك والذنوب .

قوله تعالى : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » تهديد للمشركين الذين يثبتون لله شركاء ولا يوحدونه ، وقد وصفهم من أخص صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاة وكفرهم بالآخرة .

والمراد بإيتاء الزكاة مطلق إنفاق المال للفقراء والمساكين لوجه الله فإن الزكاة بمعنى الصدقة الواجبة في الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السورة وهي من أقدم السور المكية .

وقيل : المراد بإيتاء الزكاة تزكية النفس وتطهيرها من أوساخ الذنوب وقذارتها وإنماؤها نماء طيباً بعبادة الله سبحانه ، وهو حسن لو حسن إطلاق إيتاء الزكاة على ذلك.

وقوله: « وهم بالآخرة هم كافرون » وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم وهو إنكار المعاد ، ولذلك أتى بضمير النصل ليفيد أنهم معروفون بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » أي غير مقطوع بل متصل دائم كما فسره بعضهم ، وفسره آخرون بغير ممدود كما قال تعالى : « يرزقون فيها بغير حساب » المؤمن : ٤٠ .

وجوّز أن يكون المراد أنه لا أذى فيه من المن الذي يكدر الصنيعة ، ويمكن أن يوجه هذا الوجه بأن في تسمية ما يؤتونه بالأجر دلالة على ذلك لإشعاره بالاستحقاق وإن كان هذا الاستحقاق بجعل من الله تعالى لا لهم من عند أنفسهم قال تعالى : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » الدهر : ٢٢ .

قوله تعالى : « قل ءإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً » الآية . أمره ثانياً أن يستفهم عن كفرهم بالله بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانية في خلق السماوات والأرض وتدبير أمرهما بعد ما أمره أولاً بدفع قولهم : « قلوبنا في أكنة » الخ .

والاستفهام للتعجيب ولذا أكد المستفهم عنه بإن واللام كأن المستفهم لا يكاد يذعن بكفرهم بالله وقولهم بالأنداد مع ظهور المحجّة واستقامة الحجة .

وقوله : « وتجعلون له أنداداً » تفسير لقوله: «لتكفرون بالذي خلق الأرض» الخ ، والأنداد جمع ند وهو المثل ، والمراد بجعل الأنداد له اتخاذ شركاء له يماثلونه في الربوبية والالوهية .

وقوله : « ذلك رب العالمين » في الإشارة بلفظ البعيد رفع لساحته تعالى وتنزيهه عن أمثال هذه الأوهام فهو رب العالمين المدبر لأمر الخلق أجمعين فلا مسوّغ لأن يتوهم ربّاً آخر سواه وإلهاً آخر غيره .

والمراد باليوم في قوله : «خلق الأرض في يومين» برهة من الزمان دون مصداق اليوم الذي نعهده ونحن على بسيط أرضنا هذه وهو مقدار حركة الكرة الأرضية حول نفسها مرة واحدة فإنه ظاهر الفساد ، وإطلاق اليوم على قطعة من الزمان تحوي حادثة من الحوادث كثير الورود شائع الاستعمال ، ومن ذلك قوله تعالى : « وتلك الأيام

نداولها بين الناس » آل عمران : ١٤٠ ، وقوله : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » يونس : ١٠٢ ، وغير ذلك .

فاليومان اللذان خلق الله فيها الأرض قطعتان من الزمان تم فيهما تكوّن الأرض أرضاً تامة ، وفي عدهما يومين لا يوماً واحداً دليل على أن الأرض لاقت زمان تكونها الأوّلي مرحلتين متغايرتين كمرحلة النيء والنضج أو الذوبان والانعقاد أو نحو ذلك .

قوله تعالى : « وجعل فيها رواسي من فوقها » إلى آخر الآية . معطوف على قوله : « خلق الأرض في يومين » ولا ضير في تخلل الجملتين : « وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين » بين المعطوف والمعطوف عليه لأن الاولى تفسير لقوله : « لتكفرون » والثانية تقرير للتعجيب الذي يفيده الاستفهام .

والرواسي صفة لموصوف محذوف والتقدير جبالاً رواسي أي ثابتات على الأرض وضمائر التأنيث الخمس في الآية للأرض .

وقوله : « وبارك فيها » أي جعل فيها الخير الكثير الذي ينتفع به ما على الأرض من نبات وحيوان وإنسان في حياته أنواع الانتفاعات .

وقوله : « وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » قيل : الظرف أعني قوله : « في أربعة أيام » بتقدير مضاف وهو متعلق بقدّر ، والتقدير قدر الأقوات في تتمة أربعة أيام من حين بدء الخلق ـ فيومان لخلق الأرض ويومان ـ وهما تتمة أربعة أيام ـ لتقدير الأقوات .

وقيل : متعلق بحصول الأقوات وتقدير المضاف على حاله ، والتقدير قدّر حصول أقواتها في تتمة أربعة أيام ـ فيها خلق الأرض وأقواتها جميعاً ـ .

وقيل : متعلق بحصول جميع الامور المذكورة من جعل الرواسي من فوقها والمباركة فيها وتقدير أقواتها والتقدير وحصول ذلك كله في تتمة أربعة أيام وفيه حذف وتقدير كثير .

وجعل الزمخشري في الكشاف الظرف متعلقاً بخبر مبتدء محذوفين من غير تقدير مضاف والتقدير كل ذلك كائن في أربعة أيام فيكون قوله : « في أربعة أيام » من قبيل الفذلكة كأنه قيل : خلق الأرض في يومين وأقواتها وغير ذلك في يومين فكل ذلك في أربعة أيام .

قالوا : وإنما لم يجز حمل الآية على أن جعل الرواسي وما ذكر عقيبه أو تقدير الأقوات في أربعة أيام لأن لازمه كون خلق الأرض وما فيها في ستة أيام وقد ذكر بعده أن السماوات خلقت في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام وقد تكرر في كلامه تعالى أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام فهذا هو الوجه في حمل الآية على أحد الوجوه السابقة على ما فيها من ارتكاب الحذف والتقدير .

والإنصاف أن الآية أعني قوله : «وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين» ظاهرة في غير ما ذكروه والقرائن الحافة بها تؤيد كون المراد بها تقدير أقواتها في الفصول الأربعة التي يكوّنها ميل الشمس الشمالي والجنوبي بحسب ظاهر الحس فالأيام الأربعة هي الفصول الأربعة .

والذي ذكر في هذه الآيات من أيام خلق السماوات والأرض أربعة أيام يومان لخلق الأرض ويومان لتسوية السماوات سبعاً بعد كونها دخاناً وأما أيام الأقوات فقد ذكرت أياماً لتقديرها لا لخلقها، وما تكرر في كلامه تعالى هو خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا بمجموع خلقها وتقدير أمرها فالحق أن الظرف قيد للجملة الأخيرة فقط ولا حذف ولا تقدير في الآية والمراد بيان تقدير أقوات الأرض وأرزاقها في الفصول الأربعة من السنة .

وقوله : « سواء للسائلين » مفعول مطلق لفعل مقدر أي استوت الأقوات المقدرة استواء للسائلين أو حال من الأقوات أي قدرها حال كونها مستوية للسائلين يقتاتون بها جميعاً وتكفيهم من دون زيادة أو نقيصة .

والسائلون هم أنواع النبات والحيوان والإنسان فإنهم محتاجون في بقائهم إلى الأرزاق والأقوات فهم سائلون ربهم[1] قال تعالى : « يسأله من في السماوات والأرض » الرحمان : ٢٩ ، وقال : « وآتاكم من كل ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ .

قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو

---

(١) ظاهر الآيتين وإن كان اختصاصها بذوي العقول لكنها وخاصة الثانية تفيدان إن المراد بالسؤال هو الحاجة والاستعداد وعليه فالآية تع[illegible]ت والاتيان بضمير اولى العقل للتغليب .

كرهاً قالتا أتينا طائعين» الاستواء ـ على ما ذكره الراغب ـ إذا عدّي بعلى أفاد معنى الاستيلاء نحو الرحمان على العرش استوى ، وإذا عدي بإلى أفاد معنى الانتهاء إليه .

وأيضاً في المفردات أن الكره بفتح الكاف المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه ، والكره بضم الكاف ما تناله من ذاته وهو يعافه .

فقوله : « ثم استوى إلى السماء » أي توجه إليها وقصدها بالخلق دون القصد المكاني الذي لا يتم إلا بانتقـــال القاصد من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة لتنزهه تعالى عن ذلك .

وظاهر العطف بثم تأخر خلق السماوات عن الأرض لكن قيل : إن « ثم » لإفادة التراخي بحسب الخبر لا بحسب الوجود والتحقق ويؤيده قوله تعالى : « أم السماء بناها ـ إلى أن قال ـ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها » النازعات : ٣٢ فإنه يفيد تأخر الأرض عن السماء خلقاً .

والاعتراض عليه بأن مفاده تأخر دحو الأرض عن بناء السماء ودحوها غير خلقها مدفوع بأن الأرض كروية فليس دحوها وبسطها غير تسويتها كرة وهو خلقها على أنه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض إلى إخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالهـا وهذه بعينها جعل الرواسي من فوقها والمباركة فيها وتقدير أقواتها التي ذكرها في الآيات التي نحن فيها مع خلق الأرض وعطف عليها خلق السماء بثم فلا مناص عن حمل ثم على غير التراخي الزماني فإن قوله في آية النازعات : « بعد ذلك » أظهر في التراخي الزماني من لفظة « ثم » فيه في آية حمٓ السجدة والله أعلم .

وقوله : « وهي دخان » حال من السماء أي استوى إلى السماء بالخلق حال كونها شيئاً سماه الله دخاناً وهو مادتها التي ألبسها الصورة وقضاها سبع سماوات بعد ما لم تكن معدودة متميزاً بعضها من بعض ، ولذا أفرد السماء فقال : « استوى إلى السماء » .

وقوله : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً » تفريع على استوائـه إلى السماء والمورد مورد التكوين بلا شك فقوله لها وللأرض : « ائتيا طوعاً أو كرهاً » كلمة إيجاد وأمر تكويني كقوله لشيء أراد وجوده : كن، قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يسٓ : ٨٣ .

ومجموع قوله لها : « ائتيا » الخ وقولهما له : « أتينا » الخ تمثيل لصفة الإيجاد والتكوين على الفهم الساذج العرفي وحقيقة تحليلية بناء على ما يستفاد من كلامه تعالى من سراية العلم في الموجودات وكون تكليم كل شيء بحسب ما يناسب حاله ، وقد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدم من المباحث ، وسيجيء شطر من الكلام فيه في تفسير قوله: « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الآية ٢١ من السورة إن شاء الله .

وقول بعضهم : إن المراد بقوله : « ائتيا » الخ أمرهما بإظهار ما فيهما من الآثار والمنافع دون الأمر بأن توجدا وتكوّنا مدفوع بأن تكوّن السماء مذكور فيما بعد ولا معنى لتقديم الأمر بإظهار الآثار والمنافع قبل ذكر التكون .

وفي قوله : « ائتيا طوعاً أو كرهاً » إيجاب الإتيان عليهما وتخييرهما بين أن تفعلا ذلك بطوع أو كره ، ولعل المراد بالطوع والكره – وهما بوجه قبول الفعل ونوع ملاءمة وعدمه – هو الاستعداد السابق للكون وعدمه فيكون قوله : « ائتيا طوعاً أو كرهاً » كناية عن وجوب إتيانهما بلا مناص وأنه أمر لا يتخلف البتة أرادتا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا فأجابتا أنهما يمتثلان الأمر عن استعداد سابق وقبول ذاتي وسؤال فطري إذ قالتا : أتينا طائعين .

وقول بعضهم : إن قوله : « طوعاً أو كرهاً » تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما . مدفوع بقوله بعد : « قالتا أتينا طائعين » إذ لو كان الترديد المذكور تمثيلاً فقط من غير إثبات كما ذكره لم يكن لإثبات الطوع في الجواب وجه .

وقوله : «قالتا أتينا طائعين» جواب السماء والأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع ، والتعبير باللفظ الخاص بأولي العقل – طائعين – لمكان المخاطبة والجواب وهما من خواص أولي العقل ، والتعبير بلفظ الجمع دون أن تقولا : أتينا طائعتين لعله تواضع منهما بعدّ أنفسهما غير متميزة من سائر مخلوقاته تعالى المطيعة لأمره فأجابتا عن لسان الجميع ، نظير ما قيل في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » الحمد : ٥ .

ثم إن تشريك الأرض مع السماء في خطاب « ائتيا » الخ مع ذكر خلقها وتدبير أمرها قبلا لا يخلو من إشعار بأن بينهما نوع ارتباط في الوجود و [illegible] ال في النظام الجاري

فيها وهو كذلك فإن الفعل والانفعال والتأثير والتأثر دائر بين أجزاء العالم المشهود .

وفي قوله : « فقال لها وللأرض » تلويح على أي حال إلى كون « ثم » في قوله : « ثم استوى » للتراخي بحسب رتبة الكلام .

قوله تعالى : « فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها » الأصل في معنى القضاء فصل الأمر ، وضمير « هن » للسماء على المعنى ، و « سبع سماوات » حال من الضمير و « في يومين » متعلق بقضاهن فتفيد الجملة أن السماء لما استوى سبحانه إليها وهي دخان كان أمرها مبهماً غير مشخص من حيث فعلية الوجود ففصل تعالى أمرها بجعلها سبع سماوات في يومين .

وقيل : إن القضاء في الآية مضمّن معنى التصيير و « سبع سماوات » مفعوله الثاني ، وقيل فيها وجوه أخر لا يهمنا إيرادها .

والآية وما قبلها ناظرة إلى تفصيل ما أجمل في قوله : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » الأنبياء : ٣٠ .

وقوله : « وأوحى في كل سماء أمرها » قيل : المراد بأمر السماء ما تستعد له أو تقتضيه الحكمة فيها من وجود ملك أو كوكب وما أشبه ذلك ، والوحي هو الخلق والإيجاد ، والجملة معطوفة على قوله : « قضاهن » مقيدة بالوقت المذكور للمعطوف عليه ، والمعنى وخلق في كل سماء ما فيها من الملائكة والكواكب وغيرها .

وأنت خبير بأن إرادة الخلق من الوحي وأمثال الملك والكوكب من الأمر تحتاج إلى عناية زائدة لا تثبت إلا بدليل بيّن ، وكذا تقيد الجملة المعطوفة بالوقت المذكور في المعطوف عليها .

وقيل : المراد بالأمر التكليف الإلهي المتوجه إلى أهل كل سماء من الملائكة والوحي بمعناه المعروف والمعنى وأوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة .

وفيه أن ظاهر الآية وقد قال تعالى : « في كل سماء » ولم يقل : إلى كل سماء لا يوافقه تلك الموافقة .

وقيل : المراد بأمرها ما أراده الله منها ، وهذا الوجه في الحقيقة راجع إلى أحد

الوجهين السابقين فإن أريد بالوحي الخلق والإيجاد رجع إلى أول الوجهين وإن أريد به معناه المعروف رجع إلى ثانيهما .

والذي وقع في كلامه تعالى من الأمر المتعلق بوجه بالسماء يلوّح إلى معنى أدق مما ذكروه فقد قال تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه » الم السجدة : ٥ ، وقال : « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن » الطلاق : ١٢ ، وقال : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » المؤمنون : ١٧ .

دلت الآية الاولى على أن السماء مبدء لأمره تعالى النازل إلى الأرض بوجه والثانية على أن الأمر يتنزل بين السماوات من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى الأرض ، والثالثة على أن السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذي العرش أو لسلوك الملائكة الحاملين للأمر إلى الأرض كما يشير إليه قوله : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » القدر : ٤ ، وقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » الدخان : ٤ .

ولو كان المراد بالأمر أمره تعالى التكويني وهو كلمة الإيجاد كما يستفاد من قوله : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن » يس : ٨٢ ، أفادت الآيات بانضمام بعضها إلى بعض أن الأمر الإلهي الذي مضيه في العالم الأرضي هو خلق الأشياء وحدوث الحوادث تحمله الملائكة من عند ذي العرش تعالى وتسلك في تنزيله طرق السماوات فتنزله من سماء إلى سماء حتى تنتهي به إلى الأرض .

وإنما تحمله ملائكة كل سماء إلى من دونهم كما يستفاد من قوله : « حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » سبأ : ٢٣ وقد تقدم الكلام فيه والسماوات مساكن الملائكة كما يستفاد من قوله : « وكم من ملك في السماوات » النجم : ٢٦ ، وقوله : « لا يسمّعون إلى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب » الصافات : ٨ .

فللأمر نسبة إلى كل سماء باعتبار الملائكة الساكنين فيها ، ونسبة إلى كل قبيل من الملائكة الحاملين له باعتبار تحميله لهم وهو وحيه إليهم فإن الله سبحانه سماه قولاً كما قال : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن » النحل : ٤٠ .

فتحصّل بما مر أن معنى قوله : « وأوحى في كل سماء أمرها » أوحى في كل

سماء إلى أهلها من الملائكة الأمر الإلهي . المنسوب إلى تلك السماء المتعلق بها ، وأما كون اليومين المذكورين في الآية ظرفاً لهذا الوحي كما هما ظرف لخلق السماوات سبعاً فلا دليل عليه من لفظ الآية .

قوله تعالى : « وزينّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم » توصيف هذه السماء بالدنيا للدلالة على أنها أقرب السماوات من الأرض وهي طباق بعضها فوق بعض كما قال : « خلق سبع سماوات طباقاً » الملك : ٣ .

والظاهر من معنى تزيينها بمصابيح وهي الكواكب كما قال : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » الصافات : ٦ أن الكواكب في السماء الدنيا أو دونها كالقناديل المعلقة ولو كانت متفرقة في جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضاً لكون السماوات شفافة كما قيل كانت زينة لجميعها ولم تختص الزينة ببعضها كما يفيده السياق فلا وجه لقول القائل : إنها في الجميع لكن لكونها ترى متلألئة على السماء الدنيا عدّت زينة لها .

وأما قوله : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً » نوح : ١٦ فهو بالنسبة إلينا معاشر المستضيئين بالليل والنهار كقوله : « وجعلنا سراجاً وهاجاً » النبأ : ١٣ .

وقوله : « وحفظا » أي وحفظناها من الشياطين حفظاً كما قال : « وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » الحجر : ١٨ .

وقوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » إشارة إلى ما تقدم من النظم والترتيب .

﴿ كلام فيه تتميم ﴾

قد تحصّل مما تقدم :

أولاً : أن المستفاد من ظاهر الآيات الكريمة – وليست بنص – أن السماء الدنيا من هذه السبع هي عالم النجوم والكواكب فوقنا .

وثانياً : أن هذه السماوات السبع المذكورة جميعاً من الخلق الجسماني فكأنها طبقات

سبع متطابقة من عالم الأجسام أقربها منا عالم النجوم والكواكب ، ولم يصف القرآن شيئاً من السماوات الست الباقية دون أن ذكر أنها طباق .

وثالثاً : أن ليس المراد بالسماوات السبع الأجرام العلوية أو خصوص بعضها كالشمس والقمر أو غيرهما .

ورابعاً: أن ما ورد من كون السماوات مساكن للملائكة وأنهم ينزلون منها بأمر الله حاملين له ويعرجون إليها بكتب الأعمال ، وأن للسماء أبواباً لا تفتح للكفار وأن الأشياء والأرزاق تنزل منها وغير ذلك مما تشير إليه متفرقات الآيات والروايات يكشف عن أن لهذه الامور نوع تعلق بهذه السماوات لا كتعلق ما نراه من الأجسام بمحالها وأماكنها الجسمانية الموجبة لحكومة النظام المادي فيها وتسرب التغير والتبدل والدثور والفتور إليها .

وذلك أن من الضروري اليوم أن لهذه الأجرام العلوية كائنة ما كانت كينونة عنصرية جسمانية تجري فيها نظائر الأحكام والآثار الجارية في عالمنا الأرضي العنصري والنظام الذي يثبت للسماء وأهلها والامور الجارية فيها مما أشرنا إليه يباين هذا النظام العنصري المشهود . أضف إلى ذلك ما ورد أن الملائكة خلقوا من نور ، وأن غذاءهم التسبيح ، وما ورد من توصيف خلقهم ، وما ورد في توصيف خلق السماوات وما خلق فيها إلى غير ذلك .

فللملائكة عوالم ملكوتية سبعة مترتبة سميت سماوات سبعاً ونسبت ما لها من الخواص والآثار إلى ظاهر هذه السماوات بلحاظ ما لها من العلو والإحاطة بالنسبة إلى الأرض تسهيلاً للفهم الساذج .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبدالله قال : اجتمع قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد

عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة قالوا : أنت يا أبا الوليد .

فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع منك .

أما والله ما رأينا سلحة قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف يا أيها الرجل إن كان بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً وإن كان بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً .

فقال رسول الله ﷺ : فرغت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمان الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » حتى بلغ « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

فقال عتبة : حسبك . ما عندك غير هذا ؟ قال : لا فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته قالوا : فهل أجابك؟ قال : والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال : « أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » قالوا : ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدري ما قال ؟ قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة .

أقول : ورواه عن عدة من الكتب قريباً منه ، وفي بعض الطرق قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: والله إني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، وفي بعضها غير ذلك.

وفي تلاوته ﷺ آيات أول السورة على وليد بن المغيرة رواية أخرى ستوافيك إن شاء الله في تفسير سورة المدثر في ذيل قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيداً » الآيات .

وفيه أخرج ابن جرير عن أبي بكر قال : جاء اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة ؟ فقال : خلق الله

الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء ، وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة ، وخلق في أول ساعة الآجال وفي الثانية الآفة وفي الثالثة آدم . قالوا : صدقت إن تممت فعرف النبي ﷺ ما يريدون فغضب فأنزل الله « وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون » .

اقول : وروى ما يقرب منه عن ابن عباس وعبد الله بن سلام وعن عكرمة وغيره وقد ورد في بعض أخبار الشيعة ، وقوله : قالوا : صدقت إن تممت أي تممت كلامك في الخلق بأن تقول : إنه تعالى فرغ من الخلق يوم السبت واستراح فيه .

والروايات لا تخلو من شيء :

أما أولاً : فمن جهة اشتمالها على تصديق اليهود ما ذكر فيها من ترتيب الخلق وهو مخالف لما ورد في أول سفر التكوين من التوراة مخالفة صريحة ففيها أنه خلق النور والظلمة ـ النهار والليل ـ يوم الأحد ، وخلق السماء يوم الاثنين ، وخلق الأرض والبحار والنبات يوم الثلاثاء وخلق الشمس والقمر والنجوم يوم الأربعاء وخلق دواب البحر والطير يوم الخميس ، وخلق حيوان البر والإنسان يوم الجمعة وفرغ من الخلق يوم السبت واستراح فيه ، والقول بأن التوراة الحاضرة غير ما كان في عهد النبي ﷺ كما ترى .

وأما ثانياً : فلأن اليوم من الاسبوع وهو نهار مع ليلته يتوقف في كينونته على حركة الأرض الوضعية دورة واحدة قبال الشمس فما معنى خلق الأرض في يومين ولم يخلق السماء والسماويات بعد ولا تمت الأرض كرة متحركة ؟ ونظير الإشكال جار في خلق السماء والسماويات ومنها الشمس ولا يوم حيث لا شمس بعد .

وأما ثالثاً : فلأنه عد فيها يوم لخلق الجبال وقد جزم الفحص العلمي بأنها تخلق تدريجاً ، ونظير الإشكال جار في خلق المدائن والأنهار والأقوات .

وفي روضة الكافي بإسناده عن محمد بن عطية عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه ، وخلق الريح من الماء .

ثم سلط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر

ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الزبد أرضا بيضاء نقية ليس فيها صدع ولا ثقب ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة ثم طواها فوضعها فوق الماء .

ثم خلق الله النار من الماء فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية ليس فيها صدع ولا ثقب وذلك قوله : « والسماء بناها » .

اقول : وفي هذه المعنى بعض روايات أخر ، ويمكن تطبيق ما في الرواية وكذا مضامين الآيات على ما تسلمته الأبحاث العلمية اليوم في خلق العالم وهيئته غير أنّا تركنا ذلك احترازاً من تحديد الحقائق القرآنية بالأحداس والفرضيات العلمية مـــا دامت فرضية غير مقطوع بها من طريق البرهان العلمي .

وفي نهج البلاغة : فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند ، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكئات ولا مبطئـــات ، ولولا إقرارهن له بالربوبية ، وإذعانهن له بالطواعية لما جعلهن موضعاً لعرشه ، ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه .

وفي كال الدين بإسناده إلى فضيل الرسّان قال : كتب محمد بن إبراهيم إلى أبي عبد الله عليه‌السلام : أخبرنا ما فضلكم أهل البيت ؟ فكتب إليه أبو عبد الله عليه‌السلام : إن الكواكب جعلت أمانا لأهل السماء فإذا ذهبت نجوم السماء جاء أهل السماء مـا كانوا يوعدون ، وقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : جعل أهل بيتي أماناً لأمتي فإذا ذهب أهل بيتي جاء أمتي ما كانوا يوعدون .

اقول : وورد هذا المعنى في غير واحد من الروايات .

وفي البحار عن كتاب الغارات بإسناده عن ابن نباتة قال : سئل أمير المؤمنين عليه‌السلام كم بين السماء والأرض ؟ قال : مد البصر ودعوة المظلوم .

اقول : وهو من لطائف كلامه عليه‌السلام يشير به إلى ظاهر السماء وباطنها كما تقدم.

* * *

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ـ ١٣ .

إذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أنْ لا تَعْبُدُوا إلاَّ اللهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ ـ ١٤ . فَأمّا عادٌ فاسْتَكْبَرُوا في الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَقالُوا مَنْ أشَدُّ مِنّا قُوَّةً أوَ لَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بآياتِنا يَجْحَدُونَ ـ ١٥ . فَأرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أيّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الخِزْيِ فِي الحَيٰوةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ ـ ١٦ . وَأمّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى فَأخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ العَذابِ الهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ـ ١٧ . وَنَجَّيْنا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ ـ ١٨ . وَيَوْمَ يُحْشَرُ أعْداءُ اللهِ إلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ـ ١٩ . حَتَّى إذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ـ ٢٠ . وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أنْطَقَنا اللهُ الَّذِي أنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ ـ ٢١ . وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّا تَعْمَلُونَ ـ ٢٢ . وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ

أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ـ ٢٣ . فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ـ ٢٤ . وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ـ ٢٥ .

﴿ بيان ﴾

الآيات تتضمن الإنذار بالعذاب الدنيوي الذي ابتليت بـه عاد وثمود بكفرهم بالرسل وجحدهم لآيات الله ، وبالعذاب الاخروي الذي سيبتلى به أعداء الله من أهل الجحود الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، وفيها إشارة إلى كيفيـة إضلالهم في الدنيا وإلى استنطاق أعضائهم في الآخرة .

قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » قال في المجمع : الصاعقة المهلكة من كل شيء انتهى ، وقال الراغب : قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه : الموت كقوله : «صعق من في السماوات » وقوله : «فأخذتهم الصاعقة » والعذاب كقوله : « أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » والنار كقوله: « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » وما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو ثم يكون نار فقط أو عـذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد ، وهذه الأشياء تأثيرات منها . انتهى .

وعلى ما مر تنطبق الصاعقة على عذابي عاد وثمود وهما الريح والصيحة ، والتعبير بالماضي في قوله : « أنذرتكم » للدلالة على التحقق والوقوع .

قوله تعالى : « إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أن لا تعبدوا إلا الله» الخ ظرف لصاعقة الثانية فإن الإنذار بالصاعقة بالحقيقة إنذار بوقوعها وحلولها فالمعنى مثل حلول صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الخ .

ونسبة المجيء إلى الرسل وهو جمع ـ مع أن الذي ذكر في قصتهم رسولان هما هود وصالح ـ باعتبار أن الرسل دعوتهم واحدة والمبعوث منهم إلى قوم مبعوث لآخرين

وكذا القوم المكذبون لأحدهم مكذبون لآخرين قال تعالى : « كذبت عاد المرسلين » الشعراء : ١٢٣ وقال : « كذبت ثمود المرسلين » الشعراء : ١٤١ ، وقال : « كذبت قوم لوط المرسلين » الشعراء : ١٦٠ إلى غير ذلك .

وقول بعضهم : إن إطلاق الرسل وهو جمع على هود وصالح عليهما السلام وهما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثة وهو شائع ، ومن هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع في قوله : « إذ جاءتهم » إلى عاد وثمود .

ممنوع بما تقدم ، وأما إرجاع ضمير الجمع إلى عاد وثمود فإنما هو لكون مجموع الجمعين جمعاً مثلهما .

وقوله: «من بين أيديهم ومن خلفهم» أي من جميع الجهات فاستعمال هاتين الجهتين في جميع الجهات شائع ، وجوّز أن يكون المراد به الماضي والمستقبل فقوله : « جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم » كناية عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنة خلوة وجلوة وفرادى ومجتمعين بالتبشير والإنذار ولذلك فسر مجيئهم كذلك بعد بقوله : « أن لا تعبدوا إلا الله » وهو التوحيد .

وقوله : « قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » رد منهم لرسالتهم بأن الله لو شاء إرسال رسول إلينا لأرسل من الملائكة ، وقد تقدم كراراً معنى قولهم هذا وأنه مبني على إنكارهم نبوة البشر

وقوله : « فإنا بما أرسلتم به كافرون » تفريع على النفي المفهوم من الجملة السابقة أي فإذا لم يشأ ولم يرسل فإنا بما أرسلتم به وهو التوحيد كافرون .

قوله تعالى : «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق» الخ رجوع إلى تفصيل حال كل من الفريقين على حدته ، من كفرهم ووبال ذلك ، وقوله : « بغير الحق » قيد توضيحي للاستكبار في الأرض فإنه بغير الحق دائماً ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات » الخ فسر الصرصر بالريح الشديدة السموم ، وبالريح الشديدة البرد ، وبالريح الشديدة الصوت وتلازم شدة الهبوب ، والنحسات بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس ينحس نحساً خلاف سعد فالأيام النحسات الأيام المشؤمات .

وقيل : أيام نحسات أي ذوات الغبار والتراب لا يرى فيها بعضهم بعضاً ، ويؤيده قوله في سورة الأحقاف : «فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » الأحقاف : ٢٤ .

وقوله : « ومـا لهم من ناصرين » أي لا منج ينجيهم ولا شفيع يشفع لهم . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» الخ المراد بهدايتهم إراءتهم الطريق ودلالتهم على الحق ببيان حق الاعتقاد والعمل لهم ، والمراد بالاستحباب الإيثار والاختيار ، ولعله بالتضمين ولذا عدي إلى المفعول الثاني بعلى والمراد بالعمى الضلال استعارة ، وفي مقابلة الهدى له إيماء إلى أن الهدى بصر كما أن الضلالة عمى . والهون مصدر بمعنى الذل وتوصيف العذاب به للمبالغة أو بحذف ذي والتقدير صاعقة العذاب ذي الهون .

والمعنى : وأما قوم ثمود فدللناهم على طريق الحق وعرّفناهم الهدى بتمييزه من الضلال فاختـاروا الضلال الذي هو عمى على الهدى الذي هو بصر فأخذتهم صيحة العذاب ذي المذلة ـ أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقة بمعنى العذاب والإضافة بيانية ـ بما كانوا يكسبون .

قوله تعالى : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » ضم التقوى إلى الإيمان معبراً عن التقوى بقوله : « وكانوا يتقون » الدال على الاستمرار للدلالة على جمعهم بين الإيمان والعمل الصالح وذلك هو السبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعده الله بقوله: « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » الروم : ٤٧ .

والظاهر أن الآية متعلقة بالقصتين جميعاً متممة لهما وإن كان ظـاهر المفسرين تعلقها بالقصة الثانية .

قوله تعالى : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون » الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها . كذا قال الراغب ، و«يوزعون» من الوزع وهو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا .

قيل : المراد بحشرهم إلى النار إخراجهم إلى المحشر للسؤال والحساب ، وجعل

النار غاية لحشرهم لأن عاقبتهم إليها ، والدليل عليه ما ذكره من أمر شهادة الأعضاء فإنها في الموقف قبل الأمر بهم إلى النار .

وقيل : المراد حشرهم إلى النار نفسها ومن الممكن أن يستشهد عليهم مرتين مرة في الموقف ومرة على شفير جهنم وهو كما ترى .

والمراد بأعداء الله ـ على ما قيل ـ المكذبون بالنبي ﷺ من مشركي قومه لا مطلق الكفار والدليل عليه قوله الآتي : « وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم » الآية .

قوله تعالى : « حتى إذا ما جاؤها شهدت عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » « ما » في « إذا ما جاؤها » زائدة للتأكيد والضمير للنار .

وشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامه ذكرها وإخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحملته ، ولولا التحمل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعوراً ونطقاً يوم القيامه فعلمت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتاً يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهاده ، ولا تمت بذلك على العبد المنكر حجة وهو ظاهر .

وبذلك يظهر فساد قول بعضهم : إن الله يخلق يوم القيامة للأعضاء علماً وقدرة على الكلام فتخبر بمعاصي صاحبها وهو شهادتها وقول بعضهم: إنه يخلق عندها أصواتاً في صورة كلام مدلوله الشهادة ، وكذا قول بعضهم : إن معنى الشهادة دلالة الحال على صدور معصية كذائية منهم .

وظاهر الآية أن شهادة السمع والبصر أداؤهما ما تحملاه وإن لم يكن معصية مأتيا بها بواسطتها كشهادة السمع أنه سمع آيات الله تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنه سمع صاحبه يتكلم بكلمة الكفر ، وشهادة البصر أنه رآى الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنه رآى صاحبه يستمع إلى الغيبة أو سائر ما يحرم الإصغاء إليه فتكون الآية على حد قوله تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا » أسرى : ٣٦ .

وعلى هذا يختلف السمع والأبصار والجلود فيما شهدت عليه فالسمع والأبصار تشهد على معصية العبد وإن لم تكن بسببها والجلود تشهد على المعصية التي كانت هي آلات لها بالمباشرة ، وهذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب في قولهم: «لم شهدتم علينا» على ما سيجيء .

والمراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآية مطلق الجلود وشهادتها على أنواع المعاصي التي تتم بالجلود من التمتعات المحرمة كالزنا ونحوه ، ويمكن حينئذ أن تعمم الجلود بحيث تشمل شهادتها ما شهدت الأيدي والأرجل المذكورة في قوله : «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم» يس : ٦٥ على بعد .

وقيل : المراد بالجلود الفروج وقد كني بها عنها تأدبا .

قوله تعالى : «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا» اعتراض وعتاب منهم لجلودهم في شهادتها عليهم ، وقيل : الاستفهام للتعجب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجب وإنما خصوها بالسؤال دون سمعهم وأبصارهم مع اشتراكها في الشهادة لأن الجلود شهدت على ما كانت هي بنفسها أسبابا وآلات مباشرة له بخلاف السمع والأبصار فإنها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها .

وقيل : تخصيص الجلود بالذكر تقريع لهم وزيادة تشنيع وفضاحة وخاصة لو كان المراد بالجلود الفروج وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : «قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء» الخ إرجاع ضمير اولى العقل إلى الجوارح لمكان نسبة الشهادة والنطق إليها وذلك من شئون اولي العقل .

والمتيقن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقة من غير تجوز هو إظهار ما في الضمير من طريق التكلم فيتوقف على علم وكشفه لغيره ، قال الراغب : ولا يكاد يستعمل النطق في غير الإنسان إلا تبعا وبنوع من التشبيه وظاهر سياق الآيات وما فيها من ألفاظ القول والتكلم والشهادة والنطق أن المراد بالنطق ما هو حقيقة معناه .

فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقاً وتكلماً حقيقة عن علم تحملته سابقا بدليل قولها : «أنطقنا الله» . ثم إن قولها : «أنطقنا الله» جواب عن قول المجرمين:

«لم شهدتم علينا» ؟ إراءة منها للسبب الذي أوجب نطقها و كشف عن العلم المدخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجأة إلى التكلم والنطق ، ولا يضر ذلك نفوذ شهادتها وتمام الحجة بذلك فإنها إنما أُلجئت إلى الكشف عما في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذبا وزوراً حتى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجة .

وقوله : « الذي أنطق كل شيء» توصيف لله سبحانه وإشارة إلى أن النطق ليس مختصا بالأعضاء حتى تختص هي بالسؤال بل هو عام شامل لكل شيء والسبب الموجب له هو الله سبحانه .

وقوله : « وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » من تتمة الكلام السابق أو هو من كلامه ، وهو احتجاج على علمه بأعمالهم وقد أنطق الجوارح بما علم .

يقول : إن وجودكم يبتدىء منه تعالى وينتهي إليه تعالى فعند ما تظهرون من كتم العدم ـ وهو خلقكم أول مرة ـ يعطيكم الوجود ويملككم الصفات والأفعال فتنسب إليكم ثم ترجعون وتنتهون إليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب إليه فلا يبقى ملك إلا وهو لله سبحانه .

فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أولاً وآخرا فما عندكم من شيء في أول وجودكم هو الذي أعطاكموه وملكه لكم وهو أعلم بما أعطى وأودع ، وما عندكم من شيء حينما ترجعون إليه هو الذي يقبضه منكم إليه ويملكه فكيف لا يعلمه ، وانكشافه له سبحانه حينما يرجع إليه إنطاقه لكم وشهادتكم على أنفسكم عنده .

وبما مر من البيان يظهر وجه تقييد قوله : « وهو الذي خلقكم » بقوله : « أول مرة » فالمراد به أول وجودهم .

ولهم في قوله : « قالوا أنطقنا الله » في معنى الإنطاق نظائر ما تقدم في قوله : « شهدت عليهم» من الأقوال فمن قائل: إن الله يخلق لهم يومئذ العلم والقدرة على النطق فينطقون ، ومن قائل : إنه يخلق عند الأعضاء أصواتا شبيهة بنطق الناطقين وهو المراد بنطقهم ، ومن قائل : إن المراد بالنطق دلالة ظاهر الحال على ذلك .

وكذا في عموم قوله : « أنطق كل شيء » فقيل : هو مخصص بكل حي نطق إذ

ليس كل شيء ولا كل حي ينطق بالنطق الحقيقي ومثل هـذا التخصيص شائع ومنه قوله تعالى في الريح المرسلة إلى عاد : « تدمر كل شيء » الأحقاف : ٢٥ .

وقيل : النطق في « أنطقنا » بمعناه الحقيقي وفي قوله : « أنطق كل شيء» بمعنى الدلالة فيبقى الإطلاق على حاله .

ويرد عليها أن تخصيص الآية او حملها على المعنى المجازي مبني على تسلم كون غير ما نعده من الأشياء حيا ناطقا كالإنسان والحيوان والملك والجن فاقداً للعلم والنطق على ما نراه من حالها .

لكن لا دليل على فقدان الأشياء غير ما استثنيناه للشعور والإرادة سوى أنا في حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الإطلاع على حقيقة حالها ، والآيات القرآنية وخاصة الآيات المتعرضة لشئون يوم القيامة ظاهرة في عموم العلم .

﴿ بحث إجمالي قرآني ﴾

كررنا الإشارة في الأبحاث المتقدمة الى أن الظاهر من كلامه تعالى أن العلم سار في الموجودات عامة كما تقدم في تفسير قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٤٤ فإن قوله : « ولكن لا تفقهون » نعم الدليل على كون التسبيح منهم عن علم وإرادة لا بلسان الحال .

ومن هذا القبيل قوله : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقد تقدم تفسيره في السورة .

ومن هذا القبيل قوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الأحقاف : ٦ فالمراد بمن لا يستجيب الأصنام فقط أو هي وغيرها ، وقوله : « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » الزلزال : ٥ .

ومن هذا القبيل الآيات الدالة على شهادة الأعضاء ونطقها وتكليمها لله والسؤال

منها وخاصة ما ورد في ذيل الآيات الماضية آنفا من قوله : « أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الآية .

لا يقال : لو كان غير الإنسان والحيوان كالجماد والنبات ذا شعور وإرادة لبانت آثاره وظهر منها ما يظهر من الإنسان والحيوان من الأعمال العلمية والأفعال والانفعالات الشعورية .

لأنه يقال : لا دليل على كون العلم ذا سنخ واحد حتى تتشابه الآثار المترشحة منه فمن الممكن أن يكون ذا مراتب مختلفة تختلف باختلافها آثارها .

على أن الآثار والأعمال العجيبة المتقنة المشهودة من النبات وسائر الأنواع الطبيعية في عالمنا هذا لا تقصر في إتقانها ونظمها وترتيبها عن آثار الأحياء كالإنسان والحيوان.

﴿ بحث إجمالي فلسفي ﴾

حقق في مباحث العلم من الفلسفة أن العلم وهو حضور شيء لشيء يساوق الوجود المجرد لكونه ما له من فعلية الكمال حاضراً عنده من غير قوة فكل وجود مجرد يمكنه أن يوجد حاضر المجرد غيره أو يوجد له مجرد غيره وما أمكن لمجرد بالإمكان العام فهو له بالضرورة .

فكل عالم فهو مجرد وكذا كل معلوم وينعكسان بعكس النقيض إلى أن المادة وما تألف منها ليس بعالم ولا معلوم .

فالعلم يساوق الوجود المجرد ، والوجودات المادية لا يتعلق بها علم ولا لها علم بشيء لكن لها ، على كونها مادية متغيرة متحركة لا تستقر على حال ، ثبوتا من غير تغير ولا تحول لا ينقلب عما وقع عليه .

فلها من هذه الجهة تجرد والعلم سار فيها كما هو سار في المجردات المحضة العقلية المثالية فافهم ذلك .

قوله تعالى : «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم»

الخ لا شك أن الله سبحانه خالق كل شيء لا موجد غيره فلا يحول بين خلقه وبينه شيء ولا يحجب خلقه من حاجب فهو تعالى مع كل شيء أينما كان وكيفما كان قال تعالى : « إن الله على كل شيء شهيد » الحج : ١٧ وقال : « وكان الله على كل شيء رقيبا » الأحزاب : ٥٢ .

فالإنسان أينما كان كان الله معه ، وأي عمل عمله كان الله مع عمله ، وأي عضو من أعضائه استعمله وأي سبب أو أداة أو طريق اتخذه لعمله كان مع ذلك العضو والسبب والأداة والطريق قال تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ ، وقال : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ ، وقال : « إن ربك لبالمرصاد » الفجر : ١٤ .

ومن هنا يستنتج أن الإنسان ـ وهو جار في عمله ـ واقع بين مراصد كثيرة يرصده من كل منها ربه ويرقبه ويشهده فمرتكب المعصية وهو متوغل في سيئته غافل عنه تعالى في جهل عظيم بمقام ربه واستهانة به سبحانه وهو يرصده ويرقبه .

وهذه الحقيقة هي التي تشير إليه الآية أعني قوله : « وما كنتم تستترون » الخ على ما يعطيه السياق .

فقوله : « وما كنتم تستترون » نفي لاستتارهم وهم في المعاصي قبلا وهم في الدنيا وقوله : « أن يشهد » الخ منصوب بنزع الخافض والتقدير من أن يشهد الخ .

وقوله : « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم » استدراك في معنى الإضراب عن محذوف يدل عليه صدر الآية ، والتقدير ولم تظنوا أنها لا تعلم أعمالكم ولكن ظننتم الخ والآية تقريع وتوبيخ للمشركين أو لمطلق المجرمين يوجه إليهم يوم القيامة من قبله تعالى.

ومحصل المعنى وما كنتم تستخفون في الدنيا عند المعاصي من شهادة أعضائكم التي تستعملونها في معصية الله ولم يكن ذلك لظنكم أنها لا إدراك فيها لعملكم بل لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أي لم تستهينوا عند المعصية بشهادة أعضائكم وإنما استهنتم بشهادتنا .

فالاستدراك ومعنى الإضراب في الآية نظير ما في قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » الأنفال : ١٧ ، وقوله : « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم

يظلمون » البقرة : ٥٧ .

وقوله : « كثيراً مما تعملون » ولم يقل : لا يعلم ما تعملون ولعل ذلك لكونهم معتقدين بالله وبصفاته العليا التي منها العلم فهم يعتقدون فيه العلم في الجملة لكن حالهم في المعاصي حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله .

ويستفاد من الآية أن شهادة الشهود شهادته تعالى بوجه قال تعالى : « ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه » يونس : ٦١ .

ولهم في توجيه معنى الآية أقوال اخر لا يساعد عليها السياق ولا تخلو من تكلف أضربنا عن التعرض لها .

قوله تعالى : « وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » الإرداء من الردى بمعنى الهلاك ، و « ذلكم ظنكم » مبتدء وخبر و « أرداكم » خبر بعد خبر ، ويمكن أن يكون « ظنكم » بدلا من ذلكم .

ومعنى الآية على الأول وذلكم الظن الذي ذكر ظن ظننتموه لا يغني من الحق شيئاً والعلم والشهادة على حالها أهلككم ذلك الظن فأصبحتم من الخاسرين .

وعلى الثاني وظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم إذ هون عليكم أمر المعاصي وأدى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين .

قوله تعالى : « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين » في المفردات : الثواء الإقامة مع الاستقرار . انتهى ، وفي المجمع الاستعتاب طلب العتبى وهي الرضا وهو الاسترضاء ، والإعتاب الإرضاء ، وأصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الإلفة . انتهى .

ومعنى الآية فإن يصبروا فالنار مأواهم ومستقرهم وإن يطلبوا الرضى ويعتذروا لينجوا من العذاب فليسوا ممن يرضى عنهم ويقبل إعتابهم ومعذرتهم فالآية في معنى قوله : « اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم » الطور : ١٦ .

قوله تعالى : « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » إلى آخر

الآية . أصل التقييض – كما في المجمع – التبديل، والقرناء جمع قرين وهو معروف .

فقوله : « وقيضنا لهم قرناء » إشارة إلى أنهم لو آمنوا واتقوا لأيدهم الله بمن يسددهم ويهديهم كما قال : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وايدهم بروح منه » المجادلة: ٢٢ لكنهم كفروا وفسقوا فبدل الله لهم قرناء من الشياطين يقارنونهم ويلازمونهم ، وإنما يفعل ذلك بهم مجازاة لكفرهم وفسوقهم .

وقيل : المعنى بدلناهم قرناء سوء من الجن والإنس مكان قرناء الصدق الذين امروا بمقارنتهم فلم يفعلوا ، ولعل ما قدمناه أحسن .

وقوله : « فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » لعل المراد التمتعات المادية التي هم مكبون عليها في الحال وما تعلقت به آمالهم وأمانيهم في المستقبل .

وقيل : ما بين أيديهم ما قدموه من أعمالهم السيئة حتى ارتكبوها ، وما خلفهم ما سنوه لغيرهم ممن يأتي بعدهم ، ويمكن إدراج هذا الوجه في سابقه .

وقيل : ما بين أيديهم هو ما يحضرهم من أمر الدنيا فيؤثرونه ويقبلون إليه ويعملون له، وما خلفهم هو أمر الآخرة حيث يدعوهم قرناؤهم إلى أنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جنة ولا نار، وهو وجه بعيد إذ لا يقال لمن ينكر الآخرة أنها زينت له.

وقوله : « وحق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس » أي ثبت ووجب عليهم كلمة العذاب حال كونهم في امم مماثلين لهم ماضين قبلهم من الجن والإنس ، وكلمة العذاب قوله تعالى : « والذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ كقوله : « لأملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين» ص: ٨٥ . وقوله : « إنهم كانوا خاسرين » تعليل لوجوب كلمة العذاب عليهم أو لجميع ما تقدم .

ويظهر من الآية أن حكم الموت جار في الجن مثل الإنس .

﴿ بحث روائي ﴾

في الفقيه عن أمير المؤمنين عليه‌السلام في وصيته لابن الحنفية : قال الله تعالى : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم » يعني بالجلود الفروج.

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه‌السلام في الآية: يعني بالجلود الفروج والأفخاذ .

وفي المجمع قال الصادق عليه‌السلام : ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفا كأنه يشرف على النار، ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة إن الله تعالى يقول : « وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم » الآية ، ثم قال : إن الله عند ظن عبده إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

وفي تفسير القمي بإسناده عن عبد الرحمان بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه‌السلام في حديث قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ليس من عبد يظن بالله عز وجل خيراً إلا كان عند ظنه به وذلك قوله عز وجل : « وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم » الآية .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والطبراني وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله عز وجل قال الله : « وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

أقول : وقد روي في سبب نزول بعض الآيات السابقة ما لا يلائم سياقها تلك الملاءمة ولذلك أغمضنا عن إيراده .

* * *

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ـ ٢٦ . فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ـ ٢٧ . ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ

الْخُلْدِ جَزاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ـ ٢٨ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدامِنَا
لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ـ ٢٩ . إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي
كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ـ ٣٠ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ـ ٣١ .
نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ـ ٣٢ . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ
وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ـ ٣٣ . وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ
السَّيِّئَةُ إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ ـ ٣٤ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ
عَظِيمٍ ـ ٣٥ . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ـ ٣٦ . وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ
تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ـ ٣٧ . فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ـ ٣٨ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ

خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ ٣٩ .

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى حديث كفرهم بالقرآن المذكور في أول السورة وذكر كيدهم لإبطال حجته ، وفي الآيات ذكر الكفار وبعض ما في عقبى ضلالتهم وأهـــل الاستقامة من المؤمنين وبعض ما لهم في الآخرة ومتفرقات اخر .

قوله تعالى : «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» اللغو من الأمر ما لا أصل له ومن الكلام ما لا معنى له يقال: لغى يلغى ويلغو لغواً أي أتى باللغو ، والإشارة إلى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم بالقرآن لإعفاء أثره .

والآية تدل على نهاية عجزهم عن مخاصمة القرآن بإتيان كلام يعادله ويماثله أو إقامة حجة تعارضه حتى أمر بعضهم بعضاً أن لا ينصتوا له ويأتوا بلغو الكلام عند قراءة النبي ﷺ القرآن ليختل به قراءته ولا تقرع أسماع الناس آياته فيلغو أثره وهو الغلبة .

قوله تعالى : « فلنذيقن الذين كفروا عـذابا شديداً » الخ اللام للقسم ، والمراد بالذين كفروا بحسب مورد الآية هم الذين قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن وإن كانت الآية مطلقة بحسب اللفظ .

وقوله : « ولنجزينهم أسوء الذي كانوا يعملون» قيل : المراد العمل السيىء الذي كانوا يعملون بتجريد أفعل عن معنى التفضيل ، وقيل : المراد بيان جزاء ما هو أسوء أعمالهم وسكت عن الباقي مبالغة في الزجر .

قوله تعالى : « ذلك جزاء أعداء الله النار » الخ « ذلك جزاء » مبتدء وخبر و « النار » بدل أو عطف بيان من « ذلك » أو خبر مبتدء محذوف والتقدير هي النار أو مبتدء خبره « لهم فيها دار الخلد » .

وقوله : « لهم فيها دار الخلد » أي النار محيطة بهم جميعا ولكل منهم فيها دار

تخصه خالداً فيها .

وقوله : « جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون » مفعول مطلق لفعل مقدر ، والتقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدم أعني قوله : « ذلك جزاء » نظير قوله : « فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » أسرى : ٦٣ .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس » محكي قول يقولونه وهم في النار ، يسألون الله أن يريهم متبوعيهم من الجن والإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالاً لهما وتشديداً لعذابهما كما يشعر به قولهم ذيلا: « نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة » الخ قال الراغب : الاستقامة تقال في الطريق الذي يكون على خط مستو ، وبه شبه طريق الحق نحو « اهدنا الصراط المستقيم » . قال : واستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . انتهى . وفي الصحاح : الاستقامة الاعتدال يقال : استقام له الأمر . انتهى .

فالمراد بقوله : «ثم استقاموا» لزوم وسط الطريق من غير ميل وانحراف والثبات على القول الذي قالوه ، قال تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » التوبة : ٧ وقال : « واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » الشورى: ١٥ وما ورد فيها من مختلف التفاسير يرجع إلى ما ذكر .

والآية وما يتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سوء حال الكافرين .

وقوله: « تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » إخبار عما سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم وتطييب نفوسهم والبشرى بالكرامة .

فالملائكة يؤمنونهم من الخوف والحزن ، والخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذي يخافونه والحرمان من الجنــة الذي يخشونه ، والحزن إنما يكون من

مكروه واقع وشر لازم كالسيئات التي يحزنون من اكتسابها والخيرات التي يحزنون لفوتها عنهم فيطيب الملائكة أنفسهم أنهم في أمن من أن يخافوا شيئاً أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم والعذاب مصروف عنهم .

ثم يبشرونهم بالجنة الموعودة بقولهم : « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » وفي قولهم : « كنتم توعدون » دلالة على أن تنزلهم بهذه البشرى عليهم إنما هو بعد الحياة الدنيا.

قوله تعالى : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الخ من تتمة البشارة ، وعلى هذا فذكر ولايتهم لهم في الحياة الدنيا مع انقضاء وقتها كما تقدم من باب التوطئة والتمهيد إلى ذكر الآخرة للاشارة إلى أن ولاية الآخرة مترتبة على ولاية الدنيا فكأنه قيل : نحن أولياؤكم في الآخرة كما كنا ـ لما كنا ـ أولياءكم في الحياة الدنيا وسنتولى أمركم بعد هذا كما توليناه قبل .

وكون الملائكة أولياء لهم لا ينافي كونه تعالى هو الولي لأنهم وسائط الرحمة والكرامة ليس لهم من الأمر شيء ، ولعل ذكر ولايتهم لهم في الآية دون ولايته تعالى للمقابلة والمقايسة بين أوليائه تعالى وأعدائه إذ قال في حق أعدائه : « وقيضنا لهم قرناء » الخ وقال في حق أوليائه عن لسان ملائكته : « نحن أولياؤكم » .

وبالمقابلة يستفاد أن المراد ولايتهم لهم بالتسديد والتأييد فإن الملائكة المسددين هم المخصوصون بأهل ولاية الله ، وأما الملائكة الحرس وموكلوا الأرزاق والآجال وغيرهم فمشتركون بين المؤمن والكافر .

وقيل : الآية من كلام الله دون الملائكة .

وقوله : « ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون » ضمير « فيها » في الموضعين للآخرة ، وأصل الشهوة نزوع النفس بقوة من قواها إلى ما تريده تلك القوة وتلتذ به كشهوة الطعام والشراب والنكاح ، وأصل الإدعاء ـ وهو افتعال من الدعاء ـ هو الطلب فالجملة الثانية أعني قوله : « ولكم فيها ما تدعون » أوسع نطاقا من الاولى أعني قوله : « لكم فيها ما تشتهي أنفسكم » فإن الشهوة طلب خاص ومطلق الطلب أعم منها .

فالآية تبشرهم بأن لهم في الآخرة ما يمكن أن تتعلق به شهواتهم من أكل وشرب ونكاح وغير ذلك بل ما هو أوسع من ذلك وأعلى كعبا وهو أن لهم ما يشاؤن فيها كما قال تعالى : « لهم ما يشاؤن فيها » ق : ٣٥ .

قوله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين » للآية اتصال بقوله السابق : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » الآية فإنهم كانوا يخاصمون النبي ﷺ كما ينازعون القرآن ، وقد ذكر في أول السورة قولهم : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » الآية فأيد سبحانه في هذه الآية نبيه بأن قوله وهو دعوته أحسن القول .

فقوله : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله » المراد به النبي ﷺ وإن كان لفظ الآية يعم كل من دعا إلى الله ولما أمكن أن يدعو الداعي إلى الله لغرض فاسد وليست الدعوة التي هذا شأنها من القول الأحسن قيده بقوله : « وعمل صالحا » فإن العمل الصالح يكشف عن نية صالحة غير أن العمل الصالح لا يكشف عن الاعتقاد الحق والإلتزام به ، ولا حسن في قول لا يقول به صاحبه ولذا قيده بقوله : « وقال إنني من المسلمين » والمراد بالقول الرأي والاعتقاد على ما يعطيه السياق .

فإذا تم الإسلام لله والعمل الصالح للإنسان ثم دعا إلى الله كان قوله أحسن القول لأن أحسن القول أحقه وأنفعه ولا قول أحق من كلمة التوحيد ولا أنفع منها وهي الهادية للإنسان إلى حاق سعادته .

قوله تعالى : « لا تستوي الحسنة ولا السيئة » الآية لما ذكر أحسن القول وأنه الدعوة إلى الله والقائم به حقا هو النبي ﷺ التفت إليه ببيان أحسن الطريق إلى الدعوة وأقربها من الغاية المطلوبة منها وهي التأثير في النفوس فخاطبه بقوله : « لا تستوي » الخ .

فقوله : « لا تستوي الحسنة ولا السيئة » أي الخصلة الحسنة والسيئة من حيث حسن التأثير في النفوس ، و « لا » في « ولا السيئة » زائدة لتأكيد النفي .

وقوله : « ادفع بالتي هي أحسن » استئناف في معنى دفع الدخل كأن المخاطب لما سمع قوله : « لا تستوي » الخ قال : فما ذا أصنع ؟ فقيل : « ادفع » الخ والمعنى

ادفع بالخصلة التي هي أحسن الخصلة السيئة التي تقابلها وتضادها فادفع بالحق الذي عندك باطلهم لا بباطل آخر وبحلمك جهلهم وبعفوك إساءتهم وهكذا .

وقوله: «فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» بيان لأثر الدفع بالأحسن ونتيجته، والمراد أنك إن دفعت بالتي هي أحسن فاجأك أن عدوك صار كأنه ولي شفيق. قيل: « الذي بينك وبينه عداوة » أبلغ من «عدوك» ولذا اختاره عليه مع اختصاره .

ثم عظم الله سبحانه الدفع بالتي هي أحسن ومدحه أحسن لتعظيم وأبلغ المدح بقوله : « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » أي ذو نصيب وافر من كمال الإنسانية وخصال الخير .

وفي الآية مع ذلك دلالة ظاهرة على أن الحظ العظيم إنما يوجد لأهل الصبر خاصة .

قوله تعالى: «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم» النزغ النخس وهو غرز جنب الدابة أو مؤخرها بقضيب ونحوه ليهيج ، و « ما » في « إما ينزغنك » زائدة والأصل وإن ينزغنك فاستعذ .

والنازغ هو الشيطان أو تسويله ووسوسته ، والأول هو الأنسب لمقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنه لا سبيل للشيطان إليه بالوسوسة غير أنه يمكن أن يقلب له الامور بالوسوسة على المدعوين من أهل الكفر والجحود فيبالغوا في جحودهم ومشاقتهم وإيذائهم له فلا يؤثر فيهم الدفع بالأحسن ويؤول هذا إلى نزغ من الشيطان بتمديد العداوة في البين كما في قوله : « من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي » يوسف: ١٠٠ ، قال تعالى: « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » الآية الحج: ٥٢.

ولو حمل على الوجه الثاني فالمتعين حمله على مطلق الدستور تتميماً للأمر ، وهو بوجه من باب « إياك أعني واسمعي يا جارة » .

وقوله : « فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » لعوذ والعياذ بكسر العين والمعاذ والاستعاذة بمعنى وهو الالتجاء والمعنى فالتجىء بالله من نزغه إنه هو السميع لمسألتك العليم بحالك أو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم .

قوله تعالى: « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » الخ لما ذكر سبحا

كون دعوته ﷺ أحسن القول ووصاه أن يدفع بأحسن الخصال عاد إلى أصل الدعوة فاحتج على الوحدانية والمعاد في هذه الآيات الثلاث .

فقوله : « ومن آياته الليل والنهار » الخ احتجاج بوحدة التدبير واتصاله على وحدة الرب المدبر ، وبوحدة الرب على وجوب عبادته وحده، ولذلك عقبه بقوله « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » الخ .

فالكلام في معنى دفع الدخل كأنه لما قيل : « ومن آياته الليل والنهار » الخ فأثبت وحدته في ربوبيته قيل : فماذا نصنع ؟ فقيل « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر هما مخلوقان مدبران من خلقه بل خصوه بالسجدة واعبدوه وحده ، وعامة الوثنيين كانوا يعظمون الشمس والقمر وإن لم يعبدهما غير الصابئين على ما قيل ، وضمير « خلقهن » لليل والنهار والشمس والقمر .

وقوله : « إن كنتم إياه تعبدون » أي إن عبادته لا تجامع عبادة غيره .

قوله تعالى : « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار لا يسأمون » السأمة الملال ، والمراد « بالذين عند ربك » الملائكة والمخلصون من عباد الله وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير قوله : « إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » الأعراف : ٢٠٦ .

وقوله : « يسبحون له » ولم يقل : يسبحونه للدلالة على الحصر والاختصاص أي يسبحونه خاصة ، وقوله : « بالليل والنهار » أي دائماً لا ينقطع فإن الملائكة ليس عندهم ليل ولا نهار .

والمعنى: فإن استكبر هؤلاء الكفارعن السجدة لله وحده فعبادته تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبحه تسبيحاً دائماً لا ينقطع من غير سأمة وهم الذين عند ربك .

قوله تعالى : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » الخ الخشوع التذلل ، والاهتزاز التحرك الشديد ، والربو النشوء والنماء والعلو ، واهتزاز الأرض وربوها تحركها بنباتها وارتفاعه .

وفي الآية استعارة تمثيلية شبهت فيها الأرض في جدبها وخلوها عن النبات ثم خضرارها ونمو نباتها وعلوه بشخص كان وضيع الحال رث الثياب متذللا خاشعا ثم أصاب مالا يقيم أوده فلبس أفخر الثياب وانتصب ناشطا متبختراً يعرف في وجهه نضرة النعيم .

والآية مسوقة للاحتجاج على المعاد ، وقد تكرر البحث عن مضمونها في السور المتقدمة .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « أرنا اللذين أضلانا » يعنون إبليس الأبالسة وقابيل بن آدم أول من أبدع المعصية . روى ذلك عن علي عليه‌السلام .

اقول : ولعله من نوع الجري فالآية عامة .

وفيه في قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » روي عن أنس قال : قرء علينا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم هذه الآية ثم قال : قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها .

وفيه في قوله تعالى : «تتنزل عليهم الملائكة» يعني عند الموت عن مجاهد والسدي وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه‌السلام .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » قال : كنا نحرسكم من الشياطين « وفي الآخرة » أي عند الموت .

وفي المجمع في الآية قيل : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » أي نحرسكم في الدنيا وعند الموت في الآخرة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن » قال : ادفع سيئة من أساء إليك بحسنتك حتى يكون الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

* * *

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النار

خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ اعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ـ ٤٠ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّٰا جٰاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ ـ ٤١ . لاٰ يَأْتِيهِ الْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ـ ٤٢ . مٰا يُقٰالُ لَكَ إِلاّٰ مٰا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقٰابٍ أَلِيمٍ ـ ٤٣ . وَلَوْ جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقٰالُوا لَوْلاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفٰاءٌ وَالَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ ـ ٤٤ . وَلَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ـ ٤٥ . مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا وَمٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ ـ ٤٦ . إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّٰاعَةِ وَمٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَمٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَلاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰائِي قٰالُوا آذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ ـ ٤٧ . وَضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ـ ٤٨ . لاٰ يَسْئَمُ الْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ ـ ٤٩ .

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ - ٥٠ . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ - ٥١ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ - ٥٢ . سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ - ٥٣ . أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ - ٥٤ .

﴿ بيان ﴾

عودة اخرى إلى حديث القرآن وكفرهم به على ظهور آيته ورفعة درجته وما فرطوا في جنبه ورميهم النبي ﷺ وجحدهم الحق وكفرهم بالآيات وما يتبع ذلك ، وتختتم السورة .

والآية الاولى أعني قوله : « إن الذين يلحدون في آياتنا » الآية كالبرزخ الرابط بين هذا الفصل والفصل السابق من الآيات لما وقعت بين قوله : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم » الآية وبين قوله : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن» الآية وقوله: « ومن آياته الليل والنهار » الخ .

قوله تعالى : « إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا » الخ سياق تهديد

للمحدي هذه الأمة كما يؤيده الآية التالية ، والإلحاد الميل .

وإطلاق قوله : « يلحدون » وقوله : « آياتنا » يشمل كل إلحـــاد في كل آية فيشمل الإلحاد في الآيات التكوينية كالشمس والقمر وغيرهما فيعدونها آيات لله سبحانه ثم يعودون فيعبـدونها ، ويشمل آيات الوحي والنبوة فيعدون القرآن افتراء على الله وتقولاً من النبي ﷺ أو يلغون فيه لتختل تلاوته فلا يسمعه سامع أو يفسرونه من عند أنفسهم أو يؤولونه ابتغـاء الفتنة فكل ذلك إلحـاد في آيات الله بوضعها في غير موضعها والميل بها إلى غير مستقرها .

وقوله : «أفمن يلقي في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة» إيذان بالجزاء وهو الإلقاء في النـــار يوم القيامة قسرا من غير أي مؤمن متوقع كشفيع أو ناصر أو عذر مسموع فليس لهم إلا النار يلقون فيها، والظاهر أن قوله «أم من يأتي آمنا يوم القيامة» لإبانة أنهما قبيلان لا ثالث لهما فمستقيم في الإيمـان بالآيات وملحد فيها ويظهر به أن أهل الاستقامة في أمن يوم القيامة .

وقوله : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » تشديد في التهديد .

قوله تعالى : «إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم – إلى قوله – من حكيم حميد» المراد بالذكر القرآن لما فيه من ذكر الله ، وتقييد الجملة بقوله : «لما جاءهم» يدل على أن المراد بالذين كفروا هم مشركوا العرب المعاصرين للقرآن من قريش وغيرهم .

وقد اختلفوا في خبر «إن» ويمكن أن يستظهر من السياق أنه محذوف يدل عليه قوله : « إن الذين يلحدون في آياتنا » الخ فإن الكفر بالقرآن من مصاديق الإلحـاد في آيات الله فالتقدير إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يلقون في النار يوم القيامة ، وإنمـا حذف ليذهب فيه وهم السامع أي مذهب ممكن والكلام مسوق للوعيد .

وإلى هذا المعنى يرجع قول الزمخشري في الكشاف : إن قوله : « إن الذين كفروا » الخ بدل من قوله : « إن الذين يلحدون في آياتنا » .

وقيل : خبر إن قوله الآتي : « أولئك ينادون من مكان بعيد » ، وقيل : الخبر قوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » بحذف ضمير عائد إلى اسم إن

والتقدير لا يأتيه منهم أي لا يأتيه من قبلهم ما يبطله ولا يقدرون على ذلك أو يجعل أل في الباطل عوضا من الضمير والمعنى لا يأتيه باطلهم .

وقيل : إن قوله : « وإنه لكتاب عزيز » الخ قائم مقام الخبر ، والتقدير إن الذين كفروا بالذكر كفروا به وإنه لكتاب عزيز .

وقيل : الخبر قوله : « ما يقال لك » الخ بحذف الضمير وهو « فيهم » والمعنى ما يقال لك في الذين كفروا بالذكر إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن لهم عذاب الاستئصال في الدنيا وعذاب النار في الآخرة ، ووجوه التكلف في هذه الوجوه غير خفية على المتأمل البصير .

وقوله : « وإنه لكتاب عزيز » الضمير للذكر وهو القرآن ، والعزيز عديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب ، والمعنى الثاني أنسب لما يتعقبه من قوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

وقوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » إتيان الباطل إليه وروده فيه وصيرورة بعض أجزائه أو جميعها باطلا بأن يصير ما فيه من المعارف الحقة أو بعضها غير حقة أو ما فيه من الأحكام والشرائع وما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لغى لا ينبغي العمل به .

وعليه فالمراد بقوله : « من بين يديه ولا من خلفه » زمانا الحال والاستقبال أي زمان النزول وما بعده إلى يوم القيامة ، وقيل : المراد بما بين يديه ومن خلفه جميع الجهات ، كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله فهو مصون من البطلان من جميع الجهات وهذا العموم على الوجه الأول مستفاد من إطلاق النفي في قوله : « لا يأتيه » .

والمدلول على أي حال أنه لا تناقض في بياناته ، ولا كذب في أخباره ، ولا بطلان يتطرق إلى معارفه وحكمه وشرائعه ، ولا يعارض ولا يغير بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آية من وجه إلى وجه .

فالآية تجري مجرى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » الحجر : ٩ .

وقوله : « تنزيل من حكيم حميد » بمنزلة التعليل لكونه كتابا عزيزا لا يأتيه

الباطل «الخ» أي كيف لا يكون كذلك وهو منزل من حكيم متقن في فعله لا يشوب فعله وهن ، محمود على الإطلاق .

قوله تعالى : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » الخ « ما » في « ما يقال لك » نافية ، والقائلون هم الذين كفروا حيث قالوا: إنه ساحر أو مجنون أو شاعر لاغ في كلامه أو يريد أن يتأمر علينا ، والقائلون لما قد قيل للرسل اممهم .

والمعنى: ما يقال لك من قبل كفار قومك حيث أرسلت إليهمفدعوتهم فرموك بما رموك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أي مثل ما قد قيل لهم .

وقوله : « إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » في موضع التهديد والوعيد أي إن ربك ذو هاتين الصفتين أي فانظر أو فلينظروا ماذا يصيبهم من ربهم وهم يقولون ما يقولونه لرسوله ؟ أهو مغفرة أم عقاب ؟ فالآية في معنى قوله : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » أي ما عملتم من حسنة أو سيئة أصابكم جزاؤه بعينه .

وقيل: المعنى ما يوحي إليك في أمر هؤلاء الذين كفروا بالذكر إلا ما قد أوحي للرسل من قبلك وهو أن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم فالمراد بالقول الوحي ، و « إن ربك » الخ بيان لما قد قيل .

قوله تعالى: «ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي» قال الراغب : العجمة خلاف الإبانة . قال : والعجم خلاف العرب والعجمي منسوب إليهم ، والأعجم من في لسانه عجمة عربيا كان أو غير عربي اعتبارا بقلة فهمهم عن العجم . انتهى . فالأعجمي غير العربي البليغ سواء كان من غير أهل اللغة العربية أو كان منهم وهو غير مفصح للكنة في لسانه ، وإطلاق الأعجمي على الكلام كإطلاق العربي من المجاز .

فالمعنى : ولو جعلنا القرآن أعجميا غير مبين لمقاصده غير بليغ في نظمه لقال الذين كفروا من قومك : هلا فصلت وبينت آياته وأجزاؤه فانفصلت وبانت بعضها من بعض بالعربية والبلاغة أكتاب مرسل أعجمي ومرسل إليه عربي ؟ أي يتنافيان ولا يتناسبان .

وإنما قال : « عربي » ولم يقل : عربيون أو عربية مع كون من أرسل إليه جمعاً وهم جماعة العرب ، إذ القصد إلى مجرد العربية من دون خصوصية للكثرة بل المراد بيان التنافي بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحداً أو كثيراً .

قال في الكشاف : فإن قلت : كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب ؟ قلت : هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً عجمياً كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة فوجب أن يجرد لما سيق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر ألا تراك تقول وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة : اللباس طويل واللابس قصير ولو قلت : واللابس قصيرة جئت بما هو لكنة وفضول قول لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته إنما وقع في غرض وراءهما .

وقوله : «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء» بيان أن أثر القرآن وخاصته لايدور مدار لغته بل الناس تجاهه صنفان وهم الذين آمنوا والذين لا يؤمنون ، وهو هدى وشفاء للذين آمنوا يهديهم إلى الحق ويشفي ما في قلوبهم من مرض الشك والريب. وهو عمى على الذين لا يؤمنون ـ وهم الذين في آذانهم وقر ـ يعميهم فلا يبصرون الحق وسبيل الرشاد.

وفي توصيف الذين لا يؤمنون بأن في آذانهم وقرا إيماء إلى اعترافهم بذلك المنقول عنهم في أول السورة : « وفي آذاننا وقر » .

وقوله : « أولئك ينادون من مكان بعيد » أي فلا يسمعون الصوت ولا يرون الشخص وهو تمثيل لحالهم حيث لا يقبلون العظة ولا يعقلون الحجة .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه » الخ تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن جحود قومه و كفرهم بكتابه .

وقوله: « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم » الكلمة هي قوله: « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » الأعراف : ٢٤ .

وقوله : « وإنهم لفي شك منه مريب » أي في شك مريب من كتاب موسى عليه السلام . بيان حال قومه ليتسلى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرى من قومه .

قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » الخ أي إن العمل قائم بصاحبه راجع له فلو كان صالحاً نافعاً انتفعت به نفسه وإن كان سيئاً ضاراً تضررت به نفسه فليس في إيصاله تعالى نفع العمل الصالح إلى صاحبه وهو الثواب ولا في إيصال ضرر العمل السيىء إلى صاحبه وهو العقاب ظلم ووضع للشيء في غير موضعه .

ولو كان ذلك ظلماً كان تعالى في إثابته وتعذيبه من لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من الأعمال ظلاّماً للعبيد لكنه ليس بظلم ولا أنه تعالى ظلاّم لعبيده وبذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله : « وما ربك بظلاّم للعبيد » ولم يقل : وما ربك بظالم .

قوله تعالى : « إليه يرد علم الساعة ـ إلى قوله ـ إلا بعلمه » ارتداد علم الساعة إليه اختصاصه به فلا يعلمها إلا هو ، وقد تكرر ذلك في كلامه تعالى .

وقوله : « وما تخرج من ثمرات من أكامها » « ثمرات » فاعل « تخرج » و « من » زائدة للتأكيد كقوله : « وكفى بالله شهيداً » النساء : ٧٩ ، وأكام جمع كم وهو وعاء الثمرة و « ما » مبتدء خبره « إلا بعلمه » والمعنى وليس تخرج ثمرات من أوعيتها ولا تحمل أنثى ولا تضع حملها إلا مصاحباً لعلمه أي هو تعالى يعلم جزئيات حالات كل شيء.

فهو تعالى على كونه خالقاً للأشياء محولاً لأحوالها عالم بها وبجزئيات حالاتها مراقب لها ، وهذا هو أحسن التدبير فهو الرب وحده ، ففي الآية إشارة إلى توحده تعالى في الربوبية والالوهية ، ولذا ذيّل هذا الصدر بقوله : « ويوم يناديهم أين شركائي » الخ .

قوله تعالى : «ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنّاك ما منا من شهيد ـ إلى قوله ـ من محيص » الظرف متعلق بقوله : « قالوا » وقيل: ظرف لمضمر مؤخر قد ترك إيذاناً بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى : « ويوم يجمع الله الرسل » ، وقيل: متعلق بمحذوف نحو اذكر ، ولعل الوجه الأول أنسب لصدر الآية بالمعنى الذي ذكرناه فتكون الآية مسوقة لنفي الشركاء ببيان قيام التدبير به تعالى واعتراف المشركين بذلك يوم القيامة.

والإيذان الإعلام ، والمراد بالشهادة الشهادة القولية أو الشهادة بمعنى الرؤية الحضورية وعلى الثاني فقوله : « وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل » عطف تفسير يبيّن به سبب انتفاء الشهادة .

وقوله : «وظنوا ما لهم من محيص» الظن ـ على ما قيل ـ بمعنى اليقين، والمحيص المهرب والمفر، والمعنى: ويوم ينادي الله المشركين : أين شركائي؟ ـ على زعمكم ـ قالوا: أعلمناك ما منا من يشهد عليك بالشركاء ـ أو ما منا من يشاهد الشركاء وغاب عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في الدنيا ، وأيقنوا أن ليس لهم مهرب من العذاب .

قوله تعالى : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط » السأمة الملال ، واليأس والقنوط بمعنى وهو انقطاع الرجاء ، والدعاء الطلب .

شروع في ختم الكلام في السورة ببيان ما هو السبب في جحودهم ودفعهم الحق الصريح ، وهو أن الإنسان مغتر بنفسه فـإذا مسه شر يعجز عن دفعه يئس من الخير وتعلق بذيل الدعاء والمسألة وتوجه إلى ربه ، وإذا مسه خير اشتغل به وأعجب بنفسه وأنساه ذلك كل حق وحقيقة .

والمعنى : لا يمل الإنسان من طلب الخير وهو ما يراه نافعاً لحياته ومعيشته وإن مسه الشر فكثير اليأس والقنوط لما يرى من سقوط الأسباب التي كان يستند إليها ، وهذا لا ينافي تعلق رجائه إذ ذاك بالله سبحانه كما سيأتي .

قوله تعالى : « ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي » الخ الأصل بالنظر إلى مضمون الآية السابقة أن يقال : وإن ذاق خيراً قال : هذا لي لكن بدّل ذاق من « أذقناه » و « خيراً » من قوله : « رحمة منا » ليدل على أن الخير الذي ذاقه هو رحمة من الله أذاقه إياها وليس بمصيبة برأسه ولا هو يملكه ولو كان يملكه لم ينفك عنه ولم يمسسه الضراء ، ولذا قيد قوله : « ولئن أذقناه » الخ بقوله : « من بعد ضراء مسته » .

وقوله : « ليقولن هذا لي » أي أنا أملكه فلي أن أفعل فيه ما أشاء وأتصرف فيه كيف أريد، فليس لأحد أن يمنعني من شيء منه أو يحاسبني على فعل ، ولهذا المعنى عقبه بقوله : « وما أظن الساعة قائمة » فإن الساعة هي يوم الحساب .

وقوله : « ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » أي للمثوبة الحسنى أو للعاقبة الحسنى ، وهذا مبني على مـا يراه لنفسه من الكرامة واستحقاق الخير كأنه يقول : ما ملكته من الخير لو كان من الله فإنما هو لكرامة نفسي عليه وعلى هذا فإن قامت الساعة ورجعت إلى ربي كانت لي عنده العاقبة الحسنى .

فالمعنى: وأقسم لئن أذقنا الإنسان رحمة هي منا ولا يستحقها ولا يملكها فأذقناها من بعد ضراء مسته وذلك يدله على أنه لا يملك ما أذيقه نسي ما كان من قبل وقال: هذا لي ـ يشير إلى شخص النعمة ولا يسميها رحمة ـ وليس لأحد أن يمنعني عما أفعل فيه ويحاسبني عليه وما أظن الساعة ـ وهي يوم الحساب ـ قائمة، وأقسم لئن رجعت إلى ربي وقامت ساعة كانت لي عنده العاقبة الحسنى لكرامتي عليه كما أنعم عليّ من النعمة.

والآية نظيرة قوله في قصة صاحب الجنة : « ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً » الكهف : ٣٦ . وقد تقدم بعض الكلام فيه .

وقوله: «فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ» تهديد ووعيد.

قوله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآ بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » النأي الابتعاد ، والمراد بالجانب الجارحة وهي الجنب أو المراد الجهة والمكان فقوله : « نآى بجانبه » كناية عن الابتعـــاد بنفسه وهو كناية عن التكبر والخيلاء ، والمراد بالعريض الوسيع ، والدعاء العريض كالدعاء الطويل كناية عما استمر وأصر عليه الداعي ، والآية في مقام ذم الإنسان وتوبيخه أنه إذا أنعم الله عليه أعرض عنه وتكبر وإذا سلب النعمة ذكر الله وأقبل عليه بالدعاء مستمراً مصراً .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به من أضـل ممن هو في شقاق بعيد » « أرأيتم » أي أخبروني ، والشقاق والمشاقـة الخلاف ، والشقاق البعيد الخلاف الذي لا يقارب الوفاق وهو شديده ، وقوله : « ممن هو في شقاق بعيد » كناية عن المشركين ولم يقل : منكم بل أتى بالموصول والصلة وذلك في معنى الصفة ليدل على علة الحكم وهو الشقاق البعيد من الحق .

والمعنى : قل للمشركين أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم بـه من أضل منكم ؟ أي لا أضل منكم لأنكم في خلاف بعيد من حق ما فوقه حق .

فمفاد الآية أن القرآن يدعوكم إلى الله ناطقاً بأنه من عند الله فلا أقل من احتمال صدقه في دعواه وهذا يكفي في وجوب النظر في أمره دفعاً للضرر المحتمل وأي ضرر أقوى من الهلاك الأبدي فلا معنى لإعراضكم عنه بالكلية .

قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » الخ ، الآفاق جمع أفق وهو الناحية ، والشهيد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود وهو المناسب لسياق الآية .

وضمير « إنه » للقرآن على ما يعطيه سياق الآية ويؤيده الآية السابقة التي تذكر كفرهم بالقرآن ، وعلى هذا فالآية تعد إراءة آيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين بها كون القرآن حقاً ، والآيات التي شأنها إثبات حقيّة القرآن هي الحوادث والمواعيد التي أخبر القرآن أنها ستقع كإخباره بأن الله سينصر نبيه ﷺ والمؤمنين ويمكن لهم في الأرض ويظهر دينهم على الدين كله وينتقم من مشركي قريش إلى غير ذلك .

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالهجرة إلى المدينة وقد اشتد الأمر عليه وعلى من آمن به غايتها فلا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم ثم قتل صناديد قريش في بدر ولم يزل يرفع ذكره ويفتح على يديه حتى فتح مكة ودانت له جزيرة العرب ثم فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعمورة فأرى سبحانه المشركين آياته في الآفاق وهي النواحي التي فتحها للمسلمين ونشر فيها دينهم ، وفي أنفسهم وهو قتلهم الذريع في بدر .

وليست هذه آيات في أنفسها فكم من فتح وغلبة يذكره التاريخ ومقاتل ذريعة يقصها لكنها آيات بما أن الله سبحانه وعد بها والقرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثم وقعت على ما أخبر بها .

ويمكن أن يكون المراد بإراءة الآيات وتبين الحق بذلك ما يستفاد من آيات أخرى أن الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كله فلا يعبد على الأرض إلا الله وحده وتظل السعادة على النوع الإنساني وهي الغاية خلقتهم ، وقد تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض » الآية النور : ٥٥ وغيره وأيدناه بالدليل العقلي .

والفرق بين الوجهين أن وجه الكلام على الأول إلى مشركي مكة ومن يتبعهم خاصة وعلى الثاني إلى مشركي الامة عامة والخطاب على أي حال اجتماعي ، ويمكن الجمع بين الوجهين .

ويمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظة من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام وتضل عنه الدعاوي وتبطل الأسباب ولا يبقى إلا الله عز اسمه

ويؤيده ذيل الآية والآية التالية ، وضمير « أنه الحق » على هذا لله سبحانه .

ولهم في الآية أقوال أخرى أغمضنا عن إيرادها .

وقوله : « أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » فاعل « لم يكف » هو « بربك » والباء زائدة ، و « أنه على كل شيء شهيد » بدل من الفاعل ، والاستفهام للإنكار ، والمعنى أولم يكف في تبين الحق كون ربك مشهوداً على كل شيء إذ ما من شيء إلا وهو فقير من جميع جهاته إليه متعلق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شيء وإن لم يعرفه بعض الأشياء .

واتصال الجملة أعني قوله : « أولم يكف بربك » الخ بقوله : « سنريهم » الخ على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضية ظاهر ، وأما على الوجهين الأولين فلعل الوجه فيه أن المشركين إنما كفروا بالقرآن لدعوته إلى التوحيد فانتقل من الدلالة على حقيّة القرآن للدلالة على حقيّة ما يدعو إليه إلى الدلالة على حقيّة ما يدعو إليه مستقيماً من غير واسطة كأنه قيل : سنريهم آياتنا ليتبين لهم أن القرآن الذي يخبرهم بها حق فيتبين أن ربك واحد لا شريك له ثم قيل : وهذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أولم يكفهم أن ربك مشهود على كل شيء ؟

قوله تعالى : « ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم » الخ الذي يفيده السياق أن في الآية تنبيهاً على أنهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيداً على كل شيء وهو أقوى براهين التوحيد وأوضحها لمن تعقّل لأنهم في مرية وشك من لقاء ربهم وهو كونه تعالى غير محجوب بصفاته وأفعاله عن شيء من خلقه .

ثم نبه بقوله : « ألا إنه بكل شيء محيط » على ما ترتفع به هذه المرية وتنبت من أصلها وهو إحاطته تعالى بكل شيء على ما يليق بساحة قدسه وكبريائه فلا يخلو عنه مكان وليس في مكان ولا يفقده شيء وليس في شيء .

وللمفسرين في الآية أقوال لو راجعتها لرأيت عجباً .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن عساكر عن عكرمة في قوله : « أفمن يلقى في النار

خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة » نزلت في عمار بن ياسر وفي أبي جهل .

أقول : ورواه أيضاً عن عدة من الكتب عن بشر بن تميم ، وروى أيضاً عن ابن مردويه عن ابن عباس « أفمن يلقى في النار » قال : أبو جهل بن هشام ، و « أم من يأتي آمناً يوم القيامة » قال : أبو بكر الصديق ، والروايات من التطبيق .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى : «إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم » يعني القرآن « لا يأتيه الباطل من بين يديه » قال : لا يأتيه الباطل من قبل التوراة ولا من قبل الإنجيل والزبور « ولا من خلفه » قال : لا يأتيه من بعده كتاب يبطله .

وفي المجمع في الآية قيل فيه أقوال - إلى أن قال - وثالثها معناه أنه ليس في إخباره عما مضى باطل ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « أعجمي وعربي » قال : لو كان هذا القرآن أعجميا لقالوا : كيف نتعلمه ولساننا عربي وأتيتنا بقرآن أعجمي فأحب الله أن ينزله بلسانهم وقد قال الله عز وجل : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » .

وفي روضة الكافي بإسناده عن الطيار عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قول الله عز وجل: « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » قال : خسف ومسخ وقذف . قال : قلت : « حتى يتبين لهم » قال : دع ذا ذاك قيام القائم .

وفي إرشاد المفيد عن علي بن أبي حمزة عن أبي الحسن موسى عليه‌السلام في الآية قال: الفتن في آفاق الأرض والمسخ في أعداء الحق .

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه‌السلام في الآية قال : يريهم في أنفسهم المسخ ، ويريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم فيرون قدرة الله عز وجل في أنفسهم وفي الآفاق . قلت له : حتى يتبين لهم أنه الحق ؟ قال : خروج القائم هو الحق عند الله عز وجل يراه الخلق .

تم والحمد لله

فهرس بعض المواضيع المبحوث عنها في هذا الجزء

رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	الصفحة
سورة فاطر ١	كلام في الملائكة .	قرآني	١٢
١٥ – ٢٦	كلام في معنى عموم الانذار .	عقلي	٣٨
الصافات ١–١١	كلام في معنى الشهب .	قرآني	١٢٤
١١٤ – ١٣٢	كلام في قصة الياس عليه السلام	قرآني وروائي	١٥٩
	١ ـ قصته في القرآن .	»	»
	٢ ـ الأحاديث فيه .	»	»
١٣٣ – ١٤٨	كلام في قصة يونس عليه السلام في فصول .	مختلط	١٦٥
	١ ـ قصته في القرآن .	»	»
	٢ ـ قصته عند أهل الكتاب .	»	١٦٧
	٣ ـ ثناؤه تعالى عليه .	»	١٦٩
سورة ص ١٧ – ٢٩	كلام في قصة داود عليه السلام في فصول .	قرآني	٢٠١
	١ ـ قصته في القرآن .	»	»
	٢ ـ جميل الثناء عليه .	»	»
	٣ ـ حول قصة المتخاصمين .	»	»
٤١ – ٤٨	كلام في قصة أيوب عليه السلام في فصول .	قرآني وروائي	٢١٢
	١ ـ قصته في القرآن .	»	»
	٢ ـ جميل ثنائه .	»	»
	٣ ـ قصته في الروايات .	»	»
	خبر اليسع وذي الكفل عليهما السلام .	روائي	٢١٦
سورة الزمر ١ – ١٠	كلام في معنى الرضا والسخط من الله .	عقلي وقرآني	٢٤٠
حم السجدة	كلام فيه تتميم في معنى السماء .	قرآني	٣٦٩
١ – ١١	بحث إجمالي في سراية العلم .	قرآني	٣٨١
١٣ – ٢٥	بحث إجمالي آخر في ذلك .	فلسفي	٣٨٢